الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي



بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۸

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ ت۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

ص: ۱

اشاره

سوره الحجر

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها تسع و تسعون آیه

ص :۵

محتوى السّوره:

المشـهور عند جل المفسّـرين أنّ سوره الحجر مكّيه،و هى السوره الثّانيه و الخمسون من السور التى نزلت على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّه المكرمه على ما ذكره ابن النـديم فى فهرسـته تحت موضوع تاريـخ القرآن،و عـدد آياتها تسع و تسعون آيه باتفاق كل المفسّرين.

و لم تشذ السوره فى سياقها و مضامينها عن السور المكّيه السابقه لها،و كما ذكرنا سابقا فإنّ السور المكّيه تشتمل على جمل من الكلام حول أصول الـدين كالتوحيـد و المعـاد،و إنـذار المشـركين و العاصـين و الظالمين،بالإضافه إلى ما يحمله تاريـخ الأقوام السالفه من دروس العبره للاعتبار.

و يمكننا تلخيص ما حوته السوره فى سبع نقاط:

١-الآيات المتعلقه بمبدإ عالم الوجود،و الإيمان به بالتدبر فى أسرار الإيجاد.

٢-الآيات المتعلقه بالمعاد و عقاب الفجره الفسقه.

٣-أهميه القرآن باعتباره كتابا سماويا.

۴-محاوله إيقاظ و تنبيه البشر من خلال طرح قصّه خلق آدم،و تمرد إبليس،و تبيان عاقبه التمرد.

۵-زیاده فی محاوله الإیقاظ و التنبیه من خلال عرض القصص القرآنی لما جری لأقوام لوط و صالح و شعیب علیهم السّلام.

۶-إنذار و بشاره،مواعظ لطیفه و تهدیدات عنیفه،إضافه إلی المرغبات المشوقه.

۷-مخاطبه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لتقویه صبره و ثباته قبال ما یحاک من دسائس،و بالذات ما کان یجری داخل إطار مکّه.

و قد اختیر اسم السوره من الآیه الثمانین التی ذکرت قوم صالح بأصحاب الحجر،علما بأنّ السوره تناولت ذلک فی خمس آیات،و هی السوره الوحیده فی القرآن التی ذکرتهم بهذه التسمیه،و سیأتی ذلک مفصلا فی تفسیر الآیات(۸۰- ۸۴)إن شاء اللّه.

الآيات [سوره الحجر (۱۵): الآيات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ الر تِلْكَ آيٰاتُ اَلْكِتٰابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (۱) رُبَمٰا يَوَدُّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كٰانُوا مُسْلِمِينَ (۲) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ اَلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۳) وَ مٰا أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّٰ وَ لَهٰا كِتٰابٌ مَعْلُومٌ (۴) مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا يَسْتَأْخِرُونَ (۵)

التّفسير

اشاره

الأمانی الزّائفه!

سوره أخری تفتتح بالحروف المقطعه(ألف،لام،وراء)لتبیّن من جدید أنّ مفردات کتاب نور السماء إلی ظلام أهل الأرض،ما هی إلّا عین تلک الأبجدیه التی تلوک ألفاظها ألسن کل البشر،صغیرهم و کبیرهم،بین مختلف اللغات،و مع ذلک فلا یستطیع أی مخلوق الوصول لبناء و ترکیب کلام القرآن،و هو ذروره التحدی الربانی المعجز،و علیه فقد جاءت تِلْكَ آيٰاتُ الْكِتٰابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ مباشره.

کما نعلم أنّ«تلک»اسم إشاره للبعید،و المفروض فی هذا الموضع استعمال اسم الإشاره(هذه)باعتباره یدل علی القرب،لأنّ القرآن کتاب بین أیدینا،إلّا إنّ

لغه العرب-كما بيّنا سابقا-تسمح بذلك لبيان عظمه المشار إليه،فالمراد أنّ لشأن القرآن عظمه،و كأنّه فی موضع بعيد جدّا بين طيات السماء،لا يناله إلاّ من ملك مستلزمات التحليق إليه.و يقارب ذلك ما نتداوله فيما بيّننا عند تعظيم شخص معين فنقول له مثلا:(إن سمح لنا ذلك السّيد أن...)فنستعمل(ذلک)مع كون الشخص مخاطبا.

و أمّا بشأن مجیء صيغه«قرآن»نكره فلبيان عظمته أيضا،و ذكر«القرآن» بعد«الكتاب»تأكيد،و وصفه بال«مبين»لأنّه يظهر الحقائق و يبيّن الحق من الباطل.

و أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المراد بكلمه«الكتاب»إشاره إلى التوراه و الإنجيل،فهو كما يبدو بعيد جدّا و يفتقد الى الدليل.

ثمّ يحذر الذين يصرون على الفساد و مخالفه آيات اللّه الجليه،و يخبر بأنّهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامه بما كسبت أيديهم من كفر و تعصب أعمى و عناد.و يقول: رُبَمٰا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كٰانُوا مُسْلِمِينَ .

فالمراد بكلمه«يود»التمنى حسب ما ورد فی تفسير الميزان،و ذكر كلمه «لو»للدلاله على تمنيهم الإسلام فی وقت لا يمكنهم فيه العوده إلى ما كانوا ينكرون،و هذه إشاره إلى أن تمنيهم سيكون فی العالم الآخر و بعد معاينه نتائج الأعمال.

و يؤيد هذا المعنى و ما

ورد عن الإمام الصّادق عليه السّلام قوله: «ينادی مناد يوم القيامه يسمع الخلائق إنّه لا يدخل الجنّه إلا مسلم،فثمّ يود سائر الخلائق أنّهم كانوا مسلمين». (1)

١- ١) -مجمع البيان،ج ٣،ص ٣٢٨،كذلك ورد الحديث الأوّل فی تفسير الثقلين عن تفسير العياشی،و أورد الفخر الرازی فی تفسيره حديثا يشابه الحديث الثّانی مع تفاوت يسير،و ذكر فی تفسير الطبری أيضا عدّه أحاديث فی مضمون الحديث الثّانی ضمن تفسير الآيه المذكوره.

و

روی أیضـا عن النّبی الأـکرم صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّه قـال: «إذا اجتمع أهـل النّـار فی النّار و معهم من یشاء اللّه من أهل القبله،قال الکفار للمسلمین:ألم تکونوا مسلمین، قالوا:بلی،قالوا:فما أغنی عنکم إسلامکم و قد صرتم معنا فی النّار؟قالوا:کانت لنا ذنوب(کبائر)فأخـذنا بها(و هـذا الاعتراف بالـذنب و التقصـیر و لوم الأعداء یکون سـببا لأن)یسـمع اللّه عزّ و جلّ ما قالوا فأمر من کان فی النّار من أهل الإسلام فأخرجوا منها فحینئذ یقول الکفار:یا لیتنا کنّا مسلمین». (۱)

و ربّما کان ظاهر الآیه یوحی إلی أولئک الکفره الذین ما زالت جذوه الفطره تسـری فی أعماق وجدانهم،و حینما لمسوا من نبی الإسـلام صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم تلک الآیات الرّبانیه التی تناغی أوتار القلوب،لانت قلوبهم و تمنوا أن لو یکونوا مسلمین،إلاّ أنّ تعصـبهم الأـعمی و عنـادهم القـائم،أو قـل منافعهم المادیه حجبتهم عن قبول دعوه الحق،و بـذلک بقوا بین قضـبان کفرهم و استحوذت علیهم أحابیل الکفر و الضلال.

ذکر لنا أحـد الأصدقاء من المؤمنین المجاهدین و کان قد سافر إلی أوروبا قائلا:ذات مرّه التقیت بأحد المسـیحیین-و کان رجلا منصـفا-و بعـد أن بیّنت له بعض خصـال دیننـا،استهوته و مـال إلیها قائلا:أهنئکم من أعماقی علی عظمه معتقـدکم،و لکن-ما ذا نصـنع مع الظروف الاجتماعیه التی أجبرتنا علی أن لا نحید عنها! و من تاریخ الإسـلام نطالع ما حصل لقیصـر الروم عند ما وصله رسول النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم،و یـذکر بأنّ القیصـر قـد أظهر الإیمان سـرّا للرسول حتی أنّه رغب فی دعوه قومه لدین التوحید إلاّ أنّه خاف قومه و فکر بامتحانهم ف(أمر منادیا ینادی:

ألا إنّ هرقل قد ترک النصرانیّه و اتبع دین محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فأقبل جنده بأسلحتهم حتی

۱- ۱) -المصدر السّابق.

طافوا بقصره،فأمر مناديه فنادى:ألا إنّ قيصر إنّما أراد أن يجرّبكم كيف صبركم على دينكم،فارجعوا فقد رضى عنكم.ثمّ قال للرسول:إنّى أخاف على ملكى.و إنّى لأعلم أنّ صاحبك نبىّ مرسل،و الذى كنّا ننتظره و نجده فى كتابنا،و لكنّى أخاف الروم على نفسى،و لو لا ذلك لاتبعته). (۱)

و على أيه حال،ينبغى التنويه بعدم وجود تعارض بين أىّ من التّفسيرين، فيمكن حمل الآيه على ندم بعض من الكافرين فى كلا العالمين(الدنيا و الآخره)، و اعتبار عدم استطاعتهم العوده إلى الإسلام فى حياتهم الدنيا و فى الآخره لجهات مختلفه-فتأمل.

ثمّ يأتى نداء السماء بلهجه لاذعه،يا محمّد ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ فهم كالأنعام التى لا تعرف سوى الحقل و العلف،و لا تفهم سوى اللّذات الماديه،و كل ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف و تفهم.

إنّهم لا يدركون فقه الحقائق،لأنّ حجب الغرور و الغفله و الأمانى الزائفه ختمت على قلوبهم.

و لكن،عند ما يصفع الأجل وجوههم و ترتفع تلك الحجب عن أعينهم، و حينما يجدون أنفسهم أمام الموت أو فى عرصه يوم القيامه،هنالك سيدركون عظمه حجم غفلتهم و مدى خسرانهم، و كيف أنّهم قد ضيعوا أغلى ما كانوا يملكون! الآيه التاليه توضح محدوديه اللذائذ الدنيويه لكى لا يظن أحد إنّما خالده فتقول: وَ مٰا أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَهٍ إِلاّٰ وَ لَهٰا كِتٰابٌ مَعْلُومٌ ثمّ يقول تعالى: مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا يَسْتَأْخِرُونَ .

فقد سرت سنّه البارى جل شأنه بأن يعطى المدّه الكافيه لرجوع المضللين إلى بارئهم،من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبه تاره،و بفيوضات رحمه الرخاء

ص: ۱۲

۱- ۱) -مكاتيب الرّسول،ج ۱،ص ۱۱۲.

تاره أخرى،فمن لا تنفعه البشاره يأتيه الإنذار و هكذا،كل ذلك إتماما للحجه عليهم.

صحيح أنّ المصلحه الموجبه للتربيه الربانيه تقتضى(بعلم ربّ الأرباب)أن يمهل و لكنّه سبحانه لا يهمل،و عاجلا أم آجلا سينال كلّ نصيبه بما كسبت يداه.

من الآيتين الأخيرتين،تتّضح لنا فلسفه تكرار آيات القرآن لذكر تأريخ الأمم السابقه.

أ فلا تكفينا قصص السابقين عبره لإصلاح أنفسنا و الرجوع إلى اللّه تعالى؟ بل كيف نسترخى بالقعود حتى يقدّر علينا ما كتب على الذين ضلوا و ظلموا من قبلنا؟اذن و علينا الإعتبار،و إلاّ فسنكون عبره لمن سيأتى بعدنا.

ملاحظه:

اشاره

الغفله و طول الأمل

ممّا لا شك فيه أن الأمل بمثابه العامل المحرك لعجله حياه الإنسان،فلو ارتفع الأمل يوما من قلوب الناس لارتبكت مسيره الحياه و لا تجد إلاّ القليل ممن يجد فى نفسه دافعا لمواجهه صراع الحياه معه،و الحديث النبوى الشريف:«الأمل رحمه لأمتى،و لو لا الأمل ما رضعت والده ولدها،و لا غرس غارس شجرا» (۱) يشير لهذه الحقيقه.

و إذا ما تجاوز الأمل حده المعقول فإنّه سيتحول إلى(طول أمل)و هو ما ينذر بالانحراف و الهلاك،و مثله كمثل ماء المطر الذى يمثل عامل الحياه الفياض للأرض و النبات و الحيوان،فلو زاد عن حدّ الحاجه إليه،أصبح عاملا للغرق

۱- ۱) -سفينه البحار،ج ۱،۳۰(أمل).

و الهلاک.

و هـذا الأمل القاتل هو أساس الجهل باللّه و عدم معرفه الحق و الابتعاد عن الحقیقه،و یؤدی الی تقوقع الإنسان فی دائرته الفردیه بما ینسجه الخیال الواسع و یبتعد عن هدف وجود الإنسان علی الأرض و المصیر الذی یصبو إلیه.

و

یحـدثنا أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام عن هذا المضـمون بقوله: «یا أیّها الناس،إنّ أخوف ما أخاف علیکم اثنان: اتّباع الهوی و طول الأمل،فأمّا اتّباع الهوی فیصدّ عن الحقّ،و أمّا طول الأمل فینسی الآخره» (۱) .

حقا،کم هم أولئک الـذین امتازوا بالملکات الفائقه و الکفاءات اللائقه،و لکنّهم سـقطوا فی شباک فـخ طول الأمل فتحولوا إلی موجودات ضـعیفه،بل و ممسوخه! و أصـبحوا لا یسـتطیعون تقدیم شـیء لمجتمعهم،بل ضـیّعوا حتی ما ینفع أنفسهم و أثقلوا عمّا یسمون به إلی التکامل.

و هذه الصوره نتلمس ملامحها بجلاء

فی دعاء کمیل:«و حبسنی عن نفعی بعد أملی».

بـدیهی أنّ الأمـل الـذی یتجاوز الحـد المعقول،یجعل الإنسان عرضه للانهماک و العجز و الاضـطراب،و یصوّر لصاحبه أنّ هـذه الحال ستوصله إلی السعاده و الرفاه،و ما یدری أنّه یخطو صوب جرف الشقاء و النکد.

و غالبا ما تطوی صفحات هؤلاء بالدمعه الجاریه و الحسره لما آل إلیه المآل لیکونوا عبره لکل ذی عین بصیره و أذن سمیعه.

۱- ۱) -نهج البلاغه،من الخطبه ۴۲.

الآیات [سوره الحجر (۱۵): الآیات ۶ الی ۸]

اشاره

وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا اَلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ اَلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلاٰئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۷) مٰا نُنَزِّلُ اَلْمَلاٰئِكَةَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا كٰانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (۸)

التّفسیر

اشاره

طلب نزول الملائکه:

تبتدئ الآیات بتبیان موقف العداء الأعمی و التعصب الأصم للقرآن الحکیم و النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من قبل الکفار،فتقول: وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

و من خلال کلامهم یظهر بجلاء مدی وقاحتهم و سوء الأدب الذی امتازوا به حین مخاطبتهم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فتاره یقولون: يٰا أَيُّهَا الَّذِي ،و أخری: نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بصیغه الهزؤ و الإنکار لآیات اللّه سبحانه،و ثالثه:یستعملون أدوات التوکید«إن»و لام القسم لیتّهموا أشرف خلق اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالجنون! نعم،الخصم ینطلق المریض الجاهل حینما یقابل حکیما لا نظیر له، فأوّل ما یرمیه بالجنون،لأنّه ینطلق من جهله الذی لا یستوعب الحکمه و المعقول،فیری کل ما فوق تصوره القاصر غیر معقول،و یوصم خصمه بالمجنون!

ص: ۱۵

هؤلاء الأشخاص لديهم تعصب خاص نحو كل ما ألفوه فى محيطهم الاجتماعى حتى و إن كان ضلالا و انحرافا،لذا تراهم يواجهون كل دعوه جديده على أساس أنّها غير معقوله،فهم يخشون من كل جديد،و يتمسكون بشدّه بالعادات و التقاليد القديمه.

أضف إلى ذلك،أن من استهوته الدنيا و عاش لها لا يفقه المعانى الروحيه و القيم الإنسانيه و يوزن كل شيء بالمعايير الماديه،فإذا شاهد شخصا يضحى بكل شيء و حتى بنفسه لأجل أن يصل إلى هدف معنوى،فسوف لا يصدّق بأنّه عاقل، لأن العقل فى عرفهم هو ما يصيب:المال الوافر،الزوجه الجميله،الحياه المرفهه، و الوجاهه الكاذبه! و عليه،فحينما يرون رجلا قد عرضت عليه الدنيا بكل ما يحملون به فأبى أن يقبلها بقوله:«و اللّه لو وضعتم الشمس فى يمينى و القمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ما تركته»فسيقولون عنه:إنّه لمجنون! الملفت فى التهم الموجهه إلى أنبياء اللّه تعالى أنّها تحمل بين طياتها تضادا واضحا يلمس بأدنى تدبر،ففى الوقت الذى يرمون النّبى بالمجنون يعودون و يقولون عنه:إنّه لساحر،فمع أن الساحر لا بدّ له من الذكاء و النباهه،فهل يعقل أن يكون الساحر،مجنونا؟! إنّهم لم يكتفوا بنسبه الجنون إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بل تحججوا قائلين: لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلاٰئِكَهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ .

فيجيبهم البارى جل شأنه: مٰا نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَهَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا كٰانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ .فلو ثمّ إنزال الملائكه و شاهدوا الحقيقه بأعينهم ثمّ لم يؤمنوا بما فسوف يحيق بهم،العذاب الالهى دون إمهال.

و للمفسّرين وجوها متباينه فى تفسير مٰا نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَهَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ :

١-يرى البعض،أن أمر تنزيل الملائكه لا يتعلق بما يتقوله القائلون تحججا،

بل هو إعجاز ربانی لإظهار الحق و إحقاقه.

و بعباره أخری،فالإعجاز لیس أمرا ترفیهیا یناغی تصورات الآخرین بقدر ما هو حجه إلهیه لإثبات الحق و إماطه الباطل.

و قد أشبعت هذه الحقیقه بما فیه الکفایه لمن یری النّور نورا و الظلام ظلاما من خلال ما أوصله نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن طریق القرآن و المعاجز الأخری.

۲-المقصود من کلمه«الحق»هو العقاب الدنیوی بالبلاء المهلک،و بعباره أخری(عذاب الاستئصال).

أی...فی حال عدم إیمان الکفار المعاندین بعد نزول الملائکه علی ضوء اقتراحهم فهم هالکون قطعا.

و بهذا تکون جمله وَ مٰا کٰانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ مؤکّده لهذا المعنی،و أمّا علی التّفسیر الأوّل فإنّها تتناول موضوعا جدیدا.

۳-و قیل المراد بالحق فی الآیه الموت،إی أنّ الملائکه لا تنزل إلّا لقبض الأرواح.

لکنّ هذا المعنی بعید جدّا أمام ما یحفل به القرآن من ذکر نزول الملائکه فی قصتی إبراهیم و لوط علیهما السّلام و معرکه بدر...إلخ.

۴-و قیل المراد بالحق الشهاده(المشاهده).

أی...ما دام الإنسان یعیش فی عالم الدنیا فهو عاجز عن رؤیه ما وراء هذا العالم حیث هناک تسبح الملائکه بحمد ربّها،لأنّ الحجب المادیه قد أفسدت رؤیته و لا یتسنی له ذلک إلّا بعد الرحیل إلی العالم الآخر،و حین ذلک ینتهی مفعول المادیات فتزال الحجب و یری الملائکه.

یواجه هذا التّفسیر نفس ما واجهه التّفسیر الثّالث من إشکال،فقوم لوط مثلا،

على ما كانوا عليه من كفر و انحراف فقد رأوا ملائكه العذاب فى دنياهم (1) .

من خلال ما تقدم يتبيّن لنا أن التّفسيرين الأوّل و الثّانى ينسجمان مع ظاهر الآيه دون الآخرين.

أمّا ما ورد فى ذيل الآيه من عدم الامهال بعد استجابه مطاليبهم فى رؤيه المعاجز الحسيّه و عدم إيمانهم بها،فلأنه قد تمّت الحجه عليهم و انتفت جميع اعذارهم و تبريراتهم،و بما أن استدامه الحياه إنّما هو لأجل إتمام الحجه و احتمال توبه و رجوع الافراد المنحرفين الى الصراط المستقيم،و هذا الأمر لا موضوع له فى مثل هؤلاء الأشخاص،فلذلك يحين أجلهم و ينالون جزاءهم الذى يستحقونه.

(فتدبّر)

ص:18

1- 1) -راجع سوره هود،81.

الآیه [سوره الحجر (۱۵): آیه ۹]

اشاره

إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا اَلذِّکْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ (۹)

التّفسیر

اشاره

حفظ القرآن من التحریف:

بعد أن استعرضت الآیات السابقه تحجج الکفار و استهزاءهم بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و القرآن،تأتی هذه الآیه المبارکه لتواسی قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من جهه و لتطمئن قلوب المؤمنین المخلصین من جهه أخری،من خلال طرح مسأله حیویه ذات أهمیه بالغه لحیاه الرساله،ألا و هی..حفظ القرآن من أیادی التلاعب و التحریف إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ ...فبناء هذا القرآن مستحکم و شمس وجوده لا یغطیها غبار الضلال،و مصباح هدیه أبدی الإناره،و لو اتحد أعتی جبابره التاریخ و طغاته و حکامه الظلمه،محفوفین بعلماء السوء،و مزودین بأقوی الجیوش عدّه و عتادا،علی أن یخمدوا نور القرآن،فلن یستطیعوا،لأنّ الحکیم الجبار سبحانه تعهد بحفظه و صیانته..

و قد اختلف المفسّرون فی دلاله(حفظ القرآن)فی هذه الآیه المبارکه:

۱-قال بعضهم:الحفظ من التحریف و التغییر،و الزیاده و النقصان.

۲-و قال البعض الآخر:حفظ القرآن من الضیاع و الفناء إلی یوم قیام الساعه.

٣-و قال غيرهم:حفظه أمام المعتقدات المضله المخالفه له.

بما أنّه لا يوجد أی تضاد بين هذه التفاسير و تدخل ضمن المفهوم العام لعباره إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ فلا داعی لحصر مصاديقها فی بعد واحد،خصوصا و إن «لحافظون»ذكرت بصيغه مطلقه و ليس هناك ما يخصصها.

و الصحيح،وفقا لظاهر الآيه المذكوره،أنّ اللّه تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحی:من التحريف،من التلف و الضياع،و من سفسطات الأعداء المزاجيه و وساوسهم الشيطانيه.

أمّا ما احتمله بعض قدماء المفسّرين بأنّه الحفظ على شخص النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتبار أن ضمير«له»فی الآيه يعود إلى النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدلاله إطلاق لفظه«الذكر» على شخص النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی بعض الآيات (١) ،فهو احتمال يتعارض مع سياق الآيات السابقه التی عنت ب«الذكر»«القرآن»،بالإضافه إلى إشاره الآيه المقبله لهذا المعنى.

بحث

اشاره

فی عدم تحريف القرآن:

المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين شيعه و سنه،أنّ القرآن لم يتعرض لأی نوع من التحريف،و أن الذی بين أيدينا هو عين القرآن الذی نزل على صدر الحبيب محمّد النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.فلا زياده أو نقصان،حتى و لو بكلمه واحده،أو قل بحرف واحد.

و من جمله من صرح بهذا من العلماء الأعلام الشيعه(من المتقدمين و المتأخرين)تغمّدهم اللّه برحمته.

١- ١) -راجع سوره الطلاق،الآيه العاشره.

۱-الشّیخ الطوسی المعروف بشیخ الطائفه(۴۶۰ ه-ق)، و له بحث صریح و قاطع بهذا الشأن فی أوّل تفسیره المعروف ب(التبیان).

۲-الشریف المرتضی،و یعتبر من کبار علماء الإمامیه فی القرن الرّابع الهجری.

۳-الشّیخ الصدوق محمد بن علی بن بابویه المعروف برئیس المحدثین، حیث یقول فی بیان عقائد الإمامیه:(إن اعتقادنا بالقرآن أنّه سالم من أی تحریف).

۴-المفسّر الکبیر الشّیخ الطبرسی،و له فی مقدمه تفسیره بحث مفصل بهذا الشأن.

۵-المرحوم الشّیخ محمد حسین کاشف الغطاء،من کبار العلماء المتأخرین.

۶-المرحوم المحقق الیزدی،و قد نقل فی کتابه(العروه الوثقی)مسأله عدم تحریف القرآن عن جمهور مجتهدی الشیعه.

۷-بالإضافه إلی جمع من العلماء الآخرین،أمثال:الشّیخ المفید،الشّیخ البهائی،القاضی نور اللّه مع سائر محققی الشیعه.

و قد نحی هذا المنحی علماء و محققوا أهل السنه.

و قد نقل عن بعض محدّثی الشیعه و بعض أهل السنه،اعتقادهم بوقوع التحریف فی القرآن.إلاّ أن کبار علماء الفریقین بأدلتهم القاطعه قد أبطلوا زعم هؤلاء و أدخلوه فی حیز النسیان.

و أفاد العلاّمه الشریف المرتضی فی جواب(المسائل الطرابلسیات)«إن صحه نقل القرآن واضحه و بیّنه کمعرفتنا لعواصم العالم و الحوادث المهمّه فی التأریخ و الکتب الشهیره» فهل هناک من یشک فی وجود مدن کمکّه و المدینه أو لندن و باریس و إن لم یزرها؟!أو هل هناک من ینکر وقوع الهجوم المغولی علی الشرق، الثوره الفرنسیه،

الحرب العالميه الأولى أو الثّانيه؟! فإنّ لم يكن هناك من يشك أو ينكر،بسبب تواتر ذكر وجودها،فكذلك آيات القرآن الكريم،و هذا ما سيأتى بيانه إن شاء اللّه.

و إذا كان بعض المغرضين قد نسبوا للشيعه اعتقادهم بتحريف القرآن،فغايتهم إشعال فتيل التفرقه و الفتنه بين الشيعه و السنه،و قد فندت كتب كبار علماء الشيعه هذه الأباطيل الفاقده لأى دليل منطقى.

و لا نستغرب من الفخر الرازى قوله فى ذيل الآيه مورد البحث:(إنّ الآيه:

إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ

دليل على بطلان قول الشيعه فى حصول التغيير و الزياده و النقصان فى القرآن)،ممّا نعلمه عن هذا الرجل من حساسيه و تعصب تجاه الشيعه.

و هنا..لا بدّ من كلمه:إن كان يقصد بالشيعه كبار علمائهم و محققيهم،فليس هناك من يعتقد بذلك.

و إن كان يقصد بوجود قول ضعيف بهذا الشأن بين أوساط الشيعه،فإنّ نظيره موجود فى أوساط السنه أيضا،و هو ما لم يعتن به من قبل الطرفين.

و قد تطرق لذلك بوضوح المحقق الشّيخ جعفر المعروف بكاشف الغطاء فى كتابه(كشف الغطاء)بقوله:لا ريب أنّه(أى القرآن)محفوظ من النقصان بحفظ الملك الديان،كما دل عليه صريح القرآن،و إجماع العلماء فى كل زمان،و لا عبره بنادر (1)

.

إنّ التأريخ الإسلامى مزدحم بالتهم الباطله المتغذيه من ثدى العصبيه المقيته، مع علمنا القاطع بأنّ أعداء الإسلام يقفون وراء حياكه و نشر هذه التهم لإيقاع البغضاء بين أبناء الدين الواحد،و أنّ غايه ما يسعون إليه أن يروا المسلمين أمّه

1- 1) -تفسير آلاء الرحمن،35.

مفككه غير قادره على القيام بمهامها الوحدويه التوحيديه.

ترى كاتبا معروفا(من أهل الحجاز)فی عرض ذمّه للشیعه من خلال کتابه (الصراع)يقول:(و الشيعه هم أبدا أعداء المساجد) (١) .

و الحال لو أجرينا إحصاء لعدد المساجد فی شوارع و أسواق و أزقه المدن الشيعيه لأخذ منّا الوقت الطويل لكثرتها،لدرجه أنّ بعضا من الشيعه بات يشكل على كثره المساجد فی المنطقه الواحده و يرى لو يلتفت المحسنون لدور الأيتام و المستشفيات الخيريه و ما شاكلها،بدلا من بنايه المساجد لكفايه الموجود و مع هذا ترى كاتبا معروفا يتحدث بصراحه عن أمر يدعو إلى الضحك.

و عليه فلا ينبغی الاستغراب لما افتراه الفخر الرازی.

أدله عدم تحريف القرآن:

١-أدله عدم تحريف القرآن كثيره-فبالإضافه الى الآيه محل البحث و آيات أخر-كيفيه تعامل الناس مع هذا الكتاب السماوی العظيم عبّر التأريخ.

و قبل البداء ينبغی التنويه بأنّ من احتمل التحريف فی القرآن،إنّما أراد بذلك حصول النقص فيه،و لم نر من احتمل الزياده فی القرآن.

و نظره فاحصه إلى تاريخ حياه المسلمين نرى من خلالها أنّهم كانوا يعايشون القرآن فی كافه مرافق حياتهم،فهو القانون و الدستور الحاكم،و نظام الدوله،و هو الكتاب المقدس السماوی و رمز العباده..و بعد هذا كله هل يحتمل أن تطرأ عليه الزياده أو النقصان؟! يحدثنا التأريخ بأنّ القرآن ما كان ليفارق الإنسان المسلم فی:صلاته، المسجد،البيت،ميدان الحرب عند مواجهه الأعداء،بل إنّ المسلمين كانوا

١- ١) -الصراع،لعبد اللّه على القصيمی،ج ٢،ص ٢٣،على ما نقل عنه العلاّمه الأمينی فی الغدير،ج ٣،ص ٣٠٠.

يجعلون تعليم القرآن مهورا للنساء.فكان للقرآن الحضور الفاعل فى كل صغيره و كبيره من شؤون المسلمين،حتى أن الطفل ينمو على هديه.

و مرّه أخرى نقول:أو يعقل أن يصاب هذا الكتاب السماوى المقدس بسهام التحريف و التغيير و هو محفوظ فى قلوب و سلوك المسلمين على مرّ التأريخ؟! لقد تمّ جمع القرآن-كما ذكرنا فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير-فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و اهتمّ به المسلمون الأوائل أقصى درجات الاهتمام،فى مجال تعلم أحكامه،و حفظه،لدرجه أصبحت فيها مكانه الفرد الاجتماعيه تقاس بقدر حفظه من سور القرآن الكريم،حتى أصبح عدد حفاظ القرآن من الكثره بحيث أنّه فى إحدى المعارك قتل فيها أربعه آلاف منهم (۱) .

و كذلك الحال فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما استشهد سبعون رجلا من الصحابه الذين حفظوا القرآن فى معركه بئر معونه-و هى إحدى المناطق المجاوره للمدينه- (۲) .

من هذين المثلين(و أمثالهما كثير)يتّضح لنا أن حفظه و قراء و معلمى القرآن الكريم من الكثيره بحيث يستشهد منهم فى معركه واحده ذلك العدد الضخم.

و هذا طبيعى جدا إذا ما نظرنا إلى طريقه تعامل المسلمين مع القرآن،باعتباره القانون الحاكم النافذ،و الكتاب المقدس الذى لا يوجد سواه.

لم يكن القرآن الكريم كتابا مهملا فى زوايا البيوت و المساجد يعلوه غبار النسيان حتى تسنح الفرصه لمن يريد أن يزيد فيه أو ينقص،بل إنّ مسأله حفظه كانت و ما زالت عباده عظيمه و سنّه متبعه تمتد جذورها فى عمق التاريخ الإسلامى.

و بعد أن ظهرت الطباعه كان القرآن الكريم أكثر الكتب من حيث الطبع

۱- ۱) -منتخب كنز العمال،كما نقل عنه(البيان فى تفسير القرآن)،ص ۲۶۰.

۲- ۲) -سفينه البحار،ج ۱،ص ۵۷.

و الانتشار بين صفوف المسلمين فی کافه بلدانهم،و لا تخلو مدينه إسلاميه من حفاظ للقرآن.و الأمثله أکثر من أن تقال،ففی البلدان الإسلاميه هناک مدارس خاصه لقراءه و حفظ القرآن و ذکر أحد المطلعين:أنّه يوجد فی بعض بلاد الإسلاميه ما يقرب من مليون و نصف المليون حافظ للقرآن.

و بناء علی ما ذکره فريد و جدی فی کتابه(دائره المعارف):إن من شروط امتحان القبول فی کليه الأزهر فی مصر،هو حفظ القرآن الکريم کاملا و درجه النجاح فی ذلک(۲۰)من(۴۰)کحد أدنی.

خلاصه القول:إنّ حفظ القرآن منذ عصر ظهور الإسلام أصبح سنّه حيه فی حياه المسلمين،من خلال ما أمر و أکّد عليه النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم(و هو ما تعضده الرّوايات الکثيره)،و إلی هنا نعاود طرح السؤال:هل هناک مجال لاحتمال وجود التحريف فی القرآن؟! ۲-بالإضافه إلی ما تقدم تواجهنا مسأله(کتّاب الوحی)و هم الأشخاص الذين أو کل إليهم النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم مهمّه تسجيل الآيات القرآنيه بعد نزولها،و يذکر أن عددهم کان بين ۱۴-۴۳ رجلا.

يقول أبو عبد اللّه الزنجانی فی کتابه القّيم(تأريخ القرآن):(کان للنبی کتّياب يکتبون الوحی و هم ثلاثه و أربعون،أشهرهم الخلفاء الأربعه،و کان ألزمهم للنّبی زيد بن ثابت و علی بن أبی طالب عليه السّلام)فکيف لکتاب له کل هؤلاء الکتّاب أن تمتد إليه يد التحريف؟! ۳-دعوه الأئمّه المعصومين عليهم السلام للعمل بالقرآن الموجود بين أيدينا.و لو تفحصنا کلامهم عليهم السلام لوجدنا أنّهم قد دعوا الناس لتلاوه و دراسه القرآن و العمل علی هديه منذ صدر الإسلام و علی امتداد وجودهم المبارک بين الناس،و هذا دليل علی أن الأيادی المفسده ما استطاعت النيل من هذا الکتاب السماوی.

و خطب الإمام على عليه السّلام فى نهج البلاغه خير شاهد ينطق بهذا الادعاء:فنقرأ

فى الخطبه(۱۳۳): «و كتاب اللّه بين أظهركم،ناطق لا يعيا لسانه،و بيت لا تهدم أركانه،و عز لا تهزم أعوانه».

و

يقول فى الخطبه(۱۷۶): «و اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذى لا يغش، و الهادى الذى لا يضل...».

و نطالع

قوله عليه السّلام فى نفس الخطبه المذكوره: «و ما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزياده أو نقصان:زياده فى هدى،أو نقصان من عمى».

و نتابع ذات الخطبه حتى نصل

لقوله عليه السّلام: «و إنّ اللّه سبحانه لم يعط أحدا بمثل هذا القرآن،فإنّه حبل اللّه المتين،و سببه الأمين».

و نقرأ

فى الخطبه(۱۹۸): «ثمّ أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه، و سراجا لا يخبو توقده،...و منهاجا لا يضل نهجه،...و فرقانا لا يخمد برهانه» و أمثال ذلك كثير فى كلام على و الأئمّه عليهم السّلام.

و لو فرضنا أنّ يد التحريف قد طالت كتاب السماء،فهل من الممكن أن يدعو إليه الأئمّه عليهم السلام بهذه القوه؟و يصفونه بأنّه:صراط هدايه،وسيله التفريق بين الحق و الباطل،النّور الذى لا يطفأ أبدا،مصباح هدايه لا يخبو،حبل اللّه المتين و العروه الوثقى.

۴-و إذا ما سلمنا ب(خاتميه)النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ الدين الإسلامى هو خاتم الأديان الإلهيه،و إنّ رساله القرآن باقيه إلى يوم القيامه.

فهل يصدق أنّ اللّه سبحانه سوف لا يحفظ دليل دينه و حجّه نبيّه الخاتم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟و هل يجتمع تحريف القرآن مع بقاء الإسلام عبر آلاف السنين و دوامه حتى نهايه العالم؟! ۵-و هناك دليل آخر على أصاله القرآن و حفظه من أيه شائبه نتلمسه فى روايات الثقلين المرويه عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بطرق متعدده معتبره.

فقد روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّى تارک فيكم الثقلين،كتاب اللّه و عترتى، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا» (۱) .

فهل يصح هذا التعبير عن كتاب تطاله يد التحريف؟! ۶-بالإضافه إلى كل ذلک فالقرآن طرح على المسلمين باعتباره الحد الفاصل المأمون الجانب فى تمييز الأحاديث الصادقه من الكاذبه،و تشير كثير من الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السلام إلى أن صدق أو كذب أى حديث يتبيّن من خلال عرضه على القرآن،فما وافق القرآن فهو حق و ما خالفه فهو باطل.

فلو افترضنا أنّ تحريفا قد طرأ على القرآن(و لو بصوره نقصان)فهل يمكن اعتباره فاصلا بين الحق و الباطل،أو معيارا دقيقا لتمييز الحديث الصحيح من السقيم؟!

روايات التّحريف:

يستند القائلون بتحريف القرآن مرّه على روايات قد أسىء فهمها نتيجه عدم الوصول لما كانت ترمز إليه من معنى،و أخرى على روايات ضعيفه السند و يمكن تقسيم روايات التحريف إلى ثلاثه أقسام:

۱-الرّوايات القائله:إنّ عليّا عليه السّلام شرع بجمع القرآن بعد وفاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عند ما تمّ جمعه عرضه على جمع من الصحابه ممن تربعوا فى مقام الخلافه فلم يقبلوه منه،

فقال على عليه السّلام: إنّكم لن تروه بعد الآن أبدا.

و بنظره فاحصه إلى تلک الرّوايات نصل إلى أن القرآن الذى كان عند على

---

۱ – ۱) -حديث الثقلين من الأحاديث المتواتره،رواه عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جمع من الصحابه مثل:أبو سعيد الخدرى،زيد بن أرقم،زيد بن ثابت،أبو هريره،حذيفه بن أسيد،جابر بن عبد اللّه الأنصارى،عبد اللّه حنطب،عبد بن حميد،جبير بن مطعم،ضمّره الأسلمى،أبو ذر الغفارى،أبو رافع،أم سلمه و غيرهم.

علیه السّلام لا یختلف مع بقیه النسخ من حیث المضمون،سوی اختلافه من حیث العرض و الترتیب فی ثلاثه أمور:

الأوّل:أن آیاته و سوره کانت مرتبه حسب تأریخ النّزول.

الثّانی:تثبیت سبب النّزول لکل آیه و سوره.

الثّالث:تضمن تفسیر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للآیات بالإضافه إلی ذکر الناسخ و المنسوخ.

فالقرآن الذی جمعه أمیر المؤمنین علیه السّلام لیس إلاّ عین القرآن الموجود سوی أنّه أضاف إلیه:(التّفسیر)و(التأویل)و(سبب النّزول)و(تبیان الناسخ و المنسوخ) و ما شابه ذلک.و بعباره أخری،و کان قرآنا مع تفسیره الأصیل.

کما أنّه

ورد فی کتاب سلیم بن قیس: (إنّ أمیر المؤمنین علیه السّلام لما رأی غدر الصحابه و قلّه وفائهم لزم بیته،و أقبل علی القرآن،فلما جمعه کله،و کتابه بیده،و تأویله الناسخ و المنسوخ،بعث إلیه أن أخرج فبایع،فبعث إلیه إنی مشغول فقد آلیت علی نفسی لا أرتدی بردائی إلا لصلاه حتی أؤلف القرآن و أجمعه) (1) .

٢-الرّوایات المشیره إلی«التحریف المعنوی»للقرآن.

إنّ التحریف-کما نعلم-علی ثلاثه ضروب:لفظی،معنوی، و عملی.

فالتحریف اللفظی:هو تغییر ألفاظ و عبارات القرآن و حصول الزیاده و النقصان فیها.(و هذا ما نرفضه بشده-و جمیع محققی الإسلام-و ننکره إنکارا قاطعا).

و التحریف المعنوی:هو تفسیر الآیه خلافا لمفهومها و معناها الحقیقی.

أمّا التحریف العملی:فهو العمل علی خلاف المقتضی.

ففی تفسیر علی بن إبراهیم عن أبی ذر رضی اللّه عنه أنّه قال: لما نزلت هذه الآیه

١- ١) -بحار الأنوار،ج ٩٢،ص ٤١.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ترد علىّ أمتى يوم القيامه على خمس رايات،فرايه مع عجل هذه الأمه،فأسألهم:ما ذا فعلتم بالثقلين من بعدى؟فيقولون:أمّا الأكبر فحرفناه و نبذناه وراء ظهورنا...» (۱) .

و واضح أن التحريف هنا يقصد به التحريف المعنوى للقرآن و نبذه وراء الظهور.

۳-الرّوايات المختلفه:

فقد سعى أعداء الدين و المنحرفون عن الصراط المستقيم،و تبعهم الجهله،فى اختلاق بعض الرّوايات للحطّ من شرف القرآن و قدسيته،و منها الرّوايات التى رواها أحمد بن محمّد بن السيارى و البالغه(۱۸۸)روايه (۲) ،و قد استدل العلّامه الشّيخ النّورى بكثير من هذه الرّوايات فى كتابه(فصل الخطاب).

و السيارى هذا مطعون عند كثير من علماء(علم الرجال)و يقولون عليه كان:

فاسد المذهب،لا يعتمد عليه،و ضعيف الحديث.

و على قول بعضهم:إنّه من أهل الغلو،منحرف،معروف بالتقول بالتناسخ، و كذاب،و يقول عنه الكشى(صاحب كتاب الرجال المعروف):إنّ الإمام الجواد عليه السّلام وصف ادعاءات السيارى فى رسالته بأنّها باطله.

مع أنّ روايات التحريف غير مقتصره على السيارى،إلّا أنّ أكثرها و أهمها تعود إليه.

و بين هذه الرّوايات المزيفه ما تضحك الثكلى،و ينكرها كل ذى لب لبيب، و على سبيل المثال ما جاء فى إحداها بخصوص الآيه الثّالثه من سوره النساء وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامىٰ فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ أنّه:قد سقط بين شرطها و جزاءها ثلث القرآن!!!

ص :۲۹

۱- ۱) -تفسير البرهان،ذيل الآيه(۱۰۶)من سوره آل عمران.

۲- ۲) -أورد هذا الإحصاء مؤلف كتاب(البرهان المبين).

و قد ذكرنا فى تفسير الآيه المذكوره،أن الشرط و الجزاء فى الآيه مرتبطان ارتباطا تاما،و لم يسقط من بينهما و لو كلمه واحده.

أضف إلى ذلك،أن ثلث القرآن ما يعادل أربعه عشر جزء منه تقريبا،فكيف يدعى هذا المدعى مع ما للقرآن من كتّاب وحى و حفاظ و قراء منذ عهد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و هل يعقل أن يحصل ذلك دون أن يلتفت إليه أحد؟! و كأنّ هؤلاء لم يعيشوا و يعايشوا التاريخ بواقعيته و جلاءه،ألم يثبت التأريخ بأنّ الشىء الأساسى فى حياه المسلمين هو القرآن؟أو لم يكن القرآن يتلى فى آناء الليل و أطراف النهار فى جميع البيوت و المساجد؟إذن..فكيف يحتمل إسقاط كلمه واحده دون أن يلتفت إليه أحد،فضلا عن كون السقط ثلث القرآن؟! لا يسعنا إلاّ أن نقول:إنّ كذبه بهذه المواصفات لدليل جلى على سذاجه واضعى مثل هذه الأحاديث.

و قد اعتمد الكثير من المتذرعين فى إثبات تحريف القرآن على كتاب(فصل الخطاب) المشار إليه آنفا.

و لا بدّ من الإشاره إلى غرض و غايه هذا الكتاب من خلال ما كتبه تلميذ المؤلف العلاّمه الشيخ آغا بزرگ الطهرانى فى الجزء الأوّل من كتاب(مستدرک الوسائل)،حيث يذكر أنّه سمع من استاذه مرارا:إنّ ما فى كتاب فصل الخطاب لا يمثل عقيدتى الشخصيه،إنّما ألفته للبحث و المناقشه،و أشرت فيه إلى عقيدتى فى عدم تحريف القرآن دون أن أصرح،و كان من الأفضل أن أسميه(فصل الخطاب فى عدم تحريف الكتاب).

ثمّ يقول المحدث الطهرانى:هذا ما سمعناه من قول شيخنا نفسه،و أمّا عمله فقد رأيناه يقيم وزنا لما ورد فى مضامين الأخبار،و يراها أخبار آحاد لا بدّ أن تضرب عرض الحائط،و لا أحد يستطيع نسبه التحريف إلى أستاذنا إلاّ من هو غير عارف بعقيدته و مرامه.

و أخيرا..فالأيادى المغلوله لا يسعها فى هذا المجال إلّا أن تبذل كل جهودها للنيل من أصاله و عظمه و قدسيه كتاب السماء عند المسلمين عن طريق بث الخرافات و الأباطيل.

و طالعتنا الصحف من مدّه ليست بالبعيده بأنّ أياد إسرائيليه صهيونيه قامت بطبع نسخه جديده للقرآن غيروا فيها كثيرا من الآيات القرآنيه،و كما هو معهود فقد انتبه علماء المسلمين بسرعه لهذه الدسيسه الخبيثه و جمعوا تلك النسخ، فباءت محاولتهم بالفشل و الخذلان.

وفات هؤلاء الأعداء من أصحاب القلوب الداكنه،أن نقطه واحده لو غيّرت فى القرآن فسيعيدها إلى نصابها المفسّرون و الحفاظ و قراء هذا الكتاب العظيم يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللّهُ إِلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (1) .

ص: ٣١

١- ١) -التوبه،٣٢.

الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٠ الى ١٥]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِی شِيَعِ اَلْأَوَّلِينَ (١٠) وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١١) كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِی قُلُوبِ اَلْمُجْرِمِينَ (١٢) لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ اَلْأَوَّلِينَ (١٣) وَ لَوْ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰاباً مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١۴) لَقٰالُوا إِنَّمٰا سُكِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١۵)

التّفسير

اشاره

العناد و التعصب:

تواسی الآيات قلب النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و قلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب فی طريق دعوتهم،من خلال الإشاره إلی صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضاله و المتعصبه.

فتقول أوّلا: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِی شِيَعِ الْأَوَّلِينَ .

و لكنّهم من العناد و التعصب لدرجه وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ .

ذلك الاستهزاء و تلك السخريه لاعتبارات عدّه:

ص :٣٢

-مره،يريدون بالسخريه إسقاط شخصيه النّبى كى لا يؤثر فى أوساط الفئه الواعيه.

-و أخرى،يحاولون بالاستهزاء تغطيه ضعفهم و عجزهم أمام المنطق القوى و الحجج الدامغه لرسل اللّه عزّ و جلّ.

-و تاره،يأخذهم الاستغراب لدعوات الأنبياء الثوريه ضد طريقه حياتهم الموبوءه و تقاليدهم الباليه،و لما كانوا مكيفين لها و مسترخين بين أجوائها، فيدفعهم جهلهم و تعصبهم الأعمى لما هو سائد،لأنّ يستهزءوا.

-و أخرى،محاوله تخدير وجدانهم السارح فى المتاهات كى لا يصحوا على حين غرّه فيعتنق الحق و ينهض بأعباء مسئوليته.

-و قد يكون الاستهزاء بسبب خطل مقياسهم و معيارهم للقدوه و القائد فما تعارفوا عليه فى مواصفات الزعيم أو القائد،أن يكون من الطبقه الثريه المرفهه، و قيمه الإنسان عندهم من خلال:لباسه الأنيق،مركبه الفاره،بيته الفخم،و حياته المحفوفه بالزخارف و إذا نهض بدعوه الحق إنسان فقير لا يمتلك من حطام الدنيا شيئا، فسيكون موضع سخريتهم! -و أخيرا،فقبولهم لدعوه الأنبياء عليهم السلام-حسب تصورهم-يستلزم تقويضا لكل شهواتهم الدنيويه،و تحميلهم وظائف جديده لا يطيقونها،فليجؤون للاستهزاء لتبرير إعراضهم و انكارهم و إراحه ضمائرهم.

ثمّ يقول جلّ و علا: كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ أى نوصل الآيات القرآنيه الى اعماق وجدانهم و عقولهم.

و مع وضوح البلاغ و التأكيد و بيان المنطق الربانى و إظهار المعجزات،ترى المتعصبين المستهزئين لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهِ و هو ليس بجديد وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

و يصل أمر الغارقين فى شهواتهم و المصرين فى عنادهم على الباطل إلى أنّهم

لا يؤمنون حتى وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ و مع ذلك لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ

.

عجبا،أن يصل الإنسان لهذا الدرك من العناد و التعصب! إن الذنوب و الجهل و معاداه الحق تؤثر على الروح الطاهره و الفطره السليمه، فتحجبهما عن رؤيه وجه الحقيقه الناصع،و تمنعهما من إدراك الحقائق،و إذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب و إزاله الموانع،فإنّ صوره الحق ستتلوّث فى نظره فينكر كل ما هو معقول و محسوس معا،و من الممكن تطهير الفطره فى المراحل الأولى،و لكن إذا رسخت فى قلبه هذه الحاله و تجذرت و أمست«ملكه» و صفه أخلاقيه،فلا يمكن إزالتها بسهوله،و عندها سوف لا تترك أقوى الأدله العقليه و لا أوضح الأدله الحسيه أى تأثير فى قلبه.

ملاحظات

اشاره

۱-(شيع)جمع(شيعه)،و يطلق على المجموعه و الفرقه التى تمتلك نهجا مشتركا.

يقول الراغب الأصفهانى فى كتاب(المفردات)-باب شيع:الشياع الانتشار و التقويه،يقال شاع الخبر أى كثر و قوى،و شاع القوم انتشروا و كثروا،و شيعت النّار بالحطب قويتها،و الشيعه:من يتقوى بهم الإنسان.

أمّا العلاّمه الطبرسى فى(مجمع البيان)فيعتبر أنّ أصلها من المشايعه،و هى المتابعه،يقال شايع فلان فلانا على أمره أى تابعه عليه،و منه شيعه على عليه السّلام و هم الذين تابعوه على أمره و دانوا بإمامته،و

فى حديث أم سلمه عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«شيعه على هم الفائزون يوم القيامه» إشاره لهذا المعنى.

و على أيه حال...فالشياع بمعنى الانتشار و التقويه،أو المشايعه بمعنى

المتابعه،كلاهما دليل على وجود نوع من الاتحاد و الارتباط الفكرى و الدينى فى مفهوم(الشيعه)و(التشيع).

و إطلاق لفظ(شيع)على الأقوام السابقه يدل على أنّهم فى قبال دعوه الأنبياء عليهم السلام كانوا متحدين فى توجههم و متآزرين متعاضدين فى عملهم.

فإن كان لأهل الضلال هذا الاتحاد و التنسيق أ فلا ينبغى لأتباع الحق أن يسيروا على نور هديه متكاتفين و متآزرين؟ ٢-مرجع الضمير فى«نسلكه»:

من لطف البارى جلّ شأنه أن يوصل و يفهم آياته للمجرمين و المخالفين بطرق شتى،عسى أن تستقر فى قلوبهم،و لكنّ عدم صلاحيه و لياقه المحل يكون سببا لخروجها من تلك الأجواف النتنه،فتبقى قلوبا غير متأثره،شبيها بمرور الغذاء النافع فى معده مريضه فلا تتقبله و تقذفه إلى الخارج.(و يستفاد هذا المعنى من(السلوك)الماده الأصليه لعباره«نسلكه»).

و على هذا الأساس فضمير«نسلكه»يعود إلى«الذكر»أى القرآن كما ورد فى الآيات المتقدمه،و كذلك حال الضمير فى لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهِ يعود إليه أيضا،أى:

إنّهم مع كل ذلك لا يؤمنون بالذكر.

فنلحظ التوافق التام بين الضميرين بالضبط كما جاء فى سوره الشعراء فى الآيتين ٢٠٠ و ٢٠١.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أن ضمير«نسلكه»يعود إلى الاستهزاء المذكور فى الآيه المتقدمه لها،فيكون المعنى:إنّا ندخل الاستهزاء و السخريه فى قلوبهم نتيجه لذنوبهم و عنادهم.

و يكفينا لتضعيف هذا التّفسير أن نقول:إنّه يذهب بالتناسق بين الضميرين.

و نستفيد كذلك من عباره«نسلكه»أنّ على المبلغ و المرشد أن لا يكتفى فى أداء وظيفته بإيصال صوته الى أسماع الناس،بل عليه أن يطرق كل الآفاق حتى

یوصل صوت الحق إلی القلوب لیقرّ فیها.

و بعباره أخری،ینبغی الاستفاده من جمیع الوسائل...السمعیه و البصریه، البرامج العملیه،الأدب-شعرا و قصه-و الفن الأصیل الهادف.لتکون کلمه الحق واضحه لذوی القلوب الواعیه،و الحجه تامه علی من ظلم و عاند.

-٣

سنّه الأولین:

تفیدنا الآیه الآنفه الذکر بأنّ أسالیب أهل الضلال الرامیه لتخدیر الناس و محاوله تفریقهم و إبعادهم عن أولیاء اللّه لا تختص بزمان و مکان معینین،بل هی ممارسه موجوده منذ القدم و باقیه ما بقی صراع الحق ضد الباطل علی الأرض و لهذا لا ینبغی أن نستوحش من ذلک و نتراجع امام المشاکل و العراقیل التی یدبرها الأعداء.

و لا نسمح للیأس من أن یدخل قلوبنا،و لا لأسالیب الأعداء من أن تفقدنا الثّقه بالنفس فذکر سنن الأولین فی القرآن ما هی إلّا مواساه و تسلیه مؤثره لقلوب دعاه الإیمان.

و إذا ما تصورنا یوما أن نشر دعوه الحق و رفع رایه العدل و الهدایه لا یواجهان برد فعل الأعداء،فإنّنا فی خطأ کبیر،و أقل ما فیه أننا سنصاب بحاله الیأس المهلکه،و ما علینا إلّا أن نستوعب مسیر خط الأنبیاء علیهم السّلام فی مواجهاتهم لأعداء اللّه،و أن نجسد ذلک الإستیعاب فی سلوکنا،بل و علینا أن نزداد فی کل یوم عمقا فی دعوتنا.

۴-تفسیر فَظَلُّوا فِیهِ یَعْرُجُونَ :

یظهر هذا المقطع القرآنی-بوضوح-تصویرا لحال المعاندین، فلو أنّ بابا من السماء فتحت لهم و ظلوا یصعدون و ینزلون من خلاله،لقالوا:سحرت عیوننا و حجبت عن رؤیه الواقع!(یبدو أنّ المراد من السماء هنا:الفضاء الخارجی الذی لا یمکن النفوذ منه بسهوله).

علما بأنّ کلمه«ظلوا»تستعمل لاستمرار العمل فی النهار و تقابلها کلمه

(باتوا)من البيتوته اللّيل.

و يميل إلى هذا المعنى غالب المفسّرين و لكن العجيب أن بعض المفسّرين احتملوا عوده ضمير«ظلّوا»إلى الملائكه،فيكون المعنى:أنّهم لو رأوا الملائكه تصعد و تنزل من السماء بأمّ أعينهم لما آمنوا أيضا.

و لكن إضافه لعدم انسجام هذا الاحتمال مع تسلسل الآيات السابقه و اللاحقه التى تتحدث عن المشركين،أن ذكر الملائكه إنّما ورد قبل ست آيات (فعوده الضمير إلى الملائكه بعيد جدّا)فإنّ هذا المعنى يقلل من بلاغه العباره القرآنيه،لأنّ القرآن يريد أن يقول أنّ المشركين لا يستسلمون للحق حتى لو صعدوا و هبطوا من السماء مرارا فى ساعات النهار.

۵-معنى عباره سُكِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا .

جمله«سكّرت»من ماده(سكر)أى:التغطيه.

و يراد بها:أنّ الكافرين المعاندين يقولون:قد غطيت عيوننا عن رؤيه الواقعيات،و إذا رأينا أنفسنا نصعد إلى السماء و ننزل إلى الأرض سنحكم على ذلك بأنّه و هم و خيال،كما فى ما يسمّى بالشعوذه التى يستفيد صاحبها من خفه حركه يده فيخدع أنظار الحاضرين بها.

و يضيفون القول: بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ،فبالرغم من أنّ الشعوذه هى لون من ألوان السحر،لكنّهم ربما يشيرون إلى ما هو أشد من الشعوذه التى تختص بخداع البصر فقط،ألا و هو السحر الكامل الذى يغطى على كل وجود الإنسان و يفقد معه الإحساس بكل ما هو واقع! فلو أغلقنا عين انسان ما فإنّه لا يفقد الشعور فيما لو أنّه يصعّد به إلى الأعلى أو ينزّل إلى الأسفل.

فمعنى الآيه:لو أخذنا المشركين إلى أقطار السماوات لقالوا أوّلا:إنّنا أصبنا بالشعوذه،و بعد أن يجدوا أنّ هذه العمليه لا تتوقف على العين فقط فسيقولون حينها:إنّنا مسحورون!

الآیات [سوره الحجر (۱۵): الآیات ۱۶ الی ۱۸]

اشاره

وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِی اَلسَّماءِ بُرُوجاً وَ زَیَّنّاها لِلنّاظِرِینَ (۱۶) وَ حَفِظْناها مِنْ کُلِّ شَیْطانٍ رَجِیمٍ (۱۷) إِلاّ مَنِ اِسْتَرَقَ اَلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِینٌ (۱۸)

التّفسیر

تشیر الآیات إلی جانب من عالم المخلوقات للدلاله علی معرفه توحید اللّه،و بسیاقها جاءت تکمله لبحثی القرآن و النّبوه المذکورین فی الآیات السابقه.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِی السَّماءِ بُرُوجاً .

«البروج»:جمع«برج»و یعنی«الظهور»،و لهذا یطلق علی البیت الذی یبنی فی سور المدینه أو علی سور الحصن الذی یعتصم به المقاتلون،و ذلک لما له من بروز و ارتفاع خاص.و یقال کذلک(تبرجت)للمرأه التی تظهر زینتها.

و البروج السماویه:هی منازل الشمس و القمر.و بعباره أقرب إلی الذهن:لو نظرنا إلی الشمس و القمر بإمعان فسنراها فی کل فصل من فصول السنه و لفتره زمنیه معینه یقابلان أحد الصور الفلکیه(الصور الفلکیه: مجموعه نجوم علی هیئه خاصه)فنقول:إنّ الشمس فی برج الحمل (۱) -مثلا-أو الثور أو المیزان أو العقرب

۱- ۱) -الحمل:مجموع شمسیه تظهر فی السماء علی هیئه الحمل تقریبا.و کذلک الثور و المیزان و غیرها.

أو القوس.

و يعتبر وجود الأبراج السماويه،و كذلك النظام الدقيق فى حركه منازل الشمس و القمر ضمن هذه البروج(و هو التقويم المجسّم لعالم وجودنا)،يعتبر من الأدله الواضحه على علم و قدره الخالق جل و علا.

إنّ هذا النظام العجيب بما يحمل من دقه فى حساب تشكيله يكشف لنا وجود هدف لخلق هذا العالم،و كلما أمعنا النظر فى خلق اللّه ازددنا مقربه من معرفه الخالق الجليل.

ثمّ يضيف: زَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ (١) .

انظروا لإحدى الليالى المظلمه ذات النجوم الكثيره فسترون مجموعات نجميه ائتلفت فيما بينها فى كل زاويه من زوايا السماء،و كأنّها حلقات تنظيميه تتجاذب أطراف الحديث،و ترى تلك كأنّها ترمقنا شابحه،و أخرى تغمزنا باستمرار و كأنّها تدعونا إليها،و يخال من بعضها و كأنّها تقترب منّا لشده تلألئها، و تلك التى تنادينا بخافت ضوئها و ينطق لسان حالها من أعماق السماء و جوفها المتباعد..إنّنى هنا! هذه اللوحه الشاعريه الرائعه ربّما ألفها البعض على أنّها عاديه نتيجه لتكرار المشاهده،و مع ذلك فلها جذب خاص و هى جديره بالتأمل.

و حينما يبزغ القمر(و بأشكاله المختلفه)وسط تلك المجاميع،يضيف إلى سحرها و جمالها رونقا جديدا.

و تراها خجله،لا تقوى على أن ترفع رأسها إلاّ بعد غروب الشمس،فتتلألأ الواحده تلو الأخرى،كأنّهن يخرجن على استحياء من خلف ستار..و ما إن يحل الطلوع حتى نراها تفر فرارا لتختفى.

١- ١) -ضمير«زيناها»يعود إلى«السماء»لأنّها مؤنث مجازى.

و مضافا الى ذلك فإنّ لها من الجماليه العلميه و الأسرار المخفيه ما لا يصدق، و يكفيك لجماليتها أنّها جعلت أنظار العلماء تشخص إليها منذ آلاف السنين حتى زماننا الذى ما توصل العلماء إلى صناعه المرقبات(التلسكوبات)،إلّا للوصول لاكتشاف أسرار جديده عن هذا العالم الدائب الملتهب رغم صمته.

و يضيف فى الآيه التاليه: وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ إِلاّٰ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ مُبِينٌ .

الآيه المذكوره،من الآيات التى أشبعت شرحا و تفسيرا من قبل المفسّرين، و كلّ منهم قد نحى منحى خاصا فى فهم معناها.

و قد ورد ذات المضمون فى سوره الصافات(الآيتان ۶ و ۷)و كذلك فى سوره الجن الآيه(۹).

و ربّما ارتسمت فى أذهان البعض أسئله لم يسعفوا بالإجابه عنها،فكان لزاما علينا فى بادئ الأمر أن نلقى نظره إلى آراء كبار المفسّرين فيما يخص الموضوع الذى نحن بصدده،و من ثمّ نعرج إلى ما نراه راجحا من هذه الآراء:

۱-بعض المفسّرين و منهم صاحب تفسير(فى ظلال القرآن)قد اكتفوا بالتّفسير الإجمالى و لم يغوصوا إلى كثير من التفاصيل،و لم يعيروا أهميه لكثير من المسائل على اعتبار أنّها حقائق فوق البشر و لا يمكننا إدراكها،و ما علينا إلاّ أن نهتم بالآيات التى ترتب الآثار على حياتنا العمليه و تنظم لنا السلوك و التوجه الى الحق.

فكتب يقول:و ما الشيطان؟و كيف يحاول استراق السمع؟و أى شىء يسترق؟..

كل هذا غيب من غيب اللّه لا سبيل لنا إليه إلاّ من خلال النصوص،و لا جدوى فى الخوض فيه،لأنّه لا يزيد شيئا فى العقيده و لا يثمر إلاّ انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه،و بما يعطله عن عمله الحقيقى فى هذه الحياه،ثمّ

لا يضيف إليه إدراكا جديدا لحقيقه جديده (۱) .

و ينبغى التنويه هنا إلى أنّ القرآن كتاب سماوى جاء لتوجيه الإنسان إلى الحق،و هو كتاب حياه و تربيه،فإن كان فيه ما لا يخص الحياه الإنسانيه فمن الأولى أن لا يطرح أصلا،و هذا خلاف التخطيط و المنهج الرّبانى،و كلّ ما فيه دروس لنا و منهج قويم للحياه.

و التسليم بوجود حقائق غامضه فى القرآن أمر مرفوض..أو ليس القرآن كتاب نور،و كتابا مبينا؟!أو لم ينزل كى يفهمه الناس و يسيروا بهديه؟!فكيف إذن..لا يهمنا فهم بعض آياته؟! و بكلمه:فإنّ هذا التّفسير مرفوض.

۲-يصرّ جمع لا بأس به من المفسّرين(و خصوصا القدماء منهم) على الوقوف عند المعنى الظاهرى لهذه الآيات.

فالسماء هى هذه السماء،و الشهاب هو ما نراه و نسميه شهابا(أى الكرات الصغيره التى تسبح فى الفضاء،و تخترق بين الحين و الآخر جاذبيه الأرض فتنطلق نحوها بسرعه فتحترق نتيجه لاحتكاكها بالهواء المسبب لزياده حرارتها).

و الشيطان هو ذلك الموجود الخبيث المتمرد الذى يحاول أن يخترق أعماق السماوات ليطلع على أخبار ذلك العالم ليوصل تلك الأخبار إلى أوليائه الأشرار على الأرض من خلال استراق السمع،و لكنّه يمنع من الوصول إلى هدفه برميه بالشهب (۲) .

۱- ۱) -تفسير فى ظلال القرآن،ج ۵،ص ۳۹۶.

۲- ۲) -ذكر هذا التّفسير الفخر الرازى فى تفسيره الكبير،و كذلك الآلوسى فى(روح المعانى)بعد طرح الإشكالات المختلفه فى الموضوع اعتمادا على علم الهيئه و الطبقات الفلكيه القديم و أمثال ذلك.و أكثر العلماء فيه البيان من خلال الإجابه على تلك التساؤلات.و لا ضروره لذكرها لما وصل إليه علم الفلك فى يومنا.

۳-و ذهب جمع من المفسّرين مثل العلاّمه الطّباطبائی فی(تفسیر المیزان) و الطنطاوی فی تفسیر(الجواهر)إلی حمل هذه الآیات علی التشبیه و الکنایه و ضرب الأمثال،أو ما یسمّی ب(البیان الرمزی)ثمّ شرحوا ذلک بصور عدّه:

ألف:نقرأ فی تفسیر المیزان:(أورد المفسّرون أنواعا من التوجیه لتصویر استراق السمع من الشیاطین و رمیهم بالشهب،و هی مبینه علی ما سبق إلی الذهن من ظاهر الآیات و الأخبار،إنّ هناک أفلاکا محیطه بالأرض تسکنها جماعات من الملائکه و لها أبواب لا یلج فیها شیء إلاّ منها،و إنّ فی السماء الأولی جمعا من الملائکه بأیدیهم الشهب یرصدون المسترقین للسمع من الشیاطین فیقذفونهم بالشهب.

و قد اتّضح الیوم اتضاح عیان بطلان هذه الآراء.

و یحتمل-و اللّه العالم-أنّ هذه البیانات فی کلامه تعالی من قبیل الأمثال المضروبه تصور بها الحقائق الخارجه عن الحس فی صوره المحسوس لتقریبها من الحس،و هو القائل عزّ و جلّ فی سوره العنکبوت(۴۳): وَ تِلْکَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا یَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ ،و هو کثیر فی کلامه تعالی و منه العرش و الکرسی و اللوح و الکتاب.

و علی هذا یکون المراد من السماء التی تسکنها الملائکه عالما ملکوتیا ذا أفق أعلی،نسبته إلی هذا العالم المشهود نسبه السماء المحسوسه بأجرامها إلی الأرض،و المراد لاقتراب الشیاطین من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائکه للاطلاع علی أسرار الخلقه و الحوادث المستقبله و رمیهم بما لا یطیقونه من نور الملکوت (۱) .

ب-و الطنطاوی فی تفسیره المعروف،هکذا یری:(إنّ العلماء المحتالین

۱- ۱) -تفسیر المیزان،ج ۱۷،ص ۱۲۴(فی تفسیر الآیات من سوره الصافات).

المرائين الـذين يتبعهم عوام الناس دون أن تكون لهم الأهليه لأن يطلعوا على عجائب السـماوات و بـدائع العالم العلوى و أجرامه غير المحـدوده،و مـا يحكمهـا من نظم و حسـاب دقيق،فـإنّ اللّه تعالى يمنع عنهم هـذا العلم و يجعل هـذه السـماء المليئه بالنجوم الوضـاءه بكـل أسـرارها فى اختيـار من له عقـل و نبـاهه و إخلاص و إيمان، و من الطبيعى أن يمنع هـذا الصـنف من العلماء من النفوذ فى أسرار هذه السماء، فكل شيطان يطرد عن الحضره الإلهيه سواء كان من البشر أو من غيرهم،و ليس له حق الوصول إلى هذه الحقائق،و متى ما اقترب منها طرد عنها،فيمكن أن يعيش هكذا أشـخاص سنوات كثيره ثمّ يموتون و لكنّهم لا يدركون هذه الأسـرار أبـدا،لهم أبصـار ينظرون بها و لكن لا تسـتطيع رؤيه هـذه الحقائق،أليس العلم لا يناله إلاّ عشاقه و لا يـدرك جماله و لا ينظر إليه إلاّ عرفـاؤه (۱) ؟! و يقـول فى مكـان آخر:مـا المـانع أن تكون هـذه التعـبيرات كنـايه،فيكون المنع الحسـى رمزا للمنع العقلى،و الكنـايه من أجمـل أنواع البلاغه،ألاّ ترى أن كثيرا من النـاس حولـك محبوسون فى هـذه الأرض،غـائبه أبصـارهم،لا يسـمعون إلى الملأ الأعلى و لا يفهمون رموز هذه الدنيا و عجائبها و قد قذفوا من كل جانب، مطرودين حيث طردتهم شـهواتهم و عـداواتهم و كبرياؤهم و حروبهم و طمعهم و شـرهم عن تلك المعانى العاليه (۲) ،و إن أصـيب أحد بهذه الأهواء يوما بسبب التلوثات التى تملأ قلبه و روحه فإنّه سيطرد أيضا.

ج-و له كلام فى مكان آخر،خلاصته:تبقى قائمه بين أرواح البشر المنتقله إلى عالم البرزخ مع الأرواح التى ما زالت مع البشر فى الحيـاه الـدنيا،و إذا مـا توفر التشـابه و السـنخيه فيمـا بينها فيمكن و الحال هـذه إحضارها و التكلم معها فتطلعها على أمور واقعه و دقيقه جدّا،و لا تتمكن من أن تعطى الصوره الحقيقيه لبعض

۱- ۱) -تفسير الجواهر،ج ۸،ص ۱۱.

۲- ۲) -تفسير الجواهر،ج ۱۸،ص ۱۰.

الأمور،لأنها لا تنقل بدقه إلا ما هو ضمن عالمها المحدود،و لا يمكنها أن تصل إلى عالم أعلى منها،فكما أنّ الأسماك لا تتمكن من اختراق عالمها المائى،كذلك هذه الأرواح فإنّها لا تقوى على الخروج لأكثر من حدود عالمها.

د-و قال بعض آخر:أظهرت الاكتشافات الأخيره وجود أشعه قويه تنبعث باستمرار من الفضاء البعيد،و يمكن استلامها على الأرض بوضوح بواسطه أجهزه استقبال خاصه،و إنّ مصدر هذه الأمواج لا زال مجهولا،إلّا أن بعض العلماء يحتملون وجود كائنات حيه كثيره تعيش على الأجرام السماويه البعيده و ربّما كانت متفوقه علينا مدنيا فيرسلون هذه الأمواج ليخبرونا عن وجودهم و بعض أخبارهم،و فى تلك الأخبار مسائل جديده علينا،و لكنّ الجن تسعى للاستفاده من تلك المسائل فتطرد بتلك الأشعه القويه المقتدره على أن لا تصل لفهم ما أرسل إلى أهل الأرض (١) .

كانت هذه آراء المفسّرين و العلماء و أقوالهم المختلفه.

نتيجه البحث:

طال بنا البحث فى تفسير الآيات الآنفه الذكر،و قبل الخروج بمحصله البحث لا بدّ من ذكر بعض الملاحظات:

١-أشار القرآن الكريم بكلمه«السماء»إلى نفس هذه السماء التى يتبادر الذهن إليها تاره،و إلى السمو المعنوى و المقام العلوى تاره أخرى.

فمثلا نقرأ فى الآيه(٤٠)من سوره الأعراف إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .

فمن الممكن حمل معنى السماء هنا على الكنايه عن مقام القرب من اللّه عزّ

١- ١) -القرآن على مر العصور،ع.نوفل.

و جلّ،کما نقرأ فی الآیه العاشره من سوره فاطر إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ .

و کما هو بیّن أن کلا ـ من الحکم الطیب و العمل الصالح لیسا من الأشیاء التی یقال عنها ذلک،بل المراد هو الارتفاع إلی مقام القرب الإلهی و التشرف بالسمو و الرفعه المعنویه.

و المقصود من تعبیر«أنزل»و«نزل»فی آیات القرآن هو النّزول من الساحه الإلهیه المقدسه علی قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قرأنا فی تفسیر الآیه(۲۴)من سوره إبراهیم أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ إنّ أصل الشجره الطیبه المشار إلیها فی الآیه هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الفرع علی علیه السّلام(و الفرع هنا هو الأصل الثانوی الذی یرتفع فی السماء)و الأئمّه علیهم السلام هم الفروع الأصغر (۱) .

و کذلک ما نقرؤه

فی أحد الأحادیث: «کذلک الکافرون لا تصعد أعمالهم إلی السماء.

لا ریب أنّ«السماء»المستعمله هنا لیست السماء المشاهده.

نستنتج ممّا سبق أنّ«السماء»قد استعملت بمفهومیها المادی و المعنوی أو الحقیقی و المجازی.

۲-و«النجوم»کذلک،بمفهومها المادی..هذه الأجرام السماویه التی تشاهد فی السماء.و مفهومها المعنوی..أولئک العلماء و الأشخاص الذین ینیرون درب المجتمعات البشریه.

فکما أنّ سالک الصحراء و عابر البحر یستهدیان بالنجوم و اللیالی الحالکه الداکنه،فکذلک المجتمعات البشریه،فإنّها تسلک الطریق السلیمه لترشید حیاتها

۱- ۱) -راجع تفسیر البرهان،ج ۲،ص ۳۱۰.

و نيل سعادتها بنور أولئك المؤمنين الواعين من العلماء و الصالحين.

و

فى الحديث المعروف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «مثل أصحابى فيكم كمثل النجوم بأيّها اقتديتم اهتديتم» (۱) و هو إشاره جليه لهذا المعنى.

كما نقرأ فى تفسير على بن إبراهيم فى ذيل الآيه وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ (۲) ..

إنّ الإمام عليه السّلام قال: «النجوم آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» (۳) .

۳-يستفاد من الرّوايات العديده التى وردت فى تفسير الآيات المبحوثه،أن منع الشياطين من الصعود إلى السماوات و طردها بالشهب تمّ حين ولاده النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و يستفاد من بعضها أنّ ذلك حدث أثناء ولاده عيسى بن مريم عليه السّلام كذلك و لكن لفتره معينه،و أمّا عند ولاده نبيّنا الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد تمّ المنع بشكل كامل (۴) .

و من كل ما تقدم يمكننا القول:إن«السماء»كنايه عن سماء الحق و الإيمان، و الشياطين تسعى أبدا لاختراق هذه السماء و التسلل إلى قلوب المؤمنين المخلصين عن طريق تخدير حماره الحق بأنواع الوساوس لصرعهم.

و لكن علم و تقوى أولياء اللّه و قاده دعوه الحق من الأنبياء و الأئمّه عليهم السّلام و العلماء العاملين كفيل بأن يبعد عبده الجبت و الطاغوت عن هذه السماء.

و هذا ما يساعدنا على فهم ذلك الترابط بين ولاده النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو ولاده المسيح عليه السّلام،و بين طرد الشياطين عن السماء.

و يساعدنا كذلك على أن نفهم تلك الرابطه بين الصعود إلى السماء و الاطلاع

۱- ۱) -سفينه البحار،ج ۲،ص ۹.

۲- ۲) -الأنعام،۹۷.

۳- ۳) -نور الثقلين،ج ۱،ص ۷۵۰.

۴- ۴) -نور الثقلين،ج ۳،ص ۵-تفسير القرطبى،ج ۵،ص ۳۶۲۶.

على الأسرار،لتيقننا بعدم وجود أخبار خاصّه بين طبقات هذه السماء المشاهده، و كل ما هناك لا يتعدى عجائب الخلقه التى صورها البارى جل شأنه و التى يمكن دراسه الكثير منها على سطح الأرض،و الذى ربما أصبح شبيه بالبديهى من أن الأجرام السماويه المنتشره فى الفضاء اللامتناهى بعضها أجرام فاقده للحياه و أخرى حيه،و لكنّ حياتها ليست كحياتنا.

و لا بدّ من الالتفات إلى أنّ مسأله وجود الشهب منحصره ضمن منطقه الغلاف الجوى للأرض فقط،و ذلك حينما تلتهب تلك الصخور المتساقطه صوب الأرض من خلال احتكاكها بالهواء،أمّا خارج منطقه الغلاف الجوى فخال من الشهب.

نعم،هناك صخور و كرات تسبح فى الفضاء إلاّ أنّها لا تسمى شهبا إلاّ بعد دخولها فى منطقه الغلاف الجوى فتلتهب و تظهر للعيان على هيئه خط نارى واضح تخيل للناظر أنّها نجمه متحركه بسرعه.

و كما هو معلوم،فإنّ إنسان العصر الحديث قد نفذ مرارا من هذه المنطقه،بل و غالى فى نفوذه حتى وطأت قدماه سطح القمر(علما بأنّ سمك الغلاف الجوى يبلغ من مائه إلى مائتى كيلومتر طولا..و أنّ القمر يبعد عن الأرض بأكثر من ثلاثمائه ألف كيلومتر).

فإنّ كان المقصود من الشهب فى الآيه عين الشهب المشاهده لنا، فيمكن القول:إنّ علماء البشر قد اكتشفوا هذه المنطقه و لم يجدوا الأسرار الخاصه المدعاه.

و الخلاصه:يظهر لنا من خلال ما ذكر من قرائن و شواهد كثيره أن المقصود من السماء هو..سماء الحق و الحقيقه،و أنّ الشياطين ذوى الوساوس يحاولون أن يجدوا لهم سبيلا لاختراق السماء و استراق السمع،ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك،و لكنّ النجوم و الشهب(و هم القاده الربانيون من الأنبياء و الأئمّه و العلماء) يبعدونهم و يطردونهم بالعلم و التقوى.

و لكن..بما أن القرآن الكريم بحر غير متناه،فلا ينبغی البناء القطعی علی هذا التأويل،و ربّما المستقبل سيحفل بتفسير آخر لهذه الآيات مستندا علی حقائق لم نصل لها فی زماننا.

الآيات [سوره الحجر (١٥)]: الآيات ١٩ الى ٢١]

اشاره

وَ اَلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِينَ (٢٠) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)

التّفسير

و إتماما لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق،و مظاهر عظمه البارى على وجه البسيطه،و يبدأ بنفس الأرض وَ الْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا .

«المد»،فى الأصل بمعنى:التوسعه و البسط،و من المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء، لأنّ سطح الأرض(كما هو معلوم)كان مغطى بالمياه بشكل كامل نتيجه للأمطار الغزيره،و استقرت المياه على سطح الأرض بعد أن مرّت السنين الطويله على انقطاع الأمطار،و بشكل تدريجى ظهرت اليابسه من تحت الماء،و هو ما تسمّيه الرّوايات ب«دحو الأرض».

ثمّ يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّه كآيه من آيات التوحيد وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ .

عبّر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء،و لعل المراد ب«إلقاء»هنا بمعنى (إيجاد)لأنّ الجبال هى الارتفاعات الشاخصه على سطح الأرض الناشئه من بروده قشره الأرض التدريجى،أو من المواد البركانيه.

و من بديع خلق الجبال إضافه إلى كونها أوتادا لتثبيت الأرض و حفظها من التزلزل نتيجه الضغط الداخلى،فإنّها تقف كالدرع الحصين فى مواجهه قوّه العواصف،بل و تعمل على تنظيم حركه الهواء و تعيين اتجاهه،و مع ذلك فهى المحل الأنسب لتخزين المياه على صوره ثلوج و عيون.

و استعمال كلمه«رواسى»جمع(راسيه)بمعنى الثابت و الراسخ،إشاره لطيفه لما ذكرناه.

فهى:ثابته بنفسها،و سبب لثبات قشره الأرض و ثبات الحياه الإنسانيه عليها.

ثمّ ينتقل إلى العامل الحيوى الفعال فى وجود الحياه البشريه و الحيوانيه،ألا و هو النبات وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ .

ما أجمل هذا التعبير و أبلغه!«موزون»من ماده(وزن) (1) ،و يشير بذلك إلى:

الحساب الدقيق،النظام العجيب،و التناسق فى التقدير فى جميع شؤون النباتات، و كل أجزائها تخضع لحساب معين لا يقبل التخلخل من السارق،الغصن،الورقه، الورده،الحبه و حتى الثمره.

يتنوع على وجه البسيطه مئات الآلاف من النباتات،و كل تحمل خواصا معينه و لها من الآثار ما يميزها عن غيرها،و هى باب بمعرفه واسع وصولا لمعرفه البارئ المصور جل شأنه،و كل ورقه منها كتاب ينطق بعرفه الخالق.

و قد ذهب البعض إلى أن المقصود هو إحداث المعادن و المناجم المختلفه فى الجبال،لأنّ كلمه«إنبات»تستعمل فى اللغه العربيه للمعادن أيضا.

١- ١) -الوزن:معرفه قدر الشىء-مفردات الراغب.

و قد وردت الإشاره فی بعض الرّوايات لهذا المعنی،

ففی روایه عن الإمام الباقر علیه السّلام عند ما سئل عن تفسیر هذه الآیه أنبتنا فیها من کل شیء موزون،أنّه قال:«فإنّ اللّه تبارک و تعالی أنبت فی الجبال الذهب و الفضه و الجوهر و الصـفر و النحاس و الرصاص و الکحل و الزرنیخ و أشباه هذه لا یباع إلاّ وزنا» (۱) .

و هنـاک من ذهب إلی أن المقصود من الإنبـات فی الآیه إلی معنی أوسع یشـمل جمیع المخلوقات علی هـذه الأرض،کما یشـیر إلی ذلک نوح علیه السّلام حین مخاطبته قومه وَ اللّهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (۲) .

و علیه،فلیس هناک ما یمنع من إطلاق مفهوم الإنبات فی الآیه لیشمل النبات و البشر و المعادن...إلخ.

و بمـا أنّ وسائـل و عوامـل حیـازه الإنسـان غیر منحصـره بالنبات و المعادن فقط، ففی الآیه التالیه یشـیر القرآن الکریم إلی جمیع المواهب بقوله: وَ جَعَلْنا لَکُمْ فِیها مَعایِشَ .

لیس لکم فقط،بل لجمیع الکائنات الحیه حتی الخارجه عن مسئولیتکم وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِینَ .

نعم،لقد کفینا الجمیع احتیاجاتهم.

«معایش»جمع«معیشه»،و هی:الوسائل و المستلزمات التی تتطلبها حیاه الإنسان،و التی یحصل علیها بالسعی تاره،و تأتیه بنفسها تاره أخری.

و مع أن بعض المفسّـرین قد حصـر کلمه«معایش»بالزراعه و النبات أو الأکل و الشرب فقط،و لکنّ مفهومها اللغوی أوسع من أن یخصص،و یطلق لیشمل کل ما یرتبط بالحیاه من وسائل العیش.

و انقسم المفسّرون فی تفسیر مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِینَ إلی قسمین:

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۳،ص ۶(یعود ضمیر«فیما»بناء علی هذا التّفسیر إلی الجبال).

۲- ۲) -سوره نوح،۱۷.

الأوّل:أنّ اللّه تعالى يريد أن يبيّن مواهبه و نعمه الشامله للبشر و الحيوان و الكائنات الحيه الأخرى التى لا يملك الإنسان أمر تغذيتها و لا يستطيعه.

الثّانى:أنّ اللّه تعالى يريد تذكير الإنسان بأنّه سبحانه هو الرازق،و قد تكفل بإيصال رزقه إلى كل محتاج له سواء كان بواسطه الإنسان أو بواسطه أخرى (۱) .

و يبدو لنا أنّ التّفسير الأوّل أكثر صوابا،و يعزز ذلك الحديث المروى فى تفسير علىّ بن إبراهيم،حيث يتناول معنى وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِينَ على أنّه:

(لكل ضرب من الحيوان قدّرنا له مقدرا) (۲) .

أمّا آخر آيه من الآيات المبحوثه،فتحوى جوابا لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس،و هو:لماذا لم تهيأ النعم و الأرزاق بما لا يحتاج إلى سعى و كدح؟!فتنطق الحكمه الإلهيه جوابا: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ .فليست قدرتنا محدوده حتى نخاف نفاذ ما نملك،و إنّما منبع و مخزن و أصل كل شىء تحت أيدينا،و ليس من الصعب علينا خلق أى شىء و بأى وقت يكون،و لكنّ الحكمه اقتضت أن يكون كل شىء فى هذا الوجود خاضعا لحساب دقيق،حتى الأرزاق إنّما تنزل إليكم بقدر.

و نقرأ فى مكان آخر من القرآن: وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰاءُ (۳) .

۱- ۱) -بناء على التّفسير الأوّل يكون الاسم الموصول«من»فى«من لستم له برازقين»عطفا على ضمير«لكم»و بناء على التّفسير الثّانى عطفا على«معايش»،و بعض المفسّرين اعترض على التّفسير الأوّل بأنّ الاسم الصريح المجرور لا يعطف على ضمير مجرور إلاّ بإعاده ذكر حرف الجر،أىّ..دخول اللام على«من»هنا واجبا،و ثمه اعتراض آخر يقول:كيف يطلق الاسم الموصول«من»على غير العاقل؟ و الاعتراضان مردودان،لأنّ عدم تكرار حرف الجر جار على لسان العرب،و كذا الحال بالنسبه لاستعمال«من»لغير العاقل. بل التّفسير الثّانى يواجهه ما لسعه المفهوم«للمعايش»،حيث يشمل جميع وسائل الحياه حتى الحيوانات الداجنه و ما شابهها..و على هذا الأساس رجحنا التّفسير الأوّل.

۲- ۲) -تفسير نور الثّقلين،ج ۳،ص ۶.

۳- ۳) -الشورى،۲۷.

إنّ السعی و الكدح فی صراع الحياه يضفی علی حركه الإنسان الحيويه و النشاط،و هو بقدر ما يعتبر وسيله سليمه و مشروعه لتشغيل العقول و تحريك الأبدان،فإنه يطرد الكسل و يمنع العجز و يحيی القلب للتحرك و التفاعل مع الآخرين...و إذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الربانی،فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشريه؟ فيكفی لحفنه ضئيله من العاطلين،ذوی البطون المنتفخه،و بدون أیّ وازع انضباطی،يكفيهم لأن يعيثوا فی الأرض الفساد،لماذا؟ لأنّ الناس ليسوا كالملائكه،بل هناك الأهواء التی تلعب بالقلوب و المغريات التی تدنی إلی الانحراف.

لقد اقتضت الحكمه الرّبانيه أن يكون الإنسان حاملا لجميع الصفات الحسنه و السيئه،و يمتحن علی هذه الأرض بما يحمل،و بما ذا يعمل،و عن ماذا يتجاوز؟...

و السعی و الحركه لما هو مشروع،المجال الأمثل للامتحان.

و الفقر و الغنی من البلاء الذی يدخل ضمن مخطط التمحيص و الامتحان، فكما أنّ الفقر و العوز قد يجران الإنسان نحو هاويه السقوط فی مهالك الانحراف، فكذلك الغنی فی كثير من حالاته يكون منشأ للفساد و الطغيان.

بحوث

اشاره

۱-ما هی خزائن اللّه تعالی؟

نقرأ فی آيات القرآن أن:للّه عزّ و جلّ خزائن،للّه خزائن السماوات و الأرض،بيده خزائن كل شیء..فما هی خزائنه تعالی؟ «الخزائن»لغه جمع«خزانه»:و هی المكان المخصص لحفظ و تجميع المال.

و هی من ماده(خزن)علی وزن(وزن)بمعنی:حفظ الشیء و حبسه.

بـديهى،أن من كانت قـدرته محدوده و غير قادر على أن يهىء لنفسه كل ما يحتاج إليه على الدوام،يبدأ بجمع ما يملك و خزنه لوقت الحاجه إليه مستقبلا.

و هـل يمكن تصـور ذلـك فى شـأنه سـبحانه!؟الجـواب بـالنفى قطعـا..و لهـذا فسّـر جمع من المفسّـرين أمثـال العلاّـمه الطبرسـى فى(مجمع البيـان)و الفخر الرازى فى (تفسـيره الكبير)و الراغب فى(المفردات)،فسّـروا خزائن اللّه بمعنى(مقـدورات اللّه)،يعنى:أنّ كل شىء جمع فى خزانه قدره اللّه،و كل ما يخطه ضروره أو صلاحا لمخلوقه يخلقه بقدرته.

و قـد فسّـر بعض كبـار المفسّـرين«خزائن اللّه»بأنّها:(مجموع ما فى الكون من أصوله و عناصـره و أسـبابه العامّه الماديه،و مجموع الشىء موجود فى مجموع خزائنه لا فى كل واحد منها) (۱) .

هذا التّفسير و إن كان مقبولا من الناحيه الأصوليه و لكنّ تعبير«عندنا» ينسجم أكثر مع التّفسير الأوّل.

و انّ عبـاره«خزائن اللّه»و مـا شابههـا لاـ تصف مقـام الرب و شـأنه الجليـل،و لاـ يصـح أن نعتبرهـا بعين معناهـا،و إنّمـا اسـتعملت للتقريب،من باب تكلم الناس بلسانهم،ليكونوا أكثر قربا للسمع و أشد فهما للمعنى.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ«خزائن»تختص بالماء و المطر،و لكن من الواضح حصر مفهوم«خزائن»بهذا المصداق المحدد تقييد بلا مقيد لإطلاق مفهوم الآيه، و هو خال من أىّ دليل أو قرينه.

۲-النّزول مكانىّ و مقامى

كما بيّنا سابقا أن النّزول لا يرمز إلى الحاله المكانيه دوما(أى النّزول من

۱- ۱) -الميزان،ج ۱۲،ص ۱۴۲.

مکـان عال إلى أسـفل)،بل يرمز إلى النّزول المقامى فى بعض الموارد،فمثلا..فى حال وصول نعمه من شـخص ذى شأن إلى من هم أقل منه شأنا،فإنّه يعبر عنها بالنّزول.

و قد استعملت هذه الکلمه فى القرآن الکريم فى مورد النعم الإلهيه،سواء کانت نازله من السماء إلى الأرض کالمطر،أو ما يتوالد على الأرض کالحيوانات، و هـذا ما نلاحظه فى الآيه السادسه من سوره الزمر وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَهَ أَزْواجٍ ،و کـذلک فى الآيه الخامسه و العشرين من سوره الحديد،بشأن الحديد، وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ...إلخ.

خلاصه القول:

إنّ(نزول)و(إنزال)هنا بمعنى وجود و إيجاد و خلق،و ما استعمال هذا اللفظ إلاّ لأنّها نعم اللّه عزّ و جلّ التى وهبها لعباده.

ص:55

الآيات [سوره الحجر (۱۵): الآیات ۲۲ الی ۲۵]

اشاره

وَ أَرْسَـلْنَا اَلرِّيَاحَ لَوَاقِـحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ اَلسَّمَاءِ مَاءً فَأَسْـقَيْنَاكُمُوهُ وَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (۲۲) وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ اَلْوَارِثُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا اَلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا اَلْمُسْتَأْخِرِينَ (۲۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۲۵)

التّفسير

اشاره

دور الرّياح و الأمطار:

بعـد أن عرض القرآن الكريم فى الآيـات السـابقه قسـما من أسـرار الخليقه و النعم الإلهيه كخلق الأرض و الجبال و النباتات و ما تحتـاجه الحيـاه من مسـتلزمات،يشـير فى أولى الآيات المبحوثه إلى حركه الرياح و مالها من آثار فى عمليه نزول المطر،فيقول: وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ .

«لواقح»جمع«لاقح»...و هى تشير هنا إلى دور الرياح فى تجميع قطع الحساب مع بعضها لتهيئه عمليه سقوط الأمطار.

و قد ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن الآيه تشير إلى عمليه تلقيح

النباتـات بواسـطه الرياح،و بها يسـتدلون على الإعجاز العلمى للقرآن،على اعتبار أن عصـر نزول القرآن ما كان يحظى بما وصـل إليه عصرنا من العلوم الحديثه،و أنّ إخبار القرآن بهذه الحقيقه العلميه(علميه التلقيح)من ذلك الوقت لدليل على إعجازه العلمى.

مع قبولنا بحقيقه تلقيح النباتات و دور الرياح فيها،إلاّ أنّنا لا نرى ما يشير لما ذهب إليه علماء اليوم لسببين:

الأوّل:وجود قرينه نزول المطر بعد كلمه لواقح مباشره.

ثانيا:وجود فاء السببيه بينها(بين لواقح و نزول المطر).

ممّا يبيّن بشكل جلى أن تلقيح الرياح يعقبه نزول المطر.

و يعتبر مـا جـاء فى الآـيه المبـاركه من روائع الكلم،حيث شبّه قطع الحسـاب بالآبـاء و الأمهـات يتم تزاوجهم بأثر الرياح،فتحمل الأمهات،ثمّ تلقى بما حملت (قطرات المطر)إلى الأرض.

و يمكن حمـل مٰا أَنْتُمْ لَهُ بِخٰازِنِينَ على أنّهـا إشـاره لخزن مـاء المطر فى السـحب قبـل نزوله،أى إنّكم لا تسـتطيعون اسـتملاك السحب التى هى المصدر الأصلى للأمطار.

و يمكن حملهـا على أنّهـا إشاره إلى جمع و خزن الأمطار بعـد نزولها،أى إنّكم لا تقـدرون على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيره حتى بعـد نزوله،و أنّ اللّه عزّ و جـلّ هو الـذى يحفظهـا و يخزنهـا على قمم الجبال بهيئه ثلوج،أو ينزلها فى أعماق الأرض لتكون بعد ذلك عيونا و آبارا.

ثمّ ينتقـل من مظـاهر توحيـد اللّه إلى المعاد و مقـدماته: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوٰارِثُونَ ،فيـذكر مسأله الحياه و الموت التى تعتبر من أهم المقـدمات لبحث موضوع المعاد،إضافه لكون هذه المسأله من مكملات موضوع التوحيد،باعتبار مسأله الحياه منذ بدايتها و حتى انتهائها بالموت تشكل نظاما مترابطا فى عالم

الوجود لاـ يمكن تصور تشكيله إلاّـ بوجود علم و قدره مطلقين،بالإضافه إلى أن وجود الحياه و الموت بحد ذاته دليل على أنّ موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عمّا هو بأيديها،و أنّ الوارث الحقيقى لكل شىء هو اللّه تعالى.

ثمّ يضيف: وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ .

أى،نحن على علم بهم و بما يعملون،و إن أمر محاسبتهم و جزائهم فى المعاد علينا سهل يسير.

و لهذا،نرى الآيه التى تليها: وَ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ مرتبطه تماما مع ما قبلها و متممه من خلال طرحها مسأله ما سيكون بعد الموت..فحكمه البارى أوجبت أن لا يكون الموت نهايه لكل شىء.

فلو أنّ الحياه انحصرت بهذه الفتره الزمنيه المحدوده و ينتهى كل شىء بالموت لكانت عمليه الخلق عبثا،و هذا غير معقول،لأنّه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمه الإلهيه اقتضت من«حياه الدنيا أن تكون مرحله استعداد لمسيره دائمه نحو المطلق»،و بتعبير آخر.مقدمه الحياه أبديه خالده.و أمّا كونه سبحانه عليما..فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبته فى قلب هذا العالم الطبيعى من جهه،و كذلك فى اعماق وجود الإنسان من جهه أخرى،و لا تخفى عليه خافيه يوم يقوم الحساب.

و كونه سبحانه الحكيم العليم فى هذا المورد دليل قوى و عميق الغور على مسأله الحشر و المعاد.

بحث

اشاره

من هم المستقدمون و المستأخرون؟

ذكر المفسّرون فى تفسير وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا

الْمُسْتَأْخِرِينَ

احتمالات كثيره،فذكر العلامه الطبرسى فى(مجمع البيان)سته احتمالات،و القرطبى ثمانيه احتمالات،و أبو الفتوح الرازى بحدود العشره احتمالات،و الملاحظه الدقيقه تظهر أنّه يمكن لنا أن نجمع كل ما ذكروه فى تفسير واحد،لأن كلمه«المستقدمين»و«المستأخرين»لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين و المتأخرين من حيث الزمان،و كذلك من حيث أعمال الخير و الجهاد و حتى الحضور فى الصفوف المتقدمه لصلاه الجماعه و ما شابهها.و إذا ما أخذنا بهذا المعنى الجامع فيمكننا جمع كل الاحتمالات الوارده فى«تقدم»و«تأخر» المذكورتين فى الآيه فى تفسير واحد.

و فيما

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحث على الاشتراك فى الصف الأوّل من صفوف صلاه الجماعه أنّه قال:«إنّ اللّه و ملائكته يصلون على الصف المتقدم» فازدحم الناس و كانت دور بنى عذره بعيده عن المسجد فقالوا:«لنبيعنّ دورنا و لنشترينّ دورا قريبه من المسجد حتى ندرک الصف المقدم»،فنزلت هذه الآيه.

(و أفهمتهم على أنّ اللّه تعالى عليم بنيّاتكم،فحتى لو كنتم فى الصف الأخير فإنّه يكتب لكم ثواب الصف الأوّل حسب نيّتكم و عزمكم على ذلک).

فمحدوديه شأن نزول الآيه لا يكون أبدا سببا لحصر مفهومها الواسع.

الآیات [سوره الحجر (۱۵): الآیات ۲۶ الی ۴۴]

اشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۶) وَ اَلْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ اَلسَّمُوم (۲۷) وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَهِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۸) فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ (۲۹) فَسَجَدَ اَلْمَلائِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۳۰) إِلاّ إِبْلِیسَ أَبی أَنْ یَکُونَ مَعَ اَلسّاجِدِینَ (۳۱) قالَ یا إِبْلِیسُ ما لَکَ أَلاّ تَکُونَ مَعَ اَلسّاجِدِینَ (۳۲) قالَ لَمْ أَکُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۳۳) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (۳۴) وَ إِنَّ عَلَیْکَ اَللَّعْنَهَ إِلی یَوْمِ اَلدِّینِ (۳۵) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۳۶) قالَ فَإِنَّکَ مِنَ اَلْمُنْظَرِینَ (۳۷) إِلی یَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُوم (۳۸) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَیْتَنِی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی اَلْأَرْضِ وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۳۹) إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِینَ (۴۰) قالَ هذا صِراطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ (۴۱) إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اِتَّبَعَکَ مِنَ اَلْغاوِینَ (۴۲) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ (۴۳) لَها سَبْعَهُ أَبْوابٍ لِکُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴)

ص: ۶۰

التّفسير

اشاره

خلق الإنسان:

بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات اللّه فى الآيات السابقه،تأتى هذه الآيات لتبيّن أن الهدف الأساسى من إيجاد كل الخليقه إنّما هو خلق الإنسان.و تتطرق الآيات إلى جزئيات عديده فى شأن الخلق،زاخره بالمعانى.

و قبل الدخول فى بحوث مفصله حول بعض المسائل التى ذكرت فى الآيات المباركات نشرع بتفسير إجمالى..

يقول تعالى فى البدايه: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، «الصلصال»هو التراب اليابس الذى لو اصطدم به شيء أحدث صوتا...و«الحمأ المسنون»هو طين متعفن.

وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ

.

«السّموم»لغه:الهواء الحارق،و سمّى بالسموم لأنّه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان،و كذلك يطلق على الماده القاتله(السم)لأنّها تنفذ فى بدن الإنسان و تقتله.

ثمّ يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرّه أخرى فيتعرض إلى كلام اللّه تعالى مع الملائكه قبل خلق الإنسان: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَهِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی و هى روح شريفه طاهره جليله فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ .

و بعد أن تمّ خلق الإنسان من الجسم و الروح المناسبين فَسَجَدَ الْمَلائِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

ص :۶۱

و لم يعص هذا الأمر إلاّ إبليس: إِلاّ إِبْلِيسَ أَبىٰ أَنْ يَكَونَ مَعَ السّاجِدِينَ .

و هنا سأل اللّه إبليس: قٰالَ يٰا إِبْلِيسُ مٰا لَکَ أَلاّ تَکُونَ مَعَ السّاجِدِينَ .

فأجاب إبليس بعد أن كان غارقا فى بحر الغرور المظلم،و تائها فى حب النفس المقتم،و بعد أن غطى حجاب الخسران عقله..أجاب بوقاحه قٰالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .. فأين النّار المضيئه من التراب الأسود المتعفن!و هل لموجود شريف مثلى أن يتواضع و يخضع لموجود أدنى منه! أىّ قانون هذا؟!..

و نتيجه للغرور و حب النفس،فقد جهل أسرار الخليقه،و نسى بركات التراب الذى هو منبع كل خير و بركه،و الأهم من ذلك كله..فقد تجاهل شرافه تلك الروح التى أودعها الرّب فى آدم..و كنتيجه طبيعيه لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد أن أصبح غير لائق لأن يكون فى درجه الملائكه و بين صفوفهم،فجاء الأمر الإلهى مقرعا: قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّکَ رَجِيمٌ ،أى أخرج من الجنّه،أو من السماوات أو اخرج من بين صفوف الملائكه.

و اعلم يا إبليس بأنّ غرورك أصبح سببا لكفرك،و كفرك قد أوجب طردك الأبدى وَ إِنَّ عَلَيْکَ اللَّعْنَهَ إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ أى،إلى يوم القيامه.

و هنا..حينما وجد إبليس نفسه مطرودا من الساحه الإلهيه،ساوره إحساس بأنّ خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد و الضغينه فى قلبه لينتقم لنفسه من أولاد آدم عليه السّلام.

فبالرغم من أنّ السبب الحقيقى يرجع إلى إبليس نفسه و ليس لآدم دخل فى ذلك،إلاّ أن غروره و حبّه لنفسه و عناده المستحكم لم يعطياه الفرصه لدرك حقيقه شقاءه، و لهذا قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ،ليركز عناده و عداءه! و قبل اللّه تعالى طلبه: قٰالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ .

و لكن ليس إلى يوم يبعثون كما أراد،بل إِلىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .فما هو

یوم الوقت المعلوم؟ قال بعض المفسّرین:هو نهایه هذا العالم و انتهاء التکلیف،لأنّ بعد ذلک(کما یفهم من ظاهر الآیات القرآنیه)تحلّ نهایه حیاه جمیع الکائنات،و لا یبقی حی إلاّ الذات الإلهیه المقدسه،و من هذا نفهم حصول الموافقه علی بعض طلب إبلیس.

و قال بعض آخر:هو زمان معین لا یعلمه إلاّ اللّه،لأنّه لو أظهره عزّ و جلّ لکان لإبلیس ذریعه فی المزید من التمرد و المعاصی.

و ثمه من قال:إنّه یوم القیامه،لأنّ إبلیس أراد أن یکون حیا إلی ذلک الیوم لیکون بذلک من الخالدین فی الحیاه،و إن یوم الوقت المعلوم قد ورد بمعنی یوم القیامه فی سوره الواقعه(الآیه ۵۰/)،و هو ما یعزز هذا القول.

و یبدو أن هذا الاحتمال بعید جدا لأنه یتضمن الموافقه الإلهیه علی کل طلب إبلیس،و الحال أن ظاهر الآیات المذکوره لا تعطی هذا المعنی،فلم تبیّن الآیات أن اللّه استجاب لطلبه بالکامل،بل یوم الوقت المعلوم...و من هنا یکون التّفسیر الأوّل أکثر توافقا مع روح و ظاهر الآیه،و کذلک ینسجم مع بعض الرّوایات عن الإمام الصّادق علیه السّلام بهذا الخصوص (۱) .

و هنا أظهر إبلیس نیته الباطنیه قٰالَ رَبِّ بِمٰا أَغْوَیْتَنِی و کان هذا الإنسان سببا لشقائی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ نعمها المادیه وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ بإلهائهم بتلک النعم.

إلاّ أنّه یعلم جیدا بأن وساوسه سوف لن تؤثر فی قلوب عباد اللّه المخلصین، و أنّهم متحصنون من الوقوع فی شباکه،لأنّ قوه الإیمان و درجه الإخلاص عندهم بمکان یکفی لدرء الخطر عنهم بتحطیم قیود الشیطان عن أنفسهم..و لهذا نراه قد استثنی فی طلبه إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ .

ص:۶۳

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۳،ص ۱۳،الحدیث ۴۵.

من البـديهى أنّ اللّه سـبحانه منزّه عن تضـليل خلقه،إلاّـ أنّ محـاوله إبليس لتبرير ضـلاله و تبرئه نفسه جعلته ينسب ذلك إلى اللّه سبحـانه و تعالى.هـذا الموقف هو ديـدن جميع الأبـالسه و الشـياطين، فهم يلقون تبعه ذنوبهم على الآخرين أوّلا و من ثمّ يسـعون لتبرير أعمـالهم القـبيحه بمنطق مغلوط ثانيـا،و المصـيبه أن مواقفهم تلـك إنّمـا يواجهون بهـا ربّ العزه و الجـبروت،و كـأنّهم لا يعلمون أنّه لا تخفى عليه خافيه.

و ينبغى ملاحظه أن«المخلصـين»جمع مخلص(بفتح اللام)و هو-كما بيّناه فى تفسير سوره يوسف-المؤمن الذى وصل إلى مرحله عاليه من الإيمان و العمل بعد تعلم و تربيه و مجاهده مع النفس،فيكون ممتنعا من نفوذ وساوس الشيطان و أىّ وسواس آخر.

ثمّ قال تعالى تحقيرا للشـيطان و تقويه لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيـد الخالص: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغَاوِينَ .

يعنى،يـا إبليس ليس لـك القـدره على إضـلال النـاس،لكـن الـذين يتبعونـك إن هـم إلاّـ المنحرفيـن عـن الصـراط المسـتقيم و المستجيبين لدواعى رغباتهم و ميولهم.

و بعباره أخرى...إنّ الإنسان حر الإراده،و إنّ إبليس و جنوده لا يقوون على أن يجبروا إنسانا واحدا على السير فى طريق الفساد و الضـلال،لكنّه الإنسـان هو الـذى يلبى دعوتهم و يفتـح قلبه أمـامهم و يـأذن لهم فى الـدخول فيه! و خلاـصه القول:إنّ الوسـاوس الشـيطانيه و إن كـانت لاـ تخلو من أثر فى تضـليل و انحراف الإنسـان،إلاّـ أنّ القرار الفعلى للانصـياع للوساوس أو رفضـها يرجع بالكامـل إلى الإنسـان،و لاـ يسـتطيع الشـيطان و جنوده مهمـا بلغوا من مكر أن يـدخلوا قلب إنسـان صـاحب إراده موجهه صوب الإيمان المخلص.

و أراد اللّه سبحانه بهذا القول نزع الخيال الباطل و الغرور الساذج من فكر

الشيطان من أنّه سيجد سلطه فائقه على الناس و بلا منازع،يمكنه من خلالها إغواء من يريد.

ثمّ يهدد اللّه بشدّه أتباع الشيطان: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ و أن ليس هناك وسيله للفرار،و الكل سيحاسب فى مكان واحد.

لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ

.

هى أبواب للذنوب التى يدخلون جهنم بسببها،و كل يحاسب بذنبه..كما هو الحال فى أبواب الجنّه التى هى عباره عن طاعات و أعمال صالحه و مجاهده للنفس يدخل بها المؤمنون الجنّه.

بحوث

اشاره

۱-التكبر و الغرور من المهالك العظام:

المستفاد تربويا من قصه إبليس فى القرآن هو أن الكبر و الغرور من الأسباب الخطيره فى عمليه الانهيار و السقوط من المكانه المحترمه الوسيط المرموقه إلى مدارك الدون و الخسران.

فكما هو معلوم أنّ إبليس لم يكن من الملائكه(كما تشير إلى ذلك الآيه الخمسون من سوره الكهف)إلّا أنّه ارتقى الدرجات العلا و نال شرف العيش بين صفوف الملائكه نتيجه لطاعته السابقه للّه عزّ و جلّ،حتى أنّ البعض قال عنه:إنّه كان معلما للملائكه،و يستفاد من الخطبه القاصعه فى(نهج البلاغه)أنّه عبد اللّه عزّ و جلّ آلاف السنين.

لكن شراك التعصب الأعمى و عباده هوى النفس المهلك قد أدّيا الى خسرانه كل ذلك فى لحظه تكبر و غرور.

بل إنّ حب الذات و الغرور و التعصب و التكبر قد جعلته يستمر فى موقفه

المریض و یوغل قدمه فی وحل الإصرار علی الإثمّ و السیر المتخبط فی جاده العناد،فنسی أو تناسی ما للتوبه و الاستغفار من أثر إیجابی،حتی دعته الحال لأن یشارک کل الظلمه و المذنبین من بنی آدم فی جرائمهم و ذنوبهم بوسوسته لهم...

و بات علیه أن یتحمل نصیبه من عذاب الجمیع یوم الفزع الأکبر.

و لیس إبلیس فحسب،بل إنّ التأریخ یحدثنا عن أصحاب النفوس المریضه ممن رکبهم الغرور و الکبر فعاثوا فی الأرض فسادا بعد أن غطت العصبیه رؤاهم، و حجب الجهل بصیرتهم،و سلکوا طریق الظلم و الاستبداد و سادوا علی الرقاب بکل جنون فهبطوا إلی أدنی درجات الرذیله و الانحراف عن الطریق القویم.

إنّ هاتین السمتین الأخلاقیتین(التکبر و الغرور)فی الواقع..نار رهیبه محرقه.فکما أن من صرف و طرأ من عمره فی بناء و تأنیث دار،لربّما فی لحظات معدودات یتحول إلی هباء منثور بسبب شراره صغیره..فالتکبر و الغرور یفعل فعل النّار فی الحطب و لا تنفع معه تلک السنین المعموره بالطاعه و البناء.

فأیّ درس أنطق من قصه إبلیس و أبلغ؟! إنّ إبلیس قد اختلطت علیه معانی الأشیاء فراح یضع المعانی حسب تصوراته الخادعه المحدوده و لم یدرک أن النّار لیست أفضل و أشرف من التراب، و التراب مصدر جمیع البرکات کالنباتات و الحیوانات و المعادن و هو محل حفظ المیاه،و بعباره اشمل هو منبع و أصل کل الکائنات الحیه،و ما عمل النّار إلاّ الإحراق و کثیرا ما تکون مخربه و مهلکه.

و یصف أمیر المؤمنین علیه السّلام إبلیس بأنّه

«عدو للّه،إمام المتعصبین و سلف المستکبرین» ثمّ

یقول: «ألا ترون کیف صغّره اللّه بتکبره و وضعه بترفعه،فجعله فی الدنیا مدحورا و أعد له فی الآخره سعیرا» (1) .

1- 1) -نهج البلاغه،من الخطبه 192.

و كما أشرنا سابقا أنّ إبليس كان أوّل من وضع أسس مذهب الجبر الذى ينكره وجدان أى إنسان.حيث أنّ الدافع المهم لأصحاب هذا المذهب تبرئه ساحه المذنبين من أعمالهم المخالفه لشرع اللّه،و كما قرأنا فى الآيات مورد البحث من أنّ إبليس تذرع بتلك الكذبه الكبيره لأجل تبرئه نفسه،و أنّه على حق فى إضلاله لبنى آدم حين قال: رَبِّ بِمٰا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

۲-على من يتسلط الشيطان؟

نرى من الضرورى أن نكرر القول بأنّ نفوذ الوساوس الشيطانيه فى قلب الإنسان لا تأتى فجأه أو إجبارا،و إنما بوجود الرغبه الكافيه عند الإنسان بفسح المجال أمام دخول الوساوس إلى دواخله، و على هذا فالشيطان يعلم تماما بأن ليس له سبيل على المخلصين الذين طهّروا أنفسهم فى ظل التربيه الخالصه من الشوائب و الأدران و غسلوا قلوبهم من صدأ الشرك و الضلال.و بتعبير القرآن الكريم إنّ رابطه الشيطان مع الضالين هى رابطه التابع و المتبوع و ليس رابطه المجبر و المجبور.

۳-أبواب جهنم!

قرأنا فى الآيات مورد البحث أن لجهنم سبعه أبواب(و ليس بعيدا أن يكون ذكر العدد فى هذا المورد للكثره كما ورد هذا العدد فى الآيه السابعه و العشرين من سوره لقمان بهذا المعنى أيضا).

و من الواضح أنّ تعدد أبواب جهنم(كما هو تعدد أبواب الجنّه)لم يكن لتسهيل أمر دخول الواردين نتيجه لكثرتهم،بل هى إشاره إلى الأسباب و العوامل المتعدده التى تؤدى لدخول الناس فى جهنم،و أنّ لكل من هذه الذنوب باب معين

يؤدی إلی مدرکه.

ففی نهج البلاغه: «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّه فتحه اللّه لخاصّه أولیائه» (۱) ، و

فی الحدیث المعروف: «إن السیوف مقالید الجنّه».. فهذه التعبیرات تبیّن لنا بوضوح ما المقصود من تعدد أبواب الجنّه و النّار.

و ثمه نکته لطیفه فی ما

روی عن الإمام الباقر علیه السّلام: «إنّ للجنه ثمانیه أبواب» (۲) ، فی حین أن الآیات تذکر أن لجهنم سبعه أبواب،و هذا الاختلاف فی العددین إشاره إلی أنّه مع کثره أبواب العذاب و الهلاک إلاّ أن أبواب الوصول إلی السعاده و النعیم أکثر،(و قد تحدثنا عن ذلک فی تفسیر الآیه الثّالثه و العشرین من سوره الرعد).

۴-(الحمأ المسنون)و(روح اللّه):

یستفاد من الآیات أن خلق الإنسان تمّ بشیئین متغایرین،أحدهما فی أعلی درجات الشرف و الآخر فی أدنی الدرجات(بقیاس ظاهر القیمه).

فالطین المتعفن خلق منه الجانب المادی منه الإنسان،فی حین جانبه الروحی و المعنوی خلق بشیء سمی(روح اللّه).

و بدیهی أنّ اللّه سبحانه منزّه عن الجسیمه و لیس له روح،و إنّما أضیف الروح إلی لفظ الجلاله لإضفاء التشریف علیها و للدلاله علی أنّها روح ذات شأن جلیل قد أودعت فی بدن الإنسان،بالضبط کما تسمّی الکعبه(بیت اللّه)لجلاله قدرها، و شهر رمضان المبارک(شهر اللّه)لبرکته.

و لهذا السبب نری أن الخط التصاعدی الإنسان یتساهی فی العلو حتی یصل الی أن لا یری سوی اللّه عزّ و جلّ،و خط تسافله من الانحطاط حتی یرکد فی

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۲۷.

۲- ۲) -الخصال للشیخ الصدوق-باب الثمانیه.

أدنى مرتبه من الحيوانات بَلْ هُمْ أَضَلُّ و هذا البون الشاسع بين الخطين التصاعدى و التنازلى بحد ذاته دليل على الأهميه الاستثنائيه لهذا المخلوق.

إنّ شرف مقام الإنسان و تكريمه يأتى من خلال هذا التركيب الخاص،و لكن ليس بفضل جنبته الماديه لأنّه ليس سوى(حمأ مسنون) و إنّما بفضل الروح الإلهيه المودعه فيه،بما تحمل من استعدادات و لياقه لأن تكون منعكسا للأنوار الإلهيه، تلك الأنوار التى استمد منها الإنسان شرف قدره و مقامه..و لا سبيل لتكامل الإنسان إلاّ ببنائه الروحى و وضع بعده المادى فى خدمه طريق التكامل و الوصول لساحه رضوانه جل شأنه.

و المستفاد من الآيات المتعلقه بخلق آدم فى أوائل سوره البقره أنّ مسأله سجود الملائكه لآدم،كان لما أودع فيه من العلم الإلهى الخاص.

و قد أجبنا على سؤال:كيف يصحّ السجود لغير اللّه؟و هل أنّ سجود الملائكه كان فى حقيقه للّه عزّ و جلّ لأجل هذا الخلق العجيب؟أم كان لآدم؟..فى تفسير الآيات المتعلقه بخلق آدم سوره البقره.

۵-ما هو الجان؟

إنّ كلمه(الجن)فى الأصل بمعنى:الشىء الذى يستر عن حس الإنسان، فمثلا نقول(جنّه الليل)أو(فلما جنّ عليه الليل)أى عند ما غطته ستاره الليل السوداء،و يقال(مجنون)لمن فقد عقله أى ستر،و(الجنين)للطفل المستور فى رحم أمّه،و(الجنّه)للبستان الذى تغطى أشجاره أرضه،و(الجنان)للقلب الذى ستر داخل صدر الإنسان،و(الجنّه)للدرع الذى يحمى الإنسان من ضربات الأعداد.

و المستفاد من آيات القرآن أن«الجنّ»نوع من الموجودات العاقله قد سترت عن حس الإنسان،و خلقت من النّار،أو من مارج من نار،أى من صافى

شعلتها،و إبليس من هذا الصنف.

و قـد عبّر بعض العلمـاء عن الجن بأنّها:نوع من الأرواح العاقله المجرده من الماده(و واضـح أن تجردها ليس كاملا،فما يخلق من الماده فهو مادى،و لكن يمكن أن يكون نصف تجرد لأنه لا يدرك بحواسنا،و بتعبير آخر:إنّه نوع من الجسم اللطيف).

و يستفاد من الآيات القرآنيه أيضا أنّ الجن فيهم المؤمن المطيع و الكافر العاصى،و أنّهم مكلفون شرعا،و مسئولون.

و من الطبيعى أنّ شـرح هـذه الأمور و مسأله انسـجامها مع العلم الحديث يتطلب منا بحثا مطولا،و سـنتناوله إن شاء اللّه فى تفسـير سوره الجن.

و ممّا ينبغى الإشاره إليه فى هـذا الصـدد..أنّ كلمه«الجان»الوارده فى الآيات مورد البحث هى من ماده(الجن)و لكن..هل ترمزان إلى معنى واحد؟فقد ذهب بعض المفسّرين إلى أن الجان نوع خاص من الجن،و لكننا لا نرى ذلك.

فلـو جمعنـا الآيـات القرآنيـه الـوارده بهـذا الشـأن مـع بعضـها البعض لا تضـح أن كلا المعنييـن واحـد،لأن الآيـات القرآنيه وضعت«الجن»فى قبال الإنسان تاره، و وضعت«الجان»تاره أخرى.

فمثلا نقرأ فى الآيه(٨٨)من سوره الإسراء قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ .

و فى بعض الآيه(٥۶)من سوره الذاريات وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ .

فى حين نقرأ فى الآيه(١۵)من سوره الرحمن خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ .

و فى الآيه(٣٩)من نفس السوره فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَانٌّ .

فمن مجموع الآيـات أعلاـه و الآيـات القرآنيه الأـخرى يسـتفاد بوضوح أن الجنّ و الجان لفظان لمعنى واحـد،و لهـذا وردت فى الآيات السابقه كلمه«الجن»

فى مقابل الإنسان،و كذا الحال بالنسبه«للجان».

و ينبغى التنويه إلى أن القرآن الكريم قد ذكر«الجان»و يريد به نوعا من الأفاعى كما جاء فى قصه موسى عليه السّلام كَأَنَّهَا جَانٌّ فى سوره القصص-٣١،إلاّ أنّ ذلك خارج نطاق بحثنا.

۶-القرآن و خلق الإنسان:

شاهدنا فى الآيات الأنفه أن القرآن قد تناول مسأله خلق الإنسان بشكل مختصر و مكثف تقريبا،لأنّ الهدف الأساسى من التناول هو الجانب التربوى فى الخلق،و ورد نظير ذلك فى أماكن أخرى من القرآن،كما فى سوره السجده، و المؤمنون،و سوره ص،و غيرها.

و بما أنّ القرآن الكريم ليس كتابا للعلوم الطبيعيه بقدر ما هو كتاب حياه الإنسان يرسم له فيه أساليب التربيه و أسس التكامل.فلا ينتظره منه أن يتناول جزئيات هذه العلوم من قبيل تفاصيل:النمو،التشريح،علم الأجنّه،علم النبات و ما شابه ذلك،إلاّ أنّه لا يمنع من أن يتطرق بإشارات مختصره إلى قسم من هذه العلوم بما يتناسب مع البحث التربوى المراد طرحه.

بعد هذه المقدمه نشرع بالموضوع من خلال بحثين:

١-التكامل النوعى من الناحيه العلميه.

٢-التكامل النوعى وفق المنظور القرآنى.

فى البدء،نتناول البحث الأوّل و ندرس المسأله وفق المقاييس الخاصه للمعلوم الطبيعيه بعيدا عن الآيات و الرّوايات:

ثمه فرضيتان مطروحتان فى أوساط علماء الطبيعه بشأن خلق الكائنات الحيه بما فيها الحيوانات و النباتات:

ألف:فرضيه تطوّر الأنواع(ترانسفورميسم)و التى تقول: إنّ الكائنات الحيه

لم تكن فی البدایه علی ما هی علیه الآن،و إنّما کانت علی هیئه موجودات ذات خلیه واحده تعیش فی میاه المحیطات،و ظهرت بطفره خاصه من تعرقات طین أعماق البحار.

أیّ أنّها کانت موجودات عدیمه الروح،و قد تولدت منها أوّل خلیه حیه نتیجه لظروف خاصّه.

و هذه الکائنات الحیه لصغرها لا تری بالعین المجرّده و قد مرت بمراحل التکامل التدریجی و تحولت من نوع إلی آخر.

و تمّ انتقالها من البحار إلی الصحاری و منها إلی الهواء...فتکونت بذلک أنواع النباتات و الحیوانات المائیه و البریه و الطیور.

و إن أکمل مرحله و أتمّ حلقه لهذا التکامل هو الإنسان الذی نراه الیوم،الذی تحول من موجودات تشبه القرود إلی القرود التی تشبه الإنسان ثمّ وصل إلی صورته الحالیه.

ب-فرضیه ثبوت الأنواع(فیکنسیسم)،و التی تقول:إنّ أنواع الکائنات الحیه منذ بدایتها و ما زالت تحمل ذات الأشکال و الخواص،و لم یتغیر أیّ من الأنواع إلی نوع آخر،و من جملتها الإنسان فکان له صورته الخاصّه به منذ بدایه خلقه.

و قد کتب علماء کلا الفریقین بحوثا مطوله لإثبات عقیدتهم،و جرت مناظرات و منازعات کثیره فی المحافل العلمیه حول هذه المسأله،و قد اشتد النزاع عند ما عرض کل من(لامارک)العالم الفرنسی المعروف المتخصص بعلوم الأحیاء و الذی عاش بین أؤخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر، و(داروین)عالم الأحیاء الإنکلیزی الذی عاش فی القرن التاسع عشر نظراتهما فی مسأله تطوّر الأنواع بأدله جدیده.

و ممّا ینبغی التنویه إلیه،هو أنّ معظم علماء الیوم یمیلون إلی فریضه تطوّر أو

تكامل الأنواع هذه خصوصا فى محافل العلوم الطبيعيه.

أدله القائلين بالتكامل:

يمكننا تلخيص أدلتهم بثلاثه أقسام:

الأوّل:الأدله المأخوذه من الهياكل العظيمه المتحجره للكائنات الحيّه القديمه فإن الدراسات لطبقات الأرض المختلفه(حسب اعتقادهم)تظهر أن الكائنات الحيّه قد تحولت من صور بسيطه إلى أخرى أكمل و أكثر تعقيدا،و لا يمكن تفسير ما عثر عليه من متحجرات الكائنات الحيه إلاّ بفرضيه التكامل هذه.

الثّانى:مجموع القرائن التى جمعت فى(التشريح المقارن).

و يؤكّد هؤلاء العلماء عبر بحوثهم المطوله المفصله:إنّنا عند ما نشرّح الهياكل العظيمه للحيوانات المختلفه و نقارنها فيما بينها،نجد أن ثمّه تشابها كبيرا فيما بينها،ممّا يشير إلى أنّها جاءت من أصل واحد.

الثّالث:مجموع القرائن التى حصل عليها من(علم الأجنّه).

فيقولون:إنّنا لو وضعنا جميع الحيوانات فى حالتها الجنينيه-قبل أن تأخذ شكلها الكامل-مع بعضها،فسنرى أنّ الأجنّه قبل أن تتكامل فى رحم أمهاتها أو فى داخل البيوض تتشابه إلى حد كبير..و هذا ما يؤكّد على أنّها قد جاءت فى الأصل من شىء واحد.

أجوبه القائلين بثبوت الأنواع:

إلاّ أن القائلين بفرضيه ثبوت الأنواع لديهم جواب واحد لجميع أدله القائلين بالتكامل و هو:أن القرائن المذكوره لا تملك قوّه الإقناع،و الذى لا يمكن إنكاره أن الأدله الثلاثه توجد فى الذهن احتمالا ظنيا لمسأله التكامل،إلاّ أنّها لا تقوى أن تصل إلى حال اليقين أبدا.

و بعباره أوضح:إنّ إثبات فرضيه التكامل و انتقالها من صوره فرض علمی إلی قانون علمی قطعی..إمّا أن یکون عن طریق الدلیل العقلی،أو عن طریق الحس و التجربه و الإختیار،و لا ثالث لها.

أمّا الأدله العقلیه و الفلسفیه فلیس لها طریق إلی هذه المسائل کما نعلم،و أما ید التجربه و الإختیار فأقصر من أن تمتد إلی مسائل قد امتدت جذورها إلی ملایین السنین.

إنّ ما نـدرکه بالحس و التجربه لا یتعـدی بعض الحالات السـطحیه،و لفتره زمنیه متباعده،علی شـکل طفره وراثیه(موتاسـیون)فی کل من الحیوان و النبات.

فمثلاـ..نری أحیانـا فی نسـل الأغنـام العادیه ولاده مفاجئه لخروف ذی صوف یختلف عن صوف الخراف العادیه،فیکون أنعم و أکثر لینا من العادیه بکثیر، فیکون بدایه لظهور نسل جدید یسمّی(أغنام مرینوس).

أو أنّ حیوانـات تحصل فیها الطفره الوارثیه فیتغیر لون عیونها أو أظفارها أو شـکل جلودها و ما شابه ذلک..لکنّه لم یشاهـد لحدّ الآن طفره تؤدی إلی حصول تغییر مهم فی الأعضاء الأصلیه لبدن أیّ حیوان،أو یتبدل نوع منها إلی نوع آخر.

بنـاء علی ذلک..یمکننـا أن نتخیـل أنّ نوعـا من الحیوان یتحول إلی نوع آخر بطریق تراکم الطفره الوراثیه،کأن تتحول الزواحف الی طیور و لکنّ ذلـک لیس سوی حـدس و مجرّد تخیـل لا غیر،و لم نر الطفرات الوارثیه قـد غیرت عضوا أصـلیا لحیوان ما إلی صوره أخری.

نخلص ممّا تقـدم إلی النتیجه التالیه:إن الأدله التی یطرحها أنصار فرضـیه (الترانسـفورمیسم)لا تتجاوز کونها فرضا لا غیر،لذا نری أنصارها یعبرون عنها ب (فرضیه تطوّر الأنواع)و لم یجرأ أیّ منهم من تسمیتها بالقانون أو الحقیقه العلمیه.

ص:۷۴

نظريه التكامل و..الإيمان باللّه:

الكثير ممّن يحاولون تصوير نوع من التضاد بين هذه الفرضيه و مسأله الإيمان باللّه،و لعل الحق يعطى لهم من جهه،حيث أنّ العقيده الداروينيه فى واقعها قد أوجدت حربا شعواء بين أصحاب الكنيسه من جانب و مؤيدى داروين من جانب آخر،حتى وصل الصراع ذروته بين الطرفين فى تلك الفتره بعد ما لعب الظرف السياسى و كذا الاجتماعى دورهما(ممّا لا يسع المجال لشرح ذلك هنا)، فكانت النتيجه أن اتهم أصحاب الكنيسه الداروينيه بأنّها لا تنسجم مع الإيمان باللّه.

و قد كشفت الأيّام عن عدم وجود تضاد بين الأمرين،فإنّنا سواء قبلنا بفرضيه التكامل أو نفيناها لفقدانها الدليل،فلا يمنع من الإيمان باللّه بكلا الاحتمالين.

فإذا قبلنا بالفرضيه فلكونها قانونا علميا مبنيا على العله و المعلول،و لا فرق فى العلاقه بين العله و المعلول فى عالم الكائنات الحيه و بقيه الموجودات،فهل يعتبر اكتشاف العلل الطبيعيه من قبيل نزول الأمطار،المد و الجزر فى البحار، الزلازل و ما شابهها،مانعا من الإيمان باللّه؟الجواب بالنفى قطعا.إذن فاكتشاف وجود رابطه و علاقه تكامليه بين أنواع الموجودات الحيه لا يؤدى إلى تعارض مع مسأله الإيمان باللّه كذلك.

إذن،فالأشخاص الذين يتصورون أن كشف العلل الطبيعيه ينافى الإيمان بوجود اللّه هم الذين يذهبون هذا المذهب و إلّا فإنّ كشف هذه العلل ليس-فقط- لا يتعارض مع التوحيد،و إنّما سيعطينا أدله جديده من عالم الخليقه لإثبات وجوده سبحانه و تعالى.

و ممّا ينبغى ذكره:أنّ داروين قد تبرأ من تهمه الإلحاد و صرح فى كتابه(أصل الأنواع)قائلا:إنّنى مع قبولى لتكامل الأنواع فإنّى اعتقد بوجود اللّه،و أساسا فإنّه

بدون الاعتقاد بوجود اللّه لا یمکن توجیه مسأله التکامل.

و قـد کتب عن داروین بما نصه:(إنّه بقی مؤمنا باللّه الواحد رغم قبوله بالعلل الطبیعیه فی ظهور الأنواع المختلفه من الأحیاء،و قد کان إحساسه بوجود قدره ما فوق البشر یشتد فی أعماقه کلما تقدم فی السن،معتبرا أن لغز الخلق یبقی لغزا محیرا للإنسان) (۱) .

کان یعتقـد أن توجیه هـذا التکامل النوعی المعقـد و العجیب،و تحویل کائن حی بسـیط جـدّا إلی کل هـذه الأنواع المختلفه من الأحیاء لا یتمّ إلّا بوجود خطه دقیقه یضعها و یسیرها عقل کلی.

و هو کـذلک..إذ کیف یمکن إیجـاد کـل هـذه الأـنواع العجیبه و المحیره و التی لکل منها تفصـیلات و شؤون واسـعه،من ماده واحـده بسـیطه جدا و حقیره..کیف یمکن ذلک بدون الاسـتناد علی علم و قدره مطلقین؟! النتیجه:إنّ الضـجّه المفتعله فی وجود تضاد بین عقیده التکامل النوعی و بین مسأله الإیمان باللّه إنّما هی بلا أساس و فاقده للدلیل(سواء قبلنا بالفرضیه أو لم نقبلها).

تبقی أمامنا مسأله جدیره بالبحث و هی:هل أنّ فرضیه تطور الأنواع تتعارض مع ما ذکره القرآن حول قصه خلق آدم،أو لا؟

القرآن و مسأله التکامل:

الجـدیر بالـذکر أن کلاّـ من مؤیـدی و منکری فرضـیه التکامـل النوعی-نعنی المسـلمین منهم-قـد اسـتدل بآیات القرآن الکریم لإثبات مقصوده،و لکنّهما فی بعض الأحیان و تحت تأثیر موقفهما قد استدلا بآیات لا ترتبط بمقصودهما إلّا من

۱- ۱) -الداروینیه،تألیف محمود بهزاد،الصفحه ۷۵ و ۷۶.

بعید،و لذلک سنتطرق إلی الآیات القابله للبحث و المناقشه.

أهم آیه یتمسک بها مؤید و الفرضیه،الآیه الثّالثه و الثلاثون من سوره آل عمران إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفیٰ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرٰاهِیمَ،وَ آلَ عِمْرٰانَ عَلَی الْعٰالَمِینَ .

فیقولون:کما أنّ نوحا و آل إبراهیم و آل عمران کانوا یعیشون ضمن أممهم فاصطفاهم اللّه من بینهم فکذلک آدم،أی ینبغی أنّه کان فی عصره و زمانه أناس باسم«العالمین»فاصطفاه اللّه من بینهم،و هذا یشیر إلی أن آدم لم یکن أوّل إنسان علی وجه الأرض،بل کان قبله أناس آخرون،ثمّ امتاز آدم من بینهم بالطفره الفکریه و الروحیه فکانت سببا لاصطفائه من دونهم.

هذا و ذکروا آیات أخر و لکنّها من حیث الأصل لا ترتبط بمسأله البحث،و لا یعدو تفسیرها بالتکامل أن یکون تفسیرا بالرأی،و بالبعض الآخر مع کونه ینسجم مع التکامل النوعی إلاّ أنّه ینسجم مع الثبوت النوعی و الخلق المستقل لآدم کذلک، و لهذا ارتأینا صرف النظر عنها.

أمّا ما یؤخذ علی هذا الاستدلال فهو أنّ کلمه«العالمین»إن کانت بمعنی الناس المعاصرین لآدم علیه السّلام و أنّ الاصطفاء کان من بینهم،کان ذلک مقبولا،أمّا لو اعتبرنا«العالمین»أعم من المعاصرین لآدم،حیث تشمل حتی غیر المعاصرین، کما

روی فی الحدیث المعروف عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی فضل فاطمه علیها السّلام حیث قال: «أمّا ابنتی فاطمه فهی سیده نساء العالمین من الأولین و الآخرین»، ففی هذه الحال سوف لا تکون لهذه الآیه دلاله علی مقصودهم،و هو شبیه بقول قائل:إنّ اللّه تعالی اصطفی عدّه أشخاص من بین الناس جمیعا فی کل القرون و الأزمان،و آدم علیه السّلام أحدهم،و عندها سوف لا یکون لازما وجود أناس فی زمان آدم کی یطلق علیهم اسم«العالمین»أو یصطفی آدم من بینهم،و خصوصا أن الاصطفاء إلهی،و اللّه عزّ و جلّ مطلع علی المستقبل و علی کافه الأجیال فی کل

الأزمان (۱) .

و أمّا مؤيد و ثبوت الأنواع فقد اختاروا الآيات مورد البحث و ما شابهها، حيث نقول إنّ اللّه تعالى خلق الإنسان من تراب من طين متعفن.

و من الملفت للنظر أن هذا التعبير قد ورد فی صفه خلق«الإنسان» وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ -الآیه السادسه و العشرون من سوره الحجر-و أیضا فی صفه خلق«البشر» وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَهِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ - الآیه الثامنه و العشرون من سوره الحجر-و فی مسأله سجود الملائکه بعد خلق شخص آدم أیضا(لاحظ الآیات ۲۹،۳۰،۳۱ من سوره الحجر).

عند الملاحظه الأولی للآیات یظهر أن خلق آدم کان من الحمأ المسنون أوّلا، و من ثمّ اکتملت هیئته بنفخ الروح الإلهیه فیه فسجد له الملائکه إلّا إبلیس.

ثمّ إنّ أسلوب تتابع الآیات لا ینم عن وجود أیّ من الأنواع الأخری منذ أن خلق آدم من تراب حتی الصوره الحالیه لبنیه.

و علی الرغم من استعمال الحرف«ثمّ»فی بعض من هذه الآیات لبیان الفاصله بین الأمرین،إلّا أنّه لا یدل أبدا علی مرور ملایین السنین و وجود آلاف الأنواع خلال تلک الفاصله.

بل لا مانع إطلاقا من کونه إشاره إلی نفس مرحله خلق آدم من الحمأ المسنون،ثمّ مرحله خلقه من الصلصال،فخلق بدن آدم،و نفخ الروح فیه.

و ذلک ما ملاحظه فی استعمال«ثمّ»فی مسأله خلق الإنسان فی عالم الجنین و المراحل التی یطویها.. یا أَیُّهَا النّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَهٍ ... ثُمَّ نُخْرِجُکُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ

۱- ۱) -و هناک احتمال آخر و هو:أن اصطفاء آدم من بین أولاده بعد أن مرت علیهم مده لیست بالطویله فتشکل من بینهم مجتمع صغیر.

(۱)

.

فهـذه الآيه المبارکه تدلل على أن اسـتعمال«ثم»يعبر عن وجود فاصـله ليس من الضـرورى أن تکون طويله،فيمکن کونها فاصـله طويله أو قصيره.

و خلاـصه مـا ذکر:أن الآيات القرآنيه و إن لم تتطرق مباشـره لمسأله التکامل النوعى أو ثبوت الأنواع،لکنّ ظاهرها(فى خصوص الإنسان)ينسـجم مع مسأله الخلق المسـتقل،و إن لم يکن بالتصـريح المفصل،لأنّ أکثر ما يدور ظاهر الآيات حول الخلق المسـتقل المباشر،أمّا ما يتعلق بخلق سائر الأحياء(من غير الإنسان) فقد سکت القرآن عنه.

۱- ۱) -سوره الحج،۵.

الآیات [سوره الحجر (۱۵): الآیات ۴۵ الی ۵۰]

اشاره

إِنَّ اَلْمُتَّقِینَ فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ (۴۵) اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ آمِنِینَ (۴۶) وَ نَزَعْنٰا مٰا فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوٰاناً عَلیٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِینَ (۴۷) لاٰ یَمَسُّهُمْ فِیهٰا نَصَبٌ وَ مٰا هُمْ مِنْهٰا بِمُخْرَجِینَ (۴۸) نَبِّئْ عِبٰادِی أَنِّی أَنَا اَلْغَفُورُ اَلرَّحِیمُ (۴۹) وَ أَنَّ عَذٰابِی هُوَ اَلْعَذٰابُ اَلْأَلِیمُ (۵۰)

التّفسیر

اشاره

نعم الجنّه الثّمان:

رأینا فی الآیات السابقه کیف وصف اللّه تعالی عاقبه أمر الشیطان و أنصاره و أتباعه،و أنّ جهنم بأبوابها السبعه مفتحه لهم.

و جریا علی أسلوب القرآن فی التربیه و التعلیم جاءت هذه الآیات المبارکات(و من باب المقارنه)لترفع الستار عن حال الجنّه و أهلها و ما ترفل به من نعم مادیه و معنویه،جسدیه و روحیه.

و قد عرضت الآیات ثمانیه نعم کبیره(مادیه و معنویه)بما یساوی عدد أبواب الجنّه.

۱-أشارت فی البدء إلی نعمه جسمانیه مهمّه حیث: إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ و یلاحظ أنّ هذه الآیه قد اتخذت من صفه(التقوی)أساسا لها،و هی

الخوف من اللّه و الورع و الالتزام،فهی إذن...جامعه لکافه صفات الکمال الإنسانی.

إنّ ذکر الجنات و العیون بصیغه الجمع إشاره إلی تنوع ریاض الجنّه و کثره عیونها،و التی لکل منها لذه ممیزه و طعم خاص.

۲ و ۳-ثمّ تشیر الآیات إلی نعمتین معنویتین مهمّتین أخیرتین(السلامه) و(الأمن)..السلامه من أیّ أذی و ألم،و الأمن من کل خطر،فتقول-علی لسان الملائکه مرحبه بهم-: اُدْخُلُوها بِسَلاٰمٍ آمِنِینَ .

و فی الآیه التّالیه بیان لثلاث نعم معنویه أخری:

۴- وَ نَزَعْنٰا مٰا فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أی:الحسد و الحقد و العداوه و الخیانه (۱) .

۵- إِخْوٰاناً تربطهم أقوی صلات المحبه.

۶- عَلیٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِینَ (۲) .

إن جلساتهم الاجتماعیه خالیه من القیود المتعبه التی یعانی منها عالمنا الدنیوی،فلا طبقیه و لا ترجیح بدون مرجح و الکل إخوان،یجلسون متقابلین فی صف واحد و مستوی واحد.

و بطبیعه الحال،فهذا لا ینافی تفاوت مقاماتهم و درجاتهم الحاصله من درجه الإیمان و التقوی فی الحیاه الدنیا،و لکنّ ذلک التساوی إنما یرتبط بجلساتهم الاجتماعیه.

۷-ثمّ تأتی الإشاره إلی النعمه المادیه و المعنویه السابعه:

---

۱ - ۱) -الغل:فی الأصل بمعنی النفوذ الخفی للشیء،و لهذا یطلق علی الحسد و الحقد و العداوه التی تنفذ بخفاء فی نفس الإنسان،فالغل مفهوم واسع یشمل الکثیر من الصفات الأخلاقیه القبیحه.

۲ - ۲) -السرر:جمع سریر،و هی المقاعد التی یجلسون علیها فی جلسات سمرهم.(علما بأن کلا من سرر و سریر من ماده واحده).

لاٰ يَمَسُّهُمْ فِيهٰا نَصَبٌ

إنّه ليس كيوم استراحه بهذه الدنيا يقع بين تعب و نصب قبله و بعده،و لا يدع الإنسان يجد طعم الراحه و الاستقرار.

۸-و لا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نعم وَ مٰا هُمْ مِنْهٰا بِمُخْرَجِينَ .

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليله التى ينالها المتقون فى الجنّه بذلك الرونق المؤثر الذى يوقع المذنبين و العاصين فى بحار لجيه من الغم و الحسره و يجعلهم يقولون:يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب،فهناك،يفتح اللّه الرحمن الرحيم أبواب الجنّه لهم و لكن بشرط،فيقول لهم بلهجه ملؤها المحبّه و العطف و الرحمه و على لسان نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نَبِّئْ عِبٰادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

إنّ كلمه«عبادى»لها من اللطافه ما يجذب كل إنسان،و حينما يختم الكلام ب اَلْغَفُورُ الرَّحِيمُ يصل ذلك الجذب إلى أوج شدته المؤثره.

و كما هو معهود من الأسلوب القرآنى،تأتى العبارات العنيفه حين تتحدث عن الغضب و العذاب الإلهى لتمنع من سوء الاستفاده من الرحمه الإلهيه،و لتوجد التعادل بين مسألتى الخوف و الرجاء،الذى يعتبر رمز التكامل و التربيه فيقول و بدون فاصله: وَ أَنَّ عَذٰابِي هُوَ الْعَذٰابُ الْأَلِيمُ .

بحوث

اشاره

۱-رياض و عيون الجنّه:

إنّ فهم و استيعاب أبعاد النعم الإلهيه التى تزخر بها الجنّه و نحن نعيش فى هذا العالم الدنيوى المحدود،يعتبر أمرا صعبا جدا،بل و من غير الممكن،لأنّ نعم هذا العالم بالنسبه لمنعم الآخره كنسبه الصفر إلى رقم كبير جدّا..و مع ذلك فلا يمنع من أن نحس ببعض أشعتها بفكرنا و روحنا.

إنّ القدر المسلم بهذا الخصوص،هو أنّ النعم الأخرويه متنوعه جدّا،و ينطق

بهذه الحقيقه التعبير بال«جنات»فی الآیات المتقدمه و غیرها من الآیات الأخر، و کذلک التعبیر بال«عیون».

لقد ورد فی القرآن الکریم(فی سور الإنسان،الرحمن،الدخان،محمد و غیرها)إشاره إلی أنواع مختلفه من هذه العیون،و أشیر الی تنوعها بإشارات صغیره.و لعل ذلک تصویر لأنواع الأعمال الصالحه فی هذا العالم،و سنشیر إلی هذا الأمر إن شاء اللّه عند تفسیرنا لهذه السور.

۲-النّعم المادیه و غیر المادیه:

علی خلاف ما یتصور البعض..فإنّ القرآن لم یبشر الناس دائما بالنعم المادیه للجنّه فقط،بل تحدث مرارا عن النعم المعنویه أیضا،و الآیات مورد البحث نموذج واضح لذلک حیث نری أن أول ما یواجه أهل الجنّه هناک هو الترحیب و البشاره من الملائکه لأهل الجنّه عند دخولهم فیها اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ آمِنِینَ .

و من النعم الروحیه الأخری التی أشارت إلیها هذه الآیات..تطهیر الصدور من الأحقاد و کل الصفات المذمومه کالحسد و الخیانه و ما شابهها،و التی تذهب بروح الأخوه.

و کذلک حذف الاعتبارات و الامتیازات الاجتماعیه المغلوطه التی تخدش استقرار فکر و روح الإنسان،و هو ما ذکره فی وصف جلساتهم.

و من نافله القول..أن(السلامه)و(الأمن)المجعولتین علی رأس النعم الأخروی،هما أساس لکل نعمه أخری،و لا یمکن الاستفاده الکامله من أیه نعمه بدونهما و هذا ما ینطبق حتی علی الحیاه الدنیا،فالأمن و السلام أساس لکل نعیم و رخاء و إلاّ فلا.

۳-الحقد و الحسد عدوّا الأخوه:

من لطيف ما يلاحظ فى هـذه الآيات أنّها بعد أن ذكرت نعمه السـلامه و الأمن، و قبل أن تتعرض لبيان حال الأخوّه و الألفه التى سيكون عليهـا أهل الجنّه،أشارت إلى مسأله نزع الصـفات المانعه للأخوّه،كالحقـد و الحسـد و الغرور و الخيانه،جامعه كل ذلك بكلمه«الغل»ذات المفهوم الواسع.

و فى الحقيقه،إنّ قلب الإنسان ما لم يطهر من هذا«الغل»فسوف لا تتحقق نعمه السـلامه و الأمن و لا الأخوّه و المحبّه،بل الحروب و المظالم و المجابهات و الصراعات على الدوام،و هو ما يؤدى إلى قلع جذور الأخوّه و السلامه و الأمن من الحياه.

۴-الجزاء الكامل:

يقول بعض المفسّـرين:إنّ الجزاء لاـ يكتمـل إلاّـ بـأربعه أمور:منـافع و خيره،أن تكون مقرونه بالاحترام،خاليه من أىّ ألم،دائمه و خالده.

و قد أشارت الآيات مورد البحث إلى هذه الأمور الأربعه...

فعباره إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ إشاره إلى المنفعه الأولى.

و عباره اُدْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ دليل على الاحترام و التقدير.

و عباره وَ نَزَعْنا ما فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ إشاره إلى نفى أى نوع من الآلام و المعاناه الروحيه(النفسيه).

و عباره لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ إشاره إلى نفى الآلام الجسمانيه.

أمّا عباره وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ فهى حاكيه عن آخر شرط،و هو دوام و بقاء النعم.

ص :۸۴

و بهذا یکون هذا الجزاء و الثواب کاملا من کل الجهات (۱) .

۵-تعالوا لنجعل من هذه الدنیا جنّه:

إنّ النعم المادیه و الروحیه الأخرویه التی صورتها الآیات السابقه فی حقیقتها تشکل أصول النعم لهذا العالم،و لعل القرآن الکریم یرید أن یفهمنا بأنّنا یمکن أن نوجد جنّه صغیره فی حیاتنا تکون شبیهه بتلک الجنّه الکبیره،فیما لو استطعنا أن نوفر شرائطها المطلوبه اللازمه.

فلو طهرنا قلوبنا من الحقد و العداوه.

و قوّینا بیننا روابط الأخوّه و المحبّه.

و حذفنا من حیاتنا تلک الاعتبارات و اشکال الترف الزائده و المفرقه.

و إذا ما عملنا لتحقیق الأمن و السلام فی مجتمعنا.

و إذا أدرک الناس بأنّه لا استعباد و لا استغلال و لا طبقیه فیما بینهم...فإنّنا- و الحال هذه-سنکون فی جنّه الحیاه الدنیا!!

۱- ۱) -التّفسیر الکبیر للفخر الرازی،ج ۱۹،ص ۱۹۳.

الآیات [سوره الحجر (۱۵): الآیات ۵۱ الی ۶۰]

اشاره

وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (۵۳) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (۵۴) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (۵۵) قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّالُّونَ (۵۶) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۵۷) قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۵۸) إِلاّ آلَ لُوطٍ إِنّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۹) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (۶۰)

التّفسیر

اشاره

الضّیوف الغرباء..!

تتحدث هذه الآیات المبارکات و ما بعدها عن الجنبه التربویه فی تاریخ حیاه الأنبیاء علیهم السلام و ما جری لهم مع العصاه من أقوامهم،و تطرح الآیات نماذج حیّه للاعتبار،لکلا الطرفین(عباد اللّه المخلصین من طرف و أتباع

الشيطان من طرف آخر).

و من لطيف البيان القرآنی شروع الآيات بذكر قصه ضيف إبراهيم(و هم الملائكه الذين جاؤوا بهيئه البشر و بشروه بولد جليل الشأن،و من ثمّ أخبروه عن أمر عذاب قوم لوط).

فقد جاء فی الآيتين السابقتين أمر اللّه إلی نبيّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بتبيان سعه رحمه اللّه للناس مع تبيان أليم عذابه،و يطرح فی هذه القصه نموذجين حيين لهاتين الصفتين،و بذلك تتبيّن صله الربط بين هذه الآيات.

فتقول أوّلا: وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرٰاهِيمَ .

فكلمه«ضيف»جاءت بصيغه المفرد،و لا مانع من ذلك حيث ذهب بعض كبار المفسّرين إلی أن«ضيف»تستعمل مفردا و جمعا.

و هؤلاء الضيوف هم الملائكه الذين دخلوا علی إبراهيم عليه السّلام بوجوه خاليه من الابتسامه،فابتدءوه بالسلام إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقٰالُوا سَلاٰماً .

فقام إبراهيم عليه السّلام بوظيفته(إكرام الضيف)،فهيأ لهم طعاما و وضعه أمامهم،إلاّ أنّهم لم يدنوا إليه،فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء،فعبّر عمّا جال فی خاطره قٰالَ إِنّٰا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (1) .

و كان مصدر خوف إبراهيم عليه السّلام ممّا كان عليه متعارفا فی مسأله رد الطعام أو عدم التقرب منه،فهو عندهم إشاره إلی وجود نيّه سوء أو علامه عداء.

و لكن الملائكه لم يتركوا ابراهيم فی هذا الحال حتی: قٰالُوا لاٰ تَوْجَلْ إِنّٰا نُبَشِّرُكَ بِغُلاٰمٍ عَلِيمٍ .

من هو المقصود بالغلام العليم؟ يبدو من خلال متابعه الآيات القرآنيه أنّ المقصود هو(إسحاق)،حيث نقرأ

1- 1) -إنّ الآيات مورد البحث لم تذكر هذا التفصيل فی تهيئه الطعام و عدم مد أيديهم إليه،إلاّ أنّ ذلك ورد فی الآيه(69) و(70)من سوره هود فليراجع.

فی سوره هود،الآیه(۷۱)أن امرأه إبراهیم کانت واقفه بقربه عند ما بشرته الملائکه،و یظهر کذلک أنّها کانت امرأه عاقرا فبشروها أیضا وَ امْرَأَتُهُ قائِمَهٌ فَضَحِکَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ .

و کما هو معروف فإنّ ساره،هی أم إسحاق،و لإبراهیم علیه السّلام ولد آخر أکبر من إسحاق و اسمه(إسماعیل)من(هاجر)-الأمّه التی تزوجها إبراهیم.

کان إبراهیم یعلم جیدا أنّه من المستبعد أن یحصل له ولد ضمن الموازین الطبیعیه،(و مع أن کل شیء مقدورا للّه عز و جلّ)،و لهذا أجابهم بصیغه التعجب:

قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلی أَنْ مَسَّنِیَ الْکِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ

..هل البشاره منکم أم من اللّه عزّ و جلّ و بأمره،أجیبونی کی أزداد اطمئنانا؟ إنّ تعبیر«مسّنی الکبر»إشاره إلی ما کان یجده من بیاض فی شعره و تجاعید فی وجهه و بقیه آثار الکبر فیه.

و یمکن لأحد أن یشکل:بأنّ إبراهیم علیه السّلام قد سبق بحاله مشابهه حینما ولد له إسماعیل علیه السّلام و هو فی الکبر..فلم التعجب من تکرار ذلک؟ و الجواب:أوّلا:کان بین ولاده إسماعیل و إسحاق(علی ما یقول بعض المفسّرین)أکثر من عشر سنوات،و بذلک یکون تکرار الولاده مع مضی هذه المدّه ضعیف الاحتمال.

و ثانیا:إنّ حدوث و وقوع حاله مخالفه للموازین الطبیعیه مدعاه للتعجب، و إذا ما تکررت فلا یمنع من التعجب لحدوثها و تکرارها مرّه أخری.

فولاده مولود جدید فی هکذا سن أمر غیر متوقع،و إذا ما وقع فهو غریب و عجیب فی کل الأحوال (۱) .

و علی أیه حال..لم یدع الملائکه مجالا لشک أو تعجب إبراهیم حیث قالُوا بَشَّرْناکَ بِالْحَقِّ فهی بشاره من اللّه و بأمره،فهی حقّ مسلّم به.

---

۱ – ۱) -یذکر بعض المفسّرین أن عمر إبراهیم علیه السلام عند ولاده ابنه إسماعیل کان(۹۹)عاما،و عند ولاده إسحاق کان عمره(۱۱۲)عاما.

و تأكيدا للأمر و دفعا لأى احتمال فى غلبه اليأس على إبراهيم،قالت الملائكه: فَلاٰ تَكُنْ مِنَ الْقٰانِطِينَ .

لكنّ إبراهيم عليه السّلام طمأنهم بعدم دخول اليأس من رحمه اللّه إليه،و إنّما هو فى أمر تلك القدره التى تجعل من اختراق النواميس الطبيعيه أمر حاصل و بدون الخلل فى الموازنه، قٰالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّٰالُّونَ .

إنّ الضالين هم الذين لا يعرفون اللّه و قدرته المطلقه،اللّه الذى خلق الإنسان ببنائه العجيب المحير من ذره تراب و من نطفه حقيره ليخرجه ولدا سويا،اللّه الذى حوّل نخله يابسه الى حامله للثمر بإذنه،اللّه الذى جعل النّار بردا و سلاما..هل من شك بأنّه سبحانه قادر على كل شىء،بل و هل يصح ممن آمن به و عرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته!؟! و راود إبراهيم عليه السّلام-بعد سماعه البشاره-أنّ الملائكه قد تنزلت لأمر ما غير البشاره،و ما البشاره إلاّ مهمّه عرضيه ضمن مهمّتهم الرئيسيه،و لهذا قٰالَ فَمٰا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قٰالُوا إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ .

و مع علم الملائكه بإحساس إبراهيم عليه السّلام المرهف و أنّه دقيق فى كل شىء و لا يقنع بالعموميات،فبينوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله إِلاّٰ آلَ لُوطٍ إِنّٰا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ .

إنّ ظاهر تعبير«آل لوط»و ما ورد من تأكيد بكلمه«أجمعين»سيشمل امرأه لوط الضاله التى وقفت فى صف المشركين،و لعل إبراهيم كان مطلعا على ذلك، و لذا أضافوا قائلين: إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنٰا إِنَّهٰا لَمِنَ الْغٰابِرِينَ .

و«قدّرنا»إشاره إلى المهمّه التى كلفوا بها من اللّه عزّ و جلّ.

هذا و قد بحثنا قصه نزول الملائكه على إبراهيم عليه السّلام و تبشيره بإسحاق عليه السّلام و حديثهم معه بشأن قوم لوط عليه السّلام مفصلا فى تفسيرنا للآيتين(۶۹ و ۷۰)من سوره هود من هذا التّفسير.

ص :۸۹

الآیات [سوره الحجر (۱۵): الآیات ۶۱ الی ۷۷]

اشاره

فَلَمّا جاءَ آلَ لُوطٍ اَلْمُرْسَلُونَ (۶۱) قالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (۶۲) قالُوا بَلْ جِئْناکَ بِما کانُوا فِیهِ یَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَیْناکَ بِالْحَقِّ وَ إِنّا لَصادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اَللَّیْلِ وَ اِتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ وَ اُمْضُوا حَیْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵) وَ قَضَیْنا إِلَیْهِ ذلِکَ اَلْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِینَ (۶۶) وَ جاءَ أَهْلُ اَلْمَدِینَهِ یَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَیْفِی فَلا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ اِتَّقُوا اَللّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶۹) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَکَ عَنِ اَلْعالَمِینَ (۷۰) قالَ هؤُلاءِ بَناتِی إِنْ کُنْتُمْ فاعِلِینَ (۷۱) لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَکْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ اَلصَّیْحَهُ مُشْرِقِینَ (۷۳) فَجَعَلْنا عالِیَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَیْهِمْ حِجارَهً مِنْ سِجِّیلٍ (۷۴) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ (۷۵) وَ إِنَّها لَبِسَبِیلٍ مُقِیمٍ (۷۶) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَهً لِلْمُؤْمِنِینَ (۷۷)

ص: ۹۰

التّفسير

اشاره

عاقبه مذنبی قوم لوط:

طالعتنا الآيات السابقه بقصه اللقاء بين ملائكه العذاب هؤلاء و بين إبراهيم عليه السّلام،و هذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصّه فتبتدأ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السّلام.

فنقرأ أوّلا فَلَمّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ .

فالتفت إليهم لوط قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ .

يقول المفسّرون:قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصوره ريعان الشباب،و هو يعلم ما كان متفشيا بين قومه من الانحراف الجنسی..فمن جهه،هم ضيوفه و مقدمهم مبارك و لا بد من إكرامهم و احترامهم،و لكنّ المحيط الذی يعيشه لوط عليه السّلام مريض و ملوث.

و لهذا ورد تعبير«سیء بهم»فی الآيات المتعرضه لقصه قوم لوط فی سوره هود،أی إنّ هذا الموضوع كان صعبا علی نبیّ اللّه و قد اغتم لقدومهم لتوقعه يوما عصيبا! و لكنّ الملائكه لم يتركوه و هذه الهواجس طويلا حتی سارعوا الی القول:

قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ

،أی إنّنا جئنا بالعذاب الذی واعدتهم به كثيرا،و ذلك لأنّهم لم يعتنوا و لم يصدقوا بما ذكرته لهم.

ثمّ أكّدوا له قائلين: وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِّ ،أی العذاب الحتمی الجزاء الحاسم لقومك الضالين.

ثمّ أضافوا لزياده التأكيد: وَ إِنّا لَصادِقُونَ .

فهؤلاء القوم قد قطعوا كل جسور العوده و لم يبق فی شأنهم محلا للشفاعه و المناقشه،كی لا يفكر لوط فی التشفع لهم و ليعلم أنّهم لا يستحقونها أبدا.

ثمّ قال الملائكه للوط:أخرج و أهلك من المدينه ليلا حين ينام القوم أو

ينشغلوا بشرابهم و شهواتهم،لأجل نجاه الثله المؤمنه من قومه(و هم أهله ما عدا زوجته).

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ

و كن خلفهم كى لا يتخلف أحد منهم و لتكون محافظا و رقيبا لهم وَ اتَّبِعْ أَدْبٰارَهُمْ و على أن يكون نظركم إلى الأمام وَ لاٰ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ،أى إلى أرض الشام،أو أىّ مكان آخر يكون فيه الناس مطهرين من هذه الآثام.

ثمّ ينتقل مجرى الحديث حيث يقول تعالى: وَ قَضَيْنٰا إِلَيْهِ ذٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دٰابِرَ هٰؤُلاٰءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ،أى سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.

و من الملفت للنظر،أن القرآن قد ترك القصّه عند هذا الحد و عاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه-لسبب سنشير إليه فيما بعد-فيقول: وَ جٰاءَ أَهْلُ الْمَدِينَهِ يَسْتَبْشِرُونَ أى إنّهم قد ظنوا بحصول لقمه جديده سائغه عن طريق ضيوف لوط! إنّ تعبير أَهْلُ الْمَدِينَهِ ليوحى إلى أن الذين تحركوا صوب منزل لوط عليه السّلام كانوا جمعا كبيرا،و هو ما يوضح بجلاء تلك الوقاحه و القبح و الجساره التى كانوا عليها،و خصوصا قوله يَسْتَبْشِرُونَ التى تحكى عمق تلوثهم بذلك الدرك السافل،مع أنّ مثل هذا الفعل القبيح ربّما لا يشاهد حتى بين الحيوانات،و إذا ما ابتلى به إنسان(و العياذ باللّه)فإنّه سوف يحاول كتمه و إخفاؤه،حيث أن الإتيان به مدعاه للتحقير و الازدراء من قبل الآخرين..أمّا قوم لوط،فكانوا مستبشرين بذلك الصيد الجديد و كل يهنئ الآخر على ما سيصيبه من نصيب!! و حينما سمع لوط أصواتهم و ضجيجهم أغتم غمّا شديدا لأجل ضيوفه،لأنّه ما كان يدرى أنّهم ملائكه العذاب الى ذلك الوقت و لهذا قٰالَ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ ضَيْفِى فَلاٰ تَفْضَحُونِ .

أى..إن كنتم لا تؤمنون باللّه و لا تصدقون بالنّبى و لا تعتقدون بثواب و عقاب،فراعوا حق الضيافه التى هى من السنن المتعارف عليها عند كل

المجتمعات سواء كانت مؤمنه أم كافره،أیّ بشر أنتم؟لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانیه،فإن لم یکن لکم دین فکونوا أحرارا فی دنیاکم! ثمّ أضاف قائلا: وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ (۱) أمام ضیفی.

و لکنّهم من الوقاحه و الإصرار علی الانحراف بحیث صاروا لا یشعرون بالخجل من أنفسهم،بل راحوا یحاجون لوطا و یحاسبونه،و کأنّه ارتکب جرما فی استضافته لهؤلاء القوم قٰالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَکَ عَنِ الْعٰالَمِینَ ،باستضافتهم!فلما ذا خالفت أمرنا؟! و کان قوم لوط من البخل بحیث أنّهم لا یحبون الضیافه،و کانت مدینتهم علی طریق القوافل،و یبررون فعلهم القبیح ببعض الواردین لأجل أن لا ینزل عندهم أحد من القوافل الماره،و تعارفوا علی ذلک حتی أصبح عندهم عاده.

و کما یبدو أنّ لوطا کان حینما یسمع بأحد الغرباء یدخل المدینه یسرع لاستضافته خوفا علیه من عمل قومه الخبیث،و لما علم أهل المدینه بذلک جاؤوا إلیه غاضبین و نهوه عن أن یستضیف أحدا مستقبلا.

علیه،فکلمه«العالمین»فی الآیه أعلاه-ما یبدو-إشاره إلی عابری السبیل، و من هم لیسوا من أهل تلک المدینه.

و عند ما رآهم لوط علی تلک الحال من الوقاحه و الجساره،أتاهم من طریق آخر لعلهم یستفیقون من غفلتهم و سکر انحرافهم،فقال لهم:إن کنتم تریدون إشباع غرائزکم فلما ذا تسلکون سبیل الانحراف و لا تسلکون الطریق الصحیح(الزواج) قٰالَ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی إِنْ کُنْتُمْ فٰاعِلِینَ .

۱- ۱) -نری فی هذه الآیات أن لوطا یطلب من قومه أن لا یفضحوه تاره و ألّا یخزوه تاره أخری،الفضیحه لغه بمعنی: انکشاف شیء،و ظهور العیب أیضا(و أراد لوط أنّه یفهمهم بأن عملکم القبیح هذا سیخجلنی أمام ضیوفی و یعرفوا مدی خباثه أهل مدینتی). أمّا الخزی:فهو بمعنی الإبعاد و کذلک بمعنی الخجل(و أراد لوط أن یقول لهم:لا تخجلونی أمام ضیوفی و تباعدوا بینی و بینهم).

ممّا لا شك فيه أنّ بنات لوط لا يكفين لـذلک العـدد الهائل من المتحجرين حول داره،و لکن لوطا الـذی کان يهدف إلى إلقاء الحجّه عليهم أراد أن يقول لهم:

اننى مستعد الى هذه الدرجه للتضحيه من أجل الضيف،و کذلک لأجل إنقاذکم من الفساد و نجاتهم من الانحراف.

و ذهب البعض إلى أنّ المقصود من هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِي کـل بنـات المـدينه،باعتباره أبا روحيا للجميع.(إلّا أنّ التّفسـير الأوّل أقرب إلى معنى الآيه).

و ليس نجاف أنّ لوطا ما کان ليزوج بناته من أولئک المشرکين الضالين، و لکنّه أراد أن يقول لهم:تعالوا آمنوا لأزوجکم بناتی.

لکنّ الويل،کل الويل من سـکرات الشهوه،الانحراف الغرور و العناد..التی مسحت عنهم کل قيم الأخلاق الإنسانيه و أفرغتهم من العواطف البشريه،و التی بها يحسون بالخجل و الحياء أمام منطق لوط عليه السّلام،أو أن يترکوا بيت لوط و ينسحبوا عن موقفهم، و لکنّ أنّى لهم ذلک،و الأکثريه بسبب عدم تأثرهم بحديث لوط استمروا فی غيهم و أرادوا أن يمدوا أيديهم إلى الضيوف.

و هنا يخاطب اللّه تعالى نبيّه قائلا: لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَکْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .

و قرأنـا فی سوره هود-فيمـا يتعلق بهـذه القصّه-أنّ ملائکه العـذاب قـد کشـفوا عن أمرهم و قالوا للوط:لا تخف إنّهم لن يصـلوا إليک.

و فی الآيه السابعه و الثلاثين من سوره القمر نقرأ وَ لَقَدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنٰا أَعْيُنَهُمْ .

و فی بعض الرّوايات:إنّ أحد هؤلاء الضيوف أخذ قبضه من تراب فرماها فی وجوه القوم فأصبحوا لا يبصرون جميعا.

و بعـد ذلـک يبلغ کلام اللّه تعالى عن هؤلاء القوم الـذروه حينما يبيّن عاقبتهم السـيئه فی آيتين قصـيرتين و بشـکل حـدّی ملیء بالدروس و العبر بقوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ أی صوت شديد عند شروق الشمس.

ص: ۹۴

و یمکن حمل«الصیحه»علی أنّها صاعقه عظیمه أو صوت زلزله رهیب، و المهم أنّه کان صوتا مرعبا أسقط الجمیع مغمیا علیهم أو میتین.

و المعلوم أنّ الأمواج الصوتیه إذا ما تعدت حدّا معینا فستکون مرعبه مخیفه تهز فرائص الإنسان،و إذا ما ازدادت شدتها فستبهت الإنسان و تشلّه عن الحرکه و ربّما تودی بحیاته، بل و من الممکن لها أن تهدم الأبنیه،و هذا ما تفعله المتفجرات.

و لم یکتف بذلک بل شمل العذاب المدینه أیضا فَجَعَلْنا عالِیَها سافِلَها .

و زید فی التنکیل بهم وَ أَمْطَرْنا عَلَیْهِمْ حِجارَهً مِنْ سِجِّیلٍ .

إنّ سقوط الحجاره علی رؤوسهم ربّما کان یستهدف من لم یمت من الصیحه المرعبه و لم یصبح تحت الأنقاض،و ربّما لأجل محو أجسادهم،و جثثهم من علی الأرض کی لا یبقی أثر لهؤلاء القوم المجرمین،حتی أنّ المار علی تلک الدیار بعد نزول الأحجار لا یصدق بسهوله أنّها کانت مدینه معموره! ثمّ إنّ نزول هذا العذاب ذو المراحل الثلاث(الصیحه الرهیبه،قلب المدینه، المطر الحجری)-رغم أن کل واحده منهن کانت تکفی لقطع دابر القوم-کان لمضاعفه عذابهم لشدّه فسادهم و جسارتهم و إصرارهم علی إدامه التلوّث بتلک القبائح الشنیعه،و کی یکون عبره لمن یعتبر.

و هنا یخلص القرآن الکریم إلی النتائج الأخلاقیه و التربیه فیقول: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ (1) العقلاء الذین یفهمون الأحداث بفراستهم و ذکائهم و نظرهم الثاقب و یحملون من کل إشاره حقیقه و من کل تنبیه درسا.

و لا تتصوروا أن آثارهم ذهبت تماما،بل هی باقیه علی طریق القوافل و الماره وَ إِنَّها لَبِسَبِیلٍ مُقِیمٍ .

1- 1) -متوسم:من ماده(وسم)-علی وزن رسم-أی ترک أثرا،و یقال لمن یخلص من أثر صغیر إلی نتائج و حقائق کبیره (متوسم).

و إن لـم تصـدقوا فـاذهبوا لرؤيه آثـار المـدن المعـذبه الـواقعه على طريـق المســافرين إلى الشـام(من المـدينه)فـانظروا و فكروا و اعتبروا،و عودوا إلى اللّه، و اسلكوا طريق التوبه،و طهّروا نفوسكم من الآثام و الذنوب.

ثمّ تدعوا الآيه المؤمنين إلى التفكر مليا فى هذه القصه و استخلاص العبر منها:

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ

.

فكيف يمكن للمؤمن أن لا يعتبر و لا يهتز عند ما يطالع خبر هذه الواقعه؟! بحثنا بشىء من التفصيل فى الآيات المتعلقه بقوم لوط فى سوره هـود مـن هـذا التفسـير،فبحثـنا فى معنى«سـجيل»،و لمـا ذا أمطر على هؤلاء القـوم المنحرفيـن بالحجاره،و لمـاذا قلبت مـدينتهم،و لمـا ذا كـان العـذاب صـباحا،و لمـا ذا أمر لوط و أهله أن لا يلتفتوا إلى الوراء،و كـذلك بحثنا مسأله تحريم الشـذوذ الجنسى فى الأديان السماويه و فلسفه التحريم،بالإضافه إلى بحث فى أخلاق قوم لوط...

و سنبحث هنا بعض ما تبقى من الإشارات المتعلقه بهذه القصّه.

بحوث

اشاره

١-ما المقصود ب بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ؟

«القطع»بمعنى سواد الليل،يقول المرحوم الطبرسى فى(مجمع البيان):القطع كأنّه جمع قطعه،و معناه:سر بأهلك بعد ما يمضى أكثر الليل و تبقى قطعه منه.

و لكنّ الراغب الأصـفهانى فى مفرداته يعتبر كلمه«قطع»بمعنى قطعه على صـيغه المفرد،مع أن كثيرا من المفسّرين فسّروها بأواخر الليل و عند السحر،و لعل تفسيرهم يعود إلى الآيات الأخرى التى تحدد هذا الوقت فى قصّه آل لوط

نَجَّيْنٰاهُمْ بِسَحَرٍ

(۱)

.

أی إنّهم خرجوا عند ما کان عبّاد الشهوه غارقین فی نوم غفلتهم و قد أفسد وجودهم سکر الشراب و الغرور و الشهوات،فکانت المدینه مهیئه لآل لوط فی الخروج بسلام.

ثمّ إنّ نزول العقاب کان فی الصباح عند شروق الشمس،و لعل انتخاب هذا الوقت کان لإعطاء المهله لقوم لوط بعد أن فقدوا أبصارهم،عسی أن یتفکروا فی أمرهم فیعیدوا النظر فی شرکهم و عصیانهم،فکانت تلک اللیله آخر فرصه لهم.

و یستفاد من بعض الرّوایات..أنّ بعضا منهم عند ما کانوا فی طریق عودتهم إلی دورهم أقسموا أن لا یدعوا أحدا من آل لوط حیا عند الصباح،و لهذا نزل علیهم العذاب الإلهیه فی ذلک الوقت (۲) .

۲-تفسیر قوله تعالی: وَ امْضُوا حَیْثُ تُؤْمَرُونَ .

ذکرنا أنّ الملائکه أوصت آل لوط بالخروج آخر اللیل إلی المکان الذی عین لهم،إلاّ أن الآیات القرآنیه لم تدخل فی تفاصیل ذلک السفر و لم تعین المنطقه التی سیذهبون إلیها،لذلک عرض المفسّرون جمله آراء بهذا الخصوص.

فمنهم من قال:أمروا بالسیر نحو الشام لأنّ محیطها أکثر طهاره.

و قال بعض آخر:إنّ الملائکه عینت لهم قریه و طلبت منهم الذهاب إلیها.

و اکتفی تفسیر المیزان بعباره:کان لدیهم نوع من الهدیه الإلهیه و الدلاله العلمیه فی سلوک طریقهم.

۱- ۱) -سوره القمر،۳۴.

۲- ۲) -نور الثقلین،ج ۲،ص ۳۵۸.

۳-علاقه الرّبط بین«المتوسم»و«المؤمن».

لاحظنا تعبیر إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ و إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِلْمُؤْمِنِینَ فی الآیات الحاکیه عن قصّه قوم لوط،و الجمع بین التعبیرین یعطینا:أنّ المؤمن الحقیقی هو المتوسم الذی ذو الفراسه و النباهه.

و

فی روایه عن الإمام الباقر علیه السّلام عند ما سئل عن تفسیر قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ قال:هم الأئمه،ثمّ قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«اتقوا فراسه المؤمن،فإنّه ینظر بنور اللّه عزّ و جلّ» (۱) .

و

فی روایه أخری عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «هم الأئمّه» (۲) .

و

روی أن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه قال: «کان رسول اللّه المتوسم،و أنا من بعده،و الأئمّه من ذریتی المتوسمون» (۳) .

۴-سکر الشّهوه و الغرور!

إن سکر الخمر معروف،و ثمه سکر أشد منه آثارا کسکر المنصب و سکر الشهوه،و قرأنا فی الآیات السابقه کیف أن اللّه یقسم بروح نبیّه لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَکْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ ،و لهذا فإنّهم لا یبصرون أوضح طرق النجاه،و بلغ بهم الحال أن یردوا ما عرض علیهم نبیّهم علیهم السّلام أن یشبعوا شهواتهم بالطریق الصحیح المشروع لیتخلصوا من الذنوب و التلوثات و قبائح الأفعال! و الذی نستفیده من موقف لوط علیه السّلام هو أنّ مکافحه الفساد لا یتم بالنهی عنه فقط،بل لا بدّ من تهیئه و تعبید الطریق المعبده البدلیه،لینتقل الضال أو المضلل به من جاده الفساد إلی جاده الصلاح،فلا بد من تهیئه الأوضاع و الأجواء السلیمه

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۳،ص ۲۳.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -المصدر السابق.

للناس مع وجود البرامج المؤثره الهادفه.

و من غريب ما نطالعه فی بعض الرّوایات..أنّ لوطا(هذا النّبی الجلیل) قد قضی بین قومه ثلاثین عاما و هو یدعوهم إلی الهدی و یحذرهم من مغبه الانغماس فی متاهات الضلال،و مع ذلک لم یؤمن به إلاّ أهل بیته(ما عدا زوجته) (۱) .

ما أعظم ثباته علیه السّلام!مع منحرفین لدرجه لا یطیق أیّ إنسان العیش معهم حتی و لو لساعه واحده!بل و ما أصعب العیش مع تلک الزوجه! و نقرأ فی الآیتین الخامسه و الثلاثین و السادسه و الثلاثین من سوره الذاریات: فَأَخْرَجْنا مَنْ کانَ فِیها مِنَ الْمُؤْمِنِینَ فَما وَجَدْنا فِیها غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِینَ ؟ فیتّضح لنا..أنّ العقاب الإلهی لا یکون عشوائیا،بل لا یشمل إلاّ المستحقین له و لو کان هناک مؤمن واحد عامل بواجباته لا نقذه اللّه تعالی من بینهم.

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۳،ص ۳۸۲.

الآيات [سوره الحجر (۱۵): الآيات ۷۸ الی ۸۴]

اشاره

وَ إِنْ كٰانَ أَصْحٰابُ اَلْأَيْكَهِ لَظٰالِمِينَ (۷۸) فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمٰا لَبِإِمٰامٍ مُبِينٍ (۷۹) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحٰابُ اَلْحِجْرِ اَلْمُرْسَلِينَ (۸۰) وَ آتَيْنٰاهُمْ آيٰاتِنٰا فَكٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ (۸۱) وَ كٰانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ اَلْجِبٰالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (۸۲) فَأَخَذَتْهُمُ اَلصَّيْحَهُ مُصْبِحِينَ (۸۳) فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۸۴)

التّفسير

اشاره

خاتمه أصحاب الأيكه و أصحاب الحجر:

يشير القرآن الكريم فى هـذه الآيـات إلى قصّتين من قصـص الأـمم السـالفه، و هما(أصـحاب الأيكه)و(أصـحاب الحجر)ليكمل البحث الذى عرضه فى الآيات السابقه حول قوم لوط.

يقول أوّلا: وَ إِنْ كٰانَ أَصْحٰابُ اَلْأَيْكَهِ لَظٰالِمِينَ (۱) .

فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ

و عاقبناهم على ظلمهم و استبدادهم..

ص: ۱۰۰

۱- ۱) -إنّ كلمه«إنّ»فى هذه الآيه ليست شرطيه و إنّما هى مخففه،فيكون تقدير الكلام(إنه كان أصحاب الأيكه لضالمين).

و جعلنا أرضـهم و أرض قوم لوط-المتقدمه قصّـ تهم-على طريقكم وَ إِنَّهُمٰا لَبِإِمٰامٍ مُبِينٍ فانظروا إليها و إلى عاقبه أمرهم،و اعتبروا يا أولى الألباب.

من هم أصحاب الأيكه؟

قـال جمع مـن المفسّـرين،بالإضـافه إلى أربـاب اللغـه:«الأيكه»:هى الأشـجار المتشـابكه مع بعضـها،و«أصـحاب الأيكه»:هم قوم«شـعيب»الـذين عـاشوا فى بلـده مليئه بالمـاء و الأشـجار بين الحجـاز و الشـام و كـانت حيـاتهم مرفهه ثريه فأصـيبوا بالغرور و الغفله،فأدى ذلك إلى الاحتكار و الفساد فى الأرض.

و قد دعاهم شـعيب عليه السّـلام إلى التوحيد و نهج طريق الحق،مع تحذيره المكرر لهم من عاقبه أعمالهم السيئه فيما لو استمروا على الحال التى هى عليها.

و من خلال ما بيّنته الآيات فى سوره هود،فإنّهم لم ينصاعوا للحق و لم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب اللّه المهلك.

فبعد أن يئس من إصـلاحهم أصابهم حرّ شديد اسـتمر لعدّه أيّام متصـله،و فى اليوم الأخير ظهرت سـحابه فى السماء اجتمعوا فى ظلها،ليتفيئوا من حر ذلك اليوم،فنزلت عليهم صاعقه مهلكه فقطعت دابرهم عن آخرهم.

و لعـل اسـتعمال القرآن لعبـاره«أصـحاب الأيكه»فى تسـميتهم،إشـاره إلى النعم الـتى أعطاهـا اللّه لهم،و لكنّهم اسـتبدلوا الشـكر بالكفر،فأقاموا صرح الظلم و الاستبداد،فحقّت عليهم كلمه اللّه فأهلكوا بالصاعقه هم و أشجارهم.

و ورد ذكرهم مفصلا-مع التصريح باسم شعيب-فى الآيات(۱۷۶)حتى (۱۹۰)من سوره الشعراء.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ عباره فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ يمكن أن تشمل قوم لوط و أصحاب الأيكه معا،بدليل ما يأتى بعدها مباشره وَ إِنَّهُمٰا لَبِإِمٰامٍ مُبِينٍ .

و المشهور عند المفسّرين أنّ الآيه تشير إلى مدينه قوم لوط و مدينه أصحاب

الأيكه.

و كلمه«إمام»بمعنى طريق و جاده،لأنّها من ماده.«أمّ»،بمعنى القصد،حيث أنّ الإنسان حينما يسير فى طريق ما إنّما يسير لأجل الوصول إلى غايه معينه أو قصد معين.

و احتمل البعض أنّ الإمام المبين هو اللوح المحفوظ،بدلاله الآيه(١٢)من سوره يس.

و لكن هذا الاحتمال مستبعد،لأنّ القرآن هنا فى صدد إعطاء درس العبره للاعتبار،و وجود اسم هذين البلدين فى اللوح المحفوظ سيكون بعيدا عن التأثير فى اعتبار الناس و تذكيرهم،فى حين أن وجود هذين البلدين على طريق القوافل و الماره يمكن أن يكون له الأثر البالغ فيهم.

فعند وقوف الناس قرب تلك الآثار و تذكر خبر أهلها و ما جرى لهم من سوء العاقبه،ربّما سيهمل دموع العابرين عند أرض قوم لوط مرّه،و عند أرض أصحاب الأيكه مرّه أخرى..فتكون تلك اللحظات لحظات اعتبار،بعد ما عرفوا أو استذكروا ما حل بالقومين من دمار و هلاك نتيجه ظلمهم و ظلالهم.

أمّا«أصحاب الحجر»فهم قوم عصاه عاشوا مرفهين فى بلده تدعى«الحجر» و قد بعث اللّه إليهم نبيّه صالح عليه السّلام لهدايتهم.

و يقول القرآن عنهم: وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ! و لكن أين تقع هذه البلده؟ يذكر بعض المفسّرين و المؤرخين:أنّها كانت على طريق القوافل بين المدينه و الشام فى منزل يسمى(وادى القرى)فى جنوب(تيماء)و لا أثر لها اليوم-تقريبا.

ص :١٠٢

و یـذکرون أنّها کانت إحـدی المـدن التجاریه فی الجزیره العربیه،و لها من الأهمیه بحیث ذکرها(بطلیموس)فی مـذکراتها لکنها إحدی المدن التجاریه.

و کذلک ذکرها العالم الجغرافی(بلین)باسم(حجری).

و نسـتشف من بعض الرّوایـات أنّ الرّسـول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم عنـد مـا قـاد جیشـا لـدفع جیش الروم فی السـنه التاسـعه للهجره،أراد الجنود أن یتوقفوا فی هذا المکان،فمنعهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و

قال: هنا نزل عذاب اللّه علی قوم ثمود (۱) .

و من الجدیر ذکره أنّ القرآن الکریم ذکر مسأله تکذیب الأنبیاء فی خبر أصحاب الحجر(و کذلک قوم نوح و قوم شعیب و قوم لوط فی الآیات(۱۰۵ و ۱۲۳ و ۱۶۰)من سوره الشعراء)بالإضافه إلی أقوام أخر کذبت الأنبیاء علیهم السّلام، و الواضح من خلال ظاهر القصص أن لکل قوم کان نبیّ واحد لا أکثر.

و لعل مجیء هذا التعبیر فی هذه الآیه(المرسلین)،باعتبار أنّ الأنبیاء لهم برنامج واحد و هدف واحد،و بینهم من درجه من الصله بحیث أن تکذیب أیّ منهم هو تکذیب للجمیع.

و احتمل آخرون وجود أکثر من نبی وسط الأمّه الواحده،و ذکر اسم أحدهم لأنّه أکثر شهره.

و کما یبدو فإنّ التّفسیر الأوّل أقرب إلی الصواب منه إلی الثّانی.

و یسـتمر القرآن بالحدیث عن«أصحاب الحجر»: وَ آتَیْناهُمْ آیاتِنا فَکانُوا عَنْها مُعْرِضِینَ و موقف الأعراض المشار إلیه-کما یبدو- هو عدم استعدادهم لسماع الآیات و التفکر بها.

و تشـیر الآـیه إلی أنّهم کـانوا من الجـد و الـدقّه فی أمور معاشـهم و حیاتهم الـدنیویه حتی أنّهم وَ کانُوا یَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُیُوتاً آمِنِینَ .

ص :۱۰۳

۱- ۱) -أعلام القرآن،الخزائلی،الصفحه ۲۹۲.

و هو ما يبيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جبليه، بالإضافه إلى ما توصلوا إليه من مدنيه متقدمه،حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول و العواصف و الزلازل.

و العجيب من أمر الإنسان،أنّه يحزم أمره لتجهيز و تحصين مستلزمات حياته الفانيه،و لا يعير أىّ اهتمام لحياته الباقيه،حتى يصل به المال لأن لا يكلف نفسه بسماع آيات اللّه و التفكر بها!!.

و أىّ عاقبه ينتظرون بعد عنادهم و كفرهم غير أن يطبق عليهم القانون الإلهى الموعدين به(البقاء للإصلاح)و عدم إعطاء حق إدامه الحياه لأقوام فاسدين و مفسدين..فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك،و لهذا يقول القرآن: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ .

و كانت«الصيحه»عباره عن صوت صاعق مدمر نزل على دورهم و كان من القّوه و الرهبه بحيث جعل أجسادهم تتناثر على الأرض.

و الشاهد على ما قلناه ما تحدثنا به الآيه الثّالثه عشر من سوره فصلت: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ .

فالعذاب الإلهى لا تقف أمامه الجبال الشاهقه،و لا البيوت المحصنه،و لا الأبدان القويه أو الأموال الوافره،و لهذا يأتى فى نهايه قصتهم فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ .

و جاءت الآيات(١۴١ إلى ١۵٨)من سوره الشعراء بتفصيل أكثر،و هو ما سيأتى فى محله إن شاء اللّه تعالى.

الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٨٥ الى ٩١]

اشاره

وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ اَلسّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ اَلصَّفْحَ اَلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ اَلْخَلاّٰقُ اَلْعَلِيمُ (٨۶) وَ لَقَدْ آتَيْنٰاكَ سَبْعاً مِنَ اَلْمَثٰانِي وَ اَلْقُرْآنَ اَلْعَظِيمَ (٨٧) لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اِخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا اَلنَّذِيرُ اَلْمُبِينُ (٨٩) كَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَى اَلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) اَلَّذِينَ جَعَلُوا اَلْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)

التّفسير

يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفه-كقوم لوط و قوم شعيب و صالح-إلى مسأله التوحيد و المعاد،لأنّ سبب ضلال الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيده صحيحه،و لعدم ارتباطه بمسأله المبدأ و المعاد،فيشير إليهما معا فى آيه واحده وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ .

فنظامها محسوب و محكم و هو حق،و كذا هدف خلقها حقّ.

فيكون هذا النظام البديع و الخلق الدقيق المنظم دليلا واضحا على الخالق

ص:١٠۵

العالم القادر جلّ و علا-و هو حق أيضا،بل هو حقيقه الحق،و كل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق،و كل شيء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل..و هذا ما يخصّ التوحيد أمّا في المعاد فيقول: وَ إِنَّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ ..و إن تأخرت فإنّها آتيه بالنتيجه.

و لا يبعد أن تكون الفقره الأولى بمنزله الدال على الفقره الثّانيه،لأنّ هذا العالم إنّما يكون حقا عند ما يكون لهذه الأيّام الدنيويه المليئه بالآلام و المتاعب هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير-فليست الدنيا لنحياها و تنتهي-و لهذا فمسأله خلق السماوات و الأرض و ما بينهما حقّ يدل على وجود يوم القيامه و الحساب،و إلاّ لكان الخلق عبثا و ليس حقّا-فتأمل.

و بعد ذلك..يأمر اللّه تعالى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقابل عناد قومه و جهلهم و تعصبهم و عداءهم بالمحبّه و العفو و غض النظر عن الذنوب،و الصفح عنهم بالصفح الجميل،أي غير مصحوب بملامه فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ .

لأنّك تملك الدليل الواضح على ما أمرت بالدعوه إليه،فلا تحتاج و إيّاهم إلى الخشونه لتثبيت عقيده المبدأ و المعاد في قلوب الناس،فالعقل و المنطق السليم معك.

بالإضافه إلى أنّ الخشونه مع الجهله غالبا ما تؤدي بهم إلى الرد بالمثل،بل و بأشد من ذلك.

الصفح:هو وجه كل شيء،كوجه الصوره (1) ،و لهذا فقد جاءت كلمه«فاصفح» بمعنى أدر وجهك و غض النظر عنهم.

و بما أنّ إداره الوجه و صرفه عن الشيء قد تعطي معنى عدم الاهتمام و النفره و ما شابه ذلك بالإضافه لمعنى العفو و الصفح،فقد ذكرت الآيه المتقدمه كلمه

١- ١) -يقول الفيروزآبادي،في القاموس،ج ١،ص ٢۴٢:الصفح:الجانب،و من الجبل مضطجعه،و منك جنبك،و من الوجه و السيف عرضه.

«الجميل»بعد«الصفح»لكى تحدد المعنى الثّانى.

و

فى روايه عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى تفسير هذه الآيه أنّه قال:

العفو من غير عتاب (۱) .

و روى مثل ذلک عن الإمام زين العابدين عليه السّلام (۲) .

الآيه التاليه-كما يقول جمع من المفسّرين-بمنزله الدليل على وجوب العفو و الصفح الجميل،حيث يقول: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْخَلّاقُ الْعَلِيمُ .

فاللّه يعلم بأنّ الناس ليسوا سواسيه من جهه الطبائع و المستويات الفكريه و العاطفيه و هو سبحانه مطلع على ما تخفيه صدورهم،و ينبغى معاملتهم بروحيه العفو و المسامحه ليهتدوا إلى طريق الحق بأسلوب الإصلاح المرحلى أو التدريجى.

و لا يرمز ذلک إلى الجبر فى أعمال الناس و سلوكهم،بقدر ما هو إشاره إلى أمر تربوى يأخذ بنظر الاعتبار اختلاف الناس فى القابليات.

و ممّا يجدر ذكره..تصور البعض أنّ الأمر الإلهى مختص بفتره حياه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّه قبل الهجره،و عند ما هاجر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينه أصبح للمسلمين القدره و القوّه فنسخ هذا الأمر و جاء الجهاد بدله.

و لكننا نجد ورود هذا الأمر فى السور المدنيه أيضا (كسوره البقره و سوره النّور و التغابن و المائده)،فبعض منها يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالعفو و الصفح،و البعض الآخر يأمر المؤمنين بذلک.

فيتّضح لنا أنّ أمر الصفح عام و دائم،و هو لا يعارض أمر الجهاد أبدا،فلكلّ محله الخاص به.

فإذا كان الموقف يستدعى العفو و التسامح،فلم لا يؤخذ به!و إذا كان مدعاه

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۲۷.

۲- ۲) -المصدر السّابق.

للتجرؤ و الجساره من قبل الأعداء و لا ينفع معهم إلاّ الشده،فلا مناص حينئذ من الأخذ بأمر الجهاد.

ثمّ يواسى اللّه تعالى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم..أن لا تقلق من وحشيه الأعداء و كثرتهم و ما يملكون من إمكانات ماديه واسعه،لأنّ اللّه أعطاك ما لا يقف أمامه شيء وَ لَقَدْ آتَيْنٰاکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثٰانِی وَ الْقُرْآنَ الْعَظِیمَ .

و كما هو معلوم،فإنّ«السبع»هم العدد سبعه،و«المثانى»هو العدد اثنان، و لهذا اعتبر أكثر المفسّرون أنّ«سبعا من المثانى»كنايه عن سوره الحمد، و الرّوايات كذلك تشير لهذا المعنى.

و الداعى لذلك كونها تتألف من سبع آيات،لأهميتها و عظمه محتواها فقد نزلت مرتين على النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أو لأنّها تتكون من قسمين(فنصفها حمد و ثناء للّه عزّ و جلّ و النصف الآخر دعاء عباده)،أو لأنّها تقرأ مرّتين فى كل صلاه (۱) .

و احتمل بعض المفسّرين أن«السبع»إشاره إلى السور السبع الطول التى ابتدأ بها القرآن،و«المثانى»كنايه عن نفس القرآن،لأنّه نزل مرتين على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّه بصوره كامله،و أخرى نزل نزولا تدريجيا حسب الاحتياج إليه فى أزمنه مختلفه.

و على هذا يكون معنى سَبْعاً مِنَ الْمَثٰانِی سبع سور مهمات من القرآن.

و دليلهم فى ذلك الآيه الثّالثه و العشرون من سوره الزمر،حيث يقول تعالى:

اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِیَ ،أى مرتين على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لكنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صوابا،خصوصا و أنّ روايات أهل البيت عليهم السّلام تشير إلى أنّ«السبع المثانى»هى سوره الحمد.

و اعتبر الراغب فى مفرداته أنّ كلمه«المثانى»أطلقت على القرآن لما يتكرر

۱- ۱) -و فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ اللّه عزّ و جلّ قال:قسّمت الصلاه بينى و بين عبدى نصفين،نصفها لى و نصفها لعبدى» مجمع البيان،ج ۱،ص ۱۷،و راجع كذلك تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۲۸ و ۲۹.

من قراءه آياته،و هـذا التكرار هو الذى يحفظه من التلاعب و التحريف(إضافه إلى أنّ حقائق القرآن تتجلى فى كل زمان بشكل جديد ينبغى له أن يوصف بالمثانى).

و على أيه حال،فذكر عباره«القرآن العظيم»بعد ذكر سوره الحمد،بالرغم من أنّها جزء منه،دليل آخر على شرف و أهميه هـذه السوره المباركه،و كثيرا ما يذكر الجزء مقابل الكل لأهميته،و هو كثير الاستعمال فى الأدب العربى و غيره.

و خلاصه المطاف أنّ اللّه تعالى قد صرّح لنبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّك قد ملكت سندا عظيما(القرآن)،و لا تستطيع أى قوه فى عالم الوجود أن تصرعه.

سندا كلّه نور،بركه،دروس تربويه،برامج عمليه،هدايه و تسديد،و بالذات سوره الفاتحه منه التى لها من المحتوى و الأثر بحيث لو ارتبط العبد بربّه و لو للحظه واحده لحلّقت روحه لساحه قدس الربّ،و هى تعيش حال التعظيم و التسليم و المناجاه و الدّعاء.

و بعد هذه الهبه العظيمه بأمر اللّه تعالى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأربعه أوامر فيقول له أوّلا: لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ (١) .

فمتع الحياه الدنيا ليست دائمه و لا خاليه من التبعات،و الحفاظ عليها أمر صعب فى أحسن الحالات.

و لهذا،لا تستحق الاهتمام بها مقابل ما أعطاك اللّه عزّ و جلّ من العطاء المعنوى الجزيل(أى القرآن).

ثمّ يقول فى الأمر الثّانى: وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ لما عندهم من أموال و نعم ماديه.

فالأمر الأوّل فى الحقيقه يتعلق بعدم الاهتمام و التوجه نحو النعم الماديه، و الأمر الثّانى يتعلق بعدم التأثر لفقدانها.

ص:١٠٩

١- ١) -أزواجا:مفعول(متعنا).و منهم:جار و مجرور متعلق بفعل مقدر.فيكون المعنى إجمالا:مجموعات مختلفه من الكفار.

و قد جاء ما يشبه هذا المضمون فی الآیه(۱۳۱)من سوره طه حيث يقول جل و علا بتفصيل أكثر: وَ لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ .

و الأمر الثّالث:جاء بخصوص ضروره اللين و التواضع مع المؤمنين حيث يقول: وَ اخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

إنّ هذا التعبير،كنايه جميله عن التواضع و المحبّه و الملاطفه،فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفظها،فتجسّم بذلك أعلى صور العاطفه و الحنان و تحفظهم من الحوادث و الأعداء،و تحميهم من التشتت.

و التعبير المذكور عباره عن كنايه مختصره بليغه ذات مغزى و معان كثيره جدّا.

و يمكن أن يحمل ذكر هذه الجمله بعد الأوامر الثلاثه المتقدمه إشاره تحذير بعدم إظهار التواضع و الانكسار أمام الكفار المتنعمين بزهو الحياه الدنيا،بل لا بدّ للتواضع و الحب و العاطفه الفياضه لمن آمن و إن كان محروما من مال الدنيا.

و نصل إلى الأمر الرّابع:و قل لهؤلاء الكفره المنعمين بكل حزم إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ .

قل:أنذركم من أمر اللّه بنزول عذابه عليكم كَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (۱) ،أی الذين قسّموا الآيات القرآنيه أصنافا،فما كان ينفعهم أخذوه،و ما لا ينسجم و مشتهياتهم تركوه.

فبدل أن يتخذوا كتاب اللّه هاديا و قائدا لهم،جعلوه كآله بأيديهم و وسيله للوصول لأهدافهم الشريره،فلو وجدوا فيه كلمه واحده تنفعهم لتمسكوا بها،و لو وجدوا ألف كلمه لا تنسجم مع منافعهم الدنيويه لتركوها بأجمعها!!

ص: ۱۱۰

۱- ۱) -عضين:(جمع عضه)أی التفريق،و يقال لكل جزء ممّا قسم عضين أيضا.

بحوث

اشاره

۱-القرآن..عطاء إلهی عظیم

یخبر اللّه تعالی فی الآیات المذکوره نبیّه الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعنوان تنبیه لجمیع مسلمی العالم،أن هذا القرآن جعل فی اختیارکم،و فیه من العطاء ما لا یعد،و لیکن رأس مالکم الذی تتعاملون فیه فی حیاتکم،و لو عملتم به لجعلتم دنیاکم کلها سعاده و رفاه و أمن و صلاح.

و هذه حقیقه یعترف بها حتی غیر المسلمین،فهم یعتقدون بأنّ المسلمین إذا أخذوا القرآن و جعلوه أساس حیاتهم،و عملوا بأحکامه و هدیه،فسیکونون من القوّه و التقدم بحیث لا یسبقهم فی ذلک أحد.

فنری مثلا،سوره الحمد«سبعا من المثانی»و التی تسمّی«خاتمه الکتاب» لوحدها تمثل مدرسه کامله للحیاه:

فأوّلها...یشیر إلی خالق الوجود الذی یربی جمیع أهل العالم فی مسیره تکاملیه شامله،هذا الخالق الذی وسعت رحمته«خاصّه»و عامّه کل شیء..ثمّ تشیر إلی محکمه العدل الإلهیه التی یکفل الإیمان بها خلق رقابه دقیقه علی جمیع سلوکیات الإنسان و نوایاه.

ثمّ الإشاره إلی عدم الاتکال علی غیر اللّه،و عدم الخضوع و التسلیم لغیره لتتهیأ الأرضیه الصالحه للسیر علی صراطه المستقیم الذی لا عوج فیه و لا میل له إلی شرق و لا إلی غرب،کما أنّه لیس فیه إفراط و لا تفریط،و کذلک لیس فیه ضلال و لا غضب من اللّه عزّ و جلّ.

إنّها جمله أمور،لو تمثلها الإنسان و بنی علیها کیانه،لکانت کفیله بأن تجعل له شخصیه سامیه متکامله.

و للأسف الشدید فقد وقع هذا العطاء الإلهی بأیدی أناس لم یعرفوا جلاله قدره،و لم یغور و العمق معناه،بل إنّهم من الجهل بمکان حتی وصل بهم الأمر أن

تركوا تلك الآيات الرّبانيه المنجيه من التيه و الضـلال و الجهل،و ركضوا لاهثين وراء من ملكته شهواته و من لم يصل إلى أدنى درجـات النضـج الفكرى،ليسـتجدوا منهم القوانين و البرامـج التربويه التى صـنعها جهلهم المتلبس بلبـاس العلم و التقـدم! فهؤلاء المساكين يبيعون أغلى ما عنـدهم بثمن بخس،و يشترون به ما يبعـدهم عن بناء أخراهم! و لا يعنى هـذا بأنّا ضد التقدم التقنى،بل علينـا أن لا ـ نحصـر كـل أنفسـنا فى هـذا الجـانب من الحيـاه الإنسـانيه..ففى الوقت الـذى نجـد فى القرآن تلـك العيون الفياضـه بالمعنويات،نراه كـذلك صاحب برامـج حيويه فى مجالات التقـدم و الرفاه الماديين،و هذا ما أوضـحناه فى الآيات المتقدمه و ما سنزيد فيه فى الآيات القادمه إن شاء اللّه تعالى.

٢-الطمع بما عند الغير..مصدر الانحطاط

هناك الكثير من أصـحاب العيون الضـيقه الـذين يلاحظون هـذا و ذاك باسـتمرار بعيون ملؤها الطمع و الجشع! لقـد دأب هؤلاء على قيـاس حـالهم و حـال الآـخرين و يغتمـون غمـا شديـدا فيمـا لـو وجـدوا أن شـيئا مـن الحاجـات المـاديه الحيـاتيه ناقصـا عنـدهم،فيبـذلون كل شـىء فى سبيل الحصول عليها حتى و إن كلفهم ذلك خساره القيم الإنسانيه و بيع كرامتهم! هـذا نمط من التفكير ينم عن حاله التخلف،و يكشف عن الشعور بعقده الحقاره و نقص الهمه.و هو من العوامل الفاعله فى تخلف الإنسان فى حياته، و على كافّه الأصعده.

و الشخص المستقل لا يتعامل مع مجريات الحياه بذلك النمط من التفكير المتخلف،و إنّما يستعمل قواه الفكريه و الجسمانيه فى طريق رشده و تكامله،فهو

کمن یحدث نفسه قائلا:بما أنّه لا ینقصنی عن الآخرین شیء،و لا یوجد دلیل علی عدم استطاعتی التقدم أکثر منهم أو الوصول لمصافهم..فلما ذا أمد عینی لما متع به الآخرین من مال و جاه و ما شاکل...

فصاحب الشخصیه المستقله لا یربط هدفه و مقصده من الحیاه بالجوانب المادیه البحته فقط،بل یطلبها لإشباع ما یحتاجه روحیا و تربویا،و یطلبها لکی یحفظ بها استقلاله و حریته،و لکی لا یکون عاله علی الآخرین،فهو لا یطلبها بحرص،و لا یطلبها بکل ما یملک،لأنّ ذلک لیس بیع الأحرار،و لا هو بیع عباد اللّه الصالحین.

و نختم الحدیث بالحدیث النّبوی الشریف:«من رمی ببصره ما فی ید غیره کثر همّه و لم یشف غیظه» (۱) .

۳-تواضع القائد

لقد أوصی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرارا من خلال القرآن أن یکون مع المؤمنین متواضعا، محبّا،سهلا و رحیما،و الوصایا لیست منحصره بخصوص نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،بل هی عامّه لکل قائد و موجّه،سواء کانت دائره قیادته واسعه أم محدوده،فعلیه أن یأخذ بهذا الأصل الأساسی فی الإداره و القیاده الصحیحه.

إنّ حبّ و تعلق الأفراد بقائدهم من الأسس الفاعلیه لنجاح القائد،و هذا ما لا یتحقق من دون تواضعه و طلاقه وجهه و حبّه لخیر أفراده.

أمّا خشونه و قساوه القائد فلا تؤدی إلاّ إلی فصم رابطه الالتحام بینه و بین الأفراد ممّا یؤدی إلی تفرق و تشتت الناس عن قائدهم.

قال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی رسالته إلی محمّد بن أبی بکر: «فاخفض لهم

۱- ۱) -تفسیر الصافی،فی تفسیر الآیات مورد البحث.

جناحك و أن لهم جانبك و ابسط لهم وجهك و آس بينهم فى اللحظه و النظره» (۱) .

۴-من هم المقتسمون؟

إنّ التوجيهات الإلهيه بلا شك تراعى فيها المصلحه العامّه و مصلحه الأفراد بصوره عامه،و لكن البعض منها قد يوافق مصالحنا الشخصيه بحسب الظاهر و البعض الآخر على خلافها.و من خلال قبول أو رفض ما يدعونا إليه اللّه يمحص المؤمن الخالص من المدعى للإيمان،فالذى يقبل كل شىء نازل من اللّه و يسلم له،حتى و إنّ ظاهره لا يتوافق مع مصلحته،و يقول«كل من عند ربّنا»و لا يجرأ على تجزئه أو تقسيم أو تبعيض الأحكام الإلهيه..فذلك هو المؤمن حقّا.

أمّا الذين استفحل المرض فى قلوبهم فيحاولون تسخير دين اللّه و أحكامه لخدمه مصالحهم الشخصيه،فيقبلون ما يدعم منافعهم و يتركون غيره،فتراهم يجزؤون الآيات القرآنيه،بل و تراهم فى بعض الأحيان يجزؤون الآيه الواحده، فما يوافق ميولهم احتذوا به و يتركون القسم الباقى من الآيه!و لكن من القبح أن نردد ما قاله بعض الأقوام السابقه نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ فهذا شأن عبيد الدنيا.

أمّا معيار تشخيص أتباع الحق من أتباع الباطل فمن خلال التسليم للأوامر و التوجيهات الإلهيه التى لا تنسجم مع الميول و الأهواء و المنافع الدنيويه،فمن هنا يعرف الصادق من الكذاب و المؤمن من المنافق.

و تجدر الإشاره هنا إلى وجود تفاسير أخرى لمعنى المقتسمين(غير ما ذكرناه)،حتى أنّ القرطبى قد ذكر فى تفسيره سبعه آراء فى معنى هذه الكلمه،إلاّ أنّ أكثرها خال من القرينه،و البعض الآخر لا يخلو من مناسبه و هو ما سنذكره

۱- ۱) -نهج البلاغه،قسم الرسائل،الرساله ۲۷.

أدناه:

فمنهـا..أنّ جمعـا مـن رؤوس المشـركين كـانوا يقفـون فی أيّام الحـج علی رؤوس طرق و أزقـه مكّـه،و يشـرع كـل واحـد منهم بالسخريه و الاستهزاء بالنّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن لينفروا الناس عنه.

فبعض يقول:إنّه«مجنون»فإنّ ما يقوله ليس بموزون..

و بعض يقول:إنّه«ساحر»و قرآنه نوع من السحر..

و بعض يقول:إنّه«شاعر»و النغمه البلاغيه للآيات السماويه هی شعر..

و بعض يقول:إنّه«كاهن»و إنّ أخبار القرآن الغيبيه هی نوع من الكهانه.

و قد سمی هؤلاء بالمقتسمين لتقسيمهم شوارع و أزقه مكّه و معابرها بينهم ضمن خطه دقيقه و محسوبه.

و لا مانع من دخول هذا التّفسير و ما ذكرناه معا ضمن مفهوم الآيه المبحوثه.

الآیات [سوره الحجر (۱۵): الآیات ۹۲ الی ۹۹]

اشاره

فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۹۲) عَمّٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۹۳) فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ اَلْمُشْرِکِینَ (۹۴) إِنّٰا کَفَیْنٰاکَ اَلْمُسْتَهْزِئِینَ (۹۵) اَلَّذِینَ یَجْعَلُونَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۹۶) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِمٰا یَقُولُونَ (۹۷) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ کُنْ مِنَ اَلسّٰاجِدِینَ (۹۸) وَ اُعْبُدْ رَبَّکَ حَتّٰی یَأْتِیَکَ اَلْیَقِینُ (۹۹)

التّفسیر

فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ!

یبیّن القرآن فی أواخر سوره الحجر مصیر المقتسمین الذین ذکروا فی الآیات السابقه فیقول: فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ عَمّٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ .

إنّ عالم السر و العلن و من لا یخفی علیه ذره ما فی السماوات و الأرضین لا یسأل لکشف أمر خفی علیه(سبحانه و تعالی عن ذلک)،و إنّما السؤال لتفهیم المسؤول قبح فعله،أو کون السؤال نوعا من العقاب الروحی،لأنّ الجواب سیکون عن أمور قبیحه و مصحوبا باللوم و التوبیخ،و ذلک ما یکون له بالغ الأثر فی ذلک المقام،حیث أنّ الإنسان عندها أقرب ما یکون إلی الحقائق و إدراکها.

ص :۱۱۶

و علی هذا الأساس فالسؤال قسم من العقاب الروحی.

و عموم قوله تعالی: عَمّٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ یرشدنا إلی أنّ السؤال سیکون عن جمیع أفعال الإنسان بلا استثناء،و هو درس بلیغ کی لا نغفل عن أفعالنا.

أمّا ما اعتبره بعض المفسّرین من اختصاص السؤال عن التوحید و الإیمان بالأنبیاء،أو هو مرتبط بما یعبد المشرکون..فهو کلام بلا دلیل،و مفهوم الآیه عام.

و قد یشکل البعض من کون الآیه المتقدمه تؤکّد علی أنّ اللّه تعالی سیسأل عباده،فی حین نقرأ فی الآیه التاسعه و الثلاثین من سوره الرحمن فَیَوْمَئِذٍ لاٰ یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَانٌّ .

و قد أجبنا عن ذلک سابقا،و خلاصته:فی القیامه مراحل،یسأل فی بعضها و لا یسأل فی البعض الآخر حیث تکون الأمور من الوضوح بحیث لا تستوجب السؤال،أو أن لا یکون السؤال باللسان،و هذا ما نستنتجه من الآیه الخامسه و الستین من سوره یس حیث تشیر إلی غلق الأفواه و بدأ أعضاء البدن-حتی الجلد-بالسؤال. (1)

ثمّ یأمر اللّه تعالی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقوله فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ ،أی لا تخف من ضوضاء المشرکین و المجرمین،و لا تضعف أو تتردد أو تسکت،بل أدعهم إلی رسالتک جهارا.

وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ

،و لا تعتن بهم.

«فاصدع»،من ماده(صدع)و هی لغه بمعنی«الشق»بشکل مطلق،أو شق الأجسام المحکمه بما یکشف عمّا فی داخلها،و یقال أیضا لألم الرأس الشدید (صداع)و کأنّه من شدته یرید أن یشق الرأس! و هی هنا...بمعنی:الإظهار و الإعلان و الإفشاء.

ص:117

1- 1) -لمزید من الإیضاح،راجع ذیل تفسیر الآیه(7)من سوره الأعراف.

و على أيه حال...فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال،أو ترك مجاهدتهم و حربهم،لأنّ المسلمين فى ذلك الوقت لم تصل قدرتهم-بعد- لمستوى المواجهه مع الأعداء و حربهم.

ثمّ يطمئن اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تقويه لقلبه: إِنّا كَفَيْناکَ الْمُسْتَهْزِئِينَ .

أنّ مجىء الفعل بصيغه الماضى فى هذه الآيه مع أنّ المراد المستقبل يشير إلى حتميه الحمايه الرّبانيه،أىّ:سندفع عنک شهر المستهزئين،حتما مقضيا.

و قد ذكر المفسّرون روايه تتحدث عن ست جماعات(أو أقل)كان منهم يمارس نوعا من الاستهزاء تجاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فكلما صدع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالدعوه قاموا بالاستهزاء تفريقا للناس من حوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إلا أنّ اللّه تعالى ابتلى كلا منهم بنوع من البلاء،حتى شغلهم عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،(و قد ورد تفصيل تلک الابتلاءات فى بعض التفاسير).

ثمّ يصف المستهزئين: اَلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

كأن القرآن يريد أن يقول:إنّ أفكار و أعمال هؤلاء بنفسها عبث سخف حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر و خشب،و دفعهم جهلهم لأن يجعلوا مع اللّه ما صنعوا بأيديهم آلهه!و مع ذلک..يستهزءون بک! و لمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،يضيف تعالى قائلا: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ يَضِيقُ صَدْرُکَ بِما يَقُولُونَ .فروحک اللطيفه و قلبک الطيب الرقيق لا يتحملان تلک الأقوال السيئه و أحاديث الكفر و الشرک،و لذلک يضيق صدرک.

و لكن لا تحزن من قبح أقوالهم فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ كُنْ مِنَ السّاجِدِينَ .

لأنّ تسبيح اللّه يذهب أثر أقوالهم القبيحه من قلوب أحباء اللّه،هذا أوّلا..

و ثانيا،يعطيک قدره و قوّه و نورا و صفاء،و يخلق فيک تجليا و انفتاحا،و يقوى ارتباطک مع اللّه،و يقوى إرادتک و يثبت فيک قدره أكبر للتحمل و الثبات و المجاهده فى قبال أعداء اللّه.

و لهذا نقرأ

فى روايه نقلا عن ابن عبّاس أنّه قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاه.

ثمّ يعطى اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آخر أمر فى هذا الشأن: وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتّٰى يَأْتِيَکَ الْيَقِينُ .

المعروف و المشهور بين المفسّرين أنّ المقصود من«اليقين»هنا الموت، و سمّى باليقين لحتميته،فربما يشک الإنسان فى کل شىء،إلّا الموت فلا يشک فيه أحد قط.

أو لأنّ الحجب تزال عن عين الإنسان عند الموت فتتّضح الحقائق أمامه و يحصل له اليقين.

و فى الآيتين السادسه و الأربعين و السابعه و الأربعين من سوره المدّثر نقرأ عن لسان أهل جهنم: وَ كُنّٰا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتّٰى أَتٰانَا الْيَقِينُ أى الموت.

و من هنا يتّضح خطأ ما نقل عن بعض الصوفيه من أنّ الآيه أعلاه دليل على ترک العباده.فقالوا:أعبد اللّه حتى تحصل على درجه اليقين،فإذا حصلت عليها فلا حاجه للعباده بعدها! و نقول:

أوّلا:اليقين هنا بمعنى الموت بشهاده الآيات القرآنيه المشار إليها،و هو ما يحصل للمؤمن و الكافر سواء.

ثانيا:المخاطب بهذه الايه هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و مقام اليقين للنّبى من المسلمات، و هل يجرأ أحد أن يدّعى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يصل لدرجه اليقين،حتى يخاطب بالآيه المذكوره؟!! ثانيا:المقطوع به أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يترک العباده حتى آخر لحظات عمره الشريف،و كذا الحال بالنسبه لأمير المؤمنين على عليه السّلام و هو المستشهد فى المحراب،و هو ما سار عليه بقيه الأئمّه عليهم السّلام.

بحوث

اشاره

١-بدايه الدعوه العلنيه للإسلام

المستفاد من بعض الرّوايات أنّ الآيتين: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنّٰا كَفَيْنٰاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ نزلتا فى مكّه بعد أن قضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثلاث سنوات فى الدعوه السريه لرسالته،و لم يؤمن به إلاّ القليل من المقربين إليه،و أول من آمن من النساء خديجه عليها السّلام و من الرجال على عليه السّلام.

من البديهى،أنّ الدعوه إلى التوحيد الخالص المصاحبه لتحطيم نظام الشرك و عباده الأصنام فى تلك البيئه و فترتها كانت فى الواقع عملا عجيبا و مخيفا، و استهزاء المشركين و سخريتهم كان معلوما عند اللّه من قبل أن يمارس،و لهذا أراد اللّه تعالى تقويه قلب نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كى لا يخشى المستهزئين،و يعلن رسالته بكل قوّه على الملأ و يشرع بجهاد منطقى معهم (١) .

٢-الأثر الرّوحى لذكر اللّه

إنّ حياه الإنسان(كانت و ما زالت)زاخره بالمشاكل بحسب ما تقتضيه طبيعه الحياه الدنيا،و كلما علا الإنسان درجه كثرت مشاكله و تعددت،و من هنا نفهم شده ما واجهه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مشاكل و صعاب فى طريق دعوته الكبيره.

و يكون العلاج الرّبانى لتجاوز العقبات عباره عن محاوله تحصيل القوه من مصدرها الحق مع التحلى بسعه الصدر،فيأمر نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالتسبيح و الذكر و الدعاء و السجود،لما للعباده من أثر عميق فى تقويه روح الإنسان و إيمانه و إرادته.

و نستفيد من روايات مختلفه أنّ الأئمّه عليهم السّلام إذا واجهتهم المصاعب الشداد و البلاء،لجؤوا إلى اللّه و شرعوا بالعباده و الدعاء،كى يستمدوا القوه من معينها الأصيل.

١- ١) -راجع تفسير نور الثقلين،ج ٣،ص ٣٢.

۳-العباده و التكامل

و كما هو معلوم فإنّ الإنسان قد بدأ انطلاقته في الحياه من نقطه العدم و لا يزال يسير نحو المطلق، و لن تتوقف عجله تكامله(ما دام مداوما على الطريق)كما أنّه يمتلك مقومات السير و يمتاز بقابليه فائقه و استعداد كامل في طلبه للتكامل، هذا من جهه.

و من جهه أخرى-تعتبر العباده مدرسه عاليه للتربيه،لأنّها توقظ عقل الإنسان،و توجه فكره نحو المطلق،و تغسل غبار الذنوب و الغفله من قلبه و روحه، و تنمي فيه الصفات الإنسانيه الرفيعه،و تقوى إيمانه و تجعله أكثر و عيا و اكبر مسئوليه.

فلا يمكن للإنسان الواقعي أن يستغني عن هذه المدرسه الراقيه،أمّا الذين يعتقدون بأنّ الإنسان قد يصل إلى درجه معينه لا يحتاج عندها إلى العباده، فأولئك إمّا أنّهم يعتبرون عمليه تكامل الإنسان محدوده و تنتهي بحدّ معين،أو أنّهم لم يدركوا معنى العباده حقّا.

و للعلاّمه الطّباطبائي رحمه اللّه في تفسير الميزان بيان بهذا الشأن،إليك ملخصه،(إن كل نوع من أنواع الموجودات له غايه كماليه،و كذلك الإنسان له غايه تكامليه لا ينالها إلاّ بالاجتماع المدني،و لهذا فهو اجتماعي بالطبع،و إن تحقق هذا الاجتماع فسيحتاج أفراد المجتمع إلى أحكام و قوانين ينتظم باحترامها و العمل بها شتات أمورهم،و ترتفع بهذا اختلافاتهم الضروريه،و يقف بها كل منهم في موقفه الذي ينبغي له،و يحوز بها سعادته و كماله الوجوديه.

و بعباره أخرى:إن كان المجتمع الإنساني صالحا أمكن لأفراده الوصول إلى هدفهم النهائي في الكمال،و إن فسد المجتمع تخلف أفراده عن هذا التكامل.

و إنّ هذه الأحكام و القوانين سواء كانت اجتماعيه أو عباديه،لا تكون مؤثره إلاّ إذا أخذت من طريق النّبوه و الوحي السماوي لا غير.

و نعلم أيضا أنّ الأحكام العباديه تشكل جزءا من هذا التكامل الفردى و الاجتماعى.

و بهـذا يتبيّن أنّ التكليف الإلهى يلازم الإنسان ما عاش فى هـذه النشأه الدنيويه،و أن تجويز ارتفاع التكليف ملازم لتجويز تخلفه عن الأحكـام و القوانين، و هـذا يوجب فسـاد المجتمع! و من الجـدير بالملاـحظه أنّ الأعمـال الصالحه و العبادات منبع للملكات النفسـانيه الفاضـله فإذا أديت هـذه الأعمال بقـدر كاف،و قويت تلك الملكات الفاضـله فى نفس الإنسان،فسـتكون نفسـها منبعا جديدا لأعمال صالحه أكثر و طاعات و عبادات أفضل.

و من هنـا يظهر فساد ما ربّما يتوهّم أنّ الغرض من التكليف هو تكميل الإنسان فإذا كمل لم يكن لبقاء التكليف معنى،و ما ذلك إلاّـ مغـالطه ليس أكـثر،لأـنّ الإنسـان لو تخلف عن التكليف الإـلهى فـإنّ المجتمع سيسـير نحو الفسـاد فورا، فكيف يتسـنى للفرد الكامـل أن يعيش فى هكـذا مجتمع! و كـذلك فرضـيه تخلف الإنسـان عنـد امتلاـكه الملكـات الفاضـله عن العبـادات و طـاعه اللّه،فإنّها تعنى تخلف هذه الملكات عن آثارها (۱) -فتأمل.

۱- ۱) -تفسير الميزان،ج ۱۲،ص ۱۹۹.

سوره النّحل

اشاره

مکّیه و عدد آیاتها مائه و ثمان و عشرون آیه

ص :۱۲۳

محتويات السّوره:

يـذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ قسـما من آيات هـذه السوره مكيّه،و قسـمها الآخر آيات مـدنيّه،فی حين يعتبر بعضـهم أنّ آياتها مكيه على الإطلاق.و عنـد ملاحظه طبيعه السوره المكيه و المـدنيه يتبيّن لنـا أنّ الرأی الأوّل أكثر صوابا، و يعزز ذلک ما تبحثه الآيه(۴۱) وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا فِی اللّٰهِ... ،و الآيه(۱۱۰) ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِينَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا... حيث أنّها تنـاولت بوضوح موضوع الهجره و الجهـاد معا..و كما هو بيّن فإنّ الموضوعين يتناسـبان مع الحوادث التی جرت بعـد هجره النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّه إلى المدينه.

و إذا اعتبرنا الهجره المشار إليها فی الآيه(۴۱)هی هجره المسلمين الأولى حين هاجر جمع منهم من مكّه إلى الحبشه برئاسه جعفر بن أبی طـالب رضـی اللّه عنه، فيسـتبعد أن تكون الهجره و الجهـاد المشـار إليهما فی الآيه(۱۱۰)الهجره الأولى، و لا تنطبق الآيه المباركه إلاّ على هجره النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينه.

بالإضافه إلى أنّ الآيه(۱۲۶) وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ فَعٰاقِبُوا بِمِثْلِ مٰا عُوقِبْتُمْ بِهِ... قـد نزلت فی غزوه أحد التی وقعت بعد الهجره الثّانيه،و هذا معروف عند المفسّرين.

و قال بعض المفسّرين:إنّ الآيات الأربعين الأوّل من السوره نزلت فی مكّه و بقيه الآيات نزلت فی المـدينه،فی حين يعتبر البعض الآخر منهم جميع آياتها

مكّيه سوى الآيات المتعلقه بغزوه أحد(الآيات الثلاثه الأخيره).

فالمتيقن بخصوص السوره أنّ آياتها مكّيه و مـدينه،إلاّ أنّه لا يمكن تشـخيص ما هو مكى أو مـدنى بالـدقه الكافيه سوى الموارد المذكوره.

و على أيه حـال،فمن خلال ملاحظه السوره يبـدو لنا أنّ بحوثها تتناول ما تتناوله الآيات المكّيه تاره مثل:التوحيـد،المعاد،محاربه الشرك و عباده الأصنام، و تاره أخرى ما تتناوله الآيات المدينه مثل:الأحكام الاجتماعيه و مسائل الجهاد و الهجره.

و يمكننا إجمال محتويات السوره المسبوكه بعنايه و إحكام بما يلى:

۱-ذكر النعم الإلهيه،و تفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذى حس حى، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم و واهبها.

و من النعم المـذكوره فى السوره:نعمه المطر،نور الشـمس،أنواع النباتات و الثمار،المواد الغـذائيه الأخرى،الحيوانات الـداجنه بما تقدمه من خدمات و منافع للإنسان،مستلزمات وسائل الحياه و حتى نعمه الولد و الزوجه،و بعباره شامله(أنواع الطيبات).

و لهذا أطلق البعض عليها(سوره النعم).

و عرفت بسوره النحل لورود تلك الإشاره القصيره ذات المعانى الجليله و العجيبه للنحل،ضمن ما ذكر من النعم الإلهيه الواسعه،و بخصوص اعتبار النحل مصدرا لغذاء مهم من أغذيه الإنسان،و باعتبار حياه هذه الحشره تعبير ناطق لتوحيد اللّه.

۲-الحديث عن أدله التوحيد،عظمه ما خلق الخالق،المعاد،إنذار المشركين و المجرمين.

۳-تنـاول الأحكـام الإسـلاميه المختلفه،من قبيل:الأمر بالعـدل و الإحسان، الهجره و الجهاد،النهى عن الفحشاء و المنكر و الظلم و الاستبداد و خلف العهد،

بالإضافه إلی الدعوه لشكر اللّه تعالی علی نعمه الجزيله،و تأتی الإشاره فی آيات عديده إلی أنّ إبراهيم عليه السّلام رجل التوحيد لأنه كان من الشاكرين.

۴-الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثله جميله حيه.

۵-و أخيرا تحذير الإنسانيه من وساوس الشيطان.

فضيله السّوره:

روی عن النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،فی فضل سوره النحل،أنّه قال: «من قرأها لم يحاسبه اللّه تعالی بالنعم التی أنعمها عليه من دار الدنيا» (۱) .

فقراءه الآيات-التی تتناول جانبا كبيرا من النعم الإلهيه-بتدبر و تفكر مع وجود العزم علی العمل و السير وفق الشكر للمنعم،تكون سبيلا لأن يستعمل الإنسان كل نعمه بما ينبغی عليه أن يستعمل،فلا يحبس و لا يهمل،و يكون من الشاكرين..فإن أصبح كذلك فهل سيتعرض لمحاسبه بعد؟

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۶،ص ۳۲۷.

الآيتان [سوره النحل (۱۶): الآيات ۱ الی ۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ أَتىٰ أَمْرُ اَللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۱) يُنَزِّلُ اَلْمَلاٰئِكَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ (۲)

التّفسير

أَتىٰ أَمْرُ اللّٰهِ:

ذكرنا سابقا أن قسما مهمّا من الآيات التی جاءت فی أوّل السوره هی آيات مكّيه نزلت حينما كان النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يخوض صراعا مشتدا مع المشركين و عبده الأصنام،و ما يمر يوم حتى يطلع أعداء الرساله بمواجهه جديده ضد الدعوه الإسلاميه المباركه،لأنّها تريد بناء صرح الحريه،بل كل الحياه من جديد.

و من جمله مواجهاتهم اليائسه قولهم للنّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما يهددهم و ينذرهم بعذاب اللّه:إن كان ذلک حقا فلم لا يحل العذاب و العقاب بنا إذن؟! و لعلهم يضيفون:و حتى لو نزل العذاب فسنلتجئ إلى الأصنام لتشفع لنا عند اللّه فی رفع العذاب..و لم لا يكون ذلک،أو لسن شفيعات؟!...

و أوّل آيه من السوره تبطل أوهام أولئک بقوله تعالى: أَتىٰ أَمْرُ اللّٰهِ فَلاٰ

تَسْتَعْجِلُوهُ

،و إن اعتقدتم أنّ الأصنام شافعه لكم عند اللّه فقد أخطأتم الظن سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ .

ف«أمر اللّه»هنا:أمر العذاب للمشركين،أمّا الفعل«أتى»فالمراد منه المستقبل الحتمى الوقوع على الرّغم من وقوعه بصيغه الماضى،و مثل هذا كثير فى الأسلوب البلاغى للقرآن.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ«أمر اللّه»إشاره إلى نفس العذاب و ليس الأمر به.

و احتمل بعض آخر أنّ المراد به يوم القيامه.

و يبدو لنا أنّ التّفسير الذى ذكرناه أقرب من غيره،و اللّه العالم.

و بما أنّ مستلزمات العدل الإلهى اقتضت عدم العقاب إلاّ بعد البيان الكافى و الحجّه التامه،فقد أضاف سبحانه: يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (١) عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا بناء على هذا الإنذار و التذكير فَاتَّقُونِ .

أمّا المقصود من«الروح»فى الآيه فهناك كلام كثير بين المفسّرين فى ذلك إلاّ أنّ الظاهر منها هو:الوحى و القرآن و النّبوه..و التى هى مصدر الحياه المعنويه للبشريه.

و قد فصل بعض المفسّرين الوحى عن القرآن و عن النّبوه،معتبرا ذلك ثلاثه تفاسير مستقله للكلمه و لكنّ الظاهر رجوع الجميع إلى حقيقه واحده.

و على أيه حال فكلمه«الروح»فى هذا الموضوع ذات جانب معنوى و إشاره إلى كل ما هو سبب لإحياء القلوب و تهذيب النفوس و هدايه العقول،كما نقرأ فى الآيه الرّابعه و العشرين من سوره الأنفال:

١- ١) -«من»فى عباره«من أمره»جاءت بمعنى«ب»السببيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..و فى الآيه الخامسه عشر من سوره غافر: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ..و فى الآيه و الثانيه الخمسين من سوره الشورى: وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الْإِيمَانُ .

و جليّ أنّ«الرّوح»فى الآيات المتقدمه ترمز إلى«القرآن»و«الوحى» و «أمر النّبوه».

و قد وردت«الرّوح»بمعانى أخر فى مواضع من القرآن الكريم،و لكن مع الأخذ بنظر الإعتبار ما ذكر من قرائن نخلص إلى أنّ المراد من مفهوم«الروح»فى الآيه مورد البحث هو القرآن و ما تضمنه الوحى.

و جدير بالملاحظه أنّ عباره عَلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لا تعنى أن هدايه الوحى و النّبوه لا حساب فيها،لأنّه لا انفصام و لا ضديه بين مشيئه اللّه و حكمته، كما تحدثنا فى ذلك الآيه(۱۲۴)من سوره الأنعام: اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .

و لا ينبغى غض الطرف من كون الإنذار من أوائل الأوامر الربانيه الموجهه إلى الأنبياء عليهم السّلام بدليل عباره أَنْ أَنْذِرُوا ،لأنّ من طبيعه الإنذار أن يعقبه انتباه فنهوض و حركه.

صحيح أنّ الإنسان طالب للمنفعه و دافع للضرر،و لكنّ التجربه أظهرت أنّ للترغيب أثر بالغ لمن يمتلك أسس و شرائط قبول الهدايه،أما من أعمت بصيرتهم ملهيات الحياه الدنيا فلا ينفع معهم إلاّ التهديد و الوعيد،و فى بدايه دعوه النّبى كان من الضرورى استخدام أسلوب الإنذار الشديد.

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۳ الی ۸]

اشاره

خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۳) خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۴) وَ اَلْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَكُمْ فِيهٰا دِفْءٌ وَ مَنٰافِعُ وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ (۵) وَ لَكُمْ فِيهٰا جَمٰالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إِلاّٰ بِشِقِّ اَلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۷) وَ اَلْخَيْلَ وَ اَلْبِغٰالَ وَ اَلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهٰا وَ زِينَهً وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۸)

التّفسير

اشاره

الحيوان ذلک المخلوق المعطاء:

بعد أن تحدثت الآيات السابقه عن نفی الشرک،جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل،و توجه الإنسان نحو خالقه بطريقين:

الأوّل:عن طريق الأدله العقليه من خلال فهم و محاوله استيعاب ما فی الخلائق من نظام عجيب.

الثّاني:عن طريق العاطفه ببيان نعم اللّه الواسعه على الإنسان،عسى أن

ص :۱۳۱

يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ .

و تتّضح حقّانيّه السماوات و الأرض من نظامها المحكم و خلقها المنظم و كذلك من هدف خلقها و ما فيها من منافع.

ثمّ يضيف: تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ .

فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده اللّه؟! بل هل تستطيع أن تخلق بعوضه صغيره أو ذره تراب؟! فكيف إذن جعلوها شريكه اللّه سبحانه!!..

و المضحك المبكى فى حال المشركين أنّهم يعتبرون اللّه هو الخالق عن علم و قدره لهذا النظام العجيب و الخلق البديع..و مع ذلك فهم يسجدون للأصنام! و بعد الإشاره إلى خلق السماوات و الأرض و ما فيها من أسرار لا متناهيه يعرّج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحيه التكوينيه فيقول:

خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ

.

«النطفه»(فى الأصل)بمعنى:الماء القليل،أو الماء الصافى،ثمّ أطلقت على قطرات الماء التى تكون سببا لوجود الإنسان بعد تلقيحها.

و حقيقه التعبير يراد به تبيان عظمه و قدره اللّه عزّ و جلّ،حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطره ماء حقيره مع ما له من قيمه و تكريم و شرف بين باقى المخلوقات و عند اللّه أيضا.

هذا إذا ما اعتبرنا«الخصيم»بمعنى المدافع و المعبر عمّا فى نفسه،كما تخبرنا الآيه(١٠۵)من سوره النساء بذلك: وَ لاٰ تَكُنْ لِلْخٰائِنِينَ خَصِيماً كما ذهب إليه جمع من المفسّرين.

و هناك من يذهب إلى تفسير آخر،خلاصته:بقدره اللّه التامه خلق الإنسان من نطفه حقيره،و لكنّ هذا المخلوق غير الشكور يقف فى كثير من المواضع

مجادلا خصيما أمام خالقه،و اعتبروا الآيه السابعه و السبعين من سوره يس شاهدا على ما ذهبوا إليه.

إلاّـ أنّ التّفسير الأوّل كما يبدو-أقرب من الثّانى،لأنّ الآيات أعلاه فى مقام بيان عظمه اللّه و قدرته،و تتبيّن عظمته بشكل جلى حين يخلق كائنا شريفا جدا من ماده ليست بذى شأن فى ظاهرها.

و جاء فى تفسير على بن إبراهيم:(خلقه من قطره من ماء منتن فيكون خصيما متكلما بليغا) (۱) .

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى نعمه خلق الحيوانات و ما تدر من فوائد كثير للإنسان فيقول: وَ الْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَكُمْ فِيهٰا دِفْءٌ وَ مَنٰافِعُ وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ .

فخلق الأنعام الدال على علم و قدره البارى سبحانه،فيها من الفوائد الكثيره للإنسان،و قد أشارت الآيه إلى ثلاث فوائد:

أوّلا:«الدفء»و يشمل كل ما يتغطى به(بالاستفاده من وبرها و جلودها) كاللباس و الأغطيه و الأخذيه و الأخبيه.

ثانيا:«المنافع»إشاره إلى اللبن و مشتقاته.

ثالثا:«منها تأكلون»أى،اللحم.

و يلاحظ تقديم الملابس و الأغطيه و المسكن،فى عرض منافع الأنعام دون المنافع الأخرى،و هذا دليل على أهميتها و ضروريتها فى الحياه.

و يلاحظ أيضا مجىء كلمه«الدفء»قبل«المنافع»إشاره إلى أنّ ما تدفع به الضرر مقدم على ما يجلب لك فيه المنفعه.

و يمكن للبعض ممن يخالفون أكل اللحوم أن يستدلوا بظاهر هذه الآيه،حيث لم يعتبر البارى جل شأنه مسأله أكل لحومها ضمن منافعها،و لهذا نرى قد جاءت

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۳۹.

وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ

بعد ذكر كلمه«المنافع»، و أقل ما يستنتج من الآيه اعتبارها لأهميه الألبان أكثر بكثير من اللحوم.

و لم يكتف بذكر منافعها الماديه،بل أشار إلى المنافع النفسيه و المعنويه كذلك حين قال: وَ لَكُمْ فِيهٰا جَمٰالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ .

«تريحون»:(من ماده الإراحه)بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل استراحتها،و لهذا يطلق على ذلك المحل اسم(المراح).

و«تسرحون»:(من ماده السروح)بمعنى خروج الحيوانات صباحا إلى مراعيها.

عبّر القرآن بكلمه«جمال»عن تلك الحركه الجماليه للأنعام حين تسرع إلى مراعيها و تعود إلى مراحها،لما لها من جمال و رونق خاص يغبط الإنسان،و المعبر عن حقيقه راسخه فى عمق المجتمع.

فحركه الإبل إضافه إلى روعتها فإنّها تطمئن المجتمع بأنّ ما تحتاجه من مستلزمات حياتك ها هو يسير بين عينيك،فتمتع به و خذ منه ما تحتاجه، و لا داعى لأن ترتبط بهذا أو ذاك فتسضعف،و كأنّها تخاطبه:فأنت مكتف ذاتيا بواسطتى.

ف«الجمال»جمال استغناء و اكتفاء ذاتى،و جمال إنتاج و تأمين متطلبات أمّه كامله،و بعباره أوضح:جمال الاستقلال الاقتصادى و قطع كل تبعيه للغير! و الحقيقه التى يدركها القرويون و أبناء الريف أكثر من غيرهم،هى ما تعطيه حركه تلك الأنعام من راحه نفسيه للإنسان،راحه الإحساس بعدم الحاجه و الاستغناء،راحه تأديه إحدى الوظائف الاجتماعيه الهامه.

و من لطيف الإشاره أنّ بدأت الآيه أعلاه بذكر عوده الأنعام إلى مراحلها، حيث الملاحظ عليها فى هذه الحال أثديتها ملأى باللبن،بطونها ممتلئه،يشاهد على وجوهها علائم الرضا و الارتياح و لا يرى فيها ذلك الحرص و الولع و العجله

التى تظهر عليها حين خروجها فى الصباح،بل تسير هادئه مطمئنه نحو محل استراحتها،و يكفيك الشعور بالغنى من خلال رؤيه أثدائها.

ثمّ يشير تعالى فى الآيه التى تليها إلى إحدى المنافع المهمّه الأخرى فيقول:

وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إِلاّٰ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ

و هذا مظهر من مظاهر رحمه اللّه عزّ و جلّ و رأفته حيث سخر لنا هذه الحيوانات مع ما تملك من قدره و قوّه إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ .

«الشق»:(من ماده المشقه)،و لكنّ بعض المفسّرين احتمل أنّها بمعنى الشق و القطع،أى أنّكم لا تستطيعون حمل هذه الأثقال و إيصالها إلى مقاصدكم إلاّ بعد أن تخسروا نصف قوتكم.

و يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب من الثّانى.

فالأنعام إذن:تعطى للإنسان ما يلبسه و يدفع عنه الحر و البرد.و كذلك تعطيه الألبان و اللحوم ليتقوت بها.و تترك فى نفس الإنسان آثارا نفسيه طيبه.و أخيرا تحمل أثقاله.

و بالرغم ممّا وصل إليه التقدم التقنى فى مدنيه الإنسان و تهيئه وسائل النقل الحديثه،إلاّ أن سلوك كثير من الطرق لا زال منحصرا بالدواب.

ثمّ يعرج على نوح آخر من الحيوانات،يستفيد الإنسان منها فى تنقلاته، فيقول: وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغٰالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهٰا وَ زِينَةً .

و«زينه»هنا ليست كلمه زائده أو عابره بقدر ما تعبر عن واقع الزينه فى مفهومها الصحيح،و ما لها من أثر على ظاهر الحياه الاجتماعيه.

و لأجل الإيضاح بشكل أقرب نقول:لو قطع شخص طريقا صحراويا طويلا مشيا على الأقدام،فكيف سيصل مقصده؟سيصله و هو متعب خائر القوى،و لا يقوى على القيام بأى نشاط.

أمّا إذا ما استعمل وسيله مريحه سريعه فى سفره،فإنّه-و الحال هذه-سيصل

إلى مقصده و قد كسب الوقت،و لم يهدر طاقاته،و حافظ على النشاط و القدره على قضاء حوائجه...بعد كل هذا،أو ليس ذلك زينه؟! و تأتى الإشاره فى ذيل الآيه إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان فى الحصول على الوسائط النقليه المدنيه من غير الحيوانات،فيقول: وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ من المراكب و وسائل النقل.

و بعض قدماء المفسّرين اعتبر هذا المقطع من الآيه إشاره إلى الحيوانات ستخلق فى المستقبل ليستعملها الإنسان فى تنقلاته.

و ورد فى تفسير(المراغى)و تفسير(فى ظلال القرآن)أنّ درک مفهوم هذه الجمله أسهل لنا و نحن نعيش فى عصر السياره و وسائل النقل السريعه الأخرى.

و عند ما تعبّر الآيه بكلمه«يخلق»فذلک لأنّ الإنسان فى اختراعه لتلک الوسائل ليس هو الخالق لها،بل إنّ المواد الأوليه اللازمه للاختراعات،مخلوقه و موجوده بين أيدينا و ما على الإنسان إلاّ أن يستعمل ما وهبه اللّه من قدره على الاختراع لما أودع فيه من استعداد و قابليه بتشكيل و تركيب تلک المواد على هيئه يمكن من خلالها أن تعطى شيئا آخر يفيد الإنسان.

أهميه الزراعه و الثروه الحيوانيه:

على الرغم من انتشار الآلات الإنتاجيه فى جميع مرافق الحياه،كما هو حاصل فى يومنا،إلاّ أن الزراعه و تربيه الحيوانات تبقى متصدره لقائمه المنتوجات من حيث الأهميه فى حياه الإنسان،لأنّها مصدر الغذاء،و لا حياه بدونه.

حتى أنّ الاكتفاء الذاتى فى مجالى الزراعه و الثروه الحيوانيه يعتبر الدعامه الرئيسيه لضمان الاستقلالين الاقتصادى و السياسى إلى حدّ كبير.

و لذلک نرى شعوب العالم تسعى جاهده لإيصال زراعتها و ثروتها الحيوانيه

لأعلى المستويات مستفيده من التقدم التقنى الحاصل.

و الحاجه لأى من هـذين الإنتاجين الأساسيين من الخطوره و الأهميه البالغه ما يجعل دوله عظمى كروسيا تمديـد العوز و تعطى بعض التنازلات السياسيه لدول متباينه معها فى الخط السياسى العقائدى لاضطرارها لتأمين احتياجاتها! و أعطت التعاليم الإسلاميه أهميه خاصه للإنتاج الحيوانى و الزراعه بالحث و الترغيب لغور غمار هذه العمليه المعطاءه.

فقد رأينا كيف عرضت الآيات السابقه و بلحن مشوق حركه الأنعام و منافعها للترغيب فيها.

و سيأتى الحديث إن شاء اللّه فى الآيات القادمه عن أهميه الزراعه و منافع الثمار المختلفه.

و نورد هنا(و من مصادر مختلفه)بعض الرّوايات التى تخص موضوعنا و ما جاءت به من تعبيرات جميله.

۱-

عن أبى جعفر عليه السّلام أنّه قال:«قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعمته: ما يمنعك من أن تتخذى فى بيتك بركه؟ فقالت:يا رسول اللّه ما البركه؟ فقال:شاه تحلب،فإنّه من كانت فى داره شاه تحلب أو نجعه أو بقره فبركات كلّهن» (۱) .

۲-و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال فى الغنم: «نعم المال الشاه» (۲) .

۳-و

فى تفسير نور الثقلين،فى تفسير الآيات مورد البحث،روى عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال: «أفضل ما يتخذه الرجل فى منزله لعياله الشاه،فمن كان

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۶۴،ص ۱۳۰،ورد ذكر النجعه(فى هذا الحديث)إضافه إلى الشاه و البقره،و هى فى اللغه:البقر الوحشى و الأغنام الجبليه و أنثى الغنم.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۶۴،ص ۱۲۹.

فی منزله شاه قدست علیه الملائکه مرّتین فی کل یوم».

و لاـ ینبغی الغفله عن أنّ الکثیر من بیوت المـدن غیر صـالحه لتربیه الأغنـام، و الهـدف الأصـلی من إشـاره الرّوایـات هو إنتاج ما یحتاج إلیه الناس علی الدوام- فتأمل.

۴-و یکفینا ما

قال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی أهمیه الزّراعه: «من وجد ماء و ترابا ثمّ افتقر فأبعده اللّه» (۱) .

و بـدیهی انطباق هـذا الحـدیث علی الفرد و الأمّه معا،فالشـعب الـذی لدیه مسـتلزمات الزراعه بشـکل کاف و مع ذلک یمد یده لطلب المساعده إلی الآخرین، فهو مبعد عن رحمه اللّه بلا إشکال.

-۵

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «علیکم بالغنم و الحرث فإنّهما یروحان بخیر و یغدوان بخیر» (۲) .

۶-و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «ما فی الأعمال شیء أحبّ إلی اللّه من الزراعه» (۳) .

۷-و أخیرا نقرأ

فی حـدیث روی عن الإمـام الصـادق علیه السّـلام مـا یلی: «الزارعـون کنوز الأنـام یزرعون طیبـا أخرجه اللّه عزّ و جـلّ،و هم یوم القیامه أحسن الناس مقاما و أقربهم منزله،یدعون المبارکین» (۴) .

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۲۳،ص ۱۹.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۱۴،ص ۳۰۴.

۳- ۳) -بحار الأنوار،ج ۲۳،ص ۲۰.

۴- ۴) -وسائل الشیعه،ج ۱۳،ص ۱۹۴.

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۹ الی ۱۳]

اشاره

وَ عَلَی اَللّٰهِ قَصْدُ اَلسَّبِیلِ وَ مِنْهٰا جٰائِرٌ وَ لَوْ شٰاءَ لَهَدٰاکُمْ أَجْمَعِینَ (۹) هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً لَکُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِیهِ تُسِیمُونَ (۱۰) یُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ اَلزَّرْعَ وَ اَلزَّیْتُونَ وَ اَلنَّخِیلَ وَ اَلْأَعْنٰابَ وَ مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَکُمُ اَللَّیْلَ وَ اَلنَّهٰارَ وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ وَ اَلنُّجُومُ مُسَخَّرٰاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۱۲) وَ مٰا ذَرَأَ لَکُمْ فِی اَلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ (۱۳)

التّفسیر

اشاره

کل شیء فی خدمه الإنسان!

بعد ذکر مختلف النعم فی الآیات السابقه،تشیر هذه الآیات إلی نعم أخری...

فتشیر أوّلا إلی نعمه معنویه عالیه فی مرماها وَ عَلَی اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِیلِ أی علیه سبحانه سلامه الصراط المستقیم و هو الحافظ له من کل انحراف،و قد وضعه فی

ص:۱۳۹

متناول الإنسان.

«القصد»:بمعنى صفاء و استواء الطريق،فيكون معنى«قصد السبيل»الصراط المستقيم الذى ليس فيه ضلال و لا انحراف (۱) .

و لكن أى النحوين من الصراط المستقيم هو المراد،التكوينى أم التشريعى؟ اختلف المفسّرون فى ذلك،إلّا أنّه لا مانع من قصد الجانبين معا.

توضيح:

جهّز اللّه الإنسان بقوى متنوعه و أعطاه من القوى و القابليات المختلفه ما يعينه على سلوكه نحو الكمال الذى هو الهدف من خلقه.

و كما أنّ بقيه المخلوقات قد أودعت فيها قوى و غرائز توصلها إلى هدفها،إلّا أنّ الإنسان يمتاز عليها بالإراده و بحريه الإختيار فيما يريده،و لهذا فلا قياس بين الخط التصاعدى لتكامل الإنسان و بقيه الأحياء الأخرى.

فقد هدى اللّه الإنسان بالعقل و القدره و بقيه القوى التكوينيه التى تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء و الوحى السماوى و أعطاه التعليمات الكافيه و القوانين اللازمه للمضى بهدى التشريع الرّبانى فى تكمله مشوار المسيره،و ترك باقى السبل المنحرفه.

و من لطيف الأسلوب القرآنى جعل الأمر المذكور فى الآيه فريضه عليه جل شأنه فقال: عَلَى اللّهِ ،و كثيرا ما نجد مثل هذه الصيغه فى الآيات القرآنيه، كما فى الآيه(۱۲)من سوره الليل إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدىٰ ،و لو دققنا النظر فى سعه مدلول عَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ و ما أودع فى الإنسان من هدى تكوينى

ص: ۱۴۰

۱- ۱) -ذكر بعض كبار المفسّرين كالعلّامه الطباطبائى فى الميزان أن«القصد»بمعنى(القاصد)فى قبال«الجائر»أى المنحرف عن الحق.

و تشریعی لأجل ذلک لأدرکنا عظمه هذه النعمه و ما لها من الفضل علی بقیه النعم.

ثمّ یحذر الباری جعل شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفه کثیره: وَ مِنْهٰا جٰائِرٌ (۱) .

و بما أن نعمه الإراده و حریه الإختیار فی الإنسان من أهم عوامل التکامل فیه،فقد أشارت إلیها الآیه بجملته قصیره: وَ لَوْ شٰاءَ لَهَدٰاکُمْ أَجْمَعِینَ و لا تستطیعون عندها غیر ما یرید اللّه.

إلاّ أنّه سبحانه لم یفعل ذلک،لأنّ الهدایه الجبریه لا تسمو بالإنسان إلی درجات التکامل و الفخر،فأعطاه حریه الإختیار لیسیر فی الطریق بنفسه کی یصل لأعلی ما یمکن الوصول إلیه من درجات الرفعه و الکمال.

کما تشیر الآیه إلی حقیقه أخری مفادها أنّ سلوک البعض للطریق الجائز و الصراط المنحرف ینبغی أن لا یوجد عند البعض توهما أنّ اللّه مغلوب(سبحانه و تعالی)أمام هؤلاء،بل إنّ مشیئته جل اسمه و مقتضی حکمته دعت لأن یکون الإنسان حرا فی اختیاره ما یرید من السبل.

و فی الآیه التالیه یعود إلی الجانب المادی بما یثیر حسّ الشکر للمنعم عند الناس،و یوقد نار عشق اللّه فی قلوبهم بدعوتهم للتقرب أکثر و أکثر لمعرفه المنعم الحق،فیقول: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً ماء فیه سبب الحیاه،و زلالا-شفافا خال من أی تلوّث لَکُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ ،و تخرج به النباتات و الأشجار فترعی أنعامکم وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِیهِ تُسِیمُونَ .

«تسیمون»:(من ماده الإسامه)بمعنی رعی الحیوانات،و کما هو معلوم فإنّ الحیوانات تستفید من النباتات الأرضیه و ورق الأشجار،و«الشجر»لغه:ذو معنی واسع یشمل إطلاقه الأشجار و غیرها من النباتات.

۱- ۱) -ضمیر«منها»یعود إلی السبیل.و السبیل مؤنث مجازی.

و ممّا لا شک فيه أيضا أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان و إرواء النباتات،بل و من فوائده أيضا:تطهير الأرض،تصفيه الهواء،إيجاد الرطوبه اللازمه لطراوه جلد الإنسان و تنفسه براحه،و ما شابه ذلک..فالمذکور من فوائده فی هذه الآيه لا حصرا و إنّما من باب الأهم.

فيکمل الموضوع بقوله: يُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنٰابَ وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَرٰاتِ .

و لا شک أنّ خلق هذه الثمار المتنوعه و کل ما هو موجود من المحاصيل الزراعيه لآيه للمتفکرين إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَکَّرُونَ .

«الزرع»:يشمل کل مزروع و«الزيتون»اسم لشجره معروفه و اسم لثمرها أيضا.

إلاّ أنّ بعض المفسّرين يذهبون إلی أنّ«الزيتون»هو اسم الشجره فقط،و اسم ثمرتها«زيتونه».فی حين أنّ الآيه الخامسه و الثلاثين من سوره النّور تطلق کلمه «الزينونه»علی الشجره.

و«النخيل»تستعمل للمفرد و الجمع...و«الأعناب»جمع أعنبه،و هی ثمره معروفه.

و هنا يرد سؤال و هو:لما ذا اختار القرآن ذکر هذه الثمار دون غيرها (الزيتون،التمر،العنب)؟ستقرأ توضيح ذلک فی البحوث التّفسيريه لهذه الآيات إن شاء اللّه.

ثمّ يشير إلی نعمه تسخير الموجودات المختلفه فی العالم للإنسان بقوله:

وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّرٰاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

علی عظمه و قدره اللّه و عظمه ما خلق.

قلنا فی تفسيرنا لآيات سورتی الرعد و إبراهيم،أنّ المفهوم الواقعی لتسخير الموجودات للإنسان أن تکون فی منفعته،و يکون ذلک من شأنها و وظيفتها مع

تمکین الإنسان من الاستفاده منها.

فکل من الشمس و القمر و اللیل و النهار و النجوم له نوع و أثر خاص فی حیاه الإنسان،و ما أجمل عباره(تسخیر الموجودات للإنسان بأمر اللّه)فبالإضافه لما تظهره من شرف و رفعه شخصیه الإنسان بنظر الإسلام و القرآن،و إعطائه من الجلال ما یجعله مؤهلا لمقام خلیفه اللّه،فهی تذکره للإنسان بأن لا یغفل عمّا أنعم اللّه علیه،و باعثه فیه شعور لزوم الشکر للّه تعالی من خلال ما یلمس و یری،عسی أن یتقرب لخالقه فینال حسن مآبه.

و لهذا یقول تعالی فی ذیل الآیه: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ .

راجع تفسیرنا للآیتین(۳۲ و ۳۳)من سوره إبراهیم للاستزاده فی معرفه أسرار التسخیر المذکور.

و إضافه لکل ما تقدم وَ مٰا ذَرَأَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ من مخلوقات سخرها لکم و مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ من الأغطیه و الملابس و الأغذیه و الزوجات العفیفات و وسائل الترفیه،حتی أنواع المعادن و کنوز الأرض و سائر النعم الأخری إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ .

البحوث

اشاره

۱-النعم المادیه و المعنویه

احتوت الآیات مورد البحث علی ذکر النعم المادیه و المعنویه بشکل مترابط لا یقبل الفصل،إلاّ أن أسلوب و لحن التعبیر یختلف بین النعم المادیه و المعنویه، فبالنسبه للنعم المادیه لا نجد موردا یقول فیه القرآن الکریم:إنّ علی اللّه رزقکم، لکنّه فی مورد الهدایه یقول: عَلَی اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِیلِ فیعطیکم کل ما تحتاجونه تکوینیا و تشریعیا للسیر باقتدار فی الطریق الإلهی.

و حينما يتحدث عن خلق الأشجار و الفواكه و عن تسخير الشمس و القمر نراه سبحانه يضعها فى مسير هدف معنوى... إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و ذلک لإنّ الأسلوب القرآنی-کما هو معروف-لا يتخذ بعدا واحدا فى خطابه للناس.

۲-لما ذا الزّيتون و النخيل و الأعناب دون غيرها؟!

يمكننا للوهله الأولى أن نتصور أنّ ذكر القرآن للزيتون و التمر و العنب،فى الآيات مورد البحث،لوجودها فى المنطقه التى نزل فيها القرآن..و لكن بملاحظه الجانب العالمى لرساله القرآن و مع الإعتقاد ببقائها و استمرارها بالإضافه إلى التوجه لعمق التعبير القرآنى..يتّضح لنا خطل ذلك التصور.

يقول العلماء المتخصصون بالأغذيه(ممن صرفوا السنين الطول فى البحث عن فوائد و خواص الأغذيه):إنّ القليل من الفواكه التى تنفع بدن الإنسان من الناحيه الغذائيه هى بمستوى هذه الثمار الثلاث.

و يقولون:إنّ(زيت الزيتون)له قيمه عاليه جدا لتأمين السعرات الحراريه اللازمه للبدن،و لذلك يعتبر من الأغذيه المقويه للبدن،و على الذين يريدون حفظ سلامتهم أن يواظبوا على تناول هذا الإكسير.

إنّ زيت الزيتون ملائم لكبد الإنسان،مؤثر فعال فى رفع عوارض الكلى، و القولنج الكلوى و الكبدى و اليبوسه.

و لهذا نجد له مدحا كثيرا فى الرّوايات،

ففى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال عن الزيتون: «نعم الطعام الزيت،يطيب النكهه،و يذهب البلغم،و يصفى اللون،و يشد العصب،و يذهب بالوصب،و يطفئ الغضب» (۱) .

و الأهم من ذلك كله تسميه القرآن لشجره الزيتون ب«الشجره المباركه».

۱- ۱) -البحار:۱۸۳/۶۶.

و للتمر حديث أيضا حيث ثبتت الأهميتين العلاجيه و الغذائيه له من خلال ما بيّنه علماء الطب و الأغذيه..فقد اتّضح وجود الكالسيوم فيه الذى يعتبر العامل الأساسى لبناء و تقويه العظام،و كذلك الفسفور الذى يعتبر من العناصر الأساسيه فى تكوّن الدماغ،بالإضافه إلى أن التمر يمنع ضعف الأعصاب و مزيل للتعب، كما أنّ له دورا فى حده البصر.

و فيه البوتاسيوم الذى له الأهميه البالغه فى بناء خلايا الجسم،علاوه على أن فقدانه بسبب قرحه المعده.

كما بات من المعروف عند المتخصصين فى علم الأغذيه أن التمر له الدور الفعال فى عدم الإصابه بمرض السرطان.

و أظهرت الإحصائيات أنّ المناطق التى يكثر فيها تناول التمر هى أقل المناطق إصابه بهذا المرض الفتاك.و لهذا نجد أن البدو فى الصحارى العربيه مع ما يعانونه من فقر غذائى إلّا أنّهم لا يصابون بمرض السرطان.و يعزى سبب ذلك إلى وجود المغنيسيوم فى التمر غذائهم الأول.

أمّا السكر الموجود فى التمر فيعتبر من أفضل أنواع السكريات،حتى أنّه لا يسبب ضررا لكثير من المصابين بمرض السكر عند تناوله.

و قد اكتشف العلماء لحدّ الآن ثلاث عشره ماده حياتيه و خمسه أنواع من الفيتامينات فى التمر،تجعله مصدرا غذائيا غنيا و ذا قيمه عاليه جدّا (۱) .

و لهذا ورد تأكيد واسع على أهميه هذه الماده الغذائيه فى الرّوايات،و ممّا

روى عن على عليه السّلام أنّه قال: «كل التمر فإنّ فيه شفاء من الأدواء».

و

قد روى أيضا أنّ طعام أمير المؤمنين عليه السّلام كثيرا ما كان الخبز و التمر.

۱- ۱) -أول جامعه و آخر نبى،الجزء السابع،و يختص هذا الجزء بشرح الخواص الغذائيه و الصحيه و العلاجيه للتمر و العنب و يطلع الإنسان من خلاله على أهميه هذين الغذائين.

و

فی روی أخری: «بیت لا تمر فیه جیاع أهله» (۱) .

و فی سوره مریم أن اللّه أطعم مریم عند ما ولدت عیسی علیه السّلام،الرطب،و هو إشاره إلی أن أفضل غذاء للمرأه حدیثه الولاده التمر،و علیه کان تأکید الرّوایات بخصوص تفسیر هذه الآیه..إنّ أفضل طعام لها هو التمر (۲) .

أمّا العنب..فیقول عنه علماء الأغذیه:إنّ ما فیه الفوائد تدعونا إلی القول بأنّه صیدلیه طبیعیه متکامله.

إضافه إلی أنّ خواص العنب شبیهه جدا بخواص حلیب الأم(أی أنّه غذاء کامل)،و فائدته ضعف فائده اللحم،و هو ذو سعره حراریه عالیه،و مقاوم للسموم، و له أثر علاجی قطعی فی تصفیه الدم و الوقایه من الروماتیزم و النقرس،و یزید فی الدم،و ینظف المعده و الأمعاء،و هو:منشط،مزیل للتعب،مقو للأعصاب،و تعطی الفیتامینات المختلفه التی یحتویها قوه للإنسان.

و إضافه لکونه ماده غذائیه مهمّه فله القدره علی مکافحه المیکروبات بدرجه ملحوظه،حتی أعتبر من العوامل المهمّه فی مکافحه مرض السرطان و الوقایه منه (۳) .

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «خیر طعامکم الخبز،و خیر فاکهتکم العنب» (۴) .

و لو أردنا ذکر کل ما أورده علماء التغذیه بخصوص الفواکه الثلاث و ضمّناها ما جاء بصددها من روایات لخرجنا عن طبیعه التّفسیر،و إنّما کان القصد من هذه

۱- ۱) -سفینه البحار،ج ۱،ص ۱۲۴.

۲- ۲) -سفینه البحار،ج ۱،ص ۱۲۴ کذلک.

۳- ۳) -أول جامعه و آخر نبی،الجزء السابع.

۴- ۴) -الإسلام طبیب بلا دواء.

الإطاله بيان السبب العلمی الدقيق وراء ذكر هذه الفواكه فی الآيه المشار إليها، و لعل أكثر ما ذكر من فوائد كان خافيا على أهل زمان نزول الآيه.

٣-التفكر و التعقل و التذكر:

رأينا فی الآيات المبحوثه أنّ القرآن دعا الناس بعد ذكر ثلاثه أقسام من النعم الإلهيه إلی التأمل فی ذلك،فقال فی المورد الأوّل: إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ،و فی المورد الثّانی: لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ و فی الثّالث: لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

إن الاختلاف الوارد ليس للتصوير الفنی فی عبارات القرآن،لأن المعروف عن الأسلوب القرآنی إشارته لكل معنی برمز خاص.

و لعل المقصود من ذلك أنّ النعم الإلهيه الموجوده فی الأرض من الوضوح ما يكفی معها التذكر.

أمّا فيما يخص الزراعه و الزيتون و النخيل و الأعناب و الفاكهه فتحتاج إلی تركيز الفكر لمعرفه خواصها الغذائيه و العلاجيه،و لهذا ورد التعبير بالتفكر فيها.

و أمّا تسخير الشمس و القمر و الليل و النهار و النجوم فيحتاج إلی تفكير أشد و أعمق من الحاله الأولی،فورد التعبير بالتعقل.

و علی أيه حال،فالقرآن-دوما-يخاطب العلماء و المفكرين و العقلاء، بالرغم من أنّ المحيط الذی نزل فيه كان متخوما بالجهل،و من هنا تتضح لنا عظمه عبارات القرآن بشكل جلی.

و القرآن بما يحمله يمثل ضربه قاصمه لضيقی الأفق من الذين رفضوا الأديان كلها لأنّهم اصطدموا بوجود أديان خرافيه، و علی أساسها الهش بنوا بنيانهم المهزوز علی اعتبار أنّ الدين معطل للعقل و العلم و أنّ الإيمان باللّه عزّ و جلّ ناتج عن جهل الإنسان و ضعفه!!

و من هـذه النداءات الرّبانيه ما نجده فی جمیع السور القرآنیه تقریبا،التی تتحدث بکل وضوح عن:أنّ الدین الحق هو ولید التعقل و التفکر و لیس ولید الخیال السارح و الجهل الدامس.

و خطاب الإسلام موجه باستمرار إلی علماء و أولی الألباب و لیس إلی الجهله و ذوی الخرافات الباطله أو إلی أدعیاء الثقافه.

ص :۱۴۸

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۱۴ الی ۱۸]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِی سَخَّرَ اَلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا وَ تَرَى اَلْفُلْكَ مَوٰاخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۴) وَ أَلْقىٰ فِي اَلْأَرْضِ رَوٰاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهٰاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵) وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (۱۶) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اَللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ اَللّٰهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸)

التّفسير

اشاره

نعمه الجبال و البحار و النجوم:

تبيّن هذه الآيات قسما آخر من النعم الإلهيه غير المحدوده التی تفضل بها اللّه عزّ و جلّ علی الإنسان،فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار،المنبع الحيوی للحياه،فيقول: وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ .

و كما هو معلوم أنّ البحار تشكل القسم الأكبر من سطح الكره الأرضيه،و أن الماء أساس الحياه،و لا زالت البحار باعتبارها المنبع المهم فی إدامه الحياه

البشريه و حياه جميع الكائنات الحيه على سطح الكره الأرضيه.

فما أكبرها من نعمه حين جعلت البحار فى خدمه الإنسان...

ثمّ يشير البارى سبحانه إلى ثلاثه أنواع من منافع البحار: لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا فقد جعل اللّه فى البحار لحما ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد فى تربيه،بل أوجدته و نمّته يد القدره الإلهيه،و قد خصه بالطراوه،فمع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ اللحوم غير الطازجه متوفره فى ذلك الزمان و فى هذا الزمان على السّواء ندرك جيدا أهميه هذه النعمه،و فى ذلك إشاره أيضا الى أهميه اللحوم الطازجه.

و مع ما شهدته الحياه البشريه من التقدم و التمدن المدنى فى كافّه أصعده الحياه لا زال البحر أحد المصادر الرئيسيه للتغذيه،و يصاد سنويا مئات الآلاف من الأطنان من الأسماك الطريه التى أوجدتها و رعتها يد اللطف الإلهيه لأجل الإنسان.

و نجد أنظار العلماء متجهه صوب البحار فى قبال ما سيهدد البشريه من خطر نقص المواد الغذائيه فى المستقبل جراء الزياده السكانيه الهائله،آملين خيرا بأنّ البحار ستسد مقدارا ملحوظا من ذلك النقص،بواسطه تربيه و تكثير أنواع الأسماك.

و من جهه أخرى وضعوا عدّه مقررات لمنع تلوّث مياه البحار للحد من تلف نسل الحيوانات البحريه،و كل ذلك يوضح ما فى الآيه المذكوره من مسائل علميه طرحت على البشريه قبل أربعه عشر قرنا.

و من فوائد البحار أيضا تلك المواد التجميليه المستخرجه من قاعه:

وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها

.

الحس الجمالى من الأمور الفطريه التى فطر الإنسان عليها و هو الباعث على إثاره الشعر و الفن الأصيل و ما شاكلها عنده.

و بلا شک،یلعب هـذا البعـد دورا مهمّا فی حیاه البشـر،و ینبغی العمل علی إشـباعه بشـکل صـحیح و سالم بعیدا عن أی نوع من الإفراط و التفریط.

فلاـ فرق بـالنتیجه بین من غرق فی عبـاده التجمیـل و الزینه،و بین من أهملهـا و عـاش حـاله الجفـاف الجمـالی،لأـنّ الأوّل مارس الإفراط الباعث علی تلف رأسـماله و بات سـببا فی إیجاد الفواصل الطبقیه المصاحب لقتل کل ما یمت للمعنویات بصله،و الثّانی مارس التفریط الباعث علی الخمود و الرکود.فالإثنان معا عملا بما لا ینبغی أن یعمله أی إنسان ذو فطره سلیمه بکافه أبعادها.

و لهـذا أوصـی الإسـلام کثیرا بالتزین المعقول الخالی من أی إسـراف مثل:لبس اللباس الجید،التطیب بالعطور،اسـتعمال الأحجار الکریمه...إلخ.

ثـمّ یتطرق القرآن إلی الفائـده الثّـالثه فی البحـار:حرکـه السـفن علی سـطح میاهـا،کوسـیله مهمّـه لتنقـل الإنسـان و نقـل ما یحتـاجه،فیقـول: وَ تَرَی الْفُلْکَ مَوٰاخِرَ فِیهِ ،و مـا أجمـل مـا تقـع علیه أنظـار راکـبی السـفینه حین حرکتهـا علی سـطح البحـار و المحیطات.

و أعطاکم اللّه هذه النعمه لتستفیدوا منها فی التجاره أیضا وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (۱) .

و بعد ذکر هذه النعم التی تستلزم من الإنسان العاقل أن یشکر واهبها،یأتی فی ذیل الآیه: وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ .

«الفلک»:أی السفینه،و تأتی بصیغتی المفرد و الجمع.

«مواخر»جمع«مـاخره»(من مـاده مخر)علی وزن(فخر)بمعنی شق المـاء یمینـا و شـمالا،و تطلق علی صوت الریـاح الشدیـد أیضا، و باعتبار السفن عند حرکتها تشق الماء بمقدمتها فیطلق علیها اسم(الماخر)أو الماخره.

۱- ۱) -ابتـدأت عباره وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْـلِهِ بواو العطف بما یسـتوجب تقدم المعطوف و هو هنا مقدرا،تقدیره«لتنتفعوا بها و لتبتغوا من فضله».

و نتساءل:من الذی أعطی المواد التی تصنع منها السفن خاصیه الطفو علی سطح الماء؟ فالسفینه بما تحمل أثقل من الماء بکثیر،و لو لم تکن تلک القوّه الدافعه للماء، هل بإمکاننا العوم علی سطح المیاه؟ و من الذی یحرک الریاح علی سطح البحر؟ بل من أعطی البحار القوّه لتحریک السفینه فی مسیرها علی سطح الماء؟ أو لیس ذلک کله من نعم اللّه تعالی؟ و ممّا یکشف عن عظم نعمه البحار أنّها:أوسع بکثیر من الطرق البریه،أقلّ کلفه،أکثر أهلیه للحرکه،أعظم وسیله نقلیه للبشر،و ذلک بملاحظه کبر السفن المستخدمه فی النقل و ضخامه ما تحمله.

ثمّ یأتی الحدیث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: وَ أَلْقیٰ فِی الْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ (۱) .

کما قلنا سابقا فإنّ الجبال متصله من جذورها و تقوم بتثبیت الأرض ممّا یجعلها مانعا حصینا من الزلازل الأرضیه الشدیده الناشئه من الغازات الکامنه فی باطن الأرض و المهدده بالخروج فی أیه لحظه علی شکل زلزال.

إضافه لخاصیه الجبال فی مد القشره الأرضیه بالمقاومه اللازمه أمام جاذبیه القمر(التی تسبب ظاهره المد و الجزر)و یقلل من أثرها إلی حد کبیر.

و للجبال من جانب ثالث القدره علی تقلیل شده حرکه الریاح و توجیه حرکتها،و لو لم تکن الجبال لکن سطح الأرض عرضه للعواصف الشدیده المستمره.

ثمّ یتطرق القرآن الکریم مباشره إلی نعمه الأنهار،لما بین الجبال و الأنهار من

ص: ۱۵۲

۱- ۱) - أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ علی تقدیر(لئلا تمید بکم)أو(کراهه أن تمید بکم).

علاقه وثيقه حيث تعتبر الجبال المخازن الأصليه للمياه،فيقول: وَ أَنْهاراً .

ثمّ يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أن الجبال حاجز بين ارتباط الأراضى فيما بينها بالإضافه لكونها مانعا رهيبا أمام حركه النقل،فيقول وَ سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱) .

و هذه المسأله ملفته للنظر حقا،حيث نجد طرق عبور يستطيع أن يتخذها الإنسان سبيلا لتنقلاته بين أكبر السلاسل الجبليه و عوره فى العالم،و قليلا ما يكون هناك قطع كامل بين المناطق بسبب الجبال.

ثمّ يضيف قائلا: وَ عَلاٰمٰاتٍ لأنّ الطريق لوحدها لا يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقه و مميزات شاخصه يستهدى بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه،و لذا ذكر هذه النعمه.

و من تلك العلامات:شكل الجبال،الأوديه، الممرات،الارتفاع و الانخفاض، لون الأرض و الجبال و حتى طبيعه حركه الهواء.

و لمعرفه ما لوجود هذه العلامات من أهميه،يكفينا أن نلقى نظره إلى حال الصحارى الواسعه ذات الصفه الواحده الموجوده فى بعض مناطق العالم،حيث عمليه التنقل فيها أمر صعب مستصعب إلى حد كبير،إضافه لخطورته الكبيره،و كم هناك من مسافر دخل فيها و لم يعد...

فلو كان سطح الأرض كله على شاكله الصحارى،كأن تكون الجبال كلها بشكل و حجم واحد،و حقولها بلون واحد،و أوديتها متشابهه تماما..فهل كان من اليسير على الإنسان أن يسير عليها؟! و أمّا فى حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمه الليل فى أىّ من

۱- ۱) -تعتبر هذه الآيه إحدى المعجزات العلميه للقرآن الكريم،حيث ذكرت هذا الأمر و بما يحمل من ظواهر علميه فى زمن لم يصل الإنسان لاكتشافه بعد. و لأجل مزيد من التوضيح راجع كتابنا(القرآن و آخر نبى)-فصل المعجزات العلميه للقرآن.

سفر البر أو البحر،فقد جعل اللّه تعالی علامات فی السماء تعوض عن علامات الأرض فی تلک الحال: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

بطبيعه الحال فهـذه إحـدی الفوائـد الجمله للنجوم،و لو لم يكن لها سوی هـذه الفائـده لكان كافيا لوجودها،خصوصا فی زمن لا أسـطرلاب فيه و لا مؤشـرات قطبيه تعين السـفن فی تحديـد مسـيرها وفق خرائط أعـدت لذلک الغرض،و قديما كانت الرحلات تتوقف إذا ما غطيت السماء بالسّحب و تلبدت بالغيوم،و من يجرأ علی تكمله السفر فسيواجه خطر الموت.

و كمـا هو معلوم اليوم،فـإنّ النجوم الـتی تبـدو لنـا متحركه فی السـماء عبـاره عن خمسه كواكب،و يطلق عليهـا اسم السـيارات،و السـيارات أكثر من خمسه،إلاّ أنّ البقيه لا يمكن تشخيصها بالعين المجرّده بسهوله،أمّا بقيه النجوم فإنّها تحتفظ بمكانها النسبی، و كأنّها لآلئ خيطت علی قطعه قماش أسود،و هذه القطعه كأنّها تسحب من إحدی جهاتها فتتحرک بكاملها.

و بعباره أخری:إنّ حركه النجوم الثوابت جمعيه،و حركه السيارات انفراديه، حيث تتغير المسافات بينها و بين الثوابت باستمرار.

إضـافه لـذلک،فـالنجوم الثوابت تشـكل فيمـا بينها أشـكالا معينه تعرف ب(الصور الفلكيه)و لها الأثر الكبير فی معرفه الاتجاهات الأربعه(الشمال،الجنوب، الشرق،و الغرب).

و بعـد أن بيّن القرآن كل هـذه النعم الجليله و الألطاف الإلهيه الخفيه،راح يدعو الوجدان الإنسانی للحكم فی ذلک أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاـ يَخْلُقُ أَ فَلاـ تَذَكَّرُونَ ؟! و كمـا اعتـدنا عليه من القرآن فی أسـلوبه التربوی الهـادف المؤثر،فقـد طرح مسـأله المحاجه بصـيغه السؤال يـترک الجواب عنه فی عهـده الوجـدان الحی للإنسـان،مسـتعينا بتحريـک الإحسـاس البـاطنی ليجيب من أعمـاق روحه،و لينشد عشقا بخالقه.

و الثابت فی الواقع النفسی للإنسان،أن التعلیم و التربیه السلیمه یستلزمان بذل أقصی سعی ممکن لإقناع المقابل بقبول ما یوجد إلیه عن قناعه ذاتیه،أی ینبغی إشعاره بأن ما یعطی إلیه ما هو فی حقیقته إلاّ انبعاث من داخله و لیس فرضا علیه من الخارج لیتقبلها بکل وجوده و یتبناها و یدافع عنها.

و نجد من الضروره إعاده ما قلناه سابقا من أن المشرکین الذین کانوا یسجدون للأصنام کانوا یعتقدون أنّ اللّه عزّ و جلّ هو الخالق،و لهذا یتساءل القرآن الکریم.. من أحق بالسجود..خالق کل شیء أم المخلوق؟! و فی نهایه المطاف،یفند الباری سبحانه مسأله حصر النعم الإلهیه بما ذکر، بقوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَهَ اللّهِ لا تُحْصُوها .

إنّکم غارقون فی النعم الإلهیه و فی کل نفس یصعد و ینزل آلاف النعم(و لکل نعمه شکر واجب).

إنّ کل دقیقه تمر من عمرنا نکون فیها مدینین لفعالیات ملایین الموجودات الحیّه فی داخل بدننا و ملایین الموجودات الحیه و غیر الحیه فی خارجه،و التی لا یمکننا أن نحیا و لو للحظه واحده بدونها.

و لکنّ ضبابیه الغفله حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجمه التی کلّما خطا العلم الحدیث خطوه إلی الإمام اتّضحت لنا أبعاد واسعه و انفتحت لنا آفاقا جدیده فی معرفه النعم الإلهیه،و کل ما ندرکه فی هذا المجال قلیل جدّا ممّا قدّره الباری لنا، فهل بإمکان المحدود أن یعد ما أعطاه المطلق؟! و نواجه فی هذا المقام سؤالا و استفسارا:کیف إذن نؤدی حق الشکر للّه؟و..

ألسنا مع ما نحن فیه زمرّه الجاحدین؟ و قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ خیر جواب لما واجهنا به.

نعم،فهو سبحانه أرحم و أرأف من أن یؤاخذنا علی عدم الاستطاعه فی أداء أتمّ الشکر علی نعمه.

ص:۱۵۵

و یکفینا من لطفه تعالی بأن یحسبنا من الشاکرین فی حال اعتذرنا له و اعترافنا بالعجز عن أداء حق الشکر الکامل.

و لکن هـذا لا یمنع من أن نتتبع و نحصـی النعم الرّبانیه بقـدر المسـتطاع،لأنّ ذلک یزیدنا معرفه اللّه،و علما بعالم الخلیقه،و آفاق التوحید الرحبه،کما یزید من حراره عشـقه سبحانه فی أعماق قلوبنا،و کذا یحرک فینا الشعور المتحسس بضروره و وجوب شکر المنعم جل و علا.

و لهـذا نجد أنّ الأئمّه علیهم السّـلام یتطرقون فی أقوالهم و أدعیتهم و مناجاتهم إلی النعم الإلهیه و یعدون جوانب منها،عباده للّه و تذکیرا و درسا للآخرین.

(و قـد تناولنـا مسـأله شـکر النعمه و عـدم قـدره الإنسـان علی إحصـاء النعم الإلـهیه عنـد بحث الآـیه الرّابعه و الثّلاـثین من سوره إبراهیم).

بحث

اشاره

الطریق،العلامه،القائد:

تحـدثت الآیـات أعلاـه عن الطرق الأرضـیه بکونهـا إحـدی النعم الإلـهیه باعتبارهـا من أهم وسائـل الارتبـاط فی طریـق التمـدن الإنسانی.

و لهـذا عنـد وضع الخطـط العمرانیه لاـ بـد معها من رسم و بناء خطوط الطرق المناسـبه للمکان المقصود،و إلاّ لا یمکن أن یقام عمران.

و مع هـذا،فلا یمکننا حصـر البیان القرآنی بهذا الجانب فحسب،بل یمکننا القول بأنّه یشـمل حتی جوانب الحیاه المعنویه للبشـریه أیضا،لأنّ الوصول إلی هدف مقدس یستلزم سلوک الطریق الصحیح لذلک الهدف.

بالإضافه إلی الأهمیه الحیویه الوجود العلامات فی تشخیص السبیل من بین کثره السبل و تشابکها،فإضاعه السبیل الأصلی ممکن فی حال عدم وجود ما یدل

علیه من«علامات».

و خصوصا،ورود تسمیه المؤمنین فی الآیات القرآنیه بالمتوسمین للتأکید علی ضروره الانتباه إلی هذه العلامات.

فلکی یستطیعوا تشخیص الحق من الباطل لا بد من معرفه المذاهب و السنن و الدعوات المختلفه،بل حتی الأشخاص،و ذلک من خلال(العلامات).

و أمّا مسأله وجود القائد فلا تحتاج لتوضیح و بیان(الموضح لا یوضح).

و قد فسرت«النجم»برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و«العلامات»بالأئمّه علیهم السلام فی روایات کثیره وردت عن أهل البیت علیهم السّلام..و فی بعضها فسّر«النعم»و«العلامات»کلاهما بالأئمّه علیهم السّلام،و نشیر هنا إلی نماذج من الرّوایات:

-١

فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «النجم رسول اللّه،و العلامات الأئمّه علیهم السّلام» (١) و ورد مثله عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام.

٢-و

روی عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر الآیه أعلاه أنّه قال: «نحن النجم» (٢) .

٣-و

روی کذلک عن الإمام الرضا علیه السّلام أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السّلام: «أنت نجم بنی هاشم» (٣) .

۴-و

فی روایه أخری: «أنت أحد العلامات» (۴) .

و کل ذلک یشیر إلی التّفسیر المعنوی لهذه الآیات.

١- ١) -تفسیر نور الثقلین،ج ٣،ص ۴۵.

٢- ٢) -المصدر السابق.

٣- ٣) -المصدر السابق.

۴- ۴) -المصدر السابق.

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۱۹ الی ۲۳]

اشاره

وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ (۱۹) وَ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لاٰ یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ (۲۰) أَمْوٰاتٌ غَیْرُ أَحْیٰاءٍ وَ مٰا یَشْعُرُونَ أَیّٰانَ یُبْعَثُونَ (۲۱) إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَالَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ قُلُوبُهُمْ مُنْکِرَهٌ وَ هُمْ مُسْتَکْبِرُونَ (۲۲) لاٰ جَرَمَ أَنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ اَلْمُسْتَکْبِرِینَ (۲۳)

التّفسیر

اشاره

آلهه لا تشعر!

تناولت الآیات السابقه ذکر صفتین ربانیتین لا تنطبق أیه منها علی الأصنام و سائر المعبودات الأخری غیر اللّه تعالی و هما:(خلق الموجودات،إعطاء النعم)، أمّا الآیه الأولی أعلاه فتشیر إلی الصفه الثّالثه للمعبود الحقیقی(و هی العلم)، فتقول: وَ اللّهُ یَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ .

فلما ذا تسجدون للأصنام التی لم تکن هی الخالقه لکم،و لم تمنّ علیکم بأیه

نعمه،و لاـ تعرف عن علنكم شيئا مضافا إلى سرّكم؟! فهل يصح عباده من لا يمتلك مستلزمات المعبود؟! ثمّ يعود القرآن إلى مسأله الخالقيه بأفق أوسع من الآيه السابقه: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ .

و قد بحث لحد الآن فى عدم صلاحيه الأصنام لتكون معبوده لأنّها ليست خالقه.بل و الأكثر من ذلك أنّها إضافه لكونها مخلوقه فهى فقيره و محتاجه فى وجودها،فكيف يلجأ إليها الإنسان لسد حوائجه؟!أو ليس ذلك السخف بعينه؟ و مع ذلك كلّه،فإنّها أَمْوٰاتٌ غَيْرُ أَحْيٰاءٍ .

أو ليس ينبغى أن يكون المعبود حيا(على أقل التقادير)ليكون مطلعا على حاجات عباده؟ إذن...يلزم توفر صفه«الحياه»للمعبود الحقيقى،و هذا ما لا يتوفر فى الأصنام.

ثمّ يضيف قائلا عنها: وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ .

فإذا كان الثواب و العقاب بيد الأصنام.فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهن،و مع جهلها بيوم البعث و الحساب كيف تكون لائقه للعباده؟! و هذه هى الصفه الخامسه التى يجب توفرها فى المعبود الحقيقى و تفتقدها الأصنام.

و قلنا مرارا فيما سبق أن مفهوم الصنم و عباده الأصنام فى المنطق القرآنى أوسع من أنّ يحدد بالآلهه المصنوعه من الحجر و الخشب و المعادن.فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل اللّه عزّ و جلّ،و نسلم له أمر مصائرنا،فهو صنم و إنّ كان بشرا.

و لهذا فكل ما جاء فى الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون اللّه بألسنتهم، و لكن فى واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف،و قد تبعوه لكونه المخلص لهم

من دون اللّه، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

أولئك الذين يعتقدون أن القوى العالميه الكبرى يمكن أن تكون ملجأ لهم فی حياتهم،و إن كانت كافره باللّه و جهنميه فهم من الناحيه العمليه الواقعيه عبده للأصنام و مشركين باللّه عزّ و جلّ،و ينبغی محاججتهم ب:

هل خلقت لكم هذه المعبودات شيئا؟ هل هی مصدر النعمه؟ أ هی مطلعه على شؤونكم الظاهره و الخفيه؟ و هل تعلم متى ستبعثون؟ هل بيدها الثواب و العقاب؟ و إن كانت الإجابه بالنفی،فلم تعبدونها من دون اللّه؟! و بعد هذه الاستدلالات الحيه و الواضحه على عدم صلاحيه الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجه المنطقيه لما ذكر: إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ .

و بما أنّ العلاقه بين المبدأ و المعاد مترابطه ربطا لا انفصام فيه،يضيف القرآن الكريم من غير فاصله: فَالَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَهٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (١) .

فأدله التوحيد و المعاد قائمه لمن أراد الحق و طلب الحقيقه،إلّا أن سبب عدم قبول الحق و إنكاره يرجع إلى حاله الاستكبار و عدم التسليم له،و يصبح ملكه فی وجود المنكرين خصوصا بعد أن يصل بهم الحال إلى إنكار الحقائق الحسيّه المتوفره لديهم،و عندها فلا ينفع معهم كلام حق أو دليل شاخص أو منطق سليم.

فالأدله الحيه التی ذكرتها الآيات السابقه بعدم صلاحيه الأصنام للعباده كافيه لكل ذی لب رشيد،إلّا أنّ هناك الكثير ممن لا يقبلها مع مالها من حقيقه

١- ١) -إنّ حرف الفاء فی كلمه«فالذين»للتفريع كما هو معلوم،فيكون المراد:إنّ إنكار القيامه فرع لإنكار المبدأ.

و وضوح!!! ثمّ تتطرق فی الآیه الأخیره إلی علم اللّه فی الغیب و الشهاده: لاٰ جَرَمَ أَنَّ اللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ .

و الآیه فی واقعها تهدید للکفار و أعداء الحق،بأنّ اللّه عزّ و جلّ لیس بغافل عنهم،سرهم و علانیتهم،و کل سینال جزاءه بما غرفت یداه.

فهم مستکبرون و إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ الْمُسْتَکْبِرِینَ ،و الاستکبار علی الحق من علامات الجهل باللّه عزّ و جلّ.

إنّ کلمه«لا جرم»متکون من«لا»و«جرم»و تستعمل عاده للتأکید بمعنی (قطعا)،و أحیانا بمعنی(لا بد)،و فی بعض الأحیان تستعمل کقسم مثل:(لا جرم لأفعلن).

أمّا کیف أمکن استخراج هذه المعانی من کلمه«لا جرم»فذلک لأنّ«جرم» فی الأصل بمعنی القطف و قطع الثمار من الأشجار،و عند ما تدخل علیها«لا» یکون مفهومها:أن لا شیء یستطیع قطع هذا الموضوع و منعه من التحقق،و لهذا یستفاد منها معانی:قطعا،و لا بدّ،و أحیانا القسم.

بحث

اشاره

من هم المستکبرون؟

وردت کلمه الاستکبار فی آیات کثیره من القرآن الکریم باعتبارها إحدی الصفات الذمیمه الخاصّه بالکفار،و لتعطی معنی التکبر عن قبول الحق.

ففی الآیه السابقه من سوره نوح: وَ إِنِّی کُلَّمٰا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصٰابِعَهُمْ فِی آذٰانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِیٰابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَکْبَرُوا اسْتِکْبٰاراً .

و فی الآیه الخامسه من سوره المنافقین: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا یَسْتَغْفِرْ لَکُمْ

رَسُولُ اللّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ .

و كذلك فى الآيه الثّامنه من سوره الجاثيه: يَسْمَعُ آيَاتِ اللّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا .

و من أقبح ألوان التكبر ذلك الذى يقف أمام قبول الحق فيرفضه،لأنّه يغلق على الإنسان جميع سبل الهدايه و يتركه يتخبط فى متاهات المعاصى و الضلال.

و يصف أمير المؤمنين عليه السّلام الشيطان بأنّه:

«سلف المستكبرين» (۱) لأنه أوّل من خطا فى طريق مخالفه الحق بعدم تسليمه للحقيقه الرّبانيه التى تقول:إنّ أدم أكمل منه.

صحيح أنّ زهو المال قد يوقع الإنسان فى حاله الاستكبار،إلّا أنّ المسأله أكبر من ذلك و أشمل،فكل رافض لقبول الحق مستكبر و إن كان فقيرا.

و نختم البحث

بروايه عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «و من ذهب يرى أنّ له على الآخر فضلا فهو المستكبرين،فقلت:إنّما يرى أن له عليه فضلا بالعافيه إذا رآه مرتكبا للمعاصى؟فقال:هيهات هيهات!فلعله أن يكون قد غفر له ما أتى و أنت موقوف تحاسب،أما تلوت قصّه سحره موسى عليهم السّلام» (۲) .

(حين وقف السحره يوما فى مقابل موسى عليه السّلام إرضاء لفرعون و طمعا فى جوائزه،و لكنّهم انقلبوا فجأه لما تبيّن لهم الحق و اعتنقوه و ما هابوا تهديد فرعون، و بقوا على رفضهم فى عديم التسليم للطاغيه،فكانت النتيجه أن عفا اللّه عنهم و رحمهم).

ص: ۱۶۲

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه القاصعه.

۲- ۲) -تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۴۸ عن(روضه الكافى).

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۲۴ الی ۲۹]

اشاره

وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۲۴) لِیَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ کٰامِلَهً یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ مِنْ أَوْزٰارِ اَلَّذِینَ یُضِلُّونَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ أَلاٰ سٰاءَ مٰا یَزِرُونَ (۲۵) قَدْ مَکَرَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَی اَللّٰهُ بُنْیٰانَهُمْ مِنَ اَلْقَوٰاعِدِ فَخَرَّ عَلَیْهِمُ اَلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتٰاهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَشْعُرُونَ (۲۶) ثُمَّ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ یُخْزِیهِمْ وَ یَقُولُ أَیْنَ شُرَکٰائِیَ اَلَّذِینَ کُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِیهِمْ قٰالَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ إِنَّ اَلْخِزْیَ اَلْیَوْمَ وَ اَلسُّوءَ عَلَی اَلْکٰافِرِینَ (۲۷) اَلَّذِینَ تَتَوَفّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ ظٰالِمِی أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا اَلسَّلَمَ مٰا کُنّٰا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلیٰ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) فَادْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا فَلَبِئْسَ مَثْوَی اَلْمُتَکَبِّرِینَ (۲۹)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان:یروی أنّها نزلت فی المقتسمین و هم سته عشر

ص :۱۶۳

رجلا خرجوا إلى عقاب مكّه أيام الحج على طريق الناس على كل عقبه أربعه منهم ليصدوا الناس عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إذا سألهم الناس عمّا أنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قالوا:أحاديث الأولين و أباطيلهم.

التّفسير

اشاره

حمل أوزار الآخرين:

دار الحديث فى الآيات السابقه حول عناد المستكبرين و استكبارهم أمام الحق،و سعيهم الحثيث فى التنصل عن المسؤوليه و عدم التسليم للحق.

أمّا فى هذه الآيات فيدور الحديث حول منطق المستكبرين الدائم،فيقول القرآن: وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قٰالُوا أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ فليس هو وحى الهى،بل أكاذيب القدماء.

و كانوا يرمون بكلامهم المؤدى هذا إلى أمرين:

الأوّل:الإيحاء بأن مستوى تفكيرهم و علميتهم أرقى ممّا أنزل اللّه! الثّانى:ما جاء به النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن هو إلاّ أساطير الأولين قد صيغت بعبارات جذابه لتنطلى على عوام الناس،و هذا ليس بالجديد،و ما محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلاّ معيد لما جاء به الأوّلون من أساطير.

«الأساطير» (1) :جمع أسطوره،و تطلق على الحكايات و القصص الخرافيه و الكاذبه،و قد وردت هذه الكلمه تسع مرات فى القرآن الكريم نقلا عن لسان الكفار ضد الأنبياء تبريرا لمخالفتهم الدعوه إلى اللّه عزّ و جلّ.

و فى جميع المواطن ذكروا معها كلمه«الأوّلين»ليؤكدوا أنّها ليست بجديده و أنّ الأيّام ستتجاوزها!حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون،كما جاء عن

1- 1) -يعتبرها البعض جمع الجمع،فالأساطير جمع أسطار،و الأساطير جمع سطر..و يعتبرها البعض الآخر جمعا ليس له مفرد من جنسه..إلاّ أنّ المشهور ما ذكرناه أعلاه.

لسانهم فی الآیه(۳۱)من سوره الأنفال: قَدْ سَمِعْنٰا لَوْ نَشٰاءُ لَقُلْنٰا مِثْلَ هٰذٰا .

و الملاحظ علی مستکبری یومنا توسلهم بنفس تلک التهم الباطله هروبا من الحق و إضلالا للآخرین،و وصلت بهم الحماقه لأن یعتبروا منشأ الدین من الجهل البشری،و ما الآراء الدینیه إلّا أساطیر و خرافات!حتی أنّهم اثبتوا ذلک فی کتب (علم الاجتماع و دوّنوه بصیاغه(علمیه)کما یدّعون).

أمّا لو نفذنا فی أعماق تفکیرهم لوجدنا صوره أخری:فهم لم یحاربوا الأدیان و المذاهب الخرافیه المجعوله أبدا،فهم مؤسسوها و الداعون لنشرها،إنّما محاربتهم للأصاله و الدین الحق الذی یوقظ الفکر الإنسانی و یحطم الأغلال الاستعماریه و یقطع دابر المنحرفین عن جاده الصواب.

إنهم یرون عدم انسجام دعوه الدین إلی الأخلاق الحمیده،لأنّها تعارض أهواءهم الطائشه و رغباتهم غیر المشروعه.

لذلک یجدون فی دعوه الحق مانعا أمام ما یطمحون الحصول علیه،و نراهم یستعملون مختلف الأسالیب لتوهین هذا الدین القیم و إسقاطه من أنظار الآخرین کی تخلو الساحه لهم لیفعلوا ما یشاءون.

و من المؤسف أنّ طرح بعض الخرافات و الأفکار الخاطئه فی قالب دینی من قبل الجهله،کان بمثابه العامل المساعد فی تجرّی هؤلاء و دفعهم لإلصاق تهمه الخرافات بالدین.و لا بدّ للمؤمنین الواعین أمام هذه الحال من الوقوف بکل صلابه أمام الخرافات لیبطلوا هذا السلاح فی أیدی أعدائهم و یذکروا هذه الحقیقه فی کل مکان و أن هذه الخرافات لا ترتبط بالدین الحق أبدا و لا ینبغی للداعیه المخلص أن یجعل الخرافات ذریعه لأعداء الدین فی محاربته و محاربتنا،لأنّ عملیه انسجام التعلیمات الربانیه مع العقل بحدّ من المتانه و الوضوح لا یفسح أیّ مجال لأنّ توجه إلیه هکذا أباطیل.

توضح الآیه الأخری أعمالهم بالقول: لِیَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ کٰامِلَهً یَوْمَ الْقِیٰامَهِ

ص:۱۶۵

وَ مِنْ أَوْزٰارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَزِرُونَ

.

لأنّ أقوالهم الباطله لها الأثر السلبى بتضليل أعداد كبيره من الآخرين.فمن أسوأ ممن حمّل أوزار آلاف البشر إلى وزره!و الأكثر من ذلك أن أقوالهم ستركد فى مخيله من يأتى بعدهم من الأجيال لتكون منبعا لإضلالهم،ممّا يزيد فى حمل الأوزار باطراد.

و قد جاءت عباره«ليحملوا»بصيغه الأمر،أمّا مفهومها فلبيان نتيجه و عاقبه أعمال أولئك المظلين،كما نقول لشخص ما:لكونك قمت بهذا العمل غير المشروع فعليك أن تتحمل عاقبه ما فعلت بتذوقك لمراره عملك القبيح.(و احتمل بعض المفسّرين أن لام(ليحملوا،لام نتيجه).

و الأوزار:جمع وزر،بمعنى الحمل الثقيل،و جاءت بمعنى الذنب أيضا، و يقال للوزير لعظم ما يحمل من مسئوليه.

و يواجهنا السؤال التالى..لما ذا قال القرآن:يحملون من أوزار الذين يضلونهم و لم يقل كل أوزارهم،فى حين أن الرّوايات تؤكد..أن

«من سنّ سنّه سيئه فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامه»؟ أجاب بعض المفسّرين بوجود نوعين من الذنوب عند المضلّلين،نوع ناتج من أتباعهم لأئمّه الضلال،و النوع الآخر من أنفسهم،فما يحمله أئمّتهم،و قادتهم هو من النوع الأوّل دون الثّانى.

و اعتبر البعض الآخر من المفسّرين أنّ«من»فى هذه الجمله ليست تبعيضيه، بل جاءت لبيان أنّ ذنوب الأتباع على عاتق المتبوعين.

و ثمّه تفسير آخر قد يكون أقرب إلى القبول من غيره،يقول:إنّ الاتباع الضالين لهم حالتان من التبعيه...

فتاره يكونون أتباعا للمنحرفين على علم و بيّنه منهم،و التأريخ حافل بهكذا صور،فيكون سبب الذنب أوامر القاده من جهه،و تصميم الأتباع من جهه أخرى

فيقع على عاتق القاده قسم من المسؤوليه المترتبه على هذه الذنوب«و لا يقلل من وزر الأتباع شیء».

و تاره أخرى تكون التبعيه نتيجه الاستغفال و الوقوع تحت شراك وساوس المنحرفين من دون حصول الرغبه عند المتبوعين فيما لو أدركوا حقيقه الأمر، و هو ما يشاهد فى عوام الناس عند الكثير من المجتمعات البشريه،(و قد يسلك طريق الضلال بعنوان التقرب إلى اللّه)..و فى هذه الحال يكون وزر ذنوبهم على عاتق مضلّيهم بالكامل،و لا وزر عليهم إن لم يقصّروا بالتحقق من الأمر.

و لا شك أنّ المجموعه الأولى التى سارت فى طريق الضلال عن علم و بيّنه من أمرها سوف لا يخفف من ذنوبهم شیء مع ما يلحق أئمّتهم من ذنوبهم.

و هنا يلزم ملاحظه أنّ التعبير«بغير علم»فى الآيه ليس دليلا على الغفله الدائمه للمضلّلين،و لا يعبّر عن سقوط المسؤوليه-فى جميع الحالات-على غير المطلعين بحال و شأن أئمّه السوء و الضلاله بل يشير إلى سقوط عوام الناس لجهلهم بشكل أسرع من علمائهم فى شراك أو شباك المضلّلين.

و لهذا نرى القرآن فى آيات أخرى لا يبرئ هؤلاء الأتباع و يحملهم قسطا من المسؤوليه كما فى الآيتين(۴۷ و ۴۸)من سوره غافر: وَ إِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُنّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّا نَصِيباً مِنَ النّارِ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ .

ثمّ تذكر الآيه الأخرى أن تهمه وصف الوحى الإلهى بأساطير الأوّلين ليست بالأمر المستجد: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ .

مع أنّ بعض المفسّرين قد ذهب بالآيه إلى قصه«النمرود»و صرحه الذى أراد من خلاله محاربه رب السماء!و البعض الآخر فسرها بقصه«بخت نصر»..إلاّ أن الظاهر من مفهوم الآيه شمول جميع مؤامرات و دسائس المستكبرين و أئمّه

الضلال.

و من لطيف دقّه العباره القرآنيه،أنّ الآيه أشارت إلى أنّ اللّه عزّ و جلّ لا يدمّر البناء العلوى للمستكبرين فحسب،بل سيدمره من القواعد لينهار بكله عليهم.

و قد يكون تخريب القواعد و إسقاط السقف إشاره إلى أبنيتهم الظاهريه،من خلال الزلازل و الصواعق لتنهار على رؤوسهم،و قد يكون إشاره إلى قلع جذور تجمعاتهم و أحزابهم بأمر اللّه عزّ و جلّ،بل لا مانع من شمول الأمرين معا.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن ذكر كلمه«السقف»بعد ذكر«من فوقهم»، ف«السقف»عاده فى الطرف الأعلى من البناء،فما الذى استلزم ذكر«من فوقهم»؟و يمكن حمله للتأكيد،و كذلك لبيان أنّ السقوط سيتحقق بوجودهم أسفله لهلاكهم،حيث أنّ السقوط قد يحدث بوجود أصحاب الدار أو عدم وجودهم.

و قدم لنا التأريخ قديمه و حديثه بوضوح صورا شتى للعقاب الإلهى،فإحكام الطغاه و الجبابره لما يعيشون و يتمتعون فى كنفه من حصون و قلاع،إضافه لخططهم المحبوكه كى يستمر لهم و لنسلهم الحال،و ما قاموا به من تهيئه و إعداد كل مستلزمات بقاء قدره التسلط و دوام نظام الحكم..كل ذلك لا يعبر فى الحقيقه إلاّ عن ظواهر خاويه من كل معانى القدره و الاقتدار و الدوام،حيث تحكى لنا قصص التاريخ أنّ هؤلاء يأتيهم العذاب الإلهى و هم بذروه ما يتمتعون به،و إذا بالقلاع و الحصون تتهاوى على رؤوسهم فيفنون و لا تبقى لهم باقيه.

و عذابهم فى الحياه الدنيا لا يعنى تمام الجزاء،بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَهِ يُخْزِيهِمْ .

فيسألهم اللّه تعالى: وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ أى تجادلون و تعادون فيهم (1) ،فلا يتمكنون من الإجابه،و لكن:

١- ١) -تشاقون:من ماده الشقاق،بمعنى المخالفه و العداء،و أصلها من(شق،أى قطعه نصفين).

قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ

.

و يظهر من خلال ذلک أنّ المتحدثين يوم القيامه هم العلماء،و لا ينبغی فی ذلک المحضر المقدس الحديث بالباطل.

و إذا رأينا فی بعض الرّوايات عن أهل البيت عليهم السّلام التأكيد على أنّ العلماء فی ذلک المحضر هم الأئمّه المعصومون عليهم السّلام لأنّهم أفضل و أكمل مصداق لذلک (۱) .

و نعاود الذكر لنقول:إنّ المقصود من السؤال و الجواب فی يوم القيامه ليس لكشف أمر خفی،بل هو نوع من العذاب الروحی،و ذلک إحقاقا للمؤمنين الذين لاقوا اللوم و التوبيخ الشديدين فی الحياه الدنيا من المشركين المغرورين.

و يصف ذيل الآيه السابقه حال الكافرين بالقول: اَلَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ ظٰالِمِي أَنْفُسِهِمْ .

لأنّ ممارسه الظلم فی حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين،لأنّ الظالم يتلف ملكاته الوجدانيه،و يهتک حرمه الصفات الفطريه الكامنه فيه.

بالإضافه إلى أنّ الظلم متى ما شاع و انتشر فی أی مجتمع،فالنتيجه الطبيعيه له أن يعود على الظالمين أنفسهم ليشملهم الحال.

أمّا حين تحين ساعه الموت و يزول حجاب الغفله عن العيون فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مٰا كُنّٰا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .

لما ذا ينكرون عملهم القبيح؟فهل يكذبون لأنّ الكذب أصبح صفه ذاتيه لهم من كثره تكراره،أم يريدون القول:إننا نعلم سوء أعمالنا،و لكننا أخطأنا و لم تكن لدينا نوايا سيئه فيه؟؟.

يمكن القول بإراده كلا الأمرين.

و لكن الجواب يأتيهم فورا:إنّكم تكذبون فقد ارتكبتم ذنوبا كثيره:

۱- ۱) -راجع تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۵۰.

بَلی إِنَّ اللّهَ عَلِیمٌ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

حتی بتیّاتکم.

و لیس المقام محلا للإنکار أو التبریر.. فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها فَلَبِئْسَ مَثْوَی الْمُتَکَبِّرِینَ .

بحثان

اشاره

١-السنّه سنتان..حسنه و سیئه:

القیام بأی عمل یحتاج بلا شک إلی مقدمات کثیره،و تعتبر السنن السائده فی المجتمع سواء کانت حسنه أم سیئه من ممهدات الأرضیه الفکریه و الاجتماعیه التی تساعد القائد(سواء کان مرشدا أم مضلا)للقیام بدوره بکل فاعلیه،و حتی أنّه قد یفوق دور الموجهین و واضعی السنن علی جمیع العاملین فی بضع الأحیان.

و لهذا لا یمکن فصل دور واضعی السنن عن العاملین بتلک السنن،فهم شرکاء فی العمل الصالح إذا ما سنوا سنه حسنه،و شرکاء فی جرم المنحرفین إذا ما سنوا لهم سنه سیئه.

و قد اهتم القرآن الکریم،و کذا الأحادیث الشریفه کثیرا بمسأله السنّه الحسنه و السنّه السیئه و واضعیها.

کما طالعتنا الآیات أعلاه بأنّ المستکبرین المضلّین یحملون أوزارهم و أوزار الذین یضلونهم(دون أن ینتقص من أوزارهم شیء).

و هذا الأمر من الأهمیه بمکان حتی

قال عنه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «الدال علی الخیر کفاعله» (١) .

و

فی تفسیر هذه الآیه روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «أیما داع دعا إلی الهدی

١- ١) -وسائل الشیعه،ج ١١،ص ۴٣۶.

فاتبع،فله مثل أجورهم،من غير أن ينقص من أجورهم شيئا،و أيما داع دعا إلى ضلاله فاتبع عليه،فإنّ عليه مثل أوزار من اتبعه،من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا» (۱) .

و كذلك

روی عن الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من استنّ بسنّه عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها،من غير أن ينتقص من أجورهم شیء،و من استنّ سنّه جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل به،من غير أن ينتقص من أوزارهم شیء» (۲) .

و ثمّه روایات أخری تحمل نفس هذا المضمون رویت عن الأئمّه الأطهار علیهم السّلام و قد جمعها الشّيخ الحر العاملی قدّس سره،فی المجلد الحادی عشر من كتابه الموسوم بالوسائل(كتاب الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر، الباب السّادس عشر).

و

فی صحیح مسلم ورد حديث عن النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم مرفوعا عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنّا عند رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم فی صدر النهار قال:فجاءه قوم حفاه عراه مجتابی النمار أو العباء و متقلدی السیوف...فتمعر وجه رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم لما رأی بهم من الفاقه،فدخل ثمّ خرج فأمر بدلا فأذّن و أقام فصلّی و خطب فقال: يَا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ... إِنَّ اللّهَ كٰانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً و الآيه التی فی الحشر اِتَّقُوا اللّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ ،تصدق رجل من ديناره،من درهمه،من ثوبه،من صاع بره،من صاع تمره(حتى قال)و لو بشق تمره،قال:فجاء رجل من الأنصار بصرّه كادت كفّه تعجز عنها بل قد عجزت،قال:

ثمّ تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام ثياب حتى رأيت وجه رسول اللّه يتهلل كأنّه مذهبه،فقال رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم:«من سنّ فی الإسلام سنّه حسنه فله أجرها و أجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شیء،و من سنّ فی

۱- ۱) -مجمع البيان،فی تفسير الآيه مورد البحث.

۲- ۲) -وسائل الشيعه،ج ۱۱،ص ۴۳۷.

الإسلام سنّه سيئه كان عليه وزرها و وزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شیء» (۱) .

و هنا،يواجهنا سؤال..كيف تنسجم هـذه الرّوايات مع ما يعاضـدها من آيات مع الآيه(۱۶۴)من سوره الأنعـام وَ لا تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ؟ و تتّضح الإجابه من خلال ملاحظه أنّ هؤلاء ليسوا عن ذنوب الأخرى بل عن ذنوبهم فقط،و لكنّهم من خلال اشتراكهم فی تحقق ذنوب الآخرين يشاركوهم فيها،ای ان تلك الذنوب تعتبر من ذنوبهم بهذا اللحاظ.

۲-التّسليم بعد فوات الأوان:

قليل أولئك الـذين ينكرون الحقيقه بعـد رؤيتها فی مرحله الشـهود،و لهذا نجد المذنبين و الظالمين يظهرون الإيمان فورا بعد أن تزال عن أعينهم حجب الغفله و الغرور و حصول العين البرزخيه فی حال ما بعد الموت،كما بيّنت لنا الآيات السابقه فَأَلْقَوُا السَّلَمَ .

و غايه ما فی الأمر أنّ الكلّ مستسـلم،و لكنّ الحديث يختلف من بعض إلی بعض،فقسم منهم يتبرأ من أعماله القبيحه بقولهم: مٰا كُنّٰا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ أی إنّهم من كثره ممارستهم للكذب فقد اختلط بلحمهم و دمهم و التبس عليهم الأمر تماما، فمع علمهم بعدم فائده الكذب فی ذلك المشـهد العظيم و لكنّهم يكذبون! و يستفاد من بعض الآيات القرآنيه أنّ هناك من يكذب حتی فی يوم القيامه، كما فی الآيه الثّالثه و العشرين من سوره الأنعام: قٰالُوا وَ اللّٰهِ رَبِّنٰا مٰا كُنّٰا مُشْرِكِينَ ! و قسم آخر يظهر الندامه و يطلب العوده إلی لحياه الدنيا لإصلاح أمره،كما

۱- ۱) -صحيح مسلم،ج ۲،ص ۷۰۴(باب الحث علی الصدقه و لو بشق تمره).

جاء فی الآیه(۱۲)من سوره السجده.

و قسم یکتفی بإظهار الإیمان کفرعون،کما جاء فی الآیه(۹۰)من سوره یونس.

و علی أیّه حال..سوف لا تقبل کل تلک الأقوال لأنها قـد جاءت فی غیر وقتها بعـد أن انتهت مـدّتها،و لا أثر لهکذا إیمان صادر عن اضطرار.

ص :۱۷۳

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۳۰ الی ۳۲]

اشاره

وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اِتَّقَوْا مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قٰالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ اَلدُّنْيٰا حَسَنَةٌ وَ لَدٰارُ اَلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دٰارُ اَلْمُتَّقِينَ (۳۰) جَنّٰاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰاؤُنَ كَذٰلِكَ يَجْزِي اَللّٰهُ اَلْمُتَّقِينَ (۳۱) اَلَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ اُدْخُلُوا اَلْجَنَّةَ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۲)

التّفسير

اشاره

عاقبه المتقين و المحسنين:

قرأنا في الآيات السابقه أقول المشركين حول القرآن و عاقبه ذلك،و الآن فندخل مع المؤمنين في اعتقادهم و عاقبته..فيقول القرآن: وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قٰالُوا خَيْراً .

و روى في تفسير القرطبي:كان يرد الرجل من العرب مكّه في أيّام الموسم فيسأل المشركين عن محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقولون:ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون..

ص :۱۷۴

و یسأل المؤمنین فیقولون:أنزل اللّه علیه الخیر و الهدی.

ما أجمل هذا التعبیر و أکمله«خیرا»خیر مطلق یشمل کل:صلاح،سعاده، رفاه،تقدم مادی و معنوی،خیر للدنیا و الآخره،خیر للإنسان الفرد و المجتمع، و خیر فی:التربیه و التعلیم،السیاسه و الإقتصاد،الأمن و الحریه...و الخلاصه:خیر فی کل شیء(لأنّ حذف المتعلق یوجب عموم المفهوم).

و قد وصفت الآیات القرآنیه القرآن الکریم بأوصاف کثیره مثل:النّور، الشفاء،الهدایه،الفرقان(یفرق الحق عن الباطل)،الحق،التذکره،و ما شابه ذلک..

و لکن فی هذه الآیه وردت صفه«الخیر»التی یمکن أن تکون مفهوما عاما جامعا لکل تلک المفاهیم الخاصه.

و الفرق واضح فی نعت القرآن بین المشرکین و المؤمنین،فالمؤمنون قالوا:

«خیرا»أی أنزل اللّه خیرا،و بذلک یظهر اعتقادهم بأنّ القرآن وحی إلهی (1) .

بینما نجد المشرکین عند ما قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ؟قٰالُوا:أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ و هذا إنکار واضح لکون القرآن وحی إلهی (2) .

و تبیّن الآیه مورد البحث نتیجه و عاقبه ما أظهره المؤمنون من اعتقاد،کما عرضت الآیات السابقه عاقبه ما قاله المشرکین من عقاب دنیوی و أخروی، و مادی و معنوی مضاعف: لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هٰذِهِ الدُّنْیٰا حَسَنَهٌ .

و قد أطلق الجزاء بال«حسنه»کما أطلقوا القول«خیرا»،لیشمل کل أنواع الحسنات و النعم فی الحیاه الدنیا،بالإضافه إلی: وَ لَدٰارُ الْآخِرَهِ خَیْرٌ وَ لَنِعْمَ دٰارُ الْمُتَّقِینَ .

و تشارک عباره«نعم دار المتقین»الإطلاق مرّه أخری و کلمه«خیرا»،لأنّ الجزاء بمقدار العمل کمّا و کیفا.

ص :175

1- 1) -خیرا:مفعول لفعل محذوف تقدیره(أنزل اللّه).

2- 2) -أساطیر الأولین:خبر لمبتدأ محذوف،تقدیره(هذه أساطیر الأولین).

فیتّضح لنا ممّا قلنا إنّ الآیه لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا إلی آخرها تعبر عن کلام اللّه عزّ و جلّ،و یقوی هذا المعنی عند مقابلتها مع الآیات السابقه.

و احتمل بعض المفسّرین أنّ الظاهر من الکلام یتضمّن احتمالین:

الأوّل:أنّه کلام اللّه.

الثّانی:أنّه استمرار لقول المتقین.

ثمّ تصف الآیه التالیه-بشکل عام-محل المتقین فی الآخره بالقول: جَنّاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَها تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ .

فهل ثمّه أوسع وصفا من هذا أم أشمل مفهوما لبیان نعم الجنّه.

حتی أنّ التعبیر یبدو أوسع ممّا ورد فی الآیه(۷۱)من سوره الزخرف وَ فِیها ما تَشْتَهِیهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْیُنُ ،فالحدیث فی الآیه عن ما تَشْتَهِیهِ الْأَنْفُسُ ، فی حین الحدیث فی الآیه مورد البحث عن مطلق الإشاءه ما یَشاؤُنَ .

و استفاد بعض المفسّرین من تقدیم لَهُمْ فِیها علی ما یَشاؤُنَ الحصر، أی یمکن للإنسان أن یحصل علی کل ما یشاء فی الجنّه فقط دون الدنیا.

و قلنا أنّ الآیات مورد البحث توضح کیفیه حیاه و موت المتقین مقارنه مع ما ورد فی الآیات السابقه حول المشرکین و المستکبرین،و قد مرّ علینا هناک أنّ الملائکه عند ما تقبض أرواحهم یکون موتهم بدایه لمرحله جدیده من العذاب و المشقه،ثمّ یقال لهم«ادخلوا أبواب جهنم..».

و أمّا عن المتقین: اَلَّذِینَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ طَیِّبِینَ طاهرین من کل تلوثات الشرک و الظلم و الاستکبار،و مخلصین من کل ذنب- یَقُولُونَ سَلامٌ عَلَیْکُمْ السّلام الذی هو رمز الأمن و النجاه.

ثمّ یقال لهم: اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و التعبیر عن موتهم ب تَتَوَفّاهُمُ یحمل بین طیاته اللطف،و یشیر إلی أن الموت لا یعنی الفناء و العدم أو نهایه کل شیء،بل هو مرحله انتقالیه إلی عالم

آخر.

و فی تفسیر المیزان:أنّ فی هذه الآیه ثلاثه مسائل:

۱-طهاره المؤمنین من خبث الظلم.

۲-یقولون لهم سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ و هو تأمین قولی لهم.

۳- اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و هو هدایه لهم إلیها.

و هذه المواهب الثلاث هی التی ذکرت فی الآیه(۸۲)من سوره الأنعام اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِکَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ .

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۳۳ الی ۳۷]

اشاره

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِيَهُمُ اَلْمَلاٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذٰلِكَ فَعَلَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اَللّٰهُ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۴) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى اَلرُّسُلِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ اِجْتَنِبُوا اَلطّٰاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اَللّٰهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ اَلضَّلاٰلَةُ فَسِيرُوا فِى اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُكَذِّبِينَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلىٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ (۳۷)

التّفسیر

اشاره

البلاغ المبین..وظیفه الأنبیاء:

یعود القرآن الکریم مرّه أخری لیعرض لنا واقع و أفکار المشرکین

ص :۱۷۸

و المستكبرين و يقول بلهجه وعيد و تهديد:ما ذا ينتظرون؟ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ أى ملائكه الموت فتغلق أبواب التوبه أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال! أو هل ينتظرون أن يأتى أمر اللّه بعذابهم: أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ حيث تغلق أبواب التوبه أيضا و لا سبيل عندها للإصلاح.

فأى فكر يسيرهم،و أى عناد و لجاجه تحكمهم؟! كلمه«الملائكه»و إن كانت ترمز إلى عنوان عام،إلاّ أنّها فى هذا الموقع يقصد منها ملائكه قبض الأرواح انسجاما مع الآيات السابقه التى كانت تتحدث عنهم.

أمّا عباره يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ فمع قبولها لاحتمالات كثيره فى تفسيرها،إلاّ أنّ المعنى الراجح هو نزول العذاب،لورود هذا المعنى بالخصوص فى آيات مختلفه من القرآن.

و مجموع الجملتين يعنى تقريع المستكبرين بأنّ المواعظ الإلهيه و تذكير الأنبياء إن كانت لا توقظكم من غفلتكم فإنّ الموت و العذاب الإلهى سيوقظكم، و لكن حينئذ لا ينفعكم ذلك الإيقاظ.

ثمّ يضيف:إنّ هؤلاء ليس أوّل من كانوا على هذه الحال و الصفه و إنّما كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

و سوف يلاقون نتيجه ما كسبت أيديهم من أعمال.

و الآيه تؤكد مرّه أخرى على حقيقه عود الظلم و الاستبداد و الشر على الظالم المستبد الشرير فى آخر المطاف،لأنّ الفعل القبيح يترك آثاره السيئه على روح و نفسيه فاعله،فيسوّد قبله و يلوّث روحه فيفقده الأمان و الاطمئنان.

ثمّ يذكر عاقبه أمرهم بقوله: فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ .

«حاق بهم»:بمعنى أصابهم،إلاّ أنّ بعض المفسّرين كالقرطبى و فريد و جدى

فی تفسیر لهذه الآیه اعتبر معناها(أحاط بهم).

و یمکن الجمع بین المعنیین،فیکون المعنی:نزول العذاب علیهم،و کذلک محیطا بهم.

و علی أیه حال،فتعبیر الآیه ب فَأَصابَهُمْ سَیِّئاتُ ما عَمِلُوا یؤکد مرّه أخری علی عوده الأعمال علی فاعلها سواء فی الدنیا أو فی الآخره،و تتجسم له بصور شتی،و تعذبه و تؤلمه و لیس غیر ذلک (۱) .

و تشیر الآیه التالیه إلی أحد أقوال المشرکین الخاویه،فتقول: وَ قالَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شاءَ اللّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ .

إنّ قولهم وَ لا حَرَّمْنا إشاره إلی بعض أنواع الحیوانات التی حرّم لحومها المشرکون فی عصر الجاهلیه،و التی أنکرها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بشده.

و الخلاصه:أنّهم أرادوا الادعاء بأنّ کلّ ما عملوه من عباده للأصنام إلی تحلیل و تحریم الأشیاء،إنما کان وفقا لرضا اللّه تعالی و بإذنه! و لعل قولهم یکشف عن وجود عقیده(الجبر)ضمن ما کانوا به یعتقدون، معتبرین کل ما یصدر منهم إن هو إلّا من القضاء المحتوم علیهم(کما فهم ذلک جمع کثیر من المفسّرین).

و ثمّه احتمال آخر:إنّهم لم یقولوا ذلک اعتقادا منهم بالجبر،و إنّما أرادوا الإحتجاج علی اللّه سبحانه،و کأنّهم یقولون:إن کانت أعمالنا لا ترضی اللّه تعالی فلما ذا لم یرسل إلینا الأنبیاء لینهونا عمّا نقوم به،فسکوته و عدم منعه ما کنّا نعمل دلیل علی رضاه.

و هذا الاحتمال ینسجم مع ذیل الآیه و الآیات التالیه.

۱- ۱) -و علی هذا،فلا داعی لتقدیر کلمه«جزاء»قبل«سیئات»فی الآیه.

و لهذا يقول تعالى مباشره: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ ...يعنى.

أوّلا:أن تقولوا أنّ اللّه سكت عن أعمالنا!فإنّ اللّه قد بعث إليكم الأنبياء، و دعوكم إلى التوحيد و نفى الشرك.

ثانيا: إنّ وظيفه اللّه تعالى و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس هى هدايتكم بالجبر،بل بإراءتكم السبيل الحق و الطريق المستقيم،و هذا ما حصل فعلا.

أمّا عباره كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فمواساه لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بأن لا يحزن و يثبت فى قبال ما يواجه من قبل المشركين،و أنّ اللّه معه و ناصره.

و بعد ذكر وظيفه الأنبياء(البلاغ المبين)،تشير الآيه التاليه باختصار جامع إلى دعوه الأنبياء السابقين،بقولها: وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً .

«الأمّه»:من الأم بمعنى الوالده،أو بمعنى:كل ما يتضمّن شيئا آخر فى دخله، (و من هنا يطلق على جماعه تربطها وحده معينه من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف«أمّه».

و يتأكد هذا المعنى من خلال دراسه جميع موارد استعمال هذه الكلمه فى القرآن و البالغه(۶۴)موردا.

و يبيّن القرآن محتوى دعوه الأنبياء عليهم السّلام،بالقول: أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اجْتَنِبُوا الطّٰاغُوتَ (۱) .

فأساس دعوه جميع الأنبياء و اللبنه الأولى لتحركهم هى الدعوه إلى التوحيد و محاربه الطاغوت،و ذلك لأنّ أسس التوحيد إذا لم تحكم و لم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشريه فلا يمكن إجراء أىّ برنامج إصلاحى.

«الطاغوت»:(كما قلنا سابقا)صيغه مبالغه للطغيان..أى التجاوز و التعدى

۱- ۱) -تقدير هذه الجمله:ليقولوا لهم اعبدوا..

و عبور الحد،فتطلق على كل ما يكون سببا لتجاوز الحد المعقول،و لهذا يطلق اسم الطاغوت على الشيطان،الصنم،الحاكم المستبد،المستكبر و على كل مسير يؤدى إلى غير طريق الحق.

و تستعمل الكلمه للمفرد و الجمع أيضا و إن جمعت أحيانا ب(الطواغيت).

و نعود لنرى ما وصلت إليه دعوه الأنبياء عليهم السّلام إلى التوحيد من نتائج،فالقرآن الكريم يقول: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللّٰهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاٰلَهُ .

و هنا علت أصوات من يعتقد بالجبر استنادا إلى هذه الآيه باعتبارها المؤيده لعقيدتهم! و لكن قلنا مرارا إنّ آيات الهدايه و الضلال إذا جمعت و ربط فيما بينها فلن يبقى هناك أىّ إبهام فيها،و يرتفع الالتباس من أنّها تشير إلى الجبر و يتّضح تماما أن الإنسان مختار فى تحكيم إرادته و حريته فى سلوكه أى طريق شاء.

فالهدايه و الإضلال الإلهيين إنّما يكونا بعد توفر مقدمات الأهليه للهدايه أو عدمها فى أفكار و ممارسه الإنسان نفسه،و هو ما تؤكّده الكثير من آيات القرآن الكريم.

فاللّه عزّ و جلّ(وفق صريح آيات القرآن)لا يهدى الظالمين و المسرفين و الكاذبين و من شابههم،أما الذين يجاهدون فى سبيل اللّه و يستجيبون للأنبياء عليهم السّلام فمشمولون بألطافه عزّ و جلّ و يهديهم إلى صراطه المستقيم و يوفقهم إلى السير فى طريق التكامل،بينما يوكل القسم الأوّل إلى أنفسهم حتى تصيبهم نتائج أعمالهم بضلالهم عن السبيل.

و حيث أنّ خواص الأفعال و آثارها-الحسنه منها أو القبيحه-من اللّه عزّ و جلّ،فيمكن نسبه نتائجها إليه سبحانه،فتكون الهدايه و الإضلال إلهيين.

فالسنّه الإلهيه اقتضت فى البدايه جعل الهدايه التشريعيه ببعث الأنبياء ليدعوا الناس إلى التوحيد و رفض الطاغوت تماشيا مع الفطره الإنسانيه،و من ثمّ فمن

يبدى اللياقه و التجاوب مع الدعوه فردا كان أم جماعه يكون جديرا باللطف الإلهى و تدركه الهدايه التكوينيه.

نعم،فها هى السنّه الإلهيه،لا كما ذهب إليه الفخر الرازى و أمثاله من أنصار مذهب الجبر من أنّ اللّه يدعوا الناس بواسطه الأنبياء،و من ثمّ يخلق الإيمان و الكفر جبرا فى قلوب الأفراد(من دون أىّ سبب)و العجيب أنّه لإجمال للتساؤل و لا يسمح فى الاستفهام عن سبب ذلك من اللّه عزّ و جلّ.

فما أوحش ما نسبوا اليه سبحانه..إنّما صوره لا تتفق مع العقل و العاطفه و المنطق؟! و التعبير الموارد فى الآيه مورد البحث يختلف فى مورد الهدايه و الضلال،ففى مسأله الهدايه،يقول: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللّهُ ،أمّا بالنسبه للقسم الثّانى،فلا يقول:إنّ اللّه أضلهم،بل إنّ الضلاله ثبتت عليهم و التصقت بهم: وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاٰلَهُ .

و هذا الاختلاف فى التعبير يمكن أن يكون الإشاره لما فى بعض الآيات الأخرى،و المنسجم مع ما ورد من روايات..و خلاصته:

إنّ القسم الأعظم من هدايه الإنسان يتعلق بالمقدمات التى خلقها اللّه تعالى لذلك،فقد أعطى تعالى:العقل،و فطره التوحيد،و بعث الأنبياء،و إظهار الآيات التشريعيه و التكوينيه،و يكفى الإنسان أن يتخذ قراره بحريه وصولا للهدف المنشود.

أمّا فى حال الضلال فالأمر كلّه يرجع إلى الضالين أنفسهم، لأنّهم اختاروا السير خلاف الوضعين التشريعى و التكوينى الذى جعلهم اللّه عليه،و جعلوا حول الفطره حجابا داكنا و أغفلوا قوانينها،و جعلوا الآيات التشريعيه و التكوينيه وراء ظهورهم،و أغلقوا أعينهم و صموا أذانهم أمام دعوه الأنبياء عليهم السّلام،فكان أن آل المآل بهم إلى وادى التيه و الضلال..أو ليس كل ذلك منهم؟

ص:١٨٣

و الآیه(۷۹)من سوره النساء تشیر إلی المعنی المذکور بقولها: مٰا أَصٰابَکَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اللّهِ وَ مٰا أَصٰابَکَ مِنْ سَیِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِکَ .

و

روی فی أصول الکافی عن الأمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام،فی إجابته علی سؤال لأحد أصحابه حول مسأله الجبر و الإختیار،أنّه قال: «أکتب:بسم اللّه الرحمن الرحیم قال علی بن الحسین،قال اللّه عزّ و جلّ:یا ابن آدم بمشیئتی کنت أنت الذی تشاء،و بقوتی أدیت فرائضی،و بنعمتی قویت علی معصیتی،جعلتک سمیعا بصیرا،ما أصابک من حسنه فمن اللّه و ما أصابک من سیئه فمن نفسک، و ذلک أنّی أولی بحسناتک منک،و أنت أولی بسیئاتک منّی» (۱) .

و فی نهایه الآیه یصدر الأمر العام لأجل إیقاظ الضالین و تقویه روحیه المهتدین،بالقول: فَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ الْمُکَذِّبِینَ .

فالآیه دلیل ناطق علی حریه إراده الإنسان،فإن کانت الهدایه و الضلال أمرین إجباریین،لم یکن هناک معنی للسیر فی الأرض و النظر إلی عاقبه المکذبین،فالأمر بالسیر بحد ذاته تأکید علی اختیار الإنسان فی تعیین مصیره بنفسه و لیس هو مجبر علی ذلک.

و ثمّه بحوث کثیره و شیقه فی القرآن الکریم بخصوص مسأله السیر فی الأرض مع التأمل فی عاقبه الأمور،و قد شرح ذلک مفصلا فی تفسیرنا للآیه (۱۳۷)من سوره آل عمران.

الآیه الأخیر من الآیات مورد البحث تؤکّد التسلیه لقلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتبیان ما وصلت إلیه حال الضّالین: إِنْ تَحْرِصْ عَلیٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ .

«تحرص»من ماده(حرص)،و هو طلب الشیء بجدّیه و سعی شدید.

ص :۱۸۴

۱- ۱) -أصول الکافی،ج ۱،ص ۱۶۰(باب الجبر و القدر-الحدیث ۱۲).

بـديهى،أنّ الآيه لا تشـمل كل المنحرفين،لأنّ الشـمول يتعارض مع وظيفه النّبى (هـدايه و تبليغ)،و للتاريـخ شواهـد كثيره على ما لهدايه الناس و إرشادهم من أثر بالغ،و كم أولئك الذين انتشلوا من و حل الضلال ليصبحوا من خلص أنصار الحق،بل و دعاته.

فعليه..تكون الجمله المتقدمه خـاصه بمجموعه معينه من الضـالين الـذين وصل بهم العناد و اللجاجه فى الباطل لأقصـى درجات الضـلال،و أصـبحوا غرقى فى بحر الاسـتكبار و الغرور و الغفله و المعصـيه فـأغلقت أمـامهم أبواب الهـدايه، فهؤلاء لا ينفع معهم محاولات النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لهديهم حتى و إن طالت المدّه لأنّهم قد انحرفوا عن الحق بسبب أعمالهم الى درجه أنّهم باتوا غير قابلين للهدايه.

و من الطبيعى أن لا يكون لهكذا أناس من ناصـرين و أعوان،لأنّ الناصر لا يتمكن من تقديم نصرته و عونه إلاّ فى أرضيه مناسبه و مساعده.

و هذا التعبير أيضا دليل على نفى الجبر،لأنّ الناصـر إنّما ينفع سـعيه فيما لو كان هناك تحرك من داخل الإنسان نحو الصـلاح و الهدايه فيعينه و يأخذ بيده-فتأمل.

و لعل اسـتعمال«ناصرين»بصيغه الجمع للإشاره إلى أنّ المؤمنين على العكس من الضالين،لهم أكثر من ناصر،فاللّه تعالى ناصرهم و..الأنبياء،و عباد اللّه الصالحين،و ملائكه الرحمه كذلك.

و يشير القرآن الكريم إلى هذه النصره فى الآيه(۵۱)من سوره المؤمن: إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ .

و كـذلك فى الآيه(۳۰)من سوره فصـلت: إِنَّ الَّذِینَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الْمَلائِکَهُ أَلاّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّهِ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

بحثان

اشاره

۱-ما هو البلاغ المبين؟

رأينا فی الآیات مورد البحث أنّ الوظیفه الرئیسیه للأنبیاء هی البلاغ المبین فَهَلْ عَلَی الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِینُ .

أی لا بدّ من الدعوه علنا،و إذا کانت ثمّه ظروف موضوعیه تستدعی من الأنبیاء أن تکون دعوتهم سریه،فهذا لا یکون إلاّ لمدّه محدوده،لإنّ الأسلوب السری فی عصر دعوه الأنبیاء علیهم السّلام غیر مستساغ من قبل المجتمع،فلا یکون له الأثر المطلوب و الحال هذه.

فلا بدّ للدعوه إذن من الإعلان السلیم القاطع المصحوب بالتخطیط و التدبیر کشرط أساسی فی إنجاح الدعوه بین المجتمع.

و بمطالعه تأریخ جمیع الأنبیاء علیهم السّلام نری أنّهم کانوا یعلنون دعوتهم ببیان صریح معلن،بالرغم من قله الناصر من قومهم بالذات.

و هذا هو خط جمیع دعاه الحق(من الأنبیاء و غیرهم)..فهم:لا یداهنون فی دعوتهم أبدا و لا یجاملون الباطل و أهله،متحملین کل عواقب هذه الصراحه و القاطعیه.

۲-لکل أمّه رسول

عند قوله عزّ و جلّ: وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِی کُلِّ أُمَّهٍ رَسُولاً یواجهنا السؤال التالی:لو کان لکل أمّه رسول لظهر الأنبیاء فی جمیع مناطق العالم،و لکنّ التأریخ لا یحکی لنا ذلک،فیکف التوجیه؟! و تتضح الإجابه من خلال الالتفات إلی أن الهدف من بعث الأنبیاء لإیصال الدعوه الإلهیه إلی أسماع کل الأمم،فعلی سبیل المثال..عند ما بعث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مکّه أو المدینه لم یکن فی بقیه مدن الحجاز الأخری نبی،و لکنّ رسل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

ص :۱۸۶

كـانوا يصـلون إليهـا و بوصولهم يصـل صوت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إليهـا أسـماع الجميع، بالإضافه إلى كتبه و رسائله العديده التى أرسلها إلى الدول المختلفه(إيران،الروم، الحبشه)ليبلغهم الرساله الإلهيه.

و ها نحن اليوم كأمّه قد سـمعنا دعوه النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرغم من بعد الشقّه التاريخيه بيننا و بينه صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،و ذلـك بواسـطه العلماء الرساليين الـذين حملوا رسالته إلينا عبر القرون..و لا يقصـد من بعثه رسول لكل أمّه إلاّ هـذا المعنى.

ص: ۱۸۷

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۳۸ الی ۴۰]

اشاره

وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اَللّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۸) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ اَلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (۳۹) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۰)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون فى شأن نزول الآيه الأولى(الآيه ۳۸)أنّ رجلا من المسلمين كان له دين على مشترك فتقاضاه فكان تتعلل فى بتسديده،فتأثر المسلم بذلك، فوقع فى كلامه القسم بيوم القيامه و قال:و الذى أرجوه بعد الموت إنّه لكذا، فقال المشرك:و إنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت و أقسم باللّه،لا يبعث اللّه من يموت.

فأنزل اللّه الآيه (۱) .

فأجاب اللّه فيها الرجل المشرك و أمثاله،و عرض المعاد بدليل واضح،و كان حديث الرجلين سببا لطرح هذه المسأله من جديد.

ص: ۱۸۸

۱- ۱) -مجمع البيان،ذيل الآيه مورد البحث.

التّفسير

اشاره

المعاد و..نهايه الاختلافات:

تعرض الآيات أعلاه جانبا من موضوع«المعاد»تكميلا لما بحث فى الآيات السابقه ضمن موضوع التوحيد و رساله الأنبياء.

فتقول الآيه الأولى: وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللّهُ مَنْ يَمُوتُ .

و هـذا الإنكار الخالى من الـدليل و الـذى ابتـدءوه بالقسم المؤكّـد،ليؤكّد بكل وضوح على جهلهم،و لهذا يجيبهم القرآن بقوله: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ .

إنّ الكلمات الوارده فى المقطع القرآنى مثل«بلى»،«وعدا»،«حقّا»لتظهر بكل تأكيد حتميه المعاد.

و عموما-ينبغى مواجهه من ينكر الحقّ بحجم ما أنكر بل و أقوى،كى يمحو الأثر النفسـى السـىء للنفى القاطع،و لا بدّ من إظهار أن نكران الحق جهل حتى يمحى أثره تماما وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ .

ثمّ يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحد أهداف المعاد و قدره اللّه عزّ و جلّ على ذلك،ليرد الاشتباه القائل بعدم إعاده الحياه بعد الموت،أو بعيشه المعاد..

فيقول: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ فى إنكـارهم للمعـاد و بـأنّ اللّه لا يبعث من يموت! لأنّ ذلك عالم الشـهود،عالم رفع الحجب و كشف الغطاء،عالم تجلى الحقائق، كما نقرأ فى الآيه(۲۲)من سوره ق: لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَهٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ .

و فى الآيه(۹)من سوره الطارق: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ أى تظهر و تعلن.

و كذا الآيه(۴۸)من سوره إبراهيم: وَ بَرَزُوا لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ .

ففى يوم الشهود و كشف السرائر و إظهارها لا معنى فيه لاختلاف العقيده،

و إن كان من الممكن أن يقوم بعض المنكرين اللجوجين بإطلاق الأكاذيب فى بعض مواقف يوم القيامه لأجل تبرئه أنفسهم،إلّا أنّ ذلک سيكون أمرا استثنائيا عابرا.

و هذا يشبه إلى حد ما إنكار المجرم لجريمته ابتداء عند المحاكمه،و لكنّه سرعان ما ينهار و يرضخ للحقيقه عند ما تعرض عليه مستمسكات جريمته الماديه التى لا- تقبل إدانه غيره أبدا،و هكذا فإنّ ظهور الحقائق فى يوم القيامه يكون أوضح و أجلى من ذلک.

و مع أنّ أهداف حياه ما بعد الموت(عالم الآخره)عديده و قد ذكرتها الآيات القرآنيه بشكل متفرق مثل:تكامل الإنسان،إجراء العداله الإلهيه،تجسيد هدف الحياه الدنيا،الفيض و اللطف الإلهيين و ما شابه ذلک..إلّا أنّ الآيه مورد البحث أشارت إلى هدف آخر غير الذى ذكر و هو:رفع الاختلافات و عوده الجميع إلى التوحيد.

و نعتقد أنّ أصل التوحيد من أهم الأصول التى تحكم العالم،و هو شامل يصدق على:ذات و صفات و أفعال اللّه عزّ و جلّ،عالم الخليقه و القوانين التى تحكمه،و كل شىء فى النهايه يجب أن يعود إلى هذا الأصل.

و لهذا فنحن نعتقد بوجود نهايه لكل ما تعانيه البشريه على الأرض-الناشئه من الاختلافات المنتجه للحروب و الصدامات-من خلال قيام حكومه واحده تحت ظلال قياده الإمام المهدى«عجل اللّه تعالى فرجه الشريف» لأنّه يجب فى نهايه الأمر رفع ما يخالف روح عالم الوجود(التوحيد).

أمّا اختلاف العقيده فسوف لا يرتفع من هذه الدنيا تماما لوجود عالم الحجب و الأستار،و لا ينتهى إلّا يوم البروز و الظهور(يوم القيامه).

فالرجوع إلى الوحده و انتهاء الخلافات العقائديه من أهداف المعاد الذى أشارت إليه الآيه مورد البحث.

ص :١٩٠

و ثمّه آيات قرآنيه كثيره كررت مسأله أنّ اللّه عزّ و جلّ سيحكم بين الناس يوم القيامه فيما كانوا فيه يختلفون (۱) .

ثمّ يشير القرآن إلى الفقره الثّانيه من بيان حقيقه المعاد،للرد على من يرى عدم إمكان إعاده الإنسان من جديد إلى الحياه من بعد موته: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

فمع هذه القدره التامّه..هل ثمّه شك أو ترديد في قدرته عزّ و جلّ على إحياء الموتى؟! و لعل لا حاجه لتبيان أنّ«كن»إنّما ذكرت لضروره اللفظ،و إلاّ لا حاجه في أمر اللّه ل«كن»أيضا،فإرادته سبحانه و تعالى كافيه في تحقق ما يريد.

و لو أردنا أن نضرب مثلا صغيرا ناقصا من حياتنا(و للّه المثل الأعلى)، فنستطيع أن نشبهه بانطباع صوره الشيء في أذهاننا لمجرد إرادته،فإنّنا لا نعاني من أيه مشكله في تصور جبل شامخ أو بحر متلاطم أو روضه غناء،و لا نحتاج في ذلك لجمله أو كلمه نطلقها حتى نتخيل ما نريد،فبمجرّد إراده التصور تظهر الصوره في ذهننا.

و نقرأ سويه

الحديث المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السّلام.. إنّ صفوان بن يحيى سأله:أخبرني عن الإراده من اللّه تعالى و من الخلق،فقال:«الإراده من المخلوق الضمير و ما يبدو له بعد ذلك من الفعل،و أمّا من اللّه عزّ و جلّ فإرادته إحداثه لا غير ذلك،لأنّه لا يروّي و لا يهم و لا يتفكر،و هذه الصفات منفيه عنه و هي من صفات الخلق،فإراده اللّه تعالى هي الفعل لا غير ذلك،يقول له:كن فيكون،بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همه و لا تفكر و لا كيف كذلك كما أنّه بلا كيف» (۲) .

۱- ۱) -راجع الآيات:(۵۵)آل عمران،(۴۸)المائده،(۱۶۴)الأنعام،(۹۲)النحل و(۶۹)الحج.

۲- ۲) -عيون الأخبار،ج ۱،ص ۱۱۹.

الآيتان [سوره النحل (۱۶): الآيات ۴۱ الی ۴۲]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ هٰاجَرُوا فِي اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي اَلدُّنْيٰا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ اَلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (۴۱) اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۴۲)

سبب النّزول

ذکر بعض المفسّرین فی شأن نزول الآیه الأولی(۴۱):نزلت فی المعذبین بمکّه مثل صهیب و عمار و بلال و خباب و غیرهم مکّنهم اللّه فی المدینه،و ذکر أن صهیبا قال لأهل مکّه:أنا رجل کبیر إن کنت معکم لم أنفعکم و إن کنت علیکم لم أضرکم فخذوا مالی و دعونی،فأعطاهم ماله و هاجر إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال له أحدهم:ربح البیع یا صهیب.

و یروی أنّ أحد الخلفاء کان إذا أعطی أحدا من المهاجرین عطاء قال له:

خذ هذا ما وعدک اللّه فی الدنیا،و ما أخّره لک أفضل.ثمّ تلی هذه الآیه (۱) .

ص: ۱۹۲

۱- ۱) -مجمع البیان،ذیل الآیه ۴۱.

التّفسير

اشاره

ثواب المهاجرين:

قلنا مرارا:إنّ القرآن الكريم يستخدم أسلوب المقايسه و المقارنه كأهم أسلوب للتربيه و التوجيه،فما يريد أن يعرضه للناس يطرح معه ما يقابله لتتشخص الفروق و يستوعب الناس معناه بشكل أكثر وضوحا.

فنرى فى الآيات السابقه الحديث عن المشركين و منكرى يوم القيامه، و ينقل الحديث فى الآيات مورد البحث إلى المهاجرين المخلصين،ليقارن بين المجموعتين و يبيّن طبيعتهما..

فيقول أوّلا: وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا فِى اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيٰا حَسَنَهً أمّا فى الآخره وَ لَأَجْرُ الْآخِرَهِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ

.

ثمّ يصف فى الآيه التاليه المهاجرين المؤمنين الصالحين بصفتين، فيقول:

اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

.

بحوث

۱-كما هو معروف فإنّ للمسلمين هجرتين،الأولى:كانت محدوده نسبيا (هجره جمع من المسلمين على رأسهم جعفر بن أبى طالب إلى الحبشه)،و الثّانيه:

الهجره العامه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين من مكّه إلى المدينه.

و ظاهر الآيه يشير إلى الهجره الثّانيه،كما يؤيد ذلك شأن النّزول.

و قد بحثنا أهميه دور الهجره فى حياه المسلمين فى الماضى و الحاضر و استمرار هذا الأمر فى كل عصر و زمان بشكل مفصل ضمن تفسيرنا للآيه(۱۰۰) من سوره النساء،و الآيه(۷۵)من سوره الأنفال.

و على أيه حال،فللمهاجرين مقام سام فى الإسلام،و قد اهتم النّبى

ص: ۱۹۳

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهم كثيرا و كذا المسلمون من بعد،و ذلك لأنّهم جعلوا حياتهم الماديه و ما يملكون فى خدمه الدعوه الإسلاميه المباركه،ممّا حدا بالبعض أن يعرض حياته للمخاطر،و البعض الآخر ترك كل أمواله(كصهيب)معتبرا نفسه رابحا فى هذه الصفقه المباركه.

و لو لم تكن تلك التضحيات لأولئك المهاجرين لما سمح المحيط الفاسد فى مكّه و تحكم الشياطين عليها بأن يخرج صوت الإسلام ليعم أسماع الجميع،و لكتم الصوت و قبر فى صدور المؤمنين إلى الأبد،و لكنّ المهاجرين بتحولهم المدروس الواعى و هجرتهم المباركه لم يفتحوا مكّه فحسب،و إنّما أوصلوا صوت الإسلام إلى أسماع العالم،فأصبحت الهجره سنّه إسلاميه تجرى على مرّ التأريخ إذا ما واجهت ما يشبه ظروف مكّه قبل الهجره.

۲-التعبير ب هاجَرُوا فِي اللّٰهِ من دون ذكر كلمه«سبيل»إشاره إلى ذروه الإخلاص الذى كان يحملونه أولئك المهاجرون الأول،فهم هاجروا للّه و فى سبيله و طلبا لرضاه و حمايه لدينه و دفاعا عنه،و ليس لنجاتهم من القتل أو طلبا لمكاسب ماديه أخرى.

۳-و تظهر لنا جمله مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا عدم ترك الميدان فورا،بل لا بدّ من الصبر و التحمل قدر الإمكان.

أمّا عند ما يصبح تحمل العذاب من العدو باعثا على زياده جرأته و جسارته، و إضعاف المؤمنين..فهنا تجب الهجره لأجل كسب القدره اللازمه و تهيئه خنادق المواجهه المحكمه،و يستمر بالجهاد على كافه الأصعده من موقع أفضل،حتى تنتهى الحال إلى نصر أهل الحق فى الساحات العسكريه و العلميه و التبليغيه...

۴-أمّا قوله تعالى: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيٰا حَسَنَةً «نبوئنهم»من(بوأت له مكانا)أى هيأته له و وضعته فيه-فيشير إلى أن المهاجرين فى اللّه و إن كانوا ابتداء يفتقدون إلى الإمكانيات الماديه المستلزمه للمواجهه،إلاّ أنّهم فى النهايه-حتى

فی الجانب الدنیوی-منتصرون (۱) .

فلما ذا بعد ذلک یتحمل الإنسان ضربات الأعداء المتوالیه و یموت منها ذلیلا؟!لما ذا لا یهاجر و بکل شجاعه لیجاهد عدوّه من موضع جدید فیأخذ منه حقّه؟! و قد عرض هذا الموضوع بوضوح أکثر فی الآیه(۱۰۰)من سوره النساء، حیث تقول: وَ مَنْ یُهٰاجِرْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ یَجِدْ فِی الْأَرْضِ مُرٰاغَماً کَثِیراً وَ سَعَهً .

۵-إن سبب انتخاب صفتین للمهاجرین«الصبر»و«التوکل»واضح،لما یواجه من ظروف صعبه و متعبه،تحتاج الثبات و الصبر علی مراره تلک الظروف فی الدرجه الأولی،ثمّ الاعتماد الکامل علی اللّه سبحانه و تعالی.و أساسا فإنّ الإنسان لو افتقد فی الحوادث العصبیه و الشدائد القاسیه المعتمد المطمئن و السند المعنوی المحکم،فإنّ الصبر و الاستقامه و الثبات تکون مستحیله.

و قال البعض:إنّ انتخاب«الصبر»هنا،لأنّ ابتداء السیر فی طریق الهجره إلی اللّه یحتاج إلی المقاومه و الثبات أمام رغبات النفس،أما انتخاب«التوکل» فلأجل أنّ نهایه السیر هی الانقطاع عن کل شیء غیر اللّه عزّ و جلّ و الارتباط به.

و علی هذا،تکون الصفه الأولی لأوّل الطریق و الثانیه لآخره (۲) .

و علی أیه حال..فلا سبیل الی الهجره الخارجیه دون الهجره الباطنیه،فعلی الإنسان أن یقطع علائقه المادیه الباطنیه أوّلا بهجرته نحو الفضائل الأخلاقیه، لیستطیع أن یهاجر و یترک دار الکفر-مع کل ما له فیها-منتقلا إلی دار الإیمان.

---

۱ - ۱) -«لنبوئنهم»:فی الأصل من(بوأ)بمعنی تساوی أجزاء مکان ما..علی عکس«نبوء»علی وزن(مبدأ)بمعنی عدم تساوی أجزاء المکان.و علی هذا ف«بوّأت له مکانا»أی ساویت له مکانا،ثمّ بمعنی هیأته له.

۲- ۲) -التّفسیر الکبیر للفخر الرازی،فی تفسیر الآیه مورد البحث.

الآيتان [سوره النحل (۱۶)]: الآيات ۴۳ الی ۴۴]

اشاره

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِی إِلَیْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ اَلذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۴۳) بِالْبَیِّنٰاتِ وَ اَلزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ اَلذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَیْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (۴۴)

التّفسير

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ!

بعد أن عرض القرآن فی الآیتین السابقتین حال المهاجرین فی سیاق حدیثه عن المشرکین،یعود إلی بیان المسائل السابقه فیما یتعلق بأصول الدین من خلال إجابته لأحد الإشکالات المعروفه،حین یتقول المشرکون:لماذا لم ینزل اللّه ملائکه لإبلاغ رسالته؟...أو یقولون:لم لم یجهز النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقدره خارقه لیجبرنا علی ترک أعمالنا!؟..

فیجیبهم اللّه عزّ و جلّ بقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِی إِلَیْهِمْ .

نعم.فإنّ أنبیاء اللّه علیهم السّلام جمیعهم من البشر،و بکل ما یحمل البشر من غرائز و عواطف إنسانیته،حتی یحس بالألم و یدرک الحاجه کما یحس و یدرک الآخرون.

فی حین أن الملائکه لا تتمکن من إدراک هذه الأمور جیدا و الاطلاع علی ما

یدور فی أعماق الإنسان بوضوح.

إنّ وظیفه الأنبیاء إبلاغ رساله السماء و الوحی الإلهی،و إیصال دعوه اللّه إلی الناس و السعی الحثیث و بالوسائل الطبیعیه لتحقیق أهداف الوحی،و لیس باستعمال قوی إلهیه خارقه للسنن الطبیعیه لإجبار الناس بقبول الدعوه و ترک الانحرافات،و إلاّ فما کان هناک فخر للإیمان و لا کان هناک تکامل.

ثمّ یضیف القول(تأکیدا لهذه الحقیقه): فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ .

«الذکر»:بمعنی العلم و الاطلاع،و«أهل الذکر»له من شمولیه المفهوم بحیث یستوعب جمیع العالمین و العارفین فی کافه المجالات.و إذا فسّر البعض کلمه «أهل الذکر»فی هذا المورد بمعنی(أهل الکتاب)،فهو لا یعنی حصر هذا المصطلح بمفهوم معین،و ما تفسیرهم فی واقعه إلاّ تطبیق لعنوان کلی علی أحد مصادیقه.

لأنّ السؤال عن الأنبیاء و المرسلین السابقین و هل أنّهم من جنس البشر و ذوی رسالات و وظائف ربانیه،یجب أن یکون من علماء أهل الکتاب.

و بالرّغم من عدم وجود الوفاق التام بین علماء الیهود و النصاری من جهه و المشرکین من جهه أخری،إلاّ أنّهم مشترکون فی مخالفتهم للإسلام،و لهذا فیمکن أن یکون علماء أهل الکتاب مصدرا جیدا بالنسبه للمشرکین فی معرفه أحوال الأنبیاء السابقین.

یقول الراغب فی مفرداته:إنّ الذکر علی معنیین،الأوّل:الحفظ.و الثّانی:

التذکر و استحضار الشیء فی القلب.و لذلک قیل:الذکر ذکران،ذکر بالقلب و ذکر باللسان..و لذا رأینا أنّ الذکر یطلق علی القرآن لأنّه یعرض الحقائق و یکشفها.

ثمّ تقول الآیه التالیه: بِالْبَیِّنٰاتِ وَ الزُّبُرِ (۱) .

۱- ۱) -أعطی المفسّرون احتمالات متعدده فی الفعل الذی تتعلق به عباره بِالْبَیِّنٰاتِ وَ الزُّبُرِ ...فقال بعضهم:إنّها متعلقه ب«لا

«البینات»:جمع بیّنه،بمعنی الدلائل الواضحه.و یمکن أن تکون هنا إشاره إلی معاجز و أدله إثبات صدق الأنبیاء علیهم السّلام فی دعوتهم.

«الزبر»:جمع زبور،بمعنی الکتاب.

فالبینات تتحدث عن دلائل إثبات النّبوه،و الزّبر إشاره إلی الکتب التی جمعت فیها تعلیمات الأنبیاء.

و من ثمّ یتوجه الخطاب إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَیْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ ،لیبیّن للناس مسئولیتهم تجاه آیات ربّهم الحق.

فدعوتک و رسالتک لیست بجدیده من الناحیه الأساسیه،و کما أنزلنا علی الذین من قبلک من الرسل کتبا لیعلموا الناس تکالیفهم الشرعیه،فقد أنزلنا علیک القرآن لتبیّن تعالیمه و مفاهیمه،و توقظ به الفکر الإنسانی لیسیروا فی طریق الحق بعد شعورهم بالمسؤولیه الملقاه علی عاتقهم،و لیتجهوا صوب الکمال(و لیس بطریق الجبر و القوه).

بحث

اشاره

من هم أهل الذکر؟

ذکرت الرّوایات الکثیره المرویه عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ«أهل الذکر»هم الأئمّه المعصومون علیهم السّلام،و من هذه الرّوایات:

روی عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی جوابه عن معنی الآیه أنّه قال:

«نحن أهل الذکر و نحن المسؤولون» (1) .

(1)

-تعلمون»کما قلنا و هو ینسجم مع ظاهر الآیات،و بملاحظه أن الفعل(علم)یتعدی بالباء و بدونها،و قال بعض آخر:أنّها متعلقه بجمله تقدیرها«أرسلنا»و هی فی الأصل«أرسلناهم بالبینات و الزبر».و قال آخرون:إنّها متعلقه بجمله«و ما أرسلنا» فی الآیه السابقه،و قال غیرهم:إنّها متعلقه بجمله«نوحی إلیهم»،و الواضح أنّ جمیع الآراء المطروحه کل منها یحدد مفهوما معینا للآیه،و لکنّها فی المجموع العام فالتفاوت غیر کبیر فیما بینها.

1- 1) -تفسیر نور الثقلین،ج 3،ص 55.

و

عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر الآیه أنّه قال: «الذکر القرآن و آل الرّسول أهل الذکر و هم المسؤولون» (۱) .

و

فی روایات أخری: أنّ«الذکر»هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و«أهل الذکر»هم أهل البیت علیهم السّلام (۲) .

و ثمّه روایات متعدده أخری تحمل نفس هذا المعنی.

و فی تفاسیر و کتب أهل السنّه روایات تحمل نفس المعنی أیضا،منها:

ما فی التّفسیر الاثنی عشری:روی عن ابن عباس فی تفسیر هذه الآیه،قال:

هو محمد و علی و فاطمه و الحسن و الحسین علیهم السّلام هم أهل الذکر و العقل و البیان (۳) .

فهذه لیست هی المرّه الأولی فی تفسیر الرّوایات للآیات القرآنیه ببیان أحد مصادیقها دون أن تقید مفهوم الآیه المطلق.

و کما قلنا ف«الذکر»یعنی کل أنواع العلم و المعرفه و الاطلاع،و«أهل الذکر» هم العلماء و العارفون فی مختلف المجالات،و باعتبار أن القرآن نموذج کامل و بارز للعلم و المعرفه أطلق علیه اسم«الذکر»،و کذلک شخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فهو مصداق واضح«للذکر»و الأئمّه المعصومون باعتبارهم أهل بیت النّبوه و وارثو علمه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فهم علیهم السّلام أفضل مصداق ل«أهل الذکر».

و هذا لا ینافی عمومیه مفهوم الآیه،و لا ینافی مورد نزولها أیضا(علماء أهل الکتاب)و لهذا اتجه علماؤنا فی الفقه و الأصول عند بحثهم موضوع الاجتهاد

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۳،ص ۵۶.

۲- ۲) -تفسیر نور الثقلین،ج ۳ ص ۵۵ و ۵۶.

۳- ۳) -إحقاق الحق،ج ۳، ص ۴۲۸-و المقصود من تفسیر الاثنی عشر،هو تفاسیر کل من:أبی یوسف،ابن حجر،مقاتل بن سلیمان،وکیع بن جراح،یوسف بن موسی،قتاده،حرب الطائی،السدی،مجاهد،مقاتل بن حیان،أبی صالح و محمد بن موسی الشیرازی. و روی حدیث آخر عن جابر الجعفی فی تفسیر الآیه،فی کتاب الثعلبی أنّه قال: لما نزلت هذه الآیه قال علی علیه السّلام:«نحن أهل الذکر»- راجع المصدر أعلاه-.

و التقليد إلی ضروره و وجوب أتباع العلماء لمن ليست له القدره علی استنباط الأحكام الشرعيه،و يستدلون بهذه الآيه علی صحه منحاهم.

و قد يتساءل فيما

ورد عن الإمام علی بن موسی الرضا عليه السّلام فی كتاب(عيون أخبار الرضا عليه السّلام): أنّ علماء فی مجلس المأمون قالوا فی تفسير الآيه:إنما عنی بذلك اليهود و النصاری،فقال الرضا عليه السّلام:«سبحان اللّه و هل يجوز ذلك،إذا يدعونا إلی دينهم و يقولون:إنّه أفضل من الإسلام...»ثمّ قال:«الذكر رسول اللّه و نحن أهله» (1) .

و تتخلص الإجابه بقولنا:إنّ الإمام قال ذلك لمن كان يعتقد أن تفسير الآيه منحصر بمعنی الرجوع إلی علماء أهل الكتاب فی كل عصر و زمان،و بدون شك أنّه خلاف الواقع،فليس المقصود بالرجوع إليهم علی مر العصور و الأيام،بل لكل مقام مقال،ففی عصر الإمام علی بن موسی الرضا عليه السّلام لا بدّ من الرجوع إليه علی أساس إنّه مرجع علماء الإسلام و رأسهم.

و بعباره أخری:إذا كانت وظيفه المشركين فی صدر الإسلام لدی سؤالهم عن الأنبياء السابقين،و هل أنّهم من جنس البشر هی الرجوع إلی علماء أهل الكتاب لا إلی النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،فهذا لا يعنی أن علی جميع الناس فی أی عصر و مصر أن يرجعوا إليهم،بل يجب الرجوع إلی علماء كل زمان.

و علی أيه حال..فالآيه مبيّنه لأصل إسلامی يتعيّن الأخذ به فی كل مجالات الحياه الماديه و المعنويه،و تؤكّد علی المسلمين ضروره السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه،و أن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

و علی هذا فإنّ«مسأله التخصص»لم يقررها القرآن الكريم و يحصرها فی المسائل الدينيه بل هی شامله لكل المواضيع و العلوم المختلفه، و يجب أن يكون

١- ١) -تفسير نور الثقلين،ج ٣،ص ٥٧.

من بين المسلمين علماء فى كافه التخصصات للرجوع إليهم.

و ينبغى التنويه هنا إلى ضروره الرجوع إلى المتخصص الثابت علمه و تمكنه فى اختصاصه،بالإضافه إلى توفر عنصر الإخلاص فى عمله فهل يصح أن نراجع طبيبا متخصصا-على سبيل المثال-غير مخلص فى علمه؟! و لهذا وضع شرط العداله فى مسائل التقليد إلى جانب الاجتهاد و الأعلميه، أى لا بدّ لمرجع التقليد من أن يكون تقيا ورعا بالإضافه إلى علميته فى المسائل الإسلاميه.

ص :۲۰۱

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشاره

أَ فَأَمِنَ اَلَّذِينَ مَكَرُوا اَلسَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اَللّهُ بِهِمُ اَلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ اَلْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (۴۵) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۴۶) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۴۷)

التّفسير

اشاره

لكلّ ذنب عقابه:

ثمّه ربط فى كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاستدلاليه و المسائل الوجدانيه بشكل مؤثر فى نفوس السامعين،و الآيات أعلاه نموذج لهذا الأسلوب.

فالآيات السابقه عباره عن بحث منطقى مع المشركين فى شأن النّبوه و المعاد،فى حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجبابره و الطغاه و المذنبين.

فتبتدأ القول: أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ من الذين حاكوا الدسائس المتعدده حسبا منهم لإطفاء نور الحق و الإيمان أَنْ يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ .

فهل ببعيد(بعد فعلتهم النكراء)أن تتزلزل الأرض زلزله شديده فتنشق القشره الأرضيه لتبتلعهم و ما يملكون،كما حصل مرارا لأقوام سابقه؟!

«مكروا السيئات»:بمعنى وضعوا الدسائس و الخطط وصولا لأهدافهم المشؤمه السيئه،كما فعل المشركون للنيل من نور القرآن و محاوله قتل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما مارسوه من إيذاء و تعذيب للمؤمنين المخلصين.

«يخسف»:من ماده«خسف»،بمعنى الاختفاء،و لهذا يطلق على اختفاء نور القمر فى ظل الأرض اسم(الخسوف)،يقال(بئر مخسوف)للذى اختفى ماؤه، و على هذا يسمّى اختفاء الناس و البيوت فى شق الأرض الناتج من الزلزله خسفا.

ثمّ يضيف: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذٰابُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ أى عند ذهابهم و مجيئهم و حركتهم فى اكتساب الأموال و جمع الثروات. فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ .

و كما قلنا سابقا،فإنّ«معجزين»من الإعجاز بمعنى ازاله قدره الطرف الآخر،و هى هنا بمعنى الفرار من العذاب و مقاومته.

أو أنّ العذاب الإلهى لا يأتيهم على حين غفله منهم بل بشكل تدريجى و مقرونا بالأنذار المتكرر: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلىٰ تَخَوُّفٍ .

فاليوم مثلا يصاب جارهم ببلاء،و غدا يصاب أحد أقربائهم،و فى يوم آخر تتلف بعض أموالهم...و الخلاصه،تأتيهم تنبيهات و تذكيرات الواحده تلو الأخرى،فإن استيقظوا فما أحسن ذلك،و إلاّ فسيصيبهم العقاب الإلهى و يهلكهم.

إنّ العذاب التدريجى فى هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدى هذه المجموعه،و اللّه عزّ و جلّ لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ .

و من الملفت للنظر فى الآيات مورد البحث،ذكرها لأربعه أنواع من العذاب الإلهى:

الأوّل:الخسف.

الثّانى:العقاب المفاجئ الذى يأتى الإنسان على حين غره من أمره.

الثّالث:العذاب الذى يأتى الإنسان و هو غارق فى جمع الأموال و تقلبه فى

ذلک.

الرّابع:العذاب و العقاب التدریجی.

و المسلم به أنّ نوع العذاب یتناسب و نوع الذنب المقترف،و إن وردت جمیعها بخصوص اَلَّذِینَ مَکَرُوا السَّیِّئٰاتِ لعلمنا أنّ أفعال اللّه لا تکون إلاّ بحکمه و عدل.

و هنا..لم نجد رأیا للمفسّرین-فی حدود بحثنا-حول هذا الموضوع، و لکن یبدو أنّ النوع الأوّل من العقاب یختص بأولئک المتآمرین الذین هم فی صف الجبارین و المستکبرین کقارون الذی خسف اللّه تعالی به الأرض و جعله عبره للناس،مع ما کان یتمتع به من قدره و ثروه.

أمّا النوع الثّانی فیخص المتآمرین الغارقین بملذات معاشهم و أهوائهم، فیأتیهم العذاب الإلهی بغته و هم لا یشعرون.

و النوع الثّالث یخص عبده الدنیا المشغولین فی دنیاهم لیل نهار لیضیفوا ثروه إلی ثروتهم مهما کانت الوسیله،حتی و إن کانت بارتکاب الجرائم و الجنایات وصولا لما یطمحون له!فیعذبهم اللّه تعالی و هم علی تلک الحاله (1) .

و أمّا النوع الرّابع من العذاب فیخص الذین لم یصلوا فی طغیانهم و مکرهم و ذنوبهم إلی حیث اللارجعه،فیعذبهم اللّه بالتخویف.أی یحذرهم بإنزال العذاب الألیم فی أطرافهم فإن استیقظوا فهو المطلوب،و إلاّ فسینزل العذاب علیهم و یهلکهم.

و علی هذا،فإنّ ذکر الرأفه و الرحمه الإلهیه ترتبط بالنوع الرّابع من الذین مکروا السّیئات،الذین لم یقطعوا کل علائقهم مع اللّه و لم یخربوا جمیع جسور العوده.

1- 1) -مع أنّ«التقلب»لغه،بمعنی التردد و الذهاب و المجیء،مطلقا و لکن فی هکذا موارد-کما قال أکثر المفسّرین و تأیید الرّوایات لذلک-بمعنی التردد فی طریق التجاره و کسب المال-فتأمل.

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۴۸ الی ۵۰]

اشاره

أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلیٰ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ مِنْ شَیْءٍ یَتَفَیَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ اَلْیَمِینِ وَ اَلشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ وَ هُمْ دٰاخِرُونَ (۴۸) وَ لِلّٰهِ یَسْجُدُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ مِنْ دٰابَّهٍ وَ اَلْمَلاٰئِکَهُ وَ هُمْ لاٰ یَسْتَکْبِرُونَ (۴۹) یَخٰافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ یَفْعَلُونَ مٰا یُؤْمَرُونَ (۵۰)

التّفسیر

اشاره

سجود الکائنات للّه عزّ و جلّ:

تعود هذه الآیات مرّه أخری إلی التوحید بادئه ب: أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلیٰ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَیْءٍ یَتَفَیَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ الْیَمِینِ وَ الشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ وَ هُمْ دٰاخِرُونَ (۱) .

أی:ألم یشاهد المشرکون کیف تتحرک ظلال مخلوقات اللّه یمینا و شمالا لتعبر عن خضوعها و سجودها له سبحانه؟! و یقول البعض:إنّ العرب تطلق علی الظلال صباحا اسم(الظل)و عصرا

ص:۲۰۵

۱- ۱) -داخر:فی الأصل من ماده(دخور)أی:التواضع.

(الفیء)،و إذا ما نظرنا إلی تسمیه(الفیء)لقسم من الأموال و الغنائم لوجدنا إشاره لطیفه لحقیقه..إنّ أفضل غنائم و أموال الدنیا لا تلبث أن تزول و لا یعدو کونها کالظل عند العصر.

و مع ملاحظه ما اقترن بـذکر الظلال فی هـذه الآیه من یمین و شـمال،و إنّ کلمه الفیء اسـتعملت للجمیع..فیسـتفاد من ذلک:أن الفیء هنا ذو معنی واسع یشمل کل أنواع الظلال.

فعنـد مـا یقـف الإنسـان وقـت طلـوع الشـمس متجهـا نحـو الجنـوب فـإنّه سـیری شـروق قرص الشـمس من الجهه الیسـری لأـفق الشرق،فتقع ظلال جمیع الأشیاء المجسمه علی یمینه(جهه الغرب)،و یستمر هذا الأمر حتی تقترب الظلال نحو الجهه الیمنی لحین وقت الظهر،و عندها سـتتحول الظلال إلی الجهه المعاکسه (الیسـری)و تستمر فی ذلک حتی وقت الغروب فتصبح طویله و ممتده نحو الشرق، ثمّ تغیب و تنعدم عند غروب الشمس.

و هنـا..یعرض البـاری سـبحانه حرکه ظلاـل الأجسـام یمینا و شـمالا بعنوانها مظهرا لعظمته جل و علا واصـفا حرکتها بالسـجود و الخضوع.

أثر الظلال فی حیاتنا:

ممّا لا شک فیه أنّ لظلال الأجسام دور مؤثر فی حیاتنا،و لعل الکثیر منّا غیر ملتفت إلی هذه الحقیقه،فوضع القرآن الکریم إصبعه علی هذه المسأله لیسترعی الانتباه لها.

للظلال(التی هی لیست سوی عدم النّور)فوائد جمّه:

۱-کما أنّ لأشعه الشمس دور أساسی فی حیاتنا،فکذلک الظلال،لأنّها تقوم بعملیه تعدیل شدّه الحراره لأشعه الشمس.

إنّ الحرکه المتناوبه للظلال تحفظ حراره الشمس لحد متعادل و مؤثر،و بدون

الظلال فسيحترق كل شیء أمام حراره الشمس الثابته و بدرجه واحده و لمدّه طويله.

۲-و ثمّه موضوع مهم آخر و ربّما علی خلاف تصور معظم الناس،ألا و هو:

إنّ النّور ليس هو السبب الوحيد فی رؤيه الأشياء،بل لا بدّ من اقتران الظل بالنّور لتحقيق الرؤيه بشكل طبيعی.

و بعباره أخری:إنّ النّور لو كان يحيط بجسم ما و يشع عليه باستمرار بما لا يكون هناک مجالا للظل أو نصف الظل،فإنّه و الحال هذه لا يمكن رؤيه ذلک الجسم و هو غارق بالنّور.،أی:كما أنّه لا يمكن رؤيه الأشياء فی الظلمه القائمه،فكذا الحال بالنسبه للنور التام،و يمكن رؤيه الأشياء بوجود النّور و الظلمه(النّور و الظلال).

و علی هذا يكون للظلال دور مؤثر جدّا فی مشاهده و تشخيص و معرفه الأشياء و تمييزها-فتأمل.

و ثمّه ملاحظه أخری فی الآيه:و هی:ورود«اليمين»بصيغه المفرد فی حين جاءت الشمال بصيغه الجمع«شمائل».

فالاختلاف فی التعبير يمكن أن يكون لوقوع الظل فی الصباح علی يمين الذی يقف مواجها للجنوب ثمّ يتحرک باستمرار نحو الشمال حتی وقت الغروب حين يختفی فی أفق الشرق (۱) .

و احتمل المفسّرون أيضا:مع أن كلمه(اليمين)مفردا إلاّ أنّه يمكن أن يراد بها الجمع فی بعض الحالات،و هی فی هذه الآيه تدل علی الجمع (۲) .

و جاء فی الآيه أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع،أما فی الآيه التاليه فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجا عاما شاملا لكل الموجودات الماديه و غير

۱- ۱) -تفسير القرطبی،ضمن تفسير الآيه.

۲- ۲) -تفسير أبو الفتوح الرازی،ج ۷،ص ۱۱۰.

المادیه،و فی أی مکان،فیقول: وَ لِلّٰهِ یَسْجُدُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ مِنْ دٰابَّهٍ وَ الْمَلاٰئِکَهُ وَ هُمْ لاٰ یَسْتَکْبِرُونَ ،مسلمین للّه و لأوامره تسلیما کاملا.

و حقیقه السجود نهایه الخضوع و التواضع و العباده،و ما نؤدیه من سجود علی الأعضاء السبعه ما هو إلاّ مصداق لهذا المفهوم العام و لا ینحصر به.

و بما أنّ جمیع مخلوقات اللّه فی عالم التکوین و الخلق مسلمه للقوانین العامّه لعالم الوجود، التی أفاضتها الإراده الإلهیه فإنّ جمیع المخلوقات فی حاله سجود له جلّ و علا،و لا ینبغی لها أن تنحرف عن مسیر هذه القوانین،و کلها مظهره لعظمه و علم و قدره الباری عزّ و جلّ،و لتدلل علی أنّها آیه علی غناه و جلاله..و الخلاصه:

کلها دلیل علی ذاته المقدسه.

«الدابه»:بمعنی الموجودات الحیه،و یستفاد من ذکر الآیه لسجود الکائنات الحیه فی السماوات و الأرض علی وجود کائنات حیه فی الأجرام السماویه المختلفه علاوه علی ما موجود علی الأرض.

و قد احتمل البعض:عباره«من دابه»قید ل«ما فی الأرض»فقط،أی:إنّ الحدیث یختص بالکائنات الحیه الموجوده علی الأرض.

و یبدو ذلک بعیدا بناء علی ما جاء فی الآیه(۲۹)من سوره الشوری وَ مِنْ آیٰاتِهِ خَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَثَّ فِیهِمٰا مِنْ دٰابَّهٍ .

صحیح أنّ السجود و الخضوع التکوینی لا ینحصر بالکائنات الحیه،و لکنّ تخصیص الإشاره بها لما تحمله من أسرار و عظمه الخلق أکثر من غیرها.

و بما أنّ مفهوم الآیه یشمل کلا من:الإنسان العاقل المؤمن،و الملائکه، و الحیوانات الأخری،فقد استعمل لفظ السجود بمعناه العام الذی یشمل السجود الاختیاری و التشریعی و کذا التکوینی الاضطراری.

أمّا الإشاره إلی الملائکه بشکل منفصل فی الآیه فلأنّ الدابه تطلق علی الکائنات الحیّه ذات الجسم المادی فقط، بینما للملائکه حرکه و حضور و غیاب،

ص :۲۰۸

و لكن ليس بالمعنى المادى الجسمانى كى تدخل ضمن مفهوم«الدابه».

و

روى فى حديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ للّه تعالى ملائكه فى السماء السابعه سجودا منذ خلقهم إلى يوم القيامه،ترعد فرائصهم من مخافه اللّه تعالى، لا تقطر من دموعهم قطره إلاّ صارت ملكا،فإذا كان يوم القيامه رفعوا رؤوسهم و قالوا:ما عبدناك حق عبادتك» (۱) .

أمّا جمله وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ فإشاره لحال و شأن الملائكه التى لا يداخلها أىّ استكبار عند سجودها و خضوعها للّه عزّ و جلّ.

و لهذا ذكر صفتين للملائكه بعد تلك الآيه مباشره و تأكيدا لنفى حاله الاستكبار عنهم: يَخٰافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ .

كما جاء فى الآيه(۶)من سوره التحريم فى وصف جمع من الملائكه: لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ .

و يستفاد من هذه الآيه بوضوح..أنّ علامه نفى الاستكبار شيئان:

أ-الشعور بالمسؤوليه و إطاعه الأوامر الإلهيه من دون أى اعتراض،و هو وصف للحاله النفسيه لغير المستكبرين.

ب-ممارسه الأوامر الإلهيه بما ينبغى و العمل وفق القوانين المعده لذلك..

و هذا انعكاس للأول،و هو التحقيق العينى له.

و ممّا لا ريب فيه أنّ عباره مِنْ فَوْقِهِمْ ليست إشاره إلى العلو الحسى و المكانى،بل المراد منها العلو المقامى،لأنّ اللّه عزّ و جلّ فوق كل شى مقاما.

كما نقرأ فى الآيه(۶۱)من سوره الأنعام: وَ هُوَ الْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ ،و كذلك فى الآيه(۱۲۷)من سوره الأعراف: وَ إِنّٰا فَوْقَهُمْ قٰاهِرُونَ حينما أراد فرعون أن يظهر قدرته و قوته!

۱- ۱) -مجمع ذيل البيان،ذيل الآيه المبحوثه.

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۵۱ الی ۵۵]

اشاره

وَ قٰالَ اَللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اِثْنَيْنِ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَإِيّٰايَ فَارْهَبُونِ (۵۱) وَ لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لَهُ اَلدِّينُ وٰاصِباً أَ فَغَيْرَ اَللّٰهِ تَتَّقُونَ (۵۲) وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اَللّٰهِ ثُمَّ إِذٰا مَسَّكُمُ اَلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (۵۳) ثُمَّ إِذٰا كَشَفَ اَلضُّرَّ عَنْكُمْ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۵۴) لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۵۵)

التّفسير

اشاره

دين حق و معبود واحد:

تتناول هذه الآيات موضوع نفی الشرک تعقيبا لبحث التوحيد و معرفه اللّه عن طريق نظام الخلق الذی ورد فی الآيات السابقه،لتتّضح الحقيقه من خلال المقارنه بين الموضوع،و يبتدأ ب: وَ قٰالَ اللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَإِيّٰايَ فَارْهَبُونِ .

و تقديم كلمه«إيّای»يراد بها الحصر كما فی«إيّاک نعبد»أی:يجب الخوف

من عقابی لا غیر.

و من الملفت للنظر أنّ الآیه أشارت إلی نفی وجود معبودین فی حین أن المشرکین کانوا یعبدون أصناما متعدده.

و یمکن أن یکون ذلک إشاره إلی إحدی النقاط التالیه أو إلی جمیعها:

۱-إنّ الآیه نفت عباده اثنین،فکیف بالأکثر؟! و بعباره أخری:إنّها بیّنت الحد الأدنی للمسأله لیتأکّد نفی الأکثر،و أیّ عدد ننتخبه(أکثر من واحد)لا بدّ له أن یمر بالإثنین.

۲-کل ما یعبد من دون اللّه جمع فی واحد،فتقول الآیه:أن لا تعبدوها مع اللّه،و لا تعبدوا إلهین(الحق و الباطل).

۳-کان العرب فی الجاهلیه قد انتخبوا معبودین:

الأوّل:خالق العالم،أی اللّه عزّ و جلّ و کانوا یؤمنون به.

و الثّانی:الأصنام،و اعتبروها واسطه بینهم و بین اللّه،و اعتبروها کذلک منبعا للخیر و البرکه و النعمه.

۴-یمکن أن تکون الآیه ناظره إلی نفی عقیده(الثنویین)القائلین بوجود إله للخیر و آخر للشر،و مع انتخابهم لأنفسهم هذا المنطق الضعیف الخاطئ،إلاّ إنّ عبده الأصنام قد غالوا حتی فی هذا المنطق و تجاوزوه لمجموعه من الآلهه! و ینقل المفسّر الکبیر العلاّمه الطبرسی فی تفسیر هذه الآیه عباره لطیفه نقلها عن بعض الحکماء:(نهاک ربک أن تتخذ إلهین فاتخذت آلهه،عبدت:نفسک و هواک،و طبعک و مرادک،و عبدت الخلق فأنّی تکون موحدا).

ثمّ یوضح القرآن أدله توحید العباده بأربعه بیانات ضمن ثلاث آیات...

فیقول أوّلا وَ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ فهل ینبغی السجود للأصنام التی لا تملک شیئا،أم لمن له ما فی السموات و الأرض؟ ثمّ یضیف: وَ لَهُ الدِّینُ وٰاصِباً .

فعند ما يثبت أن عالم الوجود منه،و هو الذى أوجد جميع قوانينه التكوينيه فينبغى أن تكون القوانين التشريعيه من وضعه أيضا،و لا تكون طاعه إلّا له سبحانه.

«واصب»:من«الوصوب»،بمعنى الدوام.و فسّرها البعض بمعنى(الخالص) (و من الطبيعى أن ما لم يكن خالصا لم يكن له الدوام.أما الذين اعتبروا«الدين» هنا بمعنى الطّاعه،فقد فسّروا«واصبا»بمعنى الواجب،أى:يجب إطاعه اللّه فقط.

و نقرأ

فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ شخصا سأله عن قول اللّه وَ لَهُ الدِّينُ وٰاصِباً قال:«واجبا» (۱) .

و الواضح أنّ هذه المعانى متلازمه جميعها.

ثمّ يقول فى نهايه الآيه: أَ فَغَيْرَ اللّٰهِ تَتَّقُونَ .

فهل يمكن للأصنام أن تصدّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمه حتى تتقوها و تواظبوا على عبادتها؟! هذا.. وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ .

فهذه الآيه تحمل لبيان الثّالث بخصوص لزوم عباده اللّه الواحد جلّ و علا، و أنّ عباده الأصنام إن كانت شكرا على نعمه فهى ليست بمنعمه،بل الكل بلا استثناء منّعمون فى نعم اللّه تعالى،و هو الأحق بالعباده لا غيره.

و علاوه على ذلك... ثُمَّ إِذٰا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ .

فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعا للضر و حلا للمعضلات،فهذا من اللّه و ليس من غيره،و هو ما تظهره ممارستكم عمليا حين إصابتكم بالضر،فلمن تلتجئون؟ إنّكم تتركون كل شيء و تتجهون إلى اللّه.

و هذا البيان الرّابع حول مسأله التوحيد بالعباده.

۱- ۱) -تفسير البرهان،ج ۲،ص ۳۷۳.

«تجئرون»:من ماده(الجؤار)علی وزن(غبار)،بمعنی صوت الحیوانات و الوحوش الحاصل بلا اختیار عند الألم،ثمّ استعملت کنایه فی کل الآهات غیر الاختیاریه الناتجه عن ضیق أو ألم.

إنّ اختیار هذه العباره هنا إشاره إلی أنّه عند ما تتراکم علیکم الویلات و یحل بکم البلاء الشدید تطلقون حینها صرخات الإستغاثه اللااختیاریه..و أنتم بهذه الحال،أ توجهون النداء لغیره سبحانه و تعالی؟!فلما ذا إذن فی حیاتکم الاعتیادیه و عند ما تواجهون المشاکل الیسیره تلتجئون إلی الأصنام؟! نعم.فاللّه سبحانه یسمع نداءکم فی کل الحالات و یغیثکم و یرفع عنکم البلاء ثُمَّ إِذٰا کَشَفَ الضُّرَّ عَنْکُمْ إِذٰا فَرِیقٌ مِنْکُمْ بِرَبِّهِمْ یُشْرِکُونَ بالعود إلی الأصنام! و فی الحقیقه...فالقرآن فی الآیه یشیر إلی فطره التوحید فی جمیع الناس، إلاّ أنّ حجب الغفله و الغرور و الجهل و التعصب و الخرافات تغطیها فی الأحوال الاعتیادیه.

و لکن،عند ما تهب عواصف البلاء تنقلع تلک الحجب فیظهر نور الفطره براقا من جدید لیری الناس لمن یتوجهون،فیدعون اللّه مخلصین بکامل وجودهم، فیرفع عنهم أغطیه البلاء المتأتیه من تلک الحجب،(لاحظوا أنّ الآیه قالت:

کَشَفَ الضُّرَّ

أی:رفع أغطیه البلاء).

و لکن..عند ما تهدأ العاصفه و یرتفع البلاء و تعودون إلی شاطئ الأمان، تعاودون من جدید علی الغفله و الغرور،و تظهرون الشرک بعبادتکم للأصنام مجددا! و فی آخر آیه(من الآیات مورد البحث)یأتی التهدید بعد إیضاح الحقیقه بالأدله المنطقیه: لِیَکْفُرُوا بِمٰا آتَیْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

و یشبّه ذلک بتوجیه النصائح و الإرشادات لمنحرف متخلف لا یفید معه هذا الأسلوب المنطقی فیقطع معه الحدیث باللین لیواجه بالتهدید عسی أن یرعوی

فيقال له:مع كل ما قلنا لك...افعل ما شئت و لكن سترى نتيجه عملك عاجلا أم آجلا.

و على هذا فتكون اللام فى«ليكفروا»يراد به التهديد،و كذا«تمتعوا»أمر يراد به التهديد أيضا،أمّا مجىء الفعل الأوّل بصيغه الغائب«ليكفروا»و الثّانى بصيغه المخاطب«تمتعوا»،فكأنه افترض غيابهم أوّلا فقال:ليذهبوا و يكفروا بهذه النعم، و عند تهديدهم يلتفت إليهم و يقول:تمتعوا بهذه النعم الدنيويه قليلا فسيأتى اليوم الذى تدركون فيه عظم خطئكم و سترون عاقبه أعمالكم.

و الآيه(٣٠)من سوره إبراهيم تشابه الآيه المذكوره من حيث الغرض: قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ (١)

١- ١) -احتمل جمع من المفسّرين:أنّ«ليكفروا»غايه و نتيجه للشرك و الكفر الذى نسب إليهم فى الآيه التى قبلها،فيكون المعنى أنّهم بعد إنجائهم من الضر تركوا طريق التوحيد و ساروا فى طريق الشرك ليكفروا بنعم اللّه و ينكرونها.

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۵۶ الی ۶۰]

اشاره

وَ يَجْعَلُونَ لِمَا لاٰ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (۵۶) وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ اَلْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ وَ لَهُمْ مٰا يَشْتَهُونَ (۵۷) وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوٰارىٰ مِنَ اَلْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مٰا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي اَلتُّرٰابِ أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (۵۹) لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ مَثَلُ اَلسَّوْءِ وَ لِلّٰهِ اَلْمَثَلُ اَلْأَعْلىٰ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۶۰)

التّفسير

اشاره

عند ما كانت ولاده البنت عارا!

بعد أن عرضت الآيات السابقه بحوثا استدلاليه فی نفی الشرک و عباده الأصنام،تأتی هذه الآيات لتتناول قسما من بدع المشركين و صورا من عاداتهم القبيحه،لتضيف دليلا آخرا على بطلان الشرک و عباده الأصنام،فتشير الآيات إلى ثلاثه أنواع من بدع و عادات المشركين:

و تقول أوّلا: وَ يَجْعَلُونَ لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ (١) .

و كان النصيب عباره عن قسم من الإبل بقيه من المواشى بالإضافه إلى قسم من المحاصيل الزراعيه،و هو ما تشير إليه الآيه(١٣٦)من سوره الأنعام:

وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعٰامِ نَصِيباً فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هٰذٰا لِشُرَكٰائِنٰا فَمٰا كٰانَ لِشُرَكٰائِهِمْ فَلاٰ يَصِلُ إِلَى اللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلىٰ شُرَكٰائِهِمْ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ .

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ .

و سيكون بعد السؤال اعتراف لا مفر منه ثمّ الجزاء و العقاب،و عليه فما تقومون به له ضرر مادى من خلال ما تعملونه بلا فائده،و له عقاب أخروى لأنّكم أسأتم الظن باللّه و اتجهتم إلى غيره.

أمّا البدعه الثّانيه فكانت: وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ من التجسم و من هذه النسبه. وَ لَهُمْ مٰا يَشْتَهُونَ أى:إنّهم لم يكونوا ليقبلوا لأنفسهم ما نسبوا إلى اللّه،و يعتبرون البنات عارا و سببا للشقاء! و إكمالا للموضوع تشير الآيه التاليه إلى العاده القبيحه الثّالثه: وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ . (٢)

و لا ينتهى الأمر إلى هذا الحد بل يَتَوٰارىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مٰا بُشِّرَ بِهِ .

و لم ينته المطاف بعد،و يغوص فى فكر عميق: أَ يُمْسِكُهُ عَلىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرٰابِ .

---

١ - ١) -ذكر المفسرون رأيين فى تفسير«ما لا يعلمون»و ضميرها: الأول:أن ضمير«لا يعلمون»يعود إلى المشركين أى أن المشركين يجعلون للأصنام نصيبا و هم لا يعلمون لها خيرا و شرا (و هذا ما انتخبناه من تفسير). و الثانى:إن الضمير يعود إلى نفس الأصنام،أى يجعلون للأصنام نصيبا فى حين أنها لا تدرك،لا تعقل،لا تعلم! و التفسير الثانى يظهر نوعا من التضاد بين عبارات الآيه،لأن«ما»تستعمل عاده لغير العاقل و«يعلمون»تستعمل للعاقل عاده. أما فى التفسير الأول ف«ما»تعود على الأصنام و«يعلمون»على عبدتها.

٢- ٢) -الكظيم:تطلق على الإنسان الممتلئ غضبا.

و فی ذیل الآیه،یستنکر الباری حکمهم الظالم الشقی بقوله: أَلاٰ سٰاءَ مٰا یَحْکُمُونَ .

و أخیرا یشیر تعالی إلی السبب الحقیقی وراء تلک التلوثات،ألا هو عدم الإیمان بالآخره: لِلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلیٰ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ .

فکلّما اقترب الإنسان من العزیز الحکیم انعکس فی روحه نور صفاته العلیا من العلم و القدره و الحکمه و ابتعد عن الخرافات و البدع و الأفعال القبیحه.

و کلما ابتعد عنه تعالی غرق بقدر ذلک البعد فی ظلمات الجهل و الضعف و الذله و القبائح.

فالسبب الرئیسی لکل انحراف و قبح و خرافه هو الغفله عن ذکر اللّه و عن محکمته العادله فی الآخره،أمّا ذکر اللّه و الآخره فدافع أصیل للإحساس بالمسؤولیه و محاربه الجهل و الخرافه،و عامل قدره و قوه و علم للإنسان.

بحوث

اشاره

۱-لماذا اعتبروا الملائکه بناتا للّه؟

تطالعنا الکثیر من آیات القرآن الکریم بأنّ المشرکین کانوا یقولون بأنّ الملائکه بنات اللّه جلّ و علا،أو أنّهم کانوا یعتبرون الملائکه إناثا دون نسبتها إلی اللّه..

کما فی الآیه(۱۹)من سوره الزخرف: وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِکَهَ الَّذِینَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً ،و فی الآیه(۴۰)من سوره الإسراء: أَ فَأَصْفٰاکُمْ رَبُّکُمْ بِالْبَنِینَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلاٰئِکَهِ إِنٰاثاً .

يمكن أن تكون هـذه الإعتقادات بقايا خرافات الأقوام السابقه التى وصـلت عرب الجاهليه،أو ربما يحصل هذا الوهم بسـبب ستر الملائكه عنهم و حـال الاسـتتار أكثر مـا يختص بحـال النسـاء،و لهـذا تعتبر العرب الشـمس مؤنثـا مجازيا و القمر مـذكرا مجازيا أيضـا،على اعتبـار أنّ قرص الشـمس لا ـ يمكن للناظر إليه أن يـديم النظر لأنه يستر نفسه بقوه نوره،أمّا قرص القمر فظاهر للعين و يسمح للنظر إليه مهما طالت المدّه.

و ثمّه احتمال آخر يذهب إلى الكنايه عن لطافه الملائكه،و الإناث أكثر من الذكور لطافه.

و على أيه حال..فهـذه إحـدى ترسـبات الخرافـات القـديمه التى تكلست فى مخيله البشـريه حتى وصـلت للبعض ممن يعيش فى يومنا هذا،و لا تختص هذه الخرافه بقوم دون آخر لأنّنا نلاحظ وجودها فى أدبيات عدد من لغات العالم! فنرى الأديب مثلا حينما يريـد وصف جمـال امرأه ينعتهـا بالملائكه،و ذاك الفنـان الـذى يريـد أن يعـبر عن الملائكه فيجعلهـا بهيئه النسـاء،فى حين أن الملائكه لا تملك جسما ماديا حتى يمكننا أن نصفه بالمذكر أو المؤنث.

۲–لما ذا شاع وأد البنات فى الجاهليه؟

الوأد فى واقعه أمر رهيب،لأنّ الفاعـل يقوم بسـحق كـل ما بين جوانحه من عطف و رحمه،ليتمكن من قتل إنسان برىء ربّما هو من أقرب الأشـياء إليه من نفسه! و الأقبـح من ذلـك افتخاره بعمله الشـنيع هـذا! فأين الفخر من قتل إنسان ضـعيف لا يقوى حتى للـدفاع عن نفسه؟بل كيف يدفن الإنسان فلذه كبده و هى حيه؟! و هذا ليس بالأمر الهيّن،فأىّ إنسان و مهما بلغت به الوحشـيه لا يقدم على

ص :۲۱۸

هكذا جريمه بشعه من غير أن تكون لها مقدمات اجتماعيه و نفسيه و اقتصاديه عميقه الأثر و التأثير تدعوه لذلك..

يقول المؤرخون:إنّ بدايه وقوع هذا العمل القبيح كانت على أثر حرب جرت بين فريقين منهم فى ذلك الوقت،فأسر الغالب منهم نساء و بنات المغلوب، و بعد مضى فتره من الزمن تمّ الصلح بينهم فأراد المغلوبون استرجاع أسراهم إلاّ ـ أنّ بعضا من الأسيرات ممن تزوجن من رجال القبيله الغالبه اخترن البقاء مع الأعداء و رفضن الرجوع إلى قبيلتهن،فصعب الأمر على آبائهن بعد أن أصبحوا محلا للوم و الشماته،حتى أقسم بعضهم أن يقتل كل بنت تولد له كى لا تقع مستقبلا أسيره بيد الأعداء! و يلاحظ بوضوح ارتكاب أفظع جنايه ترتكب تحت ذريعه الدفاع عن الشرف و الناموس و حيثيه العائله الكاذبه..فكانت النتيجه:ظهور بدعه و أد البنات القبيحه و انتشارها بين جمع منهم حتى أصبحت سنّه جاهليه،و لفظاعتها فقد أنكرها القرآن الكريم بشدّه بقوله: وَ إِذَا الْمَوْؤُدَهُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۱) .

و ثمّه احتمال آخر يذهب إلى دور الطبيعه الإنتاجيه للأولاد الذكور،و النزوع إلى الطبيعه الاستهلاكيه عند الإناث،و ما له من أثر على الحياه الاجتماعيه و الاقتصاديه،فالولد الذكر بالنسبه لهم ذخر مهم ينفعهم فى القتال و الغارات و فى حفظ الماشيه و ما شابه ذلك من الفوائد،فى حين أنّ البنات لسن كذلك.

و من جانب آخر..فقد سببت الحروب و النزاعات القبليه قتل الكثير من الرجال و الأولاد ممّا أدى لاختلال التوازن فى نسبه الإناث إلى الذكور،حتى وصل وجود الولد الذكر عزيزا و دفع الرجل لأن يتباهى بين قومه حين يولد له مولود ذكرا،و ينزعج و يتألم عند ولاده البنت..و وصل حالهم لحد(كما يقول عنه

۱- ۱) -سوره التكوير،۹.

بعض المفسّرون)أنّ الرجل فی الجاهلیه یغیّب نفسه عن داره عند قرب وضع زوجته لئلا تأتیه بنت و هو فی الدار! و إذا ما أخبروه بأنّ المولود ذکر فیرجع إلی بیته و بشائر الفرح تتعالی وجنتیه، و لکنّ الویل کل الویل و الثبور فیما لو أخبروه بأنّ المولود بنتا و یمتلئ غیظا و غضبا (۱) .

و قصّه«الوأد»ملأی بالحوادث المؤلمه...

منها:ما

روی أنّ رجلا جاء إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فأعلن إسلامه،و جاءه یوما فسأله:إنّی أذنبت ذنبا عظیما فهل لی من توبه؟فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«إنّ اللّه تواب رحیم».قال:یا رسول اللّه إنّ ذنبی عظیم قال:«ویلک مهما کان ذنبک عظیما فعفو اللّه أعظم منه»،قال:لقد سافرت فی الجاهلیه سفرا بعیدا و کانت زوجتی حبلی و عند ما عدت بعد أربع سنوات استقبلتنی زوجتی فرأیت بنتا فی الدار، فقلت لها:ابنه من هذه؟قالت:ابنه جازنا.فظننت أنّها سترحل عن دارنا بعد ساعه، فلم تفعل،ثمّ قلت لزوجتی:أصدقینی من هذه البنت؟قالت:ألا تذکر أنّی کنت حامله عند ما سافرت،إنّها ابنتک.فنمت تلک اللیله مغتما،أنام و استیقظ،حتی اقترب وقت الصباح نهضت من فراشی و ذهبت إلی فراش ابنتی فأخرجتها و أیقظتها و طلبت منها أن تصحبنی إلی حائط النخل،فتبعتنی حتی اقتربنا من الحائط فأخذت بحفر حفیره و هی تعیننی علی ذلک،و عند ما انتهیت من ذلک وضعتها فی وسط الحفره..و هنا فاضت عینا رسول اللّه بالدمع..ثمّ وضعت یدی الیسری علی کتفها و أخذت أهیل التراب علیها بیدی الیمنی،فأخذت تصرخ و تدافع بیدیها و رجلیها و تقول:أبی ما تصنع بی!؟ثمّ أصاب لحیتی بعض التراب فرفعت یدها تمسحه عنها،و أدمت ذلک حتی دفنتها.

۱- ۱) -تفسیر الفخر الرازی،ج ۲۰،ص ۵۵.

فقال رسول اللّه و هو يمسح دموعه:«لو لا أن سبقت رحمه اللّه غضبه لعجل اللّه لك العذاب» (۱) .

و كذلك ما

روی فی(قیس بن عاصم)أحد أشرف و رؤساء قبيله بنی تميم فی الجاهليه،و قد أسلم عند ظهور النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،جاء يوما إلی النّبی و قال له:أنّ آباءنا كانوا يدفنون بناتهم أحياء،و قد دفنت أنا(۱۲)بنتا،و عند ما ولدت لی زوجتی البنت الثّالثه عشر أخفت أمرها و ادّعت أنّها ماتت عند الولاده،ثمّ أودعتها آخرين،و عند ما علمت بذلك بعد مدّه،أخذتها إلی مكان بعيد و دفنتها حيّه دون أن أعتنی ببكائها و تضرعها.

فتأذی النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم من ذلك فقال و دموعه جاريه:«من لا يرحم لا يرحم»ثمّ التفت إلی قيس و قال:«إنّ لك يوما سيئا»،فقال قيس:ما أفعل لتكفير ذنبی؟فقال النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:«حرر من العبيد بعدد ما و أدت» (۲) .

و روی أيضا أن(صعصعه بن ناجيه)جد الفرزدق الشاعر المعروف،و كان رجلا شريفا حرّا فقيل:إنّه كان فی الجاهليه يحارب الكثير من العادات القبيحه حتی أنّه اشتری(۳۶۰)بنتا من آبائهن كی ينقذهن من القتل،و قد أعطی يوما دابته مع بعيرين لأب كان يريد قتل ابنته.

و

قال له الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم ذات مرّه(فی ما معناه): ما أحسن ما صنعت و أجرك عند اللّه.

و قال الفرزدق فخرا بعمل جده:

و منّا الذی منع الوائدات

فأحيا الوئيد فلم توئد (۳)

و سنری كيف أنّ الإسلام قد أصم تلك الفواجع العظام،و اعتبر للمرأه مكانه ما كانت تحظی بها من قبل علی مر العصور.

۱- ۱) -القرآن يواكب الدهر،ج ۲،ص ۳۱۴(مضمونا).

۲- ۲) -الجاهليه و الإسلام،ص ۶۳۲.

۳- ۳) -قاموس الرجال،ج ۵،ص ۱۲۵(مضمونا).

۳-دور الإسلام فی إعاده اعتبار المرأه:

لم یکن احتقار المرأه مختصا بعرب الجاهلیه،فلم تلق المرأه أدنی درجات الاحترام و التقدیر حتی فی أکثر الأمم تمدنا فی ذلک الزمان، و کانت المرأه غالبا ما یتعامل معها باعتبارها بضاعه و لیست إنسانا محترما،و لکنّ عرب الجاهلیه جسدوا تحقیر المرأه بأشکال أکثر قباحه و وحشیه من غیرهم،حتی أنّهم ما کانوا یدخلونهن فی الأنساب کما نقرأ ذلک فی الشعر الجاهلی المعروف:

بنونا بنو ءابائنا و بناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأباعد

و کانوا أیضا لا یورثون النساء،و لم یجعلوا لتعدد الزوجات حدّا،و عملیه الزواج أو الطلاق أسهل من شربه الماء عندهم.

و عند ما ظهر الإسلام حارب بشدّه هذه المهانه من کافه أبعادها،و بالخصوص مسأله اعتبار ولاده البنت عارا،حتی وردت الرّوایات الکثیره التی تؤکّد علی أنّ البنت باب من أبواب رحمه اللّه للعائله.

و أولی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ابنته فاطمه الزهراء علیها السّلام من الاحترام ما جعل الناس فی عجب من أمره،حیث کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع ما یحظی به من شرف و مقام،کان یقبل ید الزهراء علیها السّلام،و عند ما یعود من السفر یذهب إلیها قبل أی أحد.و عند ما یرید السفر کان بیت فاطمه الزهراء علیها السّلام آخر بیت یودّعه.

و حینما أخبر بولاده الزهراء علیها السّلام،رأی الانقباض فی وجوه أصحابه

فقال علی الفور: «ما لکم!ریحانه أشمها،و رزقها علی اللّه عزّ و جل» (۱) .

و

فی حدیث أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «نعم الولد البنات ملطفات،مجهزات،مؤنسات، مفلیات» (۲) .

و

فی حدیث آخر: «من دخل السوق فاشتری تحفه فحملها إلی عیاله کان کحامل الصدقه إلی قوم محاویج،و لیبدأ بالإناث قبل الذکور،فإنّه من فرّح ابنته

۱- ۱) -وسائل الشیعه،ج ۱۵ ص ۱۰۲.

۲- ۲) -وسائل الشیعه،ج ۱۵،ص ۱۰۰.

فكأنّما أعتق رقبه من ولد إسماعيل» (۱) .

فالاحترام الذى أولاه الإسلام للمرأه قد أعاد لها شخصيتها الضائعه بين حولك الجاهليه،و حررها من العادات الباليه،و أنهى عصر تحقيرها.

و إن كان غور هذا الموضوع يستلزم التفصيل فستنطرق إلى ذلك فى تفسيرنا للآيات المناسبه له،و لكنّ ما يحز فى النفوس و لا يمكن السكوت عنه ما يشاهد فى كثير من مجتمعاتنا الإسلاميه من آثار لنفس ذلك التوجه الجاهلى الموبوء، فإلى الآن نرى الكثير من العوائل تفرح و تسر عند ما يأتيها مولود ذكر،و تتأسف و تتأفف عند ما تكون المولوده بنتا!و على أقل التقادير ترجح ولاده الولد على البنت!.

من الممكن أن تكون الظروف الخاصه اقتصاديا و اجتماعيا،المرتبطه بوضع المرأه فى مجتمعاتنا،عاملا-على وجود عادات و حالات خاطئه،إلاّ أنّه ينبغى على المؤمنين المخلصين مكافحه هذا النمط من التفكير و اقتلاع جذوره الاجتماعيه و الاقتصاديه،فالإسلام لا يقبل من أتباعه بعد(۱۴)قرن العود إلى أفكار الجاهليه المقيته..فهذا السلوك فى واقعه نوع من الجاهليه الثّانيه.

و لا-ينبغى أن تأخذنا التصورات السارحه فنرى عن بعد أن المرأه قد نالت مناها فى عالم الغرب و أنّها تحظى من الاحترام و التحرر ما تحسد عليه!فالحياه العمليه فى الغرب تؤكّد بما لا يقبل الشك أنّ المرأه هناك محتقره،و قد جعلت لعبه مبتذله و وسيله رخيصه لإشباع الشهوات أو وسيله إعلان للبضائع و المنتوجات (۲) .

۱- ۱) -مكارم الأخلاق،ص ۵۴.

۲- ۲) -و من جميل الصدف أن كتب هذا البحث فى اليوم العشرين من جمادى الثّانيه سنه ۱۴۰۱،و هو يوم ولاده فاطمه الزّهراء عليها السّلام.

الآيات [سوره النحل (١۶): الآيات ۶١ الى ۶۴]

اشاره

وَ لَوْ يُؤاخِذُ اَللّٰهُ اَلنّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دَابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (۶١) وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ اَلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ اَلْحُسْنىٰ لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ اَلنّٰارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (۶٢) تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اَلْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۶٣) وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ إِلاّٰ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ اَلَّذِي اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۶۴)

التّفسير

اشاره

وسعت رحمته غضبه:

بعد أن تحدثت الآيات السابقه عن جرائم المشركين البشعه فى وأدهم للبنات،يطرق بعض الأذهان السؤال التالى:لما ذا لم يعذب اللّه المذنبين بسرعه نتيجه لما قاموا به من فعل قبيح و ظلم فجيع؟!

ص: ٢٢۴

و الآیه الأولی(۶۱)تجیب بالقول: وَ لَوْ یُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَکَ عَلَیْهٰا مِنْ دَابَّهٍ (۱) .

«الدابه»:یراد بها کل کائن حی،و یمکن أن یراد بها هنا(الإنسان)خاصّه بقرینه(بظلمهم).

أی:إنّ اللّه لو یؤاخذ الناس علی ما ارتکبوه من ظلم لما بقی إنسان علی سطح البسیطه.

و یحتمل أیضا إراده جمیع الکائنات الحیّه،لعلمنا بأنّ هذه الکائنات إنّما خلقت و سخرت للإنسان کما یقول القرآن فی الآیه(۲۹)من سوره البقره: هُوَ الَّذِی خَلَقَ لَکُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً ،فعند ما یذهب الإنسان فسینتفی سبب وجود الکائنات الأخری و ینقطع نسلها.

و هنا یواجهنا السؤال التالی:لو نظرنا إلی سعه مفهوم الآیه و عمومیتها فإنّها تدل فی النتیجه علی أنّه لا یوجد علی الأرض إنسان غیر ظالم،فالکلّ ظالم کلّ حسب قدره و شأنه،و لو نزل العذاب الفوری السریع و الحال هذه لما بقی إنسان علی سطح الأرض...مع إنّنا نعلم أنّ هناک من لا یصدق علیه هذا المعنی،فالأنبیاء و الأئمّه المعصومون علیهم السّلام خارجون عن شمولیه هذا المعنی،بل فی کل زمان و مکان ثمه من تزید حسناته علی سیئاته من الصالحین المخلصین و المجاهدین ممن لا یستحقون العذاب المهلک أبدا..

و الجواب علی ذلک أنّ الآیه تبیّن حکما نوعیا و لیس حکما عاما شاملا للجمیع و نظیر ذلک کثیر فی الأدب العربی.

و من الشواهد علی ذلک:الآیه(۳۲)من سوره فاطر حیث تقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْکِتٰابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَیْرٰاتِ بِإِذْنِ اللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ

---

۱ – ۱) -إن ضمیر«علیها»یعود إلی«الأرض»و إن لم یرد لها ذکر فی الآیات المتقدمه لوضوح الأمر،و نظائر ذلک کثیره فی لغه العرب.

.

فنرى الآيه تتطرق إلى ثلاثه أقسام:ظالم،صاحب ذنوب خفيفه،و سابق بالخيرات..و من المسلم به أنّ القسم الأوّل هو المقصود فى الآيه مورد البحث دون القسمين الآخرين،و لا عجب من تعميم الآيه،لأنّ هذا القسم يشكل القسم الأكبر من المجتمعات البشريه.

و يتّضح من خلال ما ذكر أنّ الآيه لا تنفى عصمه الأنبياء،أمّا من يعتقد بخلاف ذلك فقد غفل عن القرائن الموجوده فى العباره من جهه،و لم يلتفت إلى ما توحى إليه بقيه الآيات القرآنيه بهذا الخصوص.

و يضيف القرآن الكريم قائلا: وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ .

بل يدركهم الموت فى نفس اللحظه المقرره.

بحث

اشاره

ما هو الأجل المسمى؟

للمفسّرين بيانات كثيره بشأن المراد من«الأجل المسمى»و لكن بملاحظه سائر الآيات القرآنيه،و من جملتها الآيه(٢)من سوره الأنعام،و الآيه(٣۴)من سوره الأعراف،يبدو أنّ المراد منه وقت حلول الموت،أى:إنّ اللّه عزّ و جلّ يمهل الناس إلى آخر عمرهم المقرر لهم إتماما للحجه عليهم،و لعل من ظلم يعود إلى رشده و يصلح شأنه فيكون ذلك العود سببا لرجوعه إلى بارئه الحق و إلى العداله.

و يصدر أمر الموت بمجرّد انتهاء المهله المقرره،فيبدأ بعقابهم من بدايه اللحظات الأولى لما بعد الموت.

و لأجل المزيد من الإيضاح حول مسأله(الأجل المسمى)راجع ذيل الآيه

ص:٢٢۶

رقم(۲)من سوره الأنعام و كذا ذيل الآيه(۳۴)من سوره الأعراف.

و يعود القرآن الكريم ليستنكر بدع المشركين و خرافاتهم فی الجاهليه(حول كراهيه المولود الأنثی و الإعتقاد بأنّ الملائكه إناثا،فيقول: وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ .

فهذا تناقض عجيب-و كما جاء فی الآيه(۲۲)من سوره النجم تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزىٰ فإن كانت الملائكه بنات اللّه سبحانه و تعالی فينبغی أن تكون البنات أمرا حسنا،فلما ذا تكرهون ولادتها؟!و إن كانت شيئا سيئا فلما ذا تنسبونها إلی اللّه؟! و مع كل ذلك.. وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنىٰ .

فبأی عمل تنتظرون حسنی الثواب؟!أ بوأدكم بناتكم؟!أم بافترائكم علی اللّه؟!..

و جاءت«الحسنی»(و هی مؤنث أحسن)هنا بمعنی أفضل الثواب أو أفضل العواقب،و ذلك ما يدعيه أولئك المغرورون الضالون لأنفسهم مع كل ما جاؤوا به من جرائم! و هنا يطرح السؤال التالی نفسه: كيف يقول عرب الجاهليه بذلك و هم لا يؤمنون بالمعاد؟ و الجواب:أنّهم لم ينكروا المعاد مطلقا،و إنّما كانوا ينكرون المعاد الجسمانی، و يستوعبون مسأله عوده الإنسان إلی حياته الماديه مرّه أخری.

إضافه إلی إمكان اعتبار قولهم قضيه شرطيه،أی:إن كان هناك معاد حقّا فسيكون لنا فی عالمه أفضل الجزاء!و هكذا هو تصور كثير من الجبابره و المنحرفين فبالرغم من بعدهم عن اللّه تعالی يعتبرون أنفسهم أقرب الناس إليه، و يتشدّقون بادّعاءه هزيله مدعاه للسخريه!

و احتمل بعض المفسّرين أيضا أنّ«الحسنى»تعنى نعمه الأولاد الذكور، لأنّهم يعتبرون البنات سوءا و شرّا،و البنين نعمه و حسنى.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صوابا،و لهذا يقول القرآن،و بلا فاصله:

لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّٰارَ

،أی:أنّهم لیسوا فاقدین لحسن العاقبه فقط،بل و«لهم النّار» وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ أی:من المتقدمین فی دخول النّار.

و المفرط:من فرط،علی وزن(فقط)بمعنی التقدم.

و ربّما یراود البعض منّا الاستغراب عند سماعه لقصه عرب الجاهلیه فی وأدهم للبنات،و یسأل:کیف یصدّق أن نسمع عن إنسان ما یدفن فلذه کبده بیده و هی علی قید الحیاه؟!..

و کأنّ الآیه التالیه تجیب علی ذلک: تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلیٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِکَ فَزَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ .

نعم،فللشیطان وساوس یتمکن من خلالها أن یصور أقبح الأعمال و أشنعها جمیله فی نظر البعض بحیث یعتبرها مجالا للتفاخر!کما کانوا یعتبرون وأد البنات شرفا و فخرا و حفظا لناموس و کرامه القبیله!ممّا یحدو ببعض المغفلین لأن یتفاخر بالقول:لقد دفنت ابنتی الیوم بیدی کی لا تقع غدا أسیره فی ید الأعداء! فإنّ کان الشیطان یزیّن أقبح الأعمال مثل وأد البنات بنظر بعض الناس بهذه الحال،فحال بقیه الأعمال معلوم.

و نری فی یومنا الکثیر من أعمال الناس التی سیطر علیها زخرف الشیطان، فراحوا ینعتون سرقاتهم و جرائمهم بعبارات تبدو مقبوله فیخفون حقیقتها فی طی زخرف القول.

ثمّ یضیف القرآن:إن مشرکی الیوم علی سنّه من سبقهم من الماضین من الذین زینوا أعمالهم بزخرف ما أوحی لهم الشیطان فَهُوَ وَلِیُّهُمُ الْیَوْمَ ، یستفیدون ممّا یعطیهم إیّاه.

و لهذا.. وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ .

و للمفسّرين بيانات كثيره فى تفسير فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ و لعل أوضحها ما قلناه أعلاه،أى:إنّها إشاره إلى أنّ المشركين فى عصر الجاهليه إنّما هم على خطى الأمم المنحرفه السابقه،و الشيطان رائد مسيرتهم و الموجه لهم كما كان للماضين (۱) .

و يحتمل تفسيرها أيضا بأنّ المقصود من فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ أنّه لا تزال بقايا الأمم المنحرفه السابقه موجوده إلى اليوم،و لا زالوا يعملون بطريقتهم المنحرفه، و الشيطان وليهم كما كان سابقا.

و تبيّن آخر آيه من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء،و لتؤكّد حقيقه:

أنّ الأقوام و الأمم لو اتبعت الأنبياء و تخلت عن أهوائها و رغباتها الشخصيه لما بقى أثر لأى خرافه و انحراف،و لزالت تناقضات الأعمال،فتقول: وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ الْكِتٰابَ إِلاّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ليخرج وساوس الشيطان من قلوبهم،و يزيل حجاب النفس الأماره بالسوء عن الحقائق لتظهر ناصعه براقه،و يفضح الجنايات و الجرائم المختفيه تحت زخرف القول،و يمحو أىّ أثر للاختلافات الناشئه من الأهواء،فيقضى على القساوه بنشر نور الرحمه و الهدايه ليعم الجميع فى كل مكان.

ص:۲۲۹

۱- ۱) -و لكن لازم هذا التّفسير وجود اختلاف فى ضمير أَعْمٰالَهُمْ و ضمير وَلِيُّهُمُ ،فالأوّل يعود إلى الأمم السالفه،و الثّانى إلى المشركين فى صدر الإسلام.و يمكن حل هذا المشكل بتقدير جمله،و هى ان تقول:هؤلاء يتبعون الأمم الماضيه.(فتأمل).

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۶۵ الی ۶۷]

اشاره

وَ اَللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْیٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَکُمْ فِی اَلْأَنْعٰامِ لَعِبْرَهً نُسْقِیکُمْ مِمّٰا فِی بُطُونِهِ مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خٰالِصاً سٰائِغاً لِلشّٰارِبِینَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ اَلنَّخِیلِ وَ اَلْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۶۷)

التّفسیر

اشاره

المیاه،الثمار،الأنعام:

مرّه أخری،یستعرض القرآن الکریم النعم و العطایا الإلهیه الکثیره، تأکیدا لمسأله التوحید و معرفه اللّه،و إشاره إلی مسأله المعاد،و تحریکا لحس الشکر لدی العباد لیتقربوا إلیه سبحانه أکثر،و من خلال هذا التوجیه الرّبانی تتّضح علاقه الربط بین هذه الآیات و ما سبقها من آیات.

فالآیه الأخیره من الآیات السابقه تناولت مسأله نزول القرآن و ما فیه من حیاه لروح الإنسان،و بنفس السیاق تأتی الآیه الأولی من الآیات مورد البحث لتتناول نزول الأمطار و ما فیها من حیاه لجسم الإنسان: وَ اللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً

فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ

.

لقد تناولت آیات قرآنیه کثیره مسأله إحیاء الأرض بواسطه نزول الأمطار من السماء،فکم من أرض یابسه أو میته أحیانا أو أصابها الجفاف فأخرجها عن مجال الاستفاده من قبل الإنسان،و نتیجه لما وصلت إلیه من وضع قد یخیل للإنسان أنّها أرض غیر منبته أصلا،و لا یصدّق بأنّها ستکون أرض معطاء مستقبلا -و لکنّ،بتوالی سقوط المطر علیها و ما یثبت علیها من أشعه الشمس،تری و کأنّها میت قد تحرک حینما تدب فیه الروح من جدید،فتسری فی عروقها دماء المطر و تعادلها الحیاه،فتعمل بحیویه و نشاط و تقدم أنواع الورود و النباتات،و من ثمّ تتجه إلیها الحشرات و الطیور و أنواع الحیوانات الأخری من کل جانب، و بذلک...تبدأ عجله الحیاه علی ظهرها بالدوران من جدید.

و خلاصه المقال أنّه سیبقی الإنسان مبهوتا أمام تحول الأرض المیته إلی مسرح جدید للحیاه،و هذا بحق من أعظم عجائب الخلقه.

و هذا المظهر من مظاهر قدره و عظمه الخالق عزّ و جلّ یدلل بما لا یقبل الشک علی إمکان المعاد،و ما ارتداء الأموات لباس الحیاه الجدید إلاّ أمر خاضع لقدرته سبحانه.

و إنّ نعمه الأمطار(التی لا یتحمل الإنسان أی قسط من أمر إیجادها)دلیل آخر علی قدره و عظمه الخالق سبحانه.

و بعد ذکر نعمه الماء(الذی یعتبر الخطوه الأولی علی طریق الحیاه)یشیر القرآن الکریم إلی نعمه وجود الأنعام،و بخصوص ما یؤخذ منها من اللبن کماده غذائیه کثیره الفائده،فیقول: وَ إِنَّ لَکُمْ فِی الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَهً .

و أیه عبره أکثر من أن: نُسْقِیکُمْ مِمّٰا فِی بُطُونِهِ مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خٰالِصاً سٰائِغاً لِلشّٰارِبِینَ .

«الفرث»لغه:بمعنی الأغذیه المهضومه فی المعده و التی بمجرّد وصولها إلی

الأمعاء تزود البدن بمادتها الحياتيه،بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج..فما يهضم من غذاء داخل المعده يسمّى«فرثا»و ما يدفع إلى الخارج يسمّى(روثا).

و نعلم بأنّ جدار المعده لا يمتص إلّا مقدارا قليلا من الغذاء(كبعض المواد السكريه)و القسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كى يمتص الدم ما يحتاجه منه.

و كما نعلم أيضا بأنّ اللبن يترشح من غدد خاصّه داخل ثدى الإناث،و مادته الأصليه تؤخذ من الدم و الغدد الدهنيه.

فهذه الماده الناصعه البياض ذات القوّه الغذائيه العاليه تنتج من الأغذيه المهضومه المخلوطه بالفضلات،و من الدم.

و العجب يمكن فى استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوثه! و بعد حديثه عن الأنعام و ألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتيه،فيقول:

وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ

.

«السكر»لغه،له معانى مختلفه،إلّا أنّه هنا بمعنى:المسكرات و المشروبات الكحوليه(و هو المعنى المشهور من تلك المعانى).

و ممّا لا يقبل الشك أنّ القرآن لا يجيز فى هذه الآيه صنع المسكرات من التمر و العنب أبدا،و إنّما جاء ذكر المسكرات هنا لمقابلته ب رِزْقاً حَسَناً و كإشاره صغير لتحريم الخمر و نبذه.و على هذا..فلا حاجه للقول بأنّ هذه الآيه نزلت قبل تحريم الخمر أو أنّها تشير إلى تحليله،بل حقيقه التعبير القرآنى يشير إلى التحريم، و لعل الآيه كانت تمثل الإنذار الأوّل للتحريم.

و قد تبدو العباره و كأنّها جمله اعتراضيه بين قوسين داخل الآيه القرآنيه.

اشاره

۱-کیف یتکوّن اللبن؟

یقول القرآن الکریم فی ذلک کما فی الآیات أعلاه:إنّه یخرج من بین «فرث»-الأغذیه المهضومه داخل المعده-و«دم».

و قد أثبت ذلک فیزیولوجیا:حیث أنّه عند ما یتمّ هضم الغذاء داخل المعده و یکون جاهزا للامتصاص ینتشر داخل المعده و الأمعاء بشکل واسع و أمام الملایین من العروق الشعیریه،فتمتص منه العناصر المفیده المطلوبه لتوصلها إلی تلک الشجره ذات الجذور التی تنتهی عروقها عند عروق الثدی.

عند ما تتناول المرأه الحامل الغذاء تنتقل عصارته إلی الدم الذی یجری فی عروقها حتی یصل نهایه العروق المجاوره لعروق الجنین لیتغذی الجنین بهذه الطریقه ما دام فی بطن أمه،و عند ما ینفصل عن أمّه یتحول طریق تغذیته إلی الثدی..و هنا لا تستطیع الأم أن تصل دمها إلی دم ولدها،و لذلک ینبغی تصفیه الغذاء و تغییر حالته بما ینسجم و الوضع الجدید للطفل،و هنا...یتکون اللبن من بین فرث و دم،أی:من بین ما تتناوله الأم الذی یتحول إلی فرث و ما ینتقل من مواده إلی الدم لیتکون منه اللبن.

فاللبن فی حقیقه..شیء وسط بین الفرث و الدم،فلا هو دم مصفی و لا هو غذاء مهضوم،و هو أعلی من الثّانی و دون الأوّل!علما بأنّ الثدی یستفید من الحوامض الأمینیه المخزونه فی البدن فقط فی صناعه المواد البروتینیه للبن.

و ثمّه مکونات أخری للبن لا توجد فی الدم و إنّما تنتجها غدد خاصّه فی الثدی(کالکازوئین).

و البعض الآخر من المکونات یأتی من ترشح بلازما الدم مباشره:و یدخل فی تکوین اللبن من دون أی تغییر(کالفیتامینات و ملح الطعام و الفوسفات).

ص:۲۳۳

أمّا سكر اللاكتوز الموجود فى اللبن فيؤخذ من السكر الموجود فى الدم بعد أن تجرى عليه الغدد الخاصّه فى الثدى التغييرات اللازمه لتحويله إلى نوع جديد من السكر.

و مع أنّ إنتاج اللبن يكون عن طريق جذب المواد الغذائيه بواسطه الدم،و من خلال الارتباط المباشر بين الدم و غدد الثدى،إلاّ أنّنا لا نلاحظ أىّ أثر لرائحه الفرث أو لون الدم فيه،بل يبدأ اللبن بالترشح من ثدى الأم بلون جديد و رائحه خاصّه به.

و من لطيف ما ينقل عن العلماء المتخصصين أنّ إنتاج لتر واحد من اللبن فى الثدى يحتاج بما لا يقل عن عبور(۵۰۰)لتر من الدم خلال الثدى ليستطيع من امتصاص المواد اللازمه لإنتاج اللبن،كما يلزم لإنتاج لتر واحد من الدم عبور مواد غذائيه كثيره من الأمعاء...و بهذا يتّضح لنا معنى مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ كاملا (۱) .

۲-أهم ما فى اللبن من مواد غذائيه

اللبن ملىء بالمواد الغذائيه المختلفه التى تشكل مع بعضها مجموعه عذائيه كامله.

فالمواد المعدنيه فى اللبن،عباره عن:الصوديوم،البوتاسيوم،الكالسيوم، المغنيسيوم،النحاس،قليل من الحديد بالإضافه إلى الفسفور و الكلور و غيرها.

و يوجد فى اللبن كذلك غاز الأوكسجين و حامض الكاربونيک.

أمّا المواد السكريه فموجوده بكميه كافيه على شكل(لاكتوز).

و الفيتامينات المحلوله فى اللبن عباره عن:فيتامين ب،پ،آ،د.

ص :۲۳۴

۱- ۱) -مقتبس من كتابى:الكيمياء الحياتيه و الطبيه،و أوّل جامعه و آخر نبى،الجزء السادس.

و قد أثبت العلم الحديث أنّ الحيوان الذى يتغذى بشكل جيد يكون لبنه حاويا لكافه أنواع الفيتامينات،و أصبح بديهيا أنّ اللبن الطازج يعتبر غذاء كاملا.

و لا يمكن لنا تفصيل ذلك فى هذا البحث المختصر.

و لعل ما

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قوله: «ليس يجزى مكان الطعام و الشراب إلاّ اللبن» إشاره لهذا السبب.

و نقرأ فى روايات أخرى عن اللبن أنّه يزيد فى عقل الإنسان،و يحد النظر، و يرفع النسيان،و يقوى القلب و الظهر(كما أصبح معلوما أن هذه الآثار لها ارتباط وثيق بما فى اللبن من مواد حياتيه) (۱) .

۳-اللبن..غذاء خالص و سهل الهضم

لقد أكّدت الآيات أعلاه على ميزتين مهمتين للبن-كونه«خالصا»،و«سائغا» أى لذيذا و سريع الهضم-و كما هو المعروف عن اللبن من كونه غذاء كثير الفائده على الرغم من قلّه حجمه.و«خالص»أى خال من المواد الزائده و بذات الوقت فهو سهل الهضم بالشكل الذى جعل ملائما لأى إنسان و على مختلف الأعمار- منذ الطفوله حتى الشيخوخه- و لهذا يعتمده المرضى كغذاء ملائم و مفيد و مقبول، و بالخصوص ما له من أثر فعال بالنسبه لنمو العظام،و لهذا يوصى بالإكثار من تناوله فى حالات كسور العظام و ما شابهها.

و من جمله معانى الخلوص هو(الربط)،و لعل البعض اعتمد على هذا المعنى فيما جاء فى التعبير القرآنى«خالصا»،و اعتبارهم من كون«خالصا»إشاره إلى تأثير اللبن الخالص فى بناء و ربط العظام.

و كذا نجد فى الإحكام الإسلاميه الوارده حول الرضاعه ما يشير إلى هذا

۱- ۱) -لزياده التفصيل،يراجع كتاب أول جامعه و آخر نبى-الجزء السادس.

المعنی بوضوح.

و یقول الفقهاء:إنّ الطفل لو رضع من غیر أمّه حتی اشتدت عظامه و زاد لحمه فإنّ مرضعته ستحرم علیه(و ما یتبع ذلک فی من یعود إلیه النسب).

و یقولون أیضا:إن(۱۵)رضاعه متوالیه،أو رضاعه یوم و لیله متصله،یؤدی إلی هذه الحرمه أیضا.

و لو جمعنا القولین،ألا ینتج أن التغذیه باللبن یوم و لیله لها أثر فی تقویه العظام و زیاده اللحم!؟ و ینبغی الالتفات إلی أن التوجیهات الإسلامیه أکّدت کثیرا علی لبن«اللباء» هو أو ما ینزل من اللبن بعد الولاده،حتی لتقول بعض کتب الفقه إنّ حیاه الطفل مرهونه به،و لهذا اعتبر إعطاء الطفل من حلیب اللباء واجبا (۱) .

و لعل ما فی الآیه(۷)من سوره القصص حول موسی علیه السّلام یتعلق بهذا الموضوع أیضا وَ أَوْحَیْنا إِلی أُمِّ مُوسی أَنْ أَرْضِعِیهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَیْهِ فَأَلْقِیهِ فِی الْیَمِّ .

۱- ۱) -شرح اللمعه،کتاب النکاح،أحکام الأولاد و منها الرضاع.

الآیتان [سوره النحل (۱۶): الآیات ۶۸ الی ۶۹]

اشاره

وَ أَوْحیٰ رَبُّکَ إِلَی اَلنَّحْلِ أَنِ اِتَّخِذِی مِنَ اَلْجِبٰالِ بُیُوتاً وَ مِنَ اَلشَّجَرِ وَ مِمّٰا یَعْرِشُونَ (۶۸) ثُمَّ کُلِی مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ فَاسْلُکِی سُبُلَ رَبِّکِ ذُلُلاً یَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهٰا شَرٰابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ فِیهِ شِفٰاءٌ لِلنّٰاسِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۶۹)

التّفسیر

اشاره

وَ أَوْحیٰ رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ

!

انتقل الأسلوب القرآنی بهاتین الآیتین من عرض النعم الإلهیه المختلفه و بیان أسرار الخلیقه إلی الحدیث عن«النحل»و ما یدره من منتوج(العسل)و رمز إلی ذلک الإلهام الخفی بالوحی الإلهی إلی النحل: أَنِ اتَّخِذِی مِنَ الْجِبٰالِ بُیُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمّٰا یَعْرِشُونَ .

و فی الآیه المبارکه جمله تعبیرات تستدعی التوقف و الدقّه:

۱-ما هو«الوحی»

«الوحی»فی الأصل(کما یقول الراغب فی مفرداته)بمعنی الإشاره السریعه،

ثمّ بمعنى الإلقاء الخفى.

و قد جاءت كلمه«الوحى»فى القرآن الكريم لترمز إلى عدّه أشياء،و لكنّها بالنتيجه تعود لذلك المعنى،منها:

وحى النّبوه:حيث نلاحظ وروده فى القرآن بهذا المعنى كثيرا.كما فى الآيه (۵۱)من سوره الشورى: وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً... .

و منها:الوحى بمعنى«الإلهام»سواء كان الملهم منتبها لـذلك(كما فى الإنسان وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذٰا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (۱) ،أو مع عدم انتباه الملهم كالإلهام الغريزى(كما فى النحل)و هو ما ورد فى الآيه مورد البحث.

و من المعروف أنّ الوحى فى هذا المورد يعنى الأمر الغريزى و الباعث الباطنى الذى أودعه اللّه فى الكائنات الحيّه.

و منها:أنّ الوحى بمعنى الإشاره،كما ورد فى قصّه زكريا فى الآيه(۱۱)من سوره مريم فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا .

و منها أيضا:إيصال الرساله بشكل خفى،كما فى الآيه(۱۱۲)من سوره الأنعام يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً .

۲-هل يختص الإلهام الغريزى بالنحل؟

و إذا كان وجود الغرائز(الإلهام الغريزى)غير منحصر بالنحل دون جميع الحيوانات،فلما ذا ورد ذكره فى الآيه فى النحل خاصّه؟ و الإجابه على السؤال تتّضح من خلال المقـدمه التاليه:إنّ الـدراسه الـدقيقه التى قام بها العلماء بخصوص حياه النحل،قد أثبتت أنّ هذه الحشره العجيبه لها من التمدن و الحياه الاجتماعيه المدهشه ما يشبه لحد كبير الجانب التمدنى عند

۱- ۱) -القصص،۷.

الإنسان و حياته الاجتماعيه،من عدّه جهات.

و قد توصل العلماء اليوم لاكتشاف الكثير من أسـرار حياه هذه الحشـره و التى أوصـلتهم بقناعه تامه إلى توحيد الخالق و الإذعان لربوبيته سبحانه و تعالى.

و أشـار القرآن الكريم إلى ذلـك الإعجـاز بكلمه«الوحى»ليبيّن أنّ حيـاه النحـل لاـ تقاس بحياه الأنعام،و ليـدفعنا للتعمق فى عالم أسـرار هـذه الحشـره العجيبه، و لنتعرف من خلالها على عظمه و قـدره خالقها،و لعل«الوحى»هو التعبير الرمزى الـذى اختصت به هذه الآيه نسبه إلى الآيات السابقه.

۳-المهمّه الأولى فى حياه النحل:

و أوّل مهمّه أمر بهـا النحل فى هـذه الآيه هى:بناء البيت،و لعل ذلـك إشاره إلى أن اتّخاذ المسـكن المناسب بمثابه الشـرط الأوّل للحيـاه،و من ثمّ القيـام ببقيه الفعاليـات،أو لعله إشـاره إلى مـا فى بيـوت النحـل من دقه و متـانه،حيث أن بنـاء الـبيوت الشـمعيه و السداسـيه الأضـلاع،و التى كانت منذ ملايين السـنين و فى أماكن متعدده و مختلفه،قد يكون أعجب حتى من عمليه صنع العسل (۱) .

فكيف تضع هذه الماده الشـمعيه الخاصه؟و كيف تبنى الخلايا السداسـيه بتلك الهندسه الدقيقه؟و بيوت النحل ذات هيئه و أبعاد محسوبه بدقه فائقه و ذات زوايا متساويه تماما،و مواصفاتها تخلو من أيه زياده أو نقصان..

فقد اقتضت الحكمه الربانيه من جعل بيوت النحل فى أفضل صوره و أحسن اختيار و أحكم طبيعه،و سبحان اللّه خالق كل شىء.

---

۱ – ۱) -عرف لحـد الآن(۴۵۰۰)نوعـا من النحـل الوحشـى،و العجيب أنّها فى حال واحـده من حيث:الهجره،بناء الخلايا،المكان، تناول رحيق الأزهار،أوّل جامعه،الجزء الخامس.

۴-این مکان النحل:

و قد عیّنت الآیه المبارکه مکان بناء الخلایا فی الجبال،و بین الصخور و انعطافاتها المناسبه،و بین أغصان الأشجار،و أحیانا فی البیوت التی یصنعها لها الإنسان.

و یستفاد من تعبیر الآیه أن خلایا النحل یجب أن تکون فی نقطه مرتفعه من الجبل أو الشجره أو البیوت الصناعیه لیستفاد منها بشکل أحسن.

و یذکر القرآن الکریم فی الآیه التالیه المهمّه الثّانیه للنحل: ثُمَّ کُلِی مِنْ کُلِّ الثَّمَرٰاتِ فَاسْلُکِی سُبُلَ رَبِّکِ ذُلُلًا .

«الذلل»:(جمع ذلول)بمعنی التسلیم و الانقیاد.

و وصف الطرق بالذلل لأنّها قد عینت بدقّه لتکون مسلمه و منقاده للنحل فی تنقله،و سنشیر إلی کیفیه ذلک قریبا.

و أخیرا یعرض القرآن المهمّه الأخیره للنحل(کنتیجه لما قامت به من مهام سابقه): یَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهٰا شَرٰابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ فِیهِ شِفٰاءٌ لِلنّٰاسِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ فی طبیعه حیاتها و ما تعطیه من غذاء للإنسان(فیه شفاء)،و هو دلیل علی عظمه و قدره الباری عزّ و جلّ.

بحوث

اشاره

و فی الآیه جمله بحوث قیمه أخری:

۱-مم یتکون العسل؟

یمتص النحل بعض المواد السکریه الخاصّه الموجوده فی میاسم الأوراد، و یقول خبراء النحل:إنّ عمل النحل فی واقعه لا ینحصر بأخذ الماده السکریه فقط،بل یتعدی ذلک فی بعض الأحیان للاستفاده من بعض أجزاء الورود

الأخرى،و كذا الحال مع الأثمار،و هو ما يشير إليه القرآن بقوله: مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ .

و قد نقل قول عالم البيئه(مترلينك)بما يوضح التعبير القرآنی بشكل أوضح:

(لو قدّر أن تفنی أنواع النحل-الوحشی و الأهلی-فإنّ مائه ألف نوع من النباتات و الثمار و الأوراد ستفنی،أی أنّ تمدننا سيفنی أيضا) (1) .ذلك لأنّ دور النحل فی نقل حبوب اللقاح من ذكر الأشجار إلی مياسم إناثها من الأهميه بحيث يجعل بعض العلماء يعتقدون أن ذلك أهم من إنتاج العسل نفسه.

و الحقيقه أنّ ما يتناوله النحل من أنواع الثمار إنّما هو بالقوّه لا بالفعل،و لهذا فهو يساهم فی عمليه تكوينها،فما أشمل و أدق التعبير القرآنی مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ !

٢-السّبل المذلله!

لقد توصل العلماء المتخصصون بدراسه حياه النحل إلی ما يلی:تخرج فی كل صباح مجموعه من النحل لمعرفه أماكن وجود الأوراد و تعيينها،ثمّ تعود إلی الخليه لتخبر بقيه النحل عن أماكن الورود و الجهات التی ينبغی التوجه إليها، و مقدار الفاصله بين الورود و الخليه.

و يستعمل النحل أحيانا لأجل تعيين طرق وصوله إلی الأوراد علامات خاصّه كأن يشخص طبيعه الروائح المنتشره علی طول الطريق أو ما شابه ذلك، و ذلك لضمان عدم إضاعه الطريق ذهابا و إيابا.

و لعل عباره فَاسْلُكِی سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً إشاره لهذه الحركه.

١- ١) -أول جامعه،الجز الخامس،ص ۵۵.

۳-أین یصنع العسل؟

ربّما،إلی الآن یوجد من یتصور بأنّ النحل یمتص رحیق الأوراد و یجمعه فی فمه ثمّ یخزنه فی الخلیه،و هذا خلاف الواقع،فالنحله تجمع الرحیق فی حفر خاصّه داخل بدنها یطلق علیها علمیا اسم(الحوصله)و هی بمثابه معامل مختبرات کیمیاویه خاصّه تقوم بعملیات تحویل و تغییر مختلفه لرحیق الأزهار، حتی یصل إلی إنتاج العسل،الذی تقوم النحله بإخراجه و جمعه فی الخلیه.

و المدهش أن سوره النحل مکیه،و کما هو معلوم بأنّ مکّه منطقه جافه لیس فیها نحل لعدم توفر النباتات و الأوراد التی یحتاجها و مع ذلک فالقرآن الکریم یتحدث بکل دقه عن النحل و یشیر إلی أدق أعماله(إنتاج العسل): یَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهٰا شَرٰابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ .

۴-ألوان العسل المختلفه

تتفاوت ألوان العسل وفقا لتنوع الأوراد التی یؤخذ رحیقها منها..فیبدو أحیانا بلون اللبن القاتم،و أحیانا أخری یکون أصفر اللون،أو أبیض فضی،أو لیس له لون،و تاره تراه شفافا، و تاره أخری ذهبی أو تمری و قد تراه مائلا إلی السواد! و لهذا التفاوت فی اللون حکمه بالغه قد تبیّنت أخیرا مفادها:إنّ للون الغذاء أثّر بالغ فی تحریک رغبه الإنسان إلیه.

و هذه الحقیقه ما کانت خافیه علی القدماء أیضا،فکانوا یعتنون بإظهار لون الغذاء المشهی لدرجه کانوا یضیفون إلیه بعض المواد تحصیلا لما یریدون کإضافه الزعفران و ما شابهه.

و لهذا الموضوع بحوث مفصله فی کتب التغذیه لا یسمح لنا المجال بعرضها کامله خوفا من الابتعاد عن مجال التّفسیر.

۵-العسل..و الشفاء من الأمراض:

كمـا نعلم بـأنّ للنباتـات و الأوراد اسـتعمالات علاجيه فعاله لكثير من الأمراض،و لا زلنا نجهل الكثير من فوائـدها على الرغم من كثره مـا عرفنـاه، و الشـیء المهم فی موضوعنـا مـا توصل إليه العلماء من خلال تجاربهم التی أكّـدت على أنّ للنحل من المهاره بحيث أنّه فی علميه صـنعه للعسل لم يبذر فيما تحويه النباتات و الأوراد من خواص علاجيه،فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل و يجعلها فی العسل! و قد صرّح العلماء بكثير من تلك الخواص الوقائيه و العلاجيه و المقويه.

فالعسل:سريع الامتصاص من قبل الدم،و لهذا فهو غذاء مقوّ و مؤثر جدّا فی تكوين الدم.

و العسل:ينقی المعده و الأمعاء من العفونه.

و العسل:رافع لليبوسه.

و هو علاج ضد الأرق(على أن لا يتناول الكثير منه،لأن الإكثار منه يقلل النوم).

و للعسل:رافع لليبوسه.

و هو علاج ضد الأرق(على أن لا يتناول الكثير منه،لأن الإكثار منه يقلل النوم).

و للعسل:أثر مهم فی رفع التعب و تشنج العضلات.

و العسل:يقوی الشبكيه العصبيه للأطفال(إذا ما أطعمت الأم أثناء الحمل).

و يرفع نسبه الكالسيوم فی الدم.

و نافع لتقويه الجهاز الهضمی(و بالخصوص لمن أبتلی بنفخ البطن).

و بما أنّه سريع الاحتراق فهو يعمل على توليد الطاقه بسرعه فائقه بالإضافه لترميمه للقوی.

و العسل أيضا:مقوّ للقلب،مساعد فی علاج أمراض الرئه،نافع للإسهال لخاصيته فی قتل المكروبات.

و يعتبر العسل عاملا مهما من عوامل معالجه قرحه المعده و الاثنی عشری.

ص :۲۴۳

و هو دواء نافع لعلاج الروماتيزم،و نقصان قوّه نمو العضلات،و رفع الآلام العصبيه.

و بالإضافه إلى ذلک فهو نافع فی رفع السعال و عامل مهم لتصفیه الصوت.

و الخلاصه:إنّ خواص العسل العلاجیه أکثر من أن یحیط بها هذا المختصر.

و مع ذلک کله فإنّه یدخل فی صناعه الأدویه لتلطیف الجلد و للتجمیل، و یستعمل لطول العمر،و لعلاج و رم الفم و اللسان و العین،و یستعمل أیضا لمعالجه الإرهاق،و تشقق الجلد،و ما شابه ذلک.

أمّا المواد و الفیتامینات الموجوده فی العسل فکثیره جدّا.و فیه من المواد المعدنیه:الحدید،الفسفور،البوتاسیوم،الیود،المغنیسیوم،الرصاص،النحاس، السلفور،النیکل،الصودیوم و غیرها.

و من المواد الآلیه فیه:الصمغ،حامض اللاکتیک،حامض الفورمیک،حامض السیتریک و التاتاریک و الدهون العطریه.

أمّا ما یحویه من الفیتامینات،ففیه،فیتامینات(أ،ب،ث،د،ک) (K,D,C,B,A).

و یعتقد البعض باحتوائه على فیتامین(پ ب)(P B)أیضا.

و أخیرا:فالعسل علاج لصحه و جمال الإنسان.

و صرحت الرّوایات کذلک بخواص العسل العلاجیه،و

ورد الکثیر عن أمیر المؤمنین علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام و بعض الأئمّه المعصومین علیهم السّلام من أنّهم قالوا: «ما استشفى الناس بمثل العسل» (۱) .

و

بروایه أخرى: «لم یستشف مریض بمثل شربه عسل» (۲) .

و

روی عن النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من شرب العسل فی کل شهر مرّه یرید ما

۱- ۱) -وسائل الشیعه،ج ۱۷،ص ۷۳،إلى ۷۵.

۲- ۲) -المصدر السابق.

جاء به القرآن،عوفی من سبعه و سبعین داء» [(۱)] .

و ثمّه أحادیث أخری حول أهمیه العسل فی علاج آلام البطن.

و نذکر أنّ لکل حکم عام أو قاعده کلیه استثناء،و لهذا فقد ورد النهی عن تناول العسل فی بعض الحالات النادره.

۶- لِلنّاسِ :

و ممّا یجذب النظر أن خبراء النحل یرون کفایه امتصاص وردتین أو ثلاث لسد جوع النحله،إلّا أنّها تحط علی(۲۵۰)ورده فی کل ساعه(کمعدل)و لأجل ذلک تقطع مسافه کیلومترات،و علی الرغم من قصر عمر النحله،إلّا أنّها تنتج کمیه لا بأس بها من العسل،و قد لا یصدق کثره ما تنتجه قیاسا لما تعیشه من عمر، و لکنّ ما تقوم به من مثابره و عمل دؤوب لا یعرف الکلل و الملل قد هیأها لأن تقوم بهذا العمل الکبیر العجیب.

و کل ذلک السعی و تلک المثابره لیس فی واقعه لملء بطنها بقدر ما عبّر عنه القرآن الکریم ب لِلنّاسِ .

۷-ملاحظات مهمّه بخصوص العسل:

أثبت العلم الحدیث أنّ العسل من المواد الغذائیه التی تبقی علی الدوام طازجه و سالمه و محافظه علی کل ما تحویه فی فیتامینات مهما طالت المدّه لأنّه من المواد غیر القابله للفساد.

و یعزو العلماء سبب ذلک لوجود نسبه البوتاسیوم الوافیه فیه المانع من نمو الجراثیم،بالإضافه لاحتوائه علی بعض المواد المقاومه للعفونه کحامض الفورمیک فمضافا لکون العسل مانع من نمو الجراثیم،فهو قاتل لها أیضا و لهذا السبب فقد استعمله المصریون القدماء فی عملیه التحنیط.

۱- ۱) -سفینه البحار،ج ۲،ص ۱۹۰.

و يقول العلماء:لا ينبغى حفظ العسل فى أوانى فلزيه.

و يقول القرآن فى هذا الجانب: ...مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمّٰا يَعْرِشُونَ ،أى:إنّ بيوت النحل لا ينبغى أن تكون إلّا بين الأحجار و الأخشاب.

و ملاحظه مهمّه أخرى:للاستفاده من خواصه الصّحيحه و العلاجيه ينبغى عدم تعريضه لحراره الطبخ.يعتقد البعض أنّ تعبير القرآن بكلمه«شراب»إشاره لهذه المسأله،فهو من المشروبات و ليس من المأكولات كى يعرض لحراره الطبخ.

و ثمه ملاحظه أخرى:على الرغم ممّا تسببه لسعه النحل من الألم،إلّا أن لهذا أثر علاجى أيضا،و مع ذلك و نتيجه لطبع النحل اللطيف فإنّه لا يلسع أحدا بلا سبب، بل نحن ندفعه إلى ذلك و نضطره ليلسعنا عن علم أو جهل.

و من الأسباب التى تدفع النحل للسع الإنسان:عدم ارتياحه للروائح الكريهه،و عند ما يقترب الإنسان من الخليه لجنى نتاج النحل فهى لا تلسعه إلّا إذا كانت يده ملوّثه أو أن فى لباسه رائحه كريهه،أو عند ما يمدّ الإنسان يده إلى خليه ما و بدون أن يغسل يده يمدّها إلى خليه أخرى،فإن نحل الثّانيه ستسرع فى لسعه لأنه قد نقل إليها رائحه خليه أجنبيه! و على الرغم من أنّ اللسع يحمل أهدافا دفاعيه،إلّا أنّه بالنسبه للنحل يعنى الانتحار لأنّه بمجرّد أن تقوم النحله باللسع فإنّها قد كتبت على نفسها مصير الموت! و قد وضع العلماء المتخصصون برنامجا معينا لمعالجه الأمراض كالروماتيزم و المالاريا و الآلام العصبيه و غيرها عن طريق لسعات النحل،و إلّا فإنّ لسع النحل قد يؤدى إلى آلام مؤذيه تصل فى بعض حالاتها إلى مخاطر كبيره.

و قد يتحمل الإنسان لسعه أو عدّه لسعات،و لكنّ الأمر حينما يصل إلى(۲۰۰ -۳۰۰)لسعه فإنّ ذلك سيؤدى إلى التسمم و اضطرابات فى القلب،و إذا ما وصل العدد إلى(۵۰۰)لسعه فسوف يؤدى إلى شلل الجهاز التنفسى،و ربّما يؤدى إلى الموت.

ص :۲۴۶

۸-عجائب حیاه النحل

کان القدماء یعرفون القدر الیسیر عن حیاه النحل،أمّا الیوم و نتیجه لدراسات العلماء الواسعه فقد تبیّن أن للنحل حیاه منظمه جدّا و یتخللها:تقسیم أعمال، توزیع مسئولیات و برنامج عمل دقیق جدّا.

و مدینه النحل:أکثر المدن نظافه،و أکثرها نظاما،کلّها عمل..إنّها مدینه علی خلاف کل مدن البشر،فلیس فیها بطاله و لا فقر،و الکل یعیش حیاه تمدن جمیل...

و کل أفراد المدینه یخضعون لقوانینها و لا تری مخالفا للضوابط القانونیه و لا مقصرا فی عمله إلاّ ما ندر، و إذا ما حدث ذلک کأن تذهب إحدی النحلات إلی ورده کریهه الرائحه و تمتص رحیقها،فإنّها ستخضع للتفتیش عند أعتاب المدینه ثمّ تحاکم فی محکمه صحراویه،و الإعدام بالموت هو المعروف عن ارتکاب مثل هذه الأخطاء! یقول(مترلینک)عالم البیئه البلجیکی الذی أجری العدید من الدراسات حول حیاه النحل و النظام العجیب الذی یحکم مدنها:إنّ ملکه النحل(أو علی الأصح أمّ الخلیه)لا تعیش فی مدینتها،کما نتصور من سلطتها و إصدارها الأوامر،بل هی کسائر أفراد هذه المدینه فی إطاعتها للقواعد و الأنظمه الکلیه السائده إنّنا لا نعلم کیف وضعت هذه القوانین و الأنظمه،و ننتظر أن نفهم هذا الأمر یوما ما،و نعرف واضع هذه المقررات،إلاّ أنّنا نسمیه مؤقتا(روح الخلیه)!! إنّ الملکه تطیع روح الخلیه شأنها شأن بقیه الأفراد.

إنّنا لا نعلم أین توجد روح هذه الخلیه؟و فی أی فرد من سکنه مدینه النحل قد حلّت؟ إلاّ أنّنا نعلم أن روح الخلیه لیست شبیهه بغریزه الطیور،و نعلم أیضا أنّ روح الخلیه لیست عاده و إراده عمیاء تحکم عنصر و نوع النحل،إنّ روح الخلیه تقوم بتحدید وظیفه کل فرد من أفراد الخلیه وفق استعداده،و توجه کل واحد منها نحو عمل معین.

ص: ۲۴۷

إنّ روح الخليه تأمر النحل المهندس و البناء و العامل ببناء البيوت،و هی التی تأمر سکنه المدینه جمیعا بالهجره منها فی یوم معین و ساعه معینه،و تتجه نحو حوادث و مشاق غیر معلومه من أجل تحصیل مسکن و مأوی جدید! إنّنا لا نستطیع أن نفهم فی أی مجمع شوری قد طرحت قوانین مدینه النحل التی وضعتها روح الخلیه و اتخذ قرارها بتنفیذها،من یصدر الأمر بالحرکه فی الیوم المعین؟ نعم،إنّ فی الخلیه مقدمات هجره من أجل إطاعه الإله الذی بیده مصیر النحل (۱) .

إنّ العالم المذکور قد واجه الإبهام فی فهم هذه المسأله،لما علقت فی ذهنه من ترسبات الفکر المادی! و لکننا نفهم بیسر من أین جاءت تلک القوانین و البرامج؟و من الآمر بها؟ و ذلک من خلال الاستهداء بنور القرآن.

ما أجمل ما عبّر عنه القرآن حین قوله: وَ أَوْحیٰ رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ ! أو هل ثمه تعبیر أوسع و أشمل و أنطق من هذا؟! لم نذکر فیما قلناه عن النحل إلّا النزر الیسیر لأنّ منهج التّفسیر لا یسمع لذا بمواصله هذا الموضوع (۲) .

و نظن کفایه هذا القدر للمتفکر السائر نحو معرفه عظمه اللّه: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ .

۱- ۱) -تلخیص من کتاب(النحل)،تألیف مترلینک.

۲- ۲) -اعتمدنا فی بحثنا عن النحل و خواص العسل علی جمله کتب منها:أوّل جامعه و آخر نبی،و النحل،تألیف مترلینک، و عجائب عالم الحیوانات.

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٠ الى ٧٢]

اشاره

وَ اَللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّٰاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ اَلْعُمُرِ لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَ اَللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ فِي اَلرِّزْقِ فَمَا اَلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلىٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اَللّٰهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ اَلطَّيِّبٰاتِ أَ فَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اَللّٰهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

التّفسير

اشاره

سبب اختلاف الأرزاق:

بيّنت الآيات السابقه قسما من النعم الإلهيه المجعوله فى عالمى النبات و الحيوان،لتكون دليلا حسيا لمعرفته جل شأنه،و تواصل هذه الآيات مسأله إثبات الخالق جل و علا بأسلوب آخر،و ذلك بأن تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان،و ذلك كاشف بقليل من الدقه و التأمل على وجود المقدّر لذلك.

فیبتدأ القول ب وَ اللّٰهُ خَلَقَکُمْ ثُمَّ یَتَوَفّٰاکُمْ .

فمنه الممات کما کانت الحیاه منه،و لتعلموا بأنّکم لستم خالقین لأی من الطرفین(الحیاه و الموت).

و مقدار عمرکم لیس باختیارکم أیضا،فمنکم من یموت فی شبابه أو فی کهولته وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلیٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ (۱) .

و نتیجه هذا العمر الموغل فی سنی الحیاه لِکَیْ لاٰ یَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَیْئاً (۲) .

فیکون کما کان فی مرحله الطفوله من الغفله و النسیان و عدم الفهم..نعم ف إِنَّ اللّٰهَ عَلِیمٌ قَدِیرٌ فکل القدرات بیده جل و علا،و عطاؤه بما یوافق الحکمه و المصلحه،و کذا أخذه لا یکون إلّا عند ما یلزم ذلک.

و یواصل القرآن الکریم استدلاله فی الآیه التالیه من خلال بیان أنّ مسأله الرزق لیست بید الإنسان و إنّما.. وَ اللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَکُمْ عَلیٰ بَعْضٍ فِی الرِّزْقِ فأصحاب الثروه و الطول غیر مستعدین لإعطاء عبیدهم منها و مشارکتهم فیها خوفا أن یکونوا معهم علی قدم المساواه: فَمَا الَّذِینَ فُضِّلُوا بِرَادِّی رِزْقِهِمْ عَلیٰ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُهُمْ فَهُمْ فِیهِ سَوٰاءٌ .

و احتمل بعض المفسّرین أنّ الآیه تشیر إلی بعض أعمال المشرکین الناتجه عن حماقتهم،حینما کانوا یجعلون لآلهتهم من الأصنام سهما من مواشیهم و محاصیلهم الزراعیه،بالرغم من عدم وجود أیّ أثر لتلک الأحجار و الأخشاب

---

۱ – ۱) -«أرذل»:من(رذل)بمعنی الحقاره و عدم المرغوبیه،و المقصود من«أرذل العمر»:السنین المتقدمه جدّا من عمر الإنسان حیث الضعف و النسیان،و لا یستطیع تأمین احتیاجاته الأولیه،و لهذا سماها القرآن بأرذل العمر،و قد اعتبر بعض المفسّرین أنّها تبدأ من عمر(۷۵)عامّا،و بعض آخر من(۹۰)و آخرون اعتبروها من(۹۵)..و الحق أنّها لا تحدد بعمر،و إنّما تختلف من شخص لآخر.

۲ – ۲) -عباره لِکَیْ لاٰ یَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَیْئاً یمکن أن تکون غایه و نتیجه للسنین المتقدمه من حیاه الإنسان،فیکون مفهومها أنّ دماغ الإنسان و أعصابه فی هذه السنین تفقد القدره علی الترکیز و الحفظ فیسیطر علی الإنسان النسیان و الغفله.و یمکن أن یکون معناها العلّه،أی أنّ اللّه تعالی یوصل الإنسان إلی هذا العمر لکی یصاب بالنسیان،فیفهم الناس بأنّهم لا یملکون شیئا من أنفسهم.

على حياتهم!بل كان الأولى بهم لو التفتوا إلى خدمهم و عبيدهم ليعطوهم شيئا جزاء ما يقدمونه لهم من خدمات ليل نهار!...

هل التفاضل فى الرّزق من العداله؟!...

و هنـا يواجهنـا سؤال يطرح نفسه:هـل أنّ إيجـاد التفـاوت و الاختلاف فى الأرزاق بين الناس،ينسـجم مع عـداله اللّه عزّ و جلّ و مساواته بين خلقه،التى ينبغى أن تحكم نظام المجتمع البشرى؟ لأجل الإجابه،ينبغى الالتفات إلى الملاحظتين التاليتين:

١-إنّ الاختلاف الموجود بين البشـر فى جـانب الموارد المـاديه يرتبـط بالتباين الناشـئ بين الناس جزاء اختلاف اسـتعداداتهم و قابليتهم من واحد لآخر.

و التفـاوت فى الاسـتعدادين الجسـمى و الروحى يسـتلزم الاختلاف فى مقـدار و نوعيه الفعاليه الاقتصاديه للأفراد،ممّا يؤدى إلى زياده وارد بعض و قلّه وارد البعض الآخر.

و لا شك أنّ بعض الحوادث و الاتفاقات لها دخل فى اشـراء بعض الناس،الاّ أنّه لا يمكن أن نعوّل عليها عند البحث لأنّها ليست أكثر من اسـتثناء،أمّـا الضابـط فى أكثر الحالات فهو التفـاوت الموجود فى كميه و كيفيه السـعى(و من الطبيعى أن بحثنـا يتنـاول المجتمع السـليم و البعيـد عن الظلم و الاسـتغلال،و لا نقصـد به تلـك المجتمعـات المنحرفه التى تركت قوانين التكوين و النظام الإنسانى جانبا و انزلقت فى طرق الظلم و الاستغلال).

و قـد يساورنـا التعجب حينمـا نجـد بعض الفاقـدين لأى مؤهل أو اسـتعداد يتمتعون برزق وافر و جيـد،و لكننا عنـد ما نتجرّد عن الحكم من خلال الظواهر و نتوغـل فى أعمـاق مميزات ذلـك البعض جسـميا و نفسـيا و أخلاقيـا،نجـد أنّهم يتمتعون بنقـاط قوه أوصلتهم إلى ذلك(و نكرر القول بأنّ بحثنا ضمن إطار مجتمع

سليم خال من الاستغلال).

و على أيه حال..فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالاستعدادات،و هو من المواهب و النعم الإلهيه أيضا،و إن أمكن أن يكون بعض ذلك اكتسابيا،فالبعض الآخر غير اكتسابى قطعا.فإذن وجود التفاوت فى الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحيه الاقتصاديه،و يتمّ ذلك حتى داخل المجتمعات السليمه..إلاّ إذا افترضنا وجود مجموعه أفراد كلهم فى هيئه واحده من حيث:الشكل،اللون،الاستعداد و لا يعتريهم أىّ اختلاف!و إذا ما افترضنا حدوث ذلك فإنّه بدايه المشاكل و الويلات! ٢-لو نظرنا إلى بدن إنسان ما،أو إلى هيكل شجره أو باقه ورد،فهل سنجد التساوى بين أجزاء كل منها و من جميع الجهات؟ و هل أنّ قدره و مقاومه و استعداد جذور الشجره مساويه لقدره و مقاومه و استعداد أوراق الورده الظريفه؟و هل أن عظم قدم الإنسان لا يختلف عن شبكيه عينه؟ و هل من الصواب أن نعبر كل ذلك شيئا واحدا؟! و لو تركنا الشعارات الكاذبه و الفارغه من أىّ معنى،و افترضنا تساوى الناس من جميع النواحى،فنملأ الأرض بخمسه مليارات من الأفراد ذوى:الشكل الواحد،الذوق الواحد،الفكر الواحد،بل و المتحدين فى كل شىء كعلبه السجائر..

فهل نستطيع أن نضمن أنّ حياه هؤلاء ستكون جيده؟ستكون الإجابه بالنفى قطعا، و سيحرق الجميع بنار التشابه المفرط و الرتيب الكئيب،لأنّ الكل يتحرك فى جهه واحده،و الكل يريد شيئا واحدا،و يحبون غذاء واحدا،و لا يرغبون إلاّ بعمل واحد! و بديهيا ستكون حياه كهذه سريعه الانقراض،و لو افترض لها الدوام،فإنّها ستكون متعبه و رتيبه و فاقده لكل روح.و بعباره أشمل سوف لا يبعدها عن الموت

ص :٢٥٢

بون شاسع.

و علی هذا فحکمه وجود التفاوت فی الاستعدادات المستتبعه لهذا التفاوت قد ألزمتها ضروره حفظ النظام الاجتماعی،و لیکون التفاوت فی الاستعدادات دافعا لتربیه و إنماء الاستعدادات المختلفه للأفراد.و لا یمکن للشعارات الکاذبه أن تقف فی وجه هذه الحقیقه التی یفرضها الواقع الموضوعی أبدا.

و لا ینبغی أن نفهم من هذا الکلام أنّنا نرید منه إیجاد مجتمع طبقی أو نظام استغلالی و استعماری،لا.أبدا..و إنّما نقصد بالاختلافات التفاوت الطبیعی بین الأفراد(و لیس المصطنع)الذی یعاضد بعضه الآخر و یکمله(و لیس الذی یکون حجر عثره فی طریق تقدم الأفراد و یدعو إلی التجاوز و التعدی علی الحقوق).

إنّ الاختلاف الطبقی(و المقصود من الطبقات هنا:ذلک المفهوم الاصطلاحی الذی یعنی وجود طبقه مستغله و أخری مستغله)لا ینسجم مع نظام الخلیقه أبدا، و لکنّ الموافق لنظام الخلیقه هو ذلک التفاوت فی الاستعدادات و السعی و بذل الجهد،و الفرق بین الأمرین کالفرق بین السماء و الأرض-فتأمل.

و بعباره أخری،إن الاختلاف فی الاستعدادات ینبغی أن یوظف لخدمه مسیره البناء،کما فی اختلاف طبیعه أعضاء بدن الإنسان أو أجزاء الورده،فمع تفاوتها إلاّ أنّها لیست متزاحمه،بل إنّ البعض یعاضد البعض الآخر وصولا للعمل التام علی أکمل وجه.

و خلاصه القول:ینبغی أن لا یکون وجود التفاوت و الاختلاف فی الاستعدادات و فی الدخل الیومی للأفراد دافعا لسوء الاستفاده و ذلک بتشکیل مجتمع طبی (1) .

و لهذا یقول القرآن الکریم فی ذیل الآیه مورد البحث:

1- 1) -لقد بحثنا بشکل مفصل موضوع فلسفه الاختلاف فی الاستعدادات و الفوائد الناتجه عن ذلک فی ذیل الآیه(32)من سوره النساء-فیراجع.

أَ فَبِنِعْمَهِ اللّهِ يَجْحَدُونَ

.

و ذلك إشاره إلى أن هذه الاختلافات فى حالتها الطبيعيه(و ليس الظالمه المصطنعه) إنّما هى من النعم الإلهيه التى أوجدها لحفظ النظام الاجتماعى البشرى.

و تبدأ الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث بلفظ الجلاله«اللّه»كما كان فى الآيتين السابقتين،و لتتحدث عن النعم الإلهيه فى إيجاد القوى البشريه،و لتتحدث عن الأرزاق الطيبه أيضا تكميلا للحلقات الثلاثه من النعم المذكوره فى آخر ثلاث آيات،حيث استهلت البحث بنظام الحياه و الموت،ثمّ التفاوت فى الأرزاق و الاستعدادات الكاشف لنظام(تنوع الحياه)لتنتهى بالآيه مورد البحث،حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشرى و..الأرزاق الطيبه.

و تقول الآيه: وَ اللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً لتكون سكنا لأرواحكم و أجسادكم و سببا لبقاء النسل البشرى.

و لهذا تقول و بلا فاصله: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً .

«الحفده»بمعنى(حافد)و هى فى الأصل بمعنى الإنسان الذى يعمل بسرعه و نشاط دون انتظار أجر و جزاء،أمّا فى هذه الآيه-كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسّرين-فالمقصود منها أولاد الأولاد،و اعتبرها بعض المفسّرين بأنّها خاصّه بالإناث دون الذكور من الأولاد.

و يعتقد قسم آخر من المفسّرين:أن«بنون»تطلق على الأولاد الصغار، و«الحفده»تطلق على الأولاد الكبار الذين يستطيعون إعانه و مساعده آبائهم.

و اعتبر بعض المفسّرين أنّها شامله لكل معين و مساعد،من الأبناء كان أم من غيرهم (1) .

1- 1) -و فى هذه الحال يجب أن لا تكون«حفده»معطوفه على«بنين»بل على«أزواجا»،و لكنّ هذا العطف خلاف الظاهر الذى يشير إلى عطفها على«بنين»-فتأمل.

و یبدو أن المعنی الأوّل(أولاد الأولاد)أقرب من غیره،بالرغم ممّا تقدم من سعه مفهوم«حفده»فی الأصل.

و علی أیه حال فوجود القوی الإنسانیه من الأبناء و الأحفاد و الأزواج للإنسان من النعم الإلهیه الکبیره التی أنعمها جل اسمه علی الإنسان،لأنّهم یعینون مادیا و معنویا فی حیاته الدنیا.

ثمّ یقول القرآن الکریم: وَ رَزَقَکُمْ مِنَ الطَّیِّبٰاتِ .

«الطیبات»هنا لها من سعه المفهوم بحیث تشمل کل رزق طاهر نظیف،سواء کان مادیا أو معنویا،فردیا أو اجتماعیا.

و بعد کل العرض القرآنی لآثار و عظمه قدره اللّه،و مع کل ما أفاض علی البشریه من نعم،نری المشرکین بالرغم من مشاهدتهم لکل ما أعطاهم مولاهم الحق،یذهبون إلی الأصنام و یترکون السبیل التی توصلهم إلی جاده الحق أَ فَبِالْبٰاطِلِ یُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللّٰهِ هُمْ یَکْفُرُونَ .

فما أعجب هذا الزیغ!و أیه حال باتوا علیها!عجبا لهم و تعسا لنسیانهم مسبب الأسباب،و ذهابهم لما لا ینفع و لا یضر لیقدسوه معبودا!!!

بحثان

اشاره

١-أسباب الرزق:

اشاره

علی الرغم ممّا ذکر بخصوص التفاوت من حیث الاستعداد و المواهب عند الناس،إلاّ أنّ أساس النجاح یمکن فی السعی و المثابره و الجد،فالأکثر سعیا أکثر نجاحا فی الحیاه و العکس صحیح.

و لهذا جعل القرآن الکریم ارتباطا بین ما یحصل علیه الإنسان و بین سعیه،

فقال بوضوح: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعى (۱) .

و من الأمور المهمّه و المؤثره فی مسأله استحصال الرزق الالتزام بالمبادی من قبيل:التقوی،الأمانه،إطاعه القوانين الإلهيه و الالتزام بأصول العدل،كما أشارت إلی ذلك الآيه(۹۶)من سوره الأعراف: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ .

و كما فی الآيتين(۲ و ۳)من سوره الطلاق: وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .

و كما أشارت الآيه(۱۷)من سوره التغابن بخصوص أثر الإنفاق فی سعه الرزق-: إِنْ تُقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ .

و لعلنا لا حاجه لنا بالتذكير أن فقدان فرد أو جمع من الناس يضر بالمجتمع و لهذا فحفظ سلامه الأفراد و إعانتهم يعود بالنفع علی كل الناس(بغض النظر عن الجوانب الإنسانيه و الروحيه لذلك).

و خلاصه القول إنّ اقتصاد المجتمع إن بنی علی أسس التقوی و الصلاح و التعاون و الإنفاق فالنتيجه أن ذلك المجتمع سيكون قويا مرفوع الرأس،أمّا لو بنی علی الاستغلال و الظلم و الاعتداء و عدم الاهتمام بالآخرين،فسيكون المجتمع متخلفا اقتصاديا و تتلاش فيه أواصر الحياه و الاجتماعيه.

و لذلك فقد أعطت الأحاديث و الرّوايات أهميه استثنائيه للسعی فی طلب الرزق المصحوب بالتقوی،و حتی

روی عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «لا تكسلوا فی طلب معايشكم،فإن أباءنا كانوا يركضون فيها و يطلبونها» (۲) .

و

روی عنه أيضا: «الكاد علی عياله كالمجاهد فی سبيل اللّه» (۳) .

ص :۲۵۶

۱- ۱) -سوره النجم،۳۹.

۲- ۲) -الوسائل،ج ۱۲،ص ۴۸.

۳- ۳) -الوسائل ج ۱۲،ص ۴۳.

و حتی أنّ الأمر قد وجّه إلی المسلمین بالتبکیر فی الخروج لطلب الرزق (۱) و ذکر أنّ من جمله من لا یستجاب لهم الدعاء أولئک الذین ترکوا طلب الرزق علی ما لهم من استطاعه،انزووا فی زوایا بیوتهم یدعون اللّه أن یرزقهم! و هنا یتبادر الی الذهن تساؤل عن الآیات القرآنیه و الرّوایات التی تؤکد علی أنّ الرزق بید اللّه،و ذم السعی فیه،فکیف یتمّ تفسیر ذلک؟!

و للاجابه نذکر الملاحظتین التالیتین:

۱-دقه النظر و التحقق فی المصادر الإسلامیه یوضح أنّ الآیات أو الرّوایات التی یبدو التضاد فی ظاهر ألفاظها-سواء فی هذا الموضوع أو غیره- إنّما ینتج من النظره البسیطه السطحیه،لأنّ حقیقه تناولها لموضوع ما إنّما یشمل جوانب متعدده من الموضوع،فکل آیه أو روایه إنّما تنظر إلی بعد معین من أبعاد الموضوع،فتوهم غیر المتابع بوجود التضاد.

فحیث یسعی الناس بولع و حرص نحو الدنیا و زخرف الحیاه المادیه، و یقومون بارتکاب کل منکر للوصول إلی ما یریدونه،تأتی الآیات و الرّوایات لتوضح لهم تفاهه الدنیا و عدم أهمیه المال.

و إذا ما ترک الناس السعی فی طلب الرزق بحجه الزهد،تأتیهم الآیات و الرّوایات لتبیّن لهم أهمیه السعی و ضرورته.

فالقائد الناجح و المرشد الرشید هو الذی یتمکن من منع انتشار حالتی الإفراط و التفریط فی مجتمعه.

فغایه الآیات و الرّوایات التی تؤکّد علی أنّ الرزق بید اللّه هی غلق أبواب الحرص و الشر و حبّ الدنیا و السعی بلا ضوابط شرعیه،و لیس هدفها إطفاء شعله

۱- ۱) -الوسائل،ج ۱۲،ص ۵۰.

الحیویه و النشاط فی الإعمال و الاکتساب وصولا لحیاه کریمه و مستقله.

و بهذا یتّضح تفسیر الرّوایات التی تقول:إنّ کثیرا من الأرزاق إن لم تطلبوها تطلبکم.

٢-إنّ کلّ شیء من الناحیه العقائدیه تنتهی نسبته إلی اللّه عزّ و جلّ،و کل موحد یعتقد أن منبع و أصل کل شیء منه سبحانه و تعالی،و یردد ما تقوله الآیه (٢۶)من سوره آل عمران: بِیَدِکَ الْخَیْرُ إِنَّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ .

و ینبغی عدم الغفله عن هذه الحقیقه و هی أنّ کل شیء من سعی و نشاط و فکر و خلاقیه الإنسان إنّما هی فی حقیقتها من اللّه عزّ و جلّ.

و لو توقف لطف اللّه(فرضا)عن الإنسان-و لو للحظه واحده-لما کان ثمّه شیء اسمه الإنسان.

و یقول الإنسان الموحد حینما یرکب وسیله:«سبحان الذی سخر لنا هذا».

و عند ما یحصل علی نعمه ما،یقول:

«و ما بنا من نعمه فمنک» (١) .

و یقول عند ما یخطو فی سبیل الإصلاح-کما هو حال الأنبیاء فی طریق هدایتهم للناس-: وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ بِاللّٰهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ (٢) .

و إلی جانب کل ما ذکر فالسعی و العمل الصحیح البعید عن أی إفراط أو تفریط،هو أساس کسب الرزق،و ما یوصل إلی الإنسان من رزق بغیر سعی و عمل إنّما هو ثانوی فرعی و لیس بأساسی،و لعل هذا الأمر هو الذی دفع أمیر المؤمنین علیه السّلام فی کلماته القصار فی تقدیم ذکر الرزق الذی یطلبه الإنسان علی الرزق الذی یطلب الإنسان،حیث

قال: «یا ابن آدم،الرزق رزقان:رزق تطلبه، و رزق یطلبک» (٣) .

١- ١) -من أدعیه التعقیبات لصلاه العصر،کما فی کتب الدعاء.

٢- ٢) -سوره هود،٨٨.

٣- ٣) -نهج البلاغه،الکلمات القصار،رقم ٣٧٩.

۲-مواساه الآخرين:

أشارت الآيات إلى بخل كثير من الناس ممن لم يتّبعوا سلوك و هدى الأنبياء و الأئمّه عليهم السّلام، و قد أكّدت الرّوايات فى تفسيرها لهذه الآيات على المساواه و المواساه و منها:ما جاء فى تفسير على بن إبراهيم فى ذيل الآيه:«لا يجوز الرجل أن يخص نفسه بشيء من المأكول دون عياله» (۱) .

و

روى أيضا عن أبى ذر أنّه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول عن العبيد: «إنّما هم إخوانكم فاكسوهم ممّا تكسون و أطعموهم ممّا تطعمون» فما رؤى عبده بعد ذلك إلّا و رداؤه و إزاره من غير تفاوت (۲) .

و الذى نستفيده من الرّوايات المذكوره و الآيه المبحوثه حين تقول: فَهُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ أنّ الإسلام يوصى بمراعاه المساواه كبرنامج أخلاقى بين أفراد العائله الواحده و من يكون تحت التكفل قدر الإمكان،و أن لا يجعلوا لأنفسهم فضلا عليهم.

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۶۸.

۲- ۲) -تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۶۸

الآیتان [سوره النحل (۱۶): الآیات ۷۳ الی ۷۴]

اشاره

وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ ما لا یَمْلِکُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ شَیْئاً وَ لا یَسْتَطِیعُونَ (۷۳) فَلا تَضْرِبُوا لِلّهِ اَلْأَمْثالَ إِنَّ اَللّهَ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۷۴)

التّفسیر

اشاره

لا تجعلوا للّه شبیها:

تواصل هاتان الآیتان بحوث التوحید السابقه،و تشیر إلی موضوع الشرک، و تقول بلهجه شدیده ملؤها اللوم و التوبیخ: وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ ما لا یَمْلِکُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَیْئاً .

و لیس لا یملک شیئا فقط،بل وَ لا یَسْتَطِیعُونَ أن یخلقوا شیئا.

و هذه إشاره إلی المشرکین بأن لا أمل لکم فی عبادتکم للأصنام،لأنّها لا تضرّکم و لا تنفعکم و لیس لها أیّ أثر علی مصیرکم،فالرزق مثلا و الذی به تدور عجله الحیاه سواء کان من السماء (کقطرات المطر و أشعه الشمس و غیر ذلک)أو ما یستخرج من الأرض،إنّما هو خارج عن اختیار الأصنام،لأنّها موجودات فاقده لأیه قیمه و لا تملک الإراده،و إن هی إلاّ خرافات صنعتها العصبیه الجاهلیه

ص:۲۶۰

لیس إلّا.

و جمله لا یَسْتَطِیعُونَ سبب لجمله«لا یملکون»أی:إنّها لا تملک شیئا من الأرزاق لعدم استطاعتها الملک،فکیف بالخلق! ثمّ تقول الآیه التالیه کنتیجه لما قبلها: فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثٰالَ و ذلک إِنَّ اللّٰهَ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ .

قال بعض المفسّرین:إنّ عباره فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثٰالَ تشیر إلی منطق المشرکین فی عصر الجاهلیه(و لا یخلو عصرنا الحاضر من أشباه أولئک المشرکین)حیث کانوا یقولون:إنّما نعبد الأصنام لأنّنا لا نتملک الأهلیه لعباده اللّه، فنعبدها لتقربنا إلی اللّه!و إنّ اللّه مثل ملک عظیم لا یصل إلیه إلاّ الوزراء و الخواص،و ما علی عوام الناس إلاّ أن تتقرب للحاشیه و الخواص لتصل إلی خدمه اللّه!! هذا الانحراف فی التوجه و التفکیر،و الذی قد یتجسم أحیانا علی هیئه أمثال منحرفه،إنّما هو من الخطوره بمکان بحیث یطغی علی کل الانحرافات الفکریه.

و لذا یجیبهم القرآن الکریم قائلا: فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثٰالَ التی هی من صنع أفکارکم المحدوده و من صنع موجودات(ممکنه الوجود)و ملیئه بالنواقص.

و إنّکم لو أحطتم علما بعظمه وجوده الکریم و بلطفه و رحمته المطلقه،لعرفتم أنّه أقرب إلیکم من أنفسکم و لما جعلتم بینکم و بینه سبحانه من واسطه أبدا.

فاللّه الذی دعاکم لأن تدعوه و تناجوه،و فتح لکم أبواب دعائه لیل نهار، لا ینبغی أن تشبّهوه بجبار مستکبر لا یتمکن أیّ أحد من الوصول إلیه و دخول قصره إلاّ بعض الخواص فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثٰالَ .

لقد أکّدنا فی بحوثنا السابقه حول صفات اللّه عزّ و جلّ:أنّ منزلق التشبیه یعتبر من أخطر المزلقات فی طریق معرفه صفاته سبحانه و تعالی،و لا ینبغی مقایسه صفاته سبحانه بصفات العباد،لأنّ الباری جلت عظمته وجود مطلق،و کل

الموجودات بما فيها الإنسان محدوده،فهل يمكن تشبيه المطلق بالمحدود؟! و إذا ما اضطررنا إلى تشبيه ذاته المقدسه بالنّور و ما شابه ذلك فينبغى أن لا يغيب عن علمنا بأنّ هذا التشبيه ناقص على أيّه حال،و أنّه لا يصدق إلاّ من جهه واحده دون بقيه الجهات-فتأمل.

و بما أنّ أكثر الناس قد غفلوا عن هذه الحقيقه،و كثيرا ما يقعون فى وادى التشبيه الباطل و القياس المرفوض فيبتعدون عن حقيقه التوحيد،فلذا نجد القرآن الكريم كثيرا ما يؤكّد على هذه المسأله،فمرّه يقول كما فى الآيه(۴)من سوره التوحيد، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ،و أخرى كما فى الآيه(۱۱)من سوره الشورى:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ،و ثالثه كما فى الآيه مورد البحث: فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثٰالَ .

و لعل عباره إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ ،فى ذيل الآيه مورد البحث، تشير إلى أنّ أغلب الناس فى غفله عن أسرار صفات اللّه.

ص :۲۶۲

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٥ الى ٧٧]

اشاره

ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنٰاهُ مِنّٰا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمٰا أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلىٰ مَوْلاٰهُ أَيْنَمٰا يُوَجِّهْهُ لاٰ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَ لِلّٰهِ غَيْبُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا أَمْرُ اَلسّٰاعَةِ إِلاّٰ كَلَمْحِ اَلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

التّفسير

اشاره

مثلان للمؤمن و الكافر!

ضمن التعقيب على الآيات السابقه التى تحدثت عن:الإيمان،الفكر، المؤمنين،الكافرين و المشركين،تشخص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين و الكافرين)بضرب مثلين حيين و واضحين.

يشبه المثال الأوّل المشركين بعبد مملوك لا يستطيع القيام بأيه خدمه لمولاه، و يشبه المؤمنين بإنسان غنى،يستفيد الجميع من إمكانياته.. ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ .

و العبد ليس له قدره تكوينيه لأنّه أسير بين قبضه مولاه و محدود الحال فى كل شيء،و ليس له قدره تشريعيه أيضا لأنّ حق التصرف بأمواله(إن كان له مال) و كل ما يتعلق به هو بيد مولاه،و بعباره أخرى إنّه:عبد للمخلوق،و لا يعنى ذلك إلاّ الأسر و المحدوديه فى كل شيء.

أمّا ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذى يتمتع بأنواع المواهب و الرزق الحسن: وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنّا رِزْقاً حَسَناً و الإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعه فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً فاحكموا: هَلْ يَسْتَوُونَ .

قطعا،لا...فإذن: اَلْحَمْدُ لِلّهِ .

اللّه الذى يكون عبده حرّ و قادر و منفق،و ليس الأصنام التى عبادها أسرى و عديمو القدره و محددون بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .(۱)

ثمّ يضرب مثلا آخر لعبده الأصنام و المؤمنين و الصادقين،فيشبه الأوّل بالعبد الأبكم الذى لا يقدر على شيء،و يشبه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل و هو على صراط مستقيم: وَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ (۲) و لهذا... أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ .

و على هذا فيكون له أربع صفات سلبيه:

أبكم(لا ينطق و لا يسمع و لا يبصر منذ الولاده).

ص:۲۶۴

---

۱ - ۱) -المثال المذكور عباره عن تشبيه للمؤمن و الكافر(على ضوء تفسيرنا)،إلاّ أنّ جمعا من المفسّرين ذهب إلى أنّ العبد المملوك يرمز إلى الأصنام،و أنّ المؤمن الحر المنفق إشاره إلى اللّه سبحانه و تعالى(و يبدو لنا أنّ هذا التشبيه بعيد).

۲ - ۲) -يقول الراغب فى مفرداته:الأبكم هو الذى يولد أخرس،فكل أبكم أخرس و ليس كل أخرس أبكم،و يقال:بكم عن الكلام، إذا أضعف عنه لضعف عقله فصار كالأبكم.

و عاجز لا یقدر علی شیء.

و کلّ علی مولاه.

و أینما یوجهه لا یأت بخیر.

مع أنّ الصفات المذکوره عله و معلول لبعضها الآخر و لکنّها ترسم صوره إنسان سلبی مائه فی المائه حیث أن وجوده لا ینم عن أی خیر أو برکه إضافه لکونه«کلّ»علی أهله و مجتمعه.

ف هَلْ یَسْتَوِی هُوَ وَ مَنْ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ ؟! و أمّا الرجل الآخر فی مثل الآیه فهو صاحب دعوه مستمرّه إلی العدل و سائر علی الصراط المستقیم،و ما هاتان الصفتان إلاّ مفتاح لصفات أخری متضمنه لها، فصاحب هاتین الصفتین:لسانه ناطق،منطقه محکم،إرادته قویه،شجاع و شهم، لأنّه لا یمکن أن یتصور لداعیه العدل أن یکون:أبکم،جبانا و ضعیفا!و لا یمکن أن یکون من هو علی صراط مستقیم إنسانا عاجزا أبله و ضعیف العقل،بل ینبغی أن یکون ذکیا،نبیها،حکیما و ثابتا.

و تظهر المقایسه بین هذین الرجلین ذلک البون الشاسع بین الاتجاهین الفکریین المختلفین لعبده الأصنام من جهه،و عباد اللّه عزّ و جلّ من جهه أخری، و ما بینهم من تفاوت تربوی و عقائدی.

کما رأینا من ربط القرآن فی بحوثه المتعلقه بالتوحید و محاربه الشرک مع بحث المعاد و محکمه القیامه الکبری،نراه هنا یتناول الإجابه علی إشکالات المشرکین فیما یخص المعاد،فیقول لهم: لِلّٰهِ غَیْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

و کأن الآیه جواب علی الإشکال العالق فی أذهان و ألسنه منکری المعاد الجسمانی بقولهم:إنّنا إذا متنا و تبعثرت ذرات أجسامنا بین التراب،فمن یقدر علی جمعها؟!و إذا ما افترضنا أنّ هذه الذرات قد جمعت وعدنا إلی الحیاه،فمن سیعلم بأعمالنا التی طوتها ید النسیان فنحاسب علیها؟!

و بعباره مختصره تجيب الآيه على كل أبعاد السؤال،فاللّه عزّ و جلّ«يعلم غيب السماوات و الأرض»فهو حاضر فى كل زمان و مكان،و عليه فلا يخفى عليه شىء أبدا،و لا مفهوم لقولهم إطلاقا،و كل شىء يعلمه تعالى شهودا،و أمّا تلك العبارات و الأحوال فإنّما تناسب وجودنا الناقص لا غير.

ثمّ يضيف قائلا: وَ مٰا أَمْرُ السّٰاعَهِ إِلاّٰ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ (۱) .

و هذا المقطع القرآنى يشير إلى رد إشكال آخر كان يطرحه منكر و المعاد بقولهم:من له القدره على المعاد و من يتمكن من انجاز هذا الأمر العسير؟! فيجيبهم القرآن،بأن هذا الأمر يبدو لكم صعبا لأنّكم ضعفاء،أمّا لصاحب القدره المطلقه فهو من السهوله و السرعه بحيث يكون أسرع ممّا تتصورون،و إن هو إِلاّٰ كَلَمْحِ الْبَصَرِ منكم.

و بعد أن شبّه قيام الساعه بلمح البصر،قال: أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ،أى:إنّ التشبيه بلمح البصر جاء لضيق العباره و اللغه،و إنّما هو من السرعه بما لا يلحظ فيه الزمان أساسا،و ما ذلك الوصف إلاّ لتقريبه لأذهانكم من حيث أنّ لمح البصر هو أقصر زمان فى منطقكم.

و على أيّه حال،فالعبارتان إشاره حيّه لقدره اللّه عزّ و جلّ المطلقه، و بخصوص مسألتى المعاد و القيامه،و لهذا يقول البارى فى ذيل الآيه: إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

بحوث

اشاره

۱-الإنسان بين الحريه و الأسر

ص :۲۶۶

۱- ۱) -لمح:(على وزن مسح)بمعنى ظهور البرق،ثمّ جاءت بمعنى النظر السريع،و ينبغى الانتباه إلى أنّ«أو»هنا بمعنى(بل).

إنّ مسأله التوحيد و الشرك ليست مسأله عقائديه ذهنيه صرفه كما يتوهم البعض و ذلك لما لها من آثار بالغه على كافه أصعده الحياه،بل و أنّ بصماتها لتراها شاخصه على كافه مرافق و مناحى الحياه-فالتوحيد إذا دخل قلبا أحياه و غرس فيه عوامل الرّشد و الكمال،لأنّه بتوسيع أفق نظر و تفكير الإنسان بشكل يجعله مرتبطا بالمطلق.

و الشرك على العكس من ذلك تماما،حيث يجعل الإنسان يعيش فى دوامه عالم محدود،و تتقاذف كيانه تلك الأصنام الحجريه و الخشبيه،أو ميول و شهوات الأصنام البشريه الضعيفه،فيختزل فكر و إدراك و قدره و سعى الإنسان فى دائره تلك الأبعاد الضيقه التقاذف.

و قد صورت الآيات تصويرا دقيقا لهذا الواقع،و جمعته فى مثال تقريبا للأذهان و قالت:إنّ المشرك فى حقيقه أبكم و ممارساته تنم عن خطل تفكيره و فقدانه للمنطق السليم،و قد قيد الشرك إمكانياته فجعله خواء لا يقوى على القيام بأى شيء فانسلخت منه حريته بعد أن أسلم نفسه أسيرا فى يد الخرافات و الأوهام.

و بسبب هذه الصفات المذمومه فهو كلّ على المجتمع،لأنّه يستهين بكرامه و عزّه المجتمع من خلال تسليم مقدراته بيد الأصنام أو المستعمرين.

و هو تابع أبدا ما دام لم يتحرر من ربقه الشرك،و لن يذوق طعم الحريه و الاستقلال الحق إلاّ بعد أن يتوجه إلى التوحيد بصدق.

و نتيجه لمتبنياته الفكريه الضاله فلن يخترق طريقا إلاّ ضاع به،و لن يجد الخير أينما حط أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ .

فكم هى الفاصله بين ذلك الخرافى،ضيق الأفق،الأسير،العاجز..و بين هذا الحر،الشجاع،الذى لا يكتفى بنهج خط العدل،بل يدعو إليه ليعم كل الناس؟! الشخص الذى يمتلك الفكر المنطقى المنسجم مع نظام التوحيد الحاكم على

الخليقه يسير دوما على صراط مستقيم،و هذا السير سيوصله بأقرب و أسرع طريق إلى الهدف المنشود دون أن يفنى ذخائر وجوده فى طرق الضلال و الانحراف.

و خلاصه القول:فالتوحيد و الشرك ليسا أمرا عقائديا ذهنيا بحتا،بل نظام كامل لكل الحياه،و برنامج واسع يشمل:فكر،أخلاق و عواطف الإنسان و يتناول كذلك حياته الفرديه،الاجتماعيه،السياسيه،الاقتصاديه و الثقافيه.

لو وضعنا مقايسه بين عرب الجاهليه المشركين و المسلمين فى صدر الإسلام لوجدنا الفرق الواضح بين المسيرين...

الأشخاص الذين كانوا فى:جهل،تفرقه،انحطاط،و لا يعرفون إلاّ محيطا محدودا مملوءا بالفقر و الفساد،نراهم قد أصبحوا و كلهم:وحده،علم،قدره...حتى أصبح العالم المتمدن فى ذلك الزمان تحت تأثيرهم و قدرتهم..كل ذلك بسبب تغيير سير خطواتهم من الشرك إلى التوحيد.

۲-دور العدل و الاستقامه فى حياه الإنسان

من الملفت للنظر اشاره الآيات إلى الدعوه للعدل و السير على الصراط المستقيم من بين صفات و شؤون الموحدين،لتبيان ما لهذين الأمرين من أهميه فى خصوص الوصول إلى المجتمع الإنسانى السعيد،و هو ما يتم من خلال امتلاك برنامج صحيح بعيد عن أى انحراف يمينا أو شمالا(لا شرقى و لا غربى)،و من ثمّ الدعوه لتنفيذ ذلك البرنامج المبنى على أصول العدل،كما و ينبغى أن لا يكون البرنامج وقتيا ينتهى بانقضاء المدّه،بل كما يقول القرآن: يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ (حيث يعطى الفعل المضارع معنى الاستمرار)برنامج مستمر و دائمى.

۳-أمّا الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام

الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام بخصوص تفسير هذه الآيه تذكر أنّ:

«الذى يأمر بعدل أمير المؤمنين و الأئمّه صلوات اللّه عليهم».

و ذكر بعض المفسّرين:أنّ جمله مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ نزلت فى:حمزه و عثمان بن مظعون أو فى عمار.

و«أبكم»فى:أبى بن مخلف و أبى جهل و من شابههم.

و كل ذلك إنّما هو من جهه بيان مصاديق مهمّه و واضحه للآيه،و لا يمكن بأيه حال أن يكون سببا للحصر،مع ملاحظه أنّ التفاسير التى تناولت الآيات المبحوثه مبينه على أساس بيان الفرق بين المشركين و المؤمنين،و ليس بين الأصنام و بين اللّه عزّ و جلّ.

الآيات [سوره النحل (١۶): الآيات ٧٨ الی ٨٣]

اشاره

وَ اَللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى اَلطَّيْرِ مُسَخَّرٰاتٍ فِي جَوِّ اَلسَّمٰاءِ مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اَللّٰهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ اَلْأَنْعٰامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهٰا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقٰامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوٰافِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰا أَثٰاثاً وَ مَتٰاعاً إِلىٰ حِينٍ (٨٠) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ اَلْجِبٰالِ أَكْنٰاناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمُ اَلْحَرَّ وَ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اَللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْكٰافِرُونَ (٨٣)

التّفسير

اشاره

أنواع النعم الماديه و المعنويه:

يعود القرآن الكريم مرّه أخرى بعرض جمله أخرى من النعم الإلهيه كدرس

ص: ٢٧٠

فی التوحید و معرفه اللّه،و أوّل ما یشیر فی هذه الآیات المبارکات إلی نعمه العلم و المعرفه و وسائل تحصیله..و یقول: وَ اللّهُ أَخْرَجَکُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ لا تَعْلَمُونَ شَیْئاً .

فمن الطبیعی أنّکم فی ذلک المحیط المحدود المظلم تجهلون کل شیء، و لکن عند ما تنتقلون إلی هذا العالم فلیس من الحکمه أن تستمروا علی حاله الجهل، و لهذا فقد زودکم الباری سبحانه بوسائل إدراک الحقائق و معرفه الموجودات وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ .لکی یتحرک حس الشکر للمنعم فی أعماقکم من خلال إدراککم لهذه النعم الربانیه الجلیله لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ .

ملاحظات

اشاره

و هنا نطرح الملاحظات التالیه:

۱-بدایه الإدراک عند الإنسان

تصرّح الآیه بوضوح بأنّ الإنسان حین یولد فإنّه لا یدرک من الأشیاء شیئا، و کل ما یدرکه إنّما هو بعد الولاده و بواسطه الحواس التی منحه اللّه إیّاه.

و یواجهنا الإشکال التالی:إنّ الإنسان مزود بجمله من العلوم الفطریه کالتوحید و معرفه اللّه،بالإضافه إلی بعض البدیهیات مثل(عدم اجتماع النقیضین، الکل أکبر من الجزء،حسن العدل،قبح الظلم...إلخ)و کل هذه العلوم قد أودعت فی قلوبنا و تولدت معنا..فکیف یقول القرآن إنّ الإنسان حین یخرج من محیط الجنین لیس له من العلم شیئا؟ و هل علمنا بوجودنا(و الذی هو علم حضوری)لم یکن فینا و إنّما نکتسبه عن طریق السمع و البصر و الفؤاد؟ و للإجابه علی هذا الإشکال،نقول:إنّ العلوم البدیهیه و الضروریه و الفطریه

لم تكن فی الإنسان بصوره فعلیه حین ولادته،و إنّما علی شکل استعداد و وجود بالقوّه.

و بعباره أخری:إنّنا عند الولاده نکون فی غفله عن کل شیء حتی عن أنفسنا التی بین جنبینا،إلّا أن مسأله إدراک الحقائق تکمن فینا بصوره القوّه لا ـ الفعل، و بالتدریج تحصل لأعیننا قوّه النظر و لآذاننا قوه السمع و لعقولنا القدره علی الإدراک و التجزئه و التحلیل،فنعم بهذه العطایا الإلهیه الثلاث التی بواسطتها نستطیع أن ندرک کثیرا من التصورات و نودعها فی العقل لکی ننشئ منها مفاهیم کلیه،و من ثمّ نصل إلی الحقائق العقلیه بطریق(التعمیم)و(التجرید).

و تصل قدرتنا الفکریه إلی إدراک أنفسنا(باعتبارها علما حضوریا)و من ثمّ تتحرر العلوم التی أودعت فینا قوه لتصبح علوما بالفعل،و نجعل بعد ذلک من العلوم البدیهیه و الضروریه سلّما للوصول إلی العلوم النظریه و غیر البدیهیه.

و علی هذا..فالعموم و الکلیه التی نطقت بها الآیه(من أنّنا لا نعلم شیئا عند الولاده)لیس لها استثناء و لا تخصیص.

۲-نعمه وسائل المعرفه

ممّا لا شک فیه عدم امکانیه استیعاب و دخول العالم الخارجی فی وجودنا، و الحاصل الفعلی هو رسم صوره الشیء الخارجی المراد فی الذهن و بواسطه الوسائل المعینه لذلک،و علیه..فمعرفتنا بالعالم الخارجی تکون عن طریق أجهزه خاصّه منها السمع و البصر.

و تنقل هذه الآلات و الأجهزه کل ما تلتقطه من الخارج لتودعه فی أذهاننا و عقولنا،و نقوم بواسطه العقل و الفکر بعملیه التجزئه و التحلیل..

و لذلک بیّنت الآیه مسأله عدم علم الإنسان المطلق حین الولاده: وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَهَ لکی تحصلوا علی حقائق الوجود و تدرکوها.

و نشاهد تقديم ذكر السمع على البصر فى الآيه مع ما للعين من عمل أوسع من السمع،و لعل ذلك لسبق الأذن فى العمل على العين بعد الولاده،حيث أنّ العين كانت فى ظلام دامس(فى رحم الأم)و نتيجه لشدّه أشعه النّور(بعد الولاده)فإنّها لا تستطيع العمل مباشره بسبب حساسيتها،و إنّما تتدرج فى اعتيادها على مواجهه النّور حتى تصل للحاله الطبيعيه المعتاده،و لذا نجد الوليد فى بدايه أيّامه الأولى مغلق العين.أمّا بخصوص الأذن..فثمه من يعتقد بأنّ لها القدره على السماع(قليلا أو كثيرا)و هى فى عالم الأجنّه و أنّها تسمع دقات قلب الأم و تعتاد عليها! أضف إلى ذلك أنّ الإنسان إنّما يرى بعينه الأشياء الحسيّه فقط،فى حين أن الأذن تعتبر وسيله للتربيه و التعليم فى جميع المجالات،فالإنسان يصل بواسطه سماع الكلمات إلى معرفه جميع الحقائق سواء ما كان منها فى دائره الحس أو ما كان خارجها،و ليس للعين هذه السعه،و صحيح أنّ الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطه القراءه،إلاّ أنّ القراءه ليست عامّه لكل الناس و سماع الكلمات أمر عام.

أمّا سبب ورود«السمع»بصيغه المفرد و«الأبصار»بصيغه الجمع،فقد بيّناه عند تفسيرنا للآيه(٧)من سوره البقره.

و ثمّه ملاحظه أخرى ينبغى ذكرها تتعلق بكلمه«الفؤاد»،فقد جاءت هنا بمعنى القلب(العقل)الذى يعيش حاله التوقد،و بعباره أخرى:يعيش حاله التّفسير و التحليل و الابتكار.

يقول الراغب فى مفرداته:(الفؤاد كالقلب،لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى الفؤاد أى التوقد).و من المسلّم به أن هذا الموضوع يحصل للإنسان بعد حصوله على تجارب كافيه.

و على أيه حال،فآلات المعرفه و إن لم تنحصر بهذه الأجهزه الثلاث،إلاّ أنّها أفضل الأجهزه جميعا،لأنّ علم الإنسان إمّا أن يكون عن طريق التجربه أو عند

طريق الاستدلالات العقليه،و لا تجربه بدون السمع و البصر،و لا استدلالات عقليه من غير الفؤاد(العقل).

٣-لعلكم تشكرون

تعتبر نعمه أجهزه تحصيل العلم من أفضل النعم التی وهبها اللّه للإنسان،فلا يقتصر دور العين و الأذن(مثلا)على النظر إلى آثار اللّه فی خلقه،و الاستماع إلى أحاديث أنبياء اللّه و أوليائه،و تفهم ذلك و تدركه بالتحليل و الاستنتاج،بل إنّ كل خطوه نحو التكامل و التقدم مرتبطه ارتباطا وثيقا بهذه الوسائل الثلاثه.

و غايه إعطاء هذه الوسائل إنّما تستوجب شكر الواهب،لأنّه من خلالها يمكن الحصول على العلم و المعرفه اللذين بهما امتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات.

و ممّا لا شك فيه أنّ الإنسان ليقف عاجزا أمام حق شكر المولى و ليس له إلاّ الاعتذار.

و تستمر الآيه التاليه فی بيان أسرار عظمه اللّه عزّ و جلّ فی علم الوجود، و تقول: أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرٰاتٍ فِی جَوِّ السَّمٰاءِ .

«الجو»لغه:هو الهواء(كما ذكره الراغب فی مفرداته)،أو ذلك الجزء من الهواء البعيد عن الأرض(كما ورد فی تفسير مجمع البيان و تفسير الميزان و كذلك تفسير الآلوسی).

و بما أنّ الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعيا فقد وصف القرآن الكريم حركه الطيور فی الهواء بالتسخير،أی:أنّ الباری سبحانه قد جعل فی أجنحه الطيور قوّه، و فی الهواء خاصيه،تمكنان الطيور من الطيران فی الجو على رغم قانون الجاذبيه.

و يضيف قائلا: مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّٰهُ .

صحيح أنّ ثمّه أمور مجتمعه تعطی للطيور إمكانيه التحليق و الطيران،مثل:

الخاصیه الطبیعیه للأجنحه،قدره عضلات الطیور،هیکل الطیر بالإضافه إلی خواص الهواء الملائمه..و لکن،من الذی خلق هذه الهیئه و تلک الخواص؟ و من الذی أقرّ هذا النظام الدقیق؟ فهل هی الطبیعه العمیاء،أم من یعلم بجمیع الخواص الفیزیائیه للأجسام و أحاط علمه المطلق بکل هذه الأمور؟؟ فإذا ما رأینا نسبه هذه الأمور إلی اللّه،لأنّ منبع وجودها منه تعالی،و أمثال هذا التعبیر فی نسبه الأسباب و العلل إلی اللّه کثیره فی القرآن الکریم.

و فی نهایه الآیه،یأتی قوله عزّ من قائل: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ أی إنّهم ینظرون إلی هذه الأمور بعین باصره و أذن سمیعه و یتفکرون فیما یرون و یسمعون،و بذلک یقوی إیمانهم و یرسخ أکثر فأکثر.

بحوث

اشاره

۱-أسرار تحلیق الطیور فی السماء

إنّنا لا نشعر بأهمیه الکثیر من عجائب عالم الوجود لاعتیادنا علی کثره مشاهدتها،و لعدم انشغالنا بالتدقیق العلمی عند المشاهده،حتی باتت هذه العاده کحجاب یغطی تلک العظمه،و لو استطاع أیّ منّا رفع ذلک الحجاب عن ذهنه لرأی العجائب الکثیره من حوله.

و تحلیق الطیور فی السماء لا تبتعد عن هذه الحقیقه،فحرکه جسم ثقیل بخلاف قانون الجاذبیه من دون أیه صعوبه،و ارتفاعه بسرعه حتی لیغیب عن أعیننا فی لحظات لأمر یدعو إلی التأمل و الدراسه.

و لو دققنا النظر فی بناء جسم الطائر لوجدنا ذلک الترابط الدقیق بین کل صفاته و حالاته التی تساعده علی الطیران،فهیکله العام مدبب لیقلل من مقاومه

الهـواء على بـدنه لأقصـى حـد ممكن،و ريشه خفيف مجوف،و صـدره مسـطح يمكنه من ركوب أمواج الهواء،و طـبيعه أجنحته الخـاصّه تمنحه القوه الرافعه (۱) التى تساعـده على الارتفـاع، و كـذلک الطبيعه الخـاصّه لـذيل الطائر التى تعينه على تغيير اتجاه طيرانه و سرعه التحوّل يمينـا و شـمالا و أعلى و أسـفل(كـذيل الطـائره)،و ذلـک التناسق الموجود بين النظر و بقيه الحواس التى تشترک جميعا فى عمليه الطيران...و كل ذلک يعطى للطائر إمكانيه الطيران السريع.

ثمّ إنّ طريقه تناسـل الطير(وضع البيض)،و عمليه تربيه الجنين و نموه تجرى خـارج رحم الأـم ممّـا يرفع عنهـا حاله الحمل و التى تعيق(بلا شک)عمليه الطيران..

و ثمّه أمور كثيره تعتبر من العوامل المؤثره فيزيائيا فى عمليه الطيران.

و كل ما ذكر يكشف عن وجود علم و قـدره فائقين لخالق و منظم بناء و حركه هـذه الكائنات الحيه،و كما يقول القرآن: إِنَّ فِى ذٰلِکَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

إنّ عجـائب الطيور لأكثر من أن تسـطر فى كتاب أو عـدّه كتب،فهناک مثلا الطيور المهاجره و ما يكتنف رحلاتها من عجائب،و حياه هـذه الطيور مبنيه على التنقل بين أرجاء المعموره المختلفه حتى أنّها لتقطع المسافه ما بين القطبين الشـمالى و الجنوبى على طولهـا،و تعتمـد فى تعيين اتجاهـات رحلاتهـا على إشـارات رمزيه تمكنهـا من عبور الجبال و الأوديه و البحار،و لا يعيق تحركها رداءه الجو أو حلكه الظلام فى الليالى التى يتيه فيها حتى الإنسان و بما يملک.

و من غريب ما يحدث فى رجلاتها أنّها:قد تنام أحيانا بين عباب السماء

۱- ۱) -«القوه الرافعه»:اصـطلاح فيزيائى حديث يسـتعمل فى حقل الطائرات،و خلاصـته:أنّ الجسم إذا كان له سـطحين متفاوتين بالاسـتواء(كجنـاح الطـائره حيث سـطحه الأسـفل مسـتويا و الأـعلى محـدبا)و تحرک أفقيـا فسـتتولد فيـه قـوه خـاصّه ترفعـه إلى الأعلى،تنشأ من ضغط الهواء على سطحه الأسفل و الذى يكون أكثر منه على السطح الأعلى،لأنّ الأسفل مساحته أصغر، و السطح العلوى أوسع مساحه،و هـذا ما تعتمـد عليه حركه الطائرات..و إذا ما دققنا النظر فى اجنحه الطيور فسـنرى هـذه الظاهره بوضوح- فتأمل. و عموما،ينبغى القول:ما بناء الطائرات إلّا تقليد لأجسام الطيور فى جوانب مختلفه!

و هی طـائره!و قـد تسـتغرق بعض رحلاتهـا عـدّه أسـابیع دون توقف لیـل نهـار و بـدون أن یتخلـل تلـک المـدّه أیه فـتره لتنـاول الطعـام!حیث أنّهـا تنـاولت الطعـام الکافی قبل بـدءها حرکه الرحیل(بإلهام داخلی)و یتحول ذلک الطعام إلی دهون تـدخرها فی أطراف بـدنها! و ثمّ‌ـه أسـرار کـثیره تتعلـق فی:بنـاء الطیر لعشـه،تربیـه أفراخـه،کیفیـه التحصن من الأعـداء،کیفیه تحصـیل الغـذاء اللازم،تعاون الطیور فیما بینها بل و مع غیر جنسها أیضا...إلخ، و لکل ممّا ذکر قصّه طویله.

نعم،و کما تقول الآیه المبارکه: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ .

۲-ترابط الآیات:

لا شک أنّ هناک ترابطا بین الآیه أعلاه و التی تتحـدث عن کیفیه طیران الطیور و ما قبلها من الآیات یتمثل فی الحدیث عن نعم اللّه عزّ و جلّ فی عالم الخلیقه، و عن أبعاد عظمته و قـدرته سـبحانه و تعالی،و لکن لا یبعد أن یکون ذکر تحلیق الطیور بعد ذکر آلاـت المعرفه یحمـل بین طیـاته إشـاره لطیفه فی تشـبیه تحلیق هـذه الطیور فی العـالم المحسوس بتحلیق الأفکـار فی العـالم غیر المحسوس،فکلّ منها یحلق فی فضائه الخاص و بما لدیه من آلات.

یقول الإمام علی علیه السّلام فی خطبته الشقشقیه: «ینحدر عنّی السیل و لا یرقی إلیّ الطیر».

و کذا

فی کلمـاته علیه السّ‌لام القصـار فی بیـان فضیله مالـک الأشتر رحمه اللّه،ذلک القائـد الشـجاع: «لا یرتقیه الحافر،و لا یوفی علیه الطائر» (۱) .

و عدّ فی هذه السوره خمسین نعمه کلها تدعو إلی معرفه اللّه جل و علا و تدفع

۱- ۱) -نهج البلاغه،الکلمات القصار،رقم ۴۴۳.

إلی شکره،و لذلک ذهب البعض لتسمیتها ب(سوره النعم).

و تستمر الآیات فی الإشاره إلی النعم الإلهیه حتی نصل إلی الآیه الثّالثه (مورد البحث)لتقول: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ بُیُوتِکُمْ سَکَناً .

و حقّا إنّ هذه النعمه المبارکه من أهم النعم،فلولاها لم یمکن التمتع بغیرها.

«البیوت»:جمع بیت،مأخوذ من(البیتوته):و هی فی الأصل بمعنی التوقف لیلا،و أطلقت کلمه(بیت)علی الحجره أو الدار لحصول الاستفاده منهما للسکن لیلا.

و یلزمنا هنا التنویه بالملاحظه التالیه:إنّ القرآن الکریم لم یقل:إنّ اللّه جعل بیوتکم سکنا لکم،و إنّما ذکر کلمه(من)التبعیضیه أوّلا و قال: مِنْ بُیُوتِکُمْ و ذلک لدقه کلام اللّه التامه فی التعبیر،حیث أنّ الدار أو الحجره الواحده تلحقها مرافق أخری کالمخزن و الحمام و غیرها.

و بعد أن تطرق القرآن الکریم إلی ذکر البیوت الثابته عرّج علی ذکر البیوت المتنقله فقال: وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعٰامِ بُیُوتاً (۱) .

و هی من الخفه بحیث تَسْتَخِفُّونَهٰا یَوْمَ ظَعْنِکُمْ -أی رحیلکم- وَ یَوْمَ إِقٰامَتِکُمْ .

بل و جعل لکم: وَ مِنْ أَصْوٰافِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰا أَثٰاثاً وَ مَتٰاعاً إِلیٰ حِینٍ .

و کما هو معلوم فإنّ الشعر الذی یحمله بدن الحیوان بعضه خشن تماما کشعر الماعز و یطلق علیه(شعر)،و جمعه(أشعار)،و بعضه الآخر أقل خشونه بقلیل و هو (الصوف)و جمعه(أصواف)،(و الوبر)أقل نعومه من الصوف و جمعه(أوبار)، و بدیهی أنّ الاختلاف الحاصل فی طبیعته و خشونته یؤدی إلی تنوع الاستفاده

۱- ۱) -إنّ صناعه الخیام من الجلود قلیله فی عصرنا المعاش،و لکنّ الآیه المبارکه أرادت أن تظهر أن هذا النوع من الخیام کان من أفضل الأنواع فی تلک الأزمان،و اختص بالذکر دون بقیه الأنواع ربما لکونها أکثر مأمنا أمام عواصف الصحراء الحارقه فی الحجاز.

منها،فمن بعضها تصنع الخيام،و من البعض الآخر يصنع اللباس،و من الثّالث الفرش و هكذا..

أمّا عن المقصود ب«الأثاث»و«المتاع»فى الآيه فقد ذكر المفسّرون لذلك جمله احتمالات.

قال بعضهم:«الأثاث»بمعنى الوسائل المنزليه،و هى فى الأصل من(أثّ) بمعنى الكثره و التجمع،و أطلقت على الوسائل و الأدوات المنزليه لكثرتها عاده.

و يطلق«المتاع»على كل ما يتمتع به الإنسان و يستفيد منه(فالمصطلحان إشاره إلى شىء واحد من جهتين مختلفتين).

و مع ملاحظه ما ذكر فاستعمال المصطلحين على التوالى يمكن أن يشير إلى هذا المعنى:إنّكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها و أوبارها و أشعارها وسائل بيتيه كثيره تتمتعون بها.

و احتمل البعض و منهم«الفخر الرازى»:«الأثاث»بمعنى الأغطيه و الملابس، و«المتاع بمعنى الفرش،إلاّ أنّه لم يذكر أىّ دليل لتفسيره.

و احتمل«الآلوسى»فى(روح المعانى):«الأثاث»إشاره إلى الوسائل المنزليه،و«المتاع»إشاره إلى الوسائل المستخدمه فى التجاره.

و يبدو أنّ ما قلناه أوّلا أقرب من الجميع.

و ذكرت وجوه عديده فى تفسير إِلىٰ حِينٍ و لكنّ الظاهر من مقصودها هو:

استفيدوا من هذه الوسائل فى هذا العالم حتى نهايه الحياه فيه،و هو إشاره إلى عدم خلود الحياه فى هذا العالم و ما فيه من وسائل و لوازم و أنّ كل ما فيه محدود.

٣-الظلال،المساكن،الأغطيه:

و يشير القرآن الكريم إلى نعمه أخرى بقوله: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبٰالِ أَكْنٰاناً .

ص:٢٧٩

«الأكنان»:جمع(كن)بمعنى وسائل التغطيه و الحفظ،و لهذا فقد أطلقت على المغارات و أماكن الاختفاء و فى الجبال.

و نرى إطلاق كلمه«الظلال»فى الآيه لتشمل كل الظلال،سواء كانت ظلال الأشجار أو المغارات الجبليه أو ظل أى شىء آخر،باعتبارها إحدى النعم الإلهيه (و حقيقه الأمر كذلك)،فكما يحتاج الإنسان إلى النّور فى حياته فكثيرا ما يحتاج إلى الظلل كذلك،لأنّ النّور إذا ما استمر فى اشراقه فسوف تكون الحياه مستحيله، و يكفينا أن نلمس ما لظل الكره الأرضيه(و المسمى بالليل)على حياتنا،و كذلك دور الظلال الأخرى خلال النهار فى مختلف الأمكنه و الحالات.

و كأن ذكر نعمه«الظلال»و«أكنان الجبال»بعد ذكر نعمه«المسكن» و«الخيام»فى الآيه السابقه،للإشاره إلى:أنّ طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثه..واحده تعيش فى المدن و القرى و تستفيد من بناء البيوت لسكناها، و أخرى تعيش الترحال و التنقل فتحمل معها الخيام،و ثالثه أولئك الذين يسافرون و ليس معهم مستلزمات المأوى..و لم يترك البارى جل شأنه المجموعه الثّالثه تعيش حاله الحيره من أمرها،بل فى طريقهم الظلال و المغارات لتقيهم.

و قد لا يدرك سكنه المدن ما لوجود المغارات الجبليه من أهميه،و لكنّ عابرى الصحارى و المسافرين العزل و الرعاه و كل من حرم من نعمه البيوت الثابته أو السياره(مؤقتا أو دائما)عند ما يكونون تحت سطوه حراره الصيف اللاهبه أو تحت وطأه زمهرير الشتاء القارص،سيعرفون عندها أهميه تلك المغارات،و خصوصا كونها بارده فى الصيف و دافئه فى الشتاء،و هى ملاذ ينجى من موت قريب-فى بعض الأحيان-للإنسان أو الحيوانات.

و بعد ذكر القرآن الكريم لنعمه الظلال الطبيعيه و الصناعيه،ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، و ثمّه ألبسه أخرى تستعمل لحفظ أبدانكم فى الحروب وَ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ .

«السرابيل»:جمع«سربال»(على وزن مثقال)،بمعنى الثوب من أيّ جنس كان(على ما يقول الراغب فى مفرداته)،و يؤيده فى ذلك أكثر المفسّرين،و لكنّ البعض منهم قد اعتبر معنى السربال هو:لباس و غطاء لبدن الإنسان،إلاّ أنّ المشهور هو المعنى الأوّل.

و كما هو معلوم،فإنّ فائده الألبسه لا تنحصر فى حفظ الإنسان من الحر و البرد،بل تلبس الإنسان ثوب الكرامه و تقى بدنه من الأخطار الموجهه إليه،فلو تعرى الإنسان لكان أكثر عرضه للجراحات و ما شابهها،و استناد الآيه المباركه على الخاصيه الأولى دون غيرها لأهميتها المميزه.

و لعل ذكر خصوص الحر فى الآيه جاء تماشيا مع ما شاع فى لغه العرب من ذكر أحد المتضادين اختصارا،فيكون الثّانى واضحا بقرينه وجود الأوّل،أو لأنّ المنطقه التى نزل فيها القرآن الكريم كان دفع الحرّ فيها ذا أهميه بالغه عند أهلها.

و ثمّه احتمال آخر:أن يكون ذلك بلحاظ خطوره الإصابه بمرض ضربه الشمس المعروفه،و بتعبير آخر:إنّ تحمل الإنسان لحر أشعه الشمس الشديده أقل من تحمله و مقاومته للبرد،لأنّ حراره البدن الداخليه يمكن لها أن تعين الإنسان على تحمل البروده لحد ما.

و فى ذيل الآيه..يقول القرآن مذكّرا: كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ أى تطيعون أمره.

و طبيعى جدّا أن يفكر الإنسان بخالق النعم،خصوصا عند تنبّهه للنعم المختلفه التى تحيط بوجوده،و أنّ ضميره سيستيقظ و يتجه نحو المنعم قاصدا زياده معرفته به إذا ما امتلك أدنى درجات حسن الشكر.

و مع أنّ بعض المفسّرين قد حصروا لكلمه«النعمه»فى الآيه ببعض النعم:

كنعمه الخلق،و تكامل العقل،أو التوحيد،أو نعمه وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلاّ أنّ معنى الكلمه أوسع من ذلك،ليشمل كل النعم(المذكور منها أو غير المذكور)،و ما

التخصيص فی حقیقته إلاّ من قبیل التّفسیر بالمصداق الواضح.

و بعد ذکر هذه النعم الجلیله..یقول عزّ و جلّ أنّهم لو اعرضوا و لم یسلموا للحق فلا تحزن و لا تقلق،لأنّ وظیفتک إبلاغهم: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَیْکَ الْبَلاٰغُ الْمُبِینُ .

و مع کل ما یمتلکه المتکلم من منطق سلیم و مدعّم بالاستدلال الحق و الجاذبیه،إلاّ أنّه لا یؤثر فی المخاطب ما لم یکن مستعدا لاستماع و قبول کلام المتکلم،و بعباره أخری:إنّ(قابلیه المحل)شرط فی حصول التأثر.

و علی هذا،فإن لم یسلم لک أصحاب القلوب العمیاء و من امتاز بالتعصب و العناد،فذلک لیس بالأمر الجدید،و ما علیک إلاّ أن تصدع ببلاغ مبین و أن لا تقصر فی ذلک و المراد من هذا المقطع القرآنی هو مواساه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تسلیته.

و تکمیلا للحدیث..یضیف القرآن الکریم القول: یَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّٰهِ ثُمَّ یُنْکِرُونَهٰا .

فعلّه کفرهم لیست فی عدم معرفتهم بالنعم الإلهیه و إنّما بحملهم تلک الصفات القبیحه التی تمنعهم من الإیمان کالتعصب الأعمی و العناد فی معاداه الحق، و تقدیم منافعهم المادیه علی کل شیء،و تلوّثهم بمختلف الشهوات،بالإضافه إلی مرض التکبر الغرور.

و لعل ما جاء فی آخر الآیه وَ أَکْثَرُهُمُ الْکٰافِرُونَ إشاره لهذه الأسباب المذکوره.

و قد جذبت کلمه«أکثرهم»انتباه و اهتمام المفسّرین و راحوا یبحثون فی سبب ذکرها...حتی توصل المفسّرون إلی أسباب کثیره کلّ حسب زاویه اهتمامه فی البحث،و لکنّ ما ذکرناه یبدو أقرب من کلّ ما ذکروه،و خلاصته:إنّ أکثریه الکفار هم من أهل التعصب و العناد،و الذین کفروا نتیجه جهلهم أو غفلتهم فهم القلّه قیاسا إلی أولئک.

ص:٢٨٢

و يشاهد فى القرآن الكريم مقاطع قرآنيه تطلق الكفر على ذلك النوع الناشئ من التكّبر و العناد،و منها ما يتحدث عن الشيطان كما جاء فى الآيه(۳۴) من سوره البقره أَبىٰ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ .

و احتمل البعض:أنّ المقصودين ب«أكثرهم»من تمّت عليهم الحجّه فى قبال أقليه لم تتم عليهم الحجّه بعد،و هذا المعنى يمكن أن يعود إلى المعنى الأوّل.

بحثان

اشاره

۱-كلمات المفسّرين

ما نطالعه فى كلمات المفسّرين المتعدده بخصوص تفسير نِعْمَتَ اللّهِ فى الآيه لا يعدو غالبا من قبيل التّفسير بالمصداق،فى حين أنّ مفهوم«نعمه اللّه»من السعه بحيث يشمل جميع النعم الماديه و المعنويه،حتى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعتبر أحد المصاديق الحيّه لنعمه سبحانه و تعالى.

و روايات أهل البيت عليهم السّلام تؤكّد على أنّ المقصود ب«نعمه اللّه»هو وجود الأئمّه المعصومين عليهم السّلام.

و

فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «نحن و اللّه نعمه اللّه التى أنعم بها على عباده،و بنا فاز من فاز» (۱) .

فواضح أنّ السعاده و النجاح لا يمكن إدراكهما إلاّ عن طريق قاده الحق و هم الأئمّه عليهم السّلام فوجودهم إذن من أوضح و أفضل النعم الإلهيه(و قد ذكر هنا لأنّه أحد المصاديق الجليه لنعم اللّه سبحانه).

۱- ۱) -نور الثقلين،ج ۳،ص ۷۲.

۲-صراع الحقّ مع الباطل

لقد توقف بعض المفسّرين عند كلمه«ثمّ»من قوله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها ،لأنّ استعمالها عاده كأداه عطف مع وجود فاصله بين أمرين، و لذلک فثمّه فاصله بين معرفتهم لنعم اللّه و بين إنكارهم للنعم،فقالوا:إنّ الهدف من هذا التعبير تبيان ما ينبغى عليهم من الاعتراف بالتوحيد بعد معرفتهم بنعمه اللّه، و كان عليهم أن يذعنوا لذلک الاعتراف،إلّا أنّهم ساروا فى طريق الباطل!فاستبعد القرآن عملهم و عبر عن ذلک بكلمه«ثمّ».

و نحتمل أنّ«ثمّ»هنا إشاره إلى معنى خفى،خلاصته:أنّ دعوه الحقّ عند ما تتوغل إلى دواخل الروح الإنسانيه عن طريق أصولها المنطقيه السليمه،فإنّها ستصطدم مع عوامل السلب و الإنكار الموجود فيه أحيانا،فيستغرق ذلک الجدال أو الصراع الداخلى مدّه تتناسب مع حجم قوّه و ضعف تلک العوامل،فإن كانت عوامل النهى و الإنكار أقوى فإنّها ستغلبها بعد مدّه..و عبّر القرآن عن تلک الحاله بكلمه«ثمّ».

و الآيتان(۶۴ و ۶۵)،من سوره الأنبياء ضمن عرضهما لقصه إبراهيم عليه السّلام تتحدثان عن قوّه احتجاج نبى اللّه إبراهيم عليه السّلام بعد أن حطم أصنامهم جميعها إلّا كبيرها ممّا تركهم فى الوهله الأولى يغوصون فى تفكير عميق،ممّا حدا بهم لأنّ يلوموا أنفسهم و كادوا أن يهتدوا إلى الحقّ لو لا وجود تلک الرواسب من العوامل السلبيه فى نفوسهم(التعصب،الكبر،العناد)التى أمالت كفه انحرافهم على قبول دعوه الحق،فعادوا من جديد إلى ما كانوا عليه،و لوصف تلک الحاله نرى القرآن قد استعمل كلمه«ثم»أيضا: فَرَجَعُوا إِلىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هٰؤُلاءِ يَنْطِقُونَ .

و على هذا فمعنى«الكافرون»يتوضح بشكل أدق عند وجود كلمه«ثم».

ص :۲۸۴

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۸۴ الی ۸۹]

اشاره

وَ یَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً ثُمَّ لا یُؤْذَنُ لِلَّذِینَ کَفَرُوا وَ لا هُمْ یُسْتَعْتَبُونَ (۸۴) وَ إِذا رَأَی اَلَّذِینَ ظَلَمُوا اَلْعَذابَ فَلا یُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ (۸۵) وَ إِذا رَأَی اَلَّذِینَ أَشْرَکُوا شُرَکاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَکاؤُنَا اَلَّذِینَ کُنّا نَدْعُوا مِنْ دُونِکَ فَأَلْقَوْا إِلَیْهِمُ اَلْقَوْلَ إِنَّکُمْ لَکاذِبُونَ (۸۶) وَ أَلْقَوْا إِلَی اَللّهِ یَوْمَئِذٍ اَلسَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۸۷) اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اَللّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ اَلْعَذابِ بِما کانُوا یُفْسِدُونَ (۸۸) وَ یَوْمَ نَبْعَثُ فِی کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً عَلَیْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِکَ شَهِیداً عَلی هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَیْکَ اَلْکِتابَ تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ وَ هُدیً وَ رَحْمَهً وَ بُشْری لِلْمُسْلِمِینَ (۸۹)

التّفسیر

اشاره

عند ما تغلق الأبواب أمام المجرمین:

بعد أن عرض القرآن الکریم فی الآیات السابقه جحود منکری الحق و عدم

اعترافهم بـالنعم الإلـهيه،يتطرق فی هـذه الآیـات إلی جـانب من العقاب الإلهی الشدیـد الـذی ینتظر أولئک فی عالم الآخره،لینبه الغافل من سباته،فعسی أن یعید النظر فی مواقفه المنحرفه قبل فوات الأوان،فیقول أوّلا: وَ یَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً (۱) .

و هل ثمّه حاجه إلی شاهـد مع وجود علم اللّه المطلق؟ قـد یتبادر إلی الأذهان هـذا السؤال عنـد قراءه الآیه،و تتّضـح الإجابه علی ذلک من خلال التدقیق فی الملاحظه التالیه:إنّ الأمور غالبا ما یقصد فیها الجانب النفسـی و الروحی،و الإنسان کلما أیقن بوجود الشـهود و المراقبین علیه من قبل اللّه سـبحانه ازداد فی محاسـبه نفسه،و أقلّ ما یمکن أن یذکر بهذا الصدد ما سیصـیبه من خجل یوم مواجهتهم مع ما اقترفت یداه.

و بخصوص تلک المحکمه،تأتی الآیه لتقول: ثُمَّ لاٰ یُؤْذَنُ لِلَّذِینَ کَفَرُوا .

و هل من الممکن أن لا یأذن اللّه للمجرمین فی الـدفاع عن أنفسـهم؟ نعم،و ذلک لعدم الحاجه للسان فی ذلک الیوم العظیم،لأنّ الجوارح من رجـل و أذن و عین و کـذلک الجلـد،بـل و حتی الأرض التی أطـاع الإنسـان علیها أو عصـی، کلها ستشـهد علیه،و یمکن استفاده هذا المعنی من آیات قرآنیه أخری کالآیه (۶۵)من سوره یس و الآیه(۳۶)من سوره المرسلات.

بل و یزداد علی عدم السماح لهم بالکلام ب وَ لاٰ هُمْ یُسْتَعْتَبُونَ (۲) .

لأنّ هناک محل مواجهه نتائج الأعمال و لیس یوم العمل و الإصلاح،و هم حینها کالثمره المقطوفه التی انتهی زمن نموها.

۱- ۱) -أل«یوم»هنا ظرف متعلق بفعل مقدّر،و أصل العباره:(و لیذکروا)أو(و اذکروا).

۲- ۲) -یستعتبون:من الاسـتعتاب،و هی فی الأصل من(العتاب)و هو التحـدث بلهجه شدیـده و لوم،فیکون مفهوم الاسـتعتاب:أن یطلب المـذنب من صـاحب الحق عقابه فیصـبح سـببا لسـکون غضـبه و حصـول رضاه،و لهـذا اعتبر البعض،أنّ الاسـتعتاب بمعنی الاسترضاء..فی حین أنّ حقیقه مفهومه لیس الاسترضاء،و إنّما هو لازم له.

و تشرح الآيه التاليه حال الظالمين بعد انتهاء مرحله حسابهم و دخولهم في العذاب،و كيف أنّهم يطلبون تخفيف شده العذاب تاره،و يطلبون إمهالهم مدّه تاره أخرى،فتقول: وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذٰابَ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ .

و الآيتان أشارتا إلى أربع مراحل لأهوال المجرمين(و هو ما نشاهد شبيهه فى حياتنا الدنيا):

المرحله الأولى:سعى المجرم للتنصل و التزوير لتبرئه نفسه،و إن لم يحصل على هدفه يسعى إلى المرحله التاليه.

المرحله الثّانيه:يستعتب صاحب الحق و يمتص غضبه وصولا لرضاه،و إذا لم ينفعه ذلك يتنقل إلى المرحله الثّالثه.

المرحله الثّالثه:يطلب تخفيف العذاب،فيقول:عاقبنى و لكن خفف العذاب! و إن لم يستجاب له لعظم ذنبه فإنّه سيطلب الطلب الأخير...

المرحله الرّابعه:يطلب الإمهال و التأجيل،و هو المحاوله الأخيره للنجاه من العقاب...

إلاّ أنّ القرآن الكريم يجيب عن طلبات المجرمين بعدم حصول إذن الدفاع عنهم،و لا يمكنهم تحصيل رضا المولى جل و علا،و لا يخفف عنهم العذاب،و لا هم ينظرون،لأن أعمالهم من القباحه و ذنوبهم من العظمه تسد كل أبواب الاستجابه.

و فى الآيه التاليه..يستمر الحديث عن عاقبه المشركين،و كيف أنّهم سيحشرون فى جهنّم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجريه و البشريه،فتقول الآيه المباركه واصفه حالهم: وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكٰاءَهُمْ قٰالُوا رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ شُرَكٰاؤُنَا الَّذِينَ كُنّٰا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ،فهذه المعبودات هى التى وسوست لنا للوقوع فى درك العمل القبيح،و هى شريكنا فى الجرم أيضا،فارفع عنّا بعض العذاب و اجعله لها!

و عندها...تبدأ تلك الأصنام بالتكلم(بإذن اللّه): فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكَمْ لَكَاذِبُونَ ،فلم نكن شركاء للّه،و مهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

و هنا ينبغى التذكير ببعض الملاحظات:

١-إنّ استعمال كلمه«شركاءهم»بدلا من«شركاء اللّه»للدلاله على أنّ الأصنام ما كانت فى حقيقتها شريكه للّه عزّ و جلّ،بل إنّ عبده الأصنام و المشركين هم الذين نسبوها بهذا النسب خيالا و كذبا،فمن الحرى أن تنسب لهم و ليس إلى اللّه سبحانه.

و يؤيد ذلك ما مرّ علينا فيما سبق من تخصيص عبده الأصنام بعض مواشيهم و محصولاتهم الزراعيه مشاركه بينهم و بين الأصنام أى أنّهم جعلوا الأصنام شريكه لهم فى هذه الأنعام.

٢-يستفاد من الآيه أنّ الأصنام تحضر عرصه يوم القيامه أيضا، و ليس المعبودات البشريه فقط كفرعون و النمرود.

و الآيه(٩٨)من سوره الأنبياء: إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ تؤيد ذلك.

٣-و تظهر الآيه قول المشركين يوم القيامه من أنّهم كانوا يعبدون هذه الأصنام: هٰؤُلاٰءِ شُرَكٰاؤُنَا الَّذِينَ كُنّٰا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ و هذا القول يتضمن صدقهم فى قولهم فلا معنى لتكذيب الأصنام لهم فى هذه المقوله.

و لكن من الممكن أن يكون التكذيب بمعنى عدم لياقه الأصنام لأن تكون معبوده من دون اللّه.أو أنّ المشركين قد أضافوا جمله أخرى مفادها أنّ هذه المعبودات قد دعتنا و وسوست لنا لنعبدها،فتكذبهم الأصنام بأنّها لا تملك القدره أصلا على الوسوسه و الإيحاء.

۴-لعل ورود جمله فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ بدل«قالوا لهم»لعدم قدره الأصنام على التكلم بنفسها،فيكون قولها عباره عن إلقاء من قبل اللّه فيها،أى أنّ اللّه عزّ و جلّ يلقى إليها،و هى بدورها تلقيه إلى المشركين.

و تأتى الآيه التاليه لتبيّن أنّ الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم،و يسمعوا جواب قولهم،سيتوجهون إلى حاله أخرى... وَ أَلْقَوْا إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ (۱) مسلمين للّه،مذعنين لعظمته جل و علا،لأنّ غرور و تعصب الجاهلين قد أزيل برؤيه الحق الذى لا مفرّ من تصديقه و الإذعان إليه.

و فى هذه الأثناء،و حيث كل شىء جلى كوضوح الشمس.. وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ .فتبطل كذبتهم بوجود شريک للّه،و كذلک يبطل ادعاؤهم بشفاعه الأصنام لهم عند اللّه،عند ما يلمسون عدم قدره الأصنام للقيام بأى عمل،بل و يرونها محشوره معهم فى نار جهنم!.

و بهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصبا حول انحراف المشركين الضالين و غرقهم فى درک الشرک،دون أن يدعوا الآخرين إلى ما هم فيه..و بعد ذلک ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، و إنّما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين!فيقول: اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ .

فهم شركاء فى جرم الآخرين إضافه لما عليهم من تبعات أعمالهم،لأنّهم كانوا عاملا مؤثرا للفساد على الأرض و إضلال خلق اللّه بالصد عن سبيله.

و ذكرنا مرارا و انطلاقا من منطق الاجتماع الإسلامى أنّ من يسن سنّه(حسنه أم سيئه)فهو شريک العاملين بها ثوابا أو عقابا، و الحديث المشهور يبيّن لنا هذا المعنى بوضوح:

«من استن بسنّه عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن

۱- ۱) -احتمل بعض المفسّرين كصاحب الميزان:أنّ إظهار التسليم هنا كان من جانب عبده الأصنام فقط دون الأصنام،و يؤيد ذلک ما ورد فى ذيل الآيه.

ينتقص من أجورهم شىء و من استن سنّه جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شىء».

و على أيّه حال،فالآيات القرآنيه و الأحاديث الشريفه توضح مسئوليه الرؤساء و الموجهين أمام اللّه و أمام الناس.

و تتناول الآيه أيضا مسأله وجود الشهيد فى كل أمّه(و الذى ذكر قبل آيات معدوده)،و لمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .

و وجود هؤلاء الشهود،و على الخصوص من الأشخاص الذين ينهضون لهذه المهمّه من وسط نفس الأمم،لا يتعارض مع علم اللّه تعالى و إحاطته بكل شىء، بل هو للتأكيد على مراقبه أعمال الناس،و للتنبيه على وجود المراقبه الدائمه بشكل قطعى.

و مع أنّ عموم الحكم فى هذه الآيه يشمل المجتمع الإسلامى و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إلاّ أنّ القرآن الكريم فى مقام التأكيد قال: وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ .

و قيل إنّ المقصود ب«هؤلاء»المسلمون الذين يعيشون فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الرقيب و الناظر و الشاهد على أعمالهم،و من الطبيعى أن يكون ثمّه شخص آخر يأتى بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليكمل طريقه فيكون شهيدا على الأمّه(و هو من وسطها)،و ينبغى أن يكون طاهرا من كل ذنب و خطيئه،ليتمكن من إعطاء الشهاده حقّها.

و لهذا..اعتمد بعض المفسّرين(من علماء الشيعه و السنّه) على كون الآيه بمثابه الدليل على وجود شاهد،حجّه،عادل،فى كل عصر و زمان.و ضروره وجود الإمام المعصوم فى كل زمان،و هذا المنطق يتفق مع مذهب أهل البيت عليهم السّلام دون غيرهم من المذاهب الإسلاميه.

و لعل لهذا السبب عرض الفخر الرازى فى تفسيره عند مواجهته لهذا الإشكال

توجيها لا يخلو من إشكال أيضا حيث قال:(فحصل من هذا أن عصرا من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس،و ذلك الشهيد لا بدّ أن يكون غير جائز الخطاء و إلاّ لافتقر إلى شهيد آخر،و يمتد ذلك إلى غير النهايه،و ذلك باطل،فيثبت أنّه لا بدّ فى كل عصر من أقوام تقوم الحجّه بقولهم،و ذلك يقتضى أن يكون إجماع الأمّه حجّه) (۱) .

لو أنّ الفخر الرازى تجاوز قليلا حدود عقائده لم يكن ليسقط فى هكذا تناقض و عناد فاحش.لأنّ القرآن يقول: يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ و ليس مجموع الأمّه شاهدا على كل فرد من أفراد الأمّه.

و كما ذكرنا عند تفسيرنا للآيه(۴۱)من سوره النساء أنّ هناك احتمالين آخرين فى تفسير«هؤلاء»:

الأوّل:أنّ«هؤلاء»إشاره إلى شهداء الأمم السابقه من الأنبياء عليهم السّلام و الأوصياء،فيكون النّبى شاهدا على هذه الأمه و شاهدا على الأنبياء السابقين أيضا.

الثّانى:المقصود من الشاهد هنا هو الشاهد العملى،أى:شخص يكون وجوده قدوه و ميزانا لتمييز الحق من الباطل.

(و المزيد من الإيضاح،راجع ذيل الآيه(۴۱)من سوره النساء).

و بما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل و جامع للناس بما تتم فيه الحجّه عليهم،و يصح فيه مفهوم النظاره و المراقبه،لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشره: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

۱- ۱) -تفسير الفخر الرازى،ج ۳۰،ص ۹۸.

بحثان

اشاره

۱-القرآن تبيان لكل شيء:

من أهم ما تطرقت له الآيات المباركات هو أنّ القرآن مبين لكل شيء.

«تبيان»(بكسر التاء أو فتحها)له معنى مصدرى (۱) ،و يمكن الاستدلال بوضوح على كون القرآن بيانا لكل شيء من خلال ملاحظه سعه مفهوم«كل شيء»،و لكن بملاحظه أن القرآن كتاب تربيه و هدايه للإنسان و قد نزل للوصول بالفرد و المجتمع-على كافه الأصعده الماديه و المعنويه-إلى حال التكامل و الرقى،يتّضح لنا أنّ المقصود من كل«شيء»هو كل الأمور اللازمه للوصول إلى طريق التكامل،و القرآن ليس بدائره معارف كبيره و حاويه لكل جزئيات العلوم الرياضيه و الجغرافيه و الكيميائيه و الفيزيائيه...إلخ،و إنّما القرآن دعوه حق لبناء الإنسان،و صحيح أنّه وجه دعوته للناس لتحصيل كل ما يحتاجونه من العلوم، و صحيح أيضا أنّه قد كشف الستار عن الكثير من الأجزاء الحساسه فى جوانب علميه مختلفه ضمن بحوثه التوحيديه و التربيه،و لكن ليس ذلك الكشف هو المراد،و إنّما توجيه الناس نحو التوحيد و التربيه الربانيه التى توصل الإنسان إلى شاطئ السعاده الحقه من خلال الوصول لرضوانه سبحانه.

و يشير القرآن الكريم تاره إلى جزئيات الأمور و المسائل،كما فى بيانه لأحكم كتابه العقود التجاريه و سندات القرض،حيث ذكر(۱۸)حكما فى أطول أيه قرآنيه و هى الآيه(۲۸۲)من سوره البقره (۲) .

و تاره أخرى يعرض القرآن المسائل الحياتيه للإنسان بصورها الكليه،كما فى الآيه التى ستأتى قريبا،حيث يقول:

---

۱ – ۱) -نقل«الآلوسى»فى(روح المعانى)عن بعض الأدباء:أن جميع المصادر على وزن(تفعال)تفتح تاؤها إلاـ مصدرين «تبيان»و«تلقاء».و يعتبرها بعض مصدرا،و بعض آخر يعتبرها اسم مصدر.

۲- ۲) -راجع ذيل تفسير الآيه(۲۸۲)من سوره البقره.

إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِی الْقُرْبی وَ يَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْیِ

.

و كـذلك عموم مفهوم الوفاء بالعهد فی الآيه(۳۴)من سوره الإسـراء: إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً ،و عموم مفهوم الوفاء بالعقد فی الآيه الأولی من سوره المائـده: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ،و لزوم أداء حق الجهـاد كما جاء فی الآيه(۷۸)من سوره الحـج: وَ جاهِدُوا فِی اللّهِ حَقَّ جِهادِهِ و كمفهوم إقامه القسط و العدل كما جاء فی الآيه(۴۵)من سوره الحديد: لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ ،و عموم مفهوم رعايه النظم فی كل الأمور فی الآيات(۷،۸،۹)من سوره الرحمن: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلاّ تَطْغَوْا فِی الْمِيزانِ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ و عموم الميزان أَلاّ تَطْغَوْا فِی الْمِيزانِ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ و عموم مفهوم الامتناع عن فعل الفساد فی الأرض كما فی الآيه(۸۵)من سوره الأعراف: وَ لا تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ،بالإضافه إلی الدعوه للتدبر و التفكر و التعقـل التی وردت فی آيـات كثيره فی القرآن الكريم،و أمثال هـذه التوجيهات العامه كثيره فی القرآن،لتكون للإنسان نبراسـا وهاجـا فی كـافه مجالات الفكر و الحيـاه و الإنسـان..و كـل ذلـك يـدلل بمـا لا يقبـل التردد أو الشـك علی أنّ القرآن الكريم«فيه تبيان لكل شیء».

بـل و حـتی فروع هـذه الأوامر الكليـه لم يهملهـا البـاری سـبحانه،و إنّمـا عيّن لهـا من يؤخـذ منه التفاصـيل،كمـا تـبيّن لنـا ذلك الآيه(۷)من سوره الحشر: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .

و الإنسان كلما سـبح فی بحر القرآن الكريم و توغّل فی أعماقه،و اسـتخرج برامجا و توجيهات توصـله إلی السـعاده،اتّضـحت له عظمه هذا الكتاب السماوی و شموله.

و لهذا،فمن استجدی القوانين من ذا و ذاك و ترك القرآن،فهو لم يعرف القرآن،و طلب من الغير ما هو موجود عنده.

و إضافه لتشخيص الآيه المباركه مسأله أصاله و استقلال تعاليم الإسلام فی

کل الأمور،فقد حمّلت المسلمين مسئوليه البحث و الدراسه فی القرآن الكريم باستمرار ليتوصلوا لاستخراج كل ما يحتاجونه.

و قد أكّدت الرّوايات الكثيره على مسأله شمول القرآن ضمن تطرقها لهذه الآيه و ما شابهها من آيات.

منها:ما

روی عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارک و تعالی أنزل فی القرآن تبيان كل شیء حتی و اللّه ما ترک شيئا تحتاج إليه العباد،حتی لا يستطيع عبد يقول:لو كان هذا أنزل فی القرآن،إلاّ و قد أنزله اللّه فيه» (۱) .

و

فی روايه أخرى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارک و تعالی لم يدع شيئا تحتاج إليه الأمّه إلاّ أنزله فی كتابه و بيّنه لرسوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و جعل لكل شیء حدا،و جعل عليه دليلا يدل عليه،و جعل على من تعدى ذلک الحد حدا» (۲) .

و جاء فی الرّوايات الشريفه الإشاره الی هذه المسأله أيضا.و هی أنّه مضافا الی ظواهر القرآن و ما يفهمه منها العلماء و سائر الناس،فإنّ باطن القرآن بمثابه البحر الذی لا يدرک غوره،و فيه من المسائل و العلوم ما لا يدركها إلاّ النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و أوصياؤه بالحق،و من هذه الرّوايات ما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ و له أصل فی كتاب اللّه عزّ و جلّ،و لكن لا تبلغه عقول الرجال» (۳) .

إنّ عدم إدراک العامه لهذا القسم من العلوم القرآنيه الذی يمكننا تشبيهه ب(عالم اللاشعور)لا يمنع من التحرک فی ضوء(عالم الشعور)و على ضوء ظاهره و الاستفاده منه.

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۷۴.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۷۵.

۲-مراحل الهدایه الأربع

إنّ الآیه أعلاه ذکرت أربعه تعابیر متلازمه حسب تسلسلها لتوضیح الهدف من نزول القرآن:

۱-تبیانا لکل شیء.

۲-هدی.

۳-رحمه.

۴-بشری للمسلمین.

و لو أمعنـا النظر لوجـدنا ثمّه ارتباطـا منطقیـا واضـحا بین هـذه التعـابیر،فکلّ منها یرمز إلی مرحله معینه،المرحله الأولی فی مسـیر الهدایه تستلزم البیان و التعلیم، و بعدها تأتی مرحله الهدایه،و من ثمّ تأتی العمل الموجب للرحمه،و أخیرا البشری بثواب اللّه لمن آمن و عمل صالحا و سرور جمیع السائرین علی طریق الحق.

الآیه [سوره النحل (۱۶): آیه ۹۰]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ اَلْإِحْسٰانِ وَ إِیتٰاءِ ذِی اَلْقُرْبیٰ وَ یَنْهیٰ عَنِ اَلْفَحْشٰاءِ وَ اَلْمُنْکَرِ وَ اَلْبَغْیِ یَعِظُکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۹۰)

التّفسیر

اشاره

أکمل برنامج اجتماعی:

بعد أن ذکرت الآیات السابقه أنّ القرآن فیه تبیان لکل شیء،جاءت هذه الآیه المبارکه لتقدم نموذجا من التعلیمات الإسلامیه فی شأن المسائل الاجتماعیه و الإنسانیه و الأخلاقیه،و قد تضمّنت الآیه سته أصول مهمّه،الثلاث الأوّل منها ذات طبیعه إیجابیه و مأمور بالعمل بها،و البقیه ذات صفه سلبیه منهی عن ارتکابها.

فتقول فی البدء: إِنَّ اللّٰهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسٰانِ وَ إِیتٰاءِ ذِی الْقُرْبیٰ .

و هل یمکن تصور وجود قانون أوسع و أشمل من«العدل»؟! فالعدل هو القانون الذی تدور حول محوره جمیع أنظمه الوجود،و حتی السماوات و الأرض فهی قائمه علی أساس العدل«بالعدل قامت السماوات

ص:۲۹۶

و الأرض».

و المجتمع الإنسانی الذی هو جزء صغیر فی کیان هذا الوجود الکبیر،لا یقوی أن یخرج عن قانون العدل،و لا یمکن تصور مجتمع ینشد السّلام یحظی بذلک دون أن تستند أرکان حیاته علی أسس العدل فی جمیع المجالات.

و لما کان المعنی الواقعی للعدل یتجسد فی جعل کل شیء فی مکانه المناسب، فالانحراف و الإفراط و التفریط و تجاوز الحد و التعدی علی حقوق الآخرین،ما هی إلّا صور لخلاف أصل العدل.

فالإنسان السلیم هو ذلک الذی تعمل جمیع أعضاء جسمه بالشکل الصحیح (بدون أیه زیاده أو نقصان).و یحل المرض فیه و تتبیّن علیه علائم الضعف و الخوار بمجرّد تعطیل أحد الأعضاء،أو تقصیره فی أداء وظیفته.

و یمکن تشبیه المجتمع ببدن إنسان واحد،فإنّه سیمرض و یعتل إن لم یراع فیه العدل.

و مع ما للعداله من قدره و جلال و تأثیر عمیق فی کل الأوقات-الطبیعیه و الاستثنائیه-فی عملیه بناء المجتمع السلیم،إلّا أنّها،لیست العامل الوحید الذی یقوم بهذه المهمّه،و لذلک جاء الأمر ب«الإحسان»بعد«العدل»مباشره و من غیر فاصله.

و بعباره أوضح:قد تحصل فی حیاه البشریه حالات حسّاسه لا یمکن معها حل المشکلات بالاستعانه بأصل العداله فقط،و إنّما تحتاج إلی إیثار و عفو و تضحیه،و ذلک ما یتحقق برعایه أصل«الإحسان».

و علی سبیل المثال:لو أنّ عدوا غدّارا هجم علی مجتمع ما،أو وقعت زلزله أو فیضان أو عواصف فی بعض مناطق البلاد،فهل من الممکن معالجه ذلک بالتقسیم العادل لجمیع الطاقات و الأموال،و تنفیذ سائر القوانین العادیه؟!هنا لا بدّ من تقدیم التضحیه و البذل و الإیثار لکل من یملک القدره المالیه،الجسمیه،

الفکریه،لمواجهه الخطر و إزالته،و إلاّ فالطریق مهیأ أمام العدو لإهلاک المجتمع کله،أو أنّ الحوادث الطبیعیه ستدمر أکبر قدر من الناس و الممتلکات.

و الأصلان یحکمان نظام بدن الإنسان أیضا بشکل طبیعی، ففی الأحوال العادیه تقوم جمیع الأعضاء بالتعاضد فیما بینها،و کلّ منها یؤدی ما علیه من وظائف بالاستعانه بما تقوم به بقیه الأعضاء(و هذا هو أصل العداله).

و لکن..عند ما یصاب أحد الأعضاء بجرح أو عطل یسبب فی فقدانه القدره علی أداء وظیفته،فإنّ بقیه الأعضاء سوف لن تنساه،لأنّه توقف عن عمله،بل تستمر فی تغذیته و دعمه...إلخ،(و هذا هو الإحسان).

و فی المجتمع کذلک،حیث ینبغی للمجتمع السلیم أن یحکمه هذان الأصلان.

و ما جاء فی الرّوایات و فی أقوال المفسّرین،من بیانات مختلفه فی الفرق بین العدل و الإحسان،لعل أغلبها یشیر إلی ما قلناه أعلاه.

فعن علی علیه السّلام أنّه قال: «العدل:الإنصاف،و الإحسان:التفضل» (1) و هذا ما أشرنا إلیه.

و قال البعض:إنّ العدل:أداء الواجبات،و الإحسان:أداء المستحبات.

و قال آخرون:إنّ العدل:هو التوحید،و الإحسان:هو أداء الواجبات.

(و علی هذا التّفسیر یکون العدل إشاره إلی الإعتقاد،و الإحسان إشاره إلی العمل).

و قال بعض:العداله:هی التوافق بین الظاهر و الباطن،و الإحسان:هو أن یکون باطن الإنسان أفضل من ظاهره.

و اعتبر آخرون:أنّ العداله ترتبط بالأمور العملیّه،و الإحسان بالأمور الکلامیه.

1- 1) -نهج البلاغه،الکلمات القصار،رقم 231.

و كما قلنا فإنّ بعض هذه التفاسير ينسجم تماما مع التّفسير الذى قدّمناه أعلاه،و بما أنّ البعض الآخر لا ينافيه فيمكن و الحال هذه الجمع بينهما.

أمّا مسأله إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبى فتندرج ضمن مسأله«الإحسان»حيث أن الإحسان يشمل جميع المجتمع،بينما يخص هذا الأمر جماعه صغيره من المجتمع الكبير و هم ذوو القربى،و بلحاظ أنّ المجتمع الكبير يتألف من مجموعات،فكلما حصل فى هذه المجموعات انسجام أكثر،فإنّ أثره سيظهر على كل المجتمع، و المسأله تعتبر تقسيما صحيحا للوظائف و المسؤوليات بين الناس،لأنّ ذلك يستلزم من كل مجموعه أن تمديد العون إلى أقربائها(بالدرجه الأولى)ممّا سيؤدى لشمول جميع الضعفاء و المعوزين برعايه و اهتمام المتمكنين من أقربائهم.

و على ما نجده فى بعض الأحاديث من أنّ المقصود ب«ذى القربى»هم أهل بيت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ذريته من الأئمّه عليهم السّلام،و المقصود ب إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبى هو أداء الخمس،فإنّه لا يقصد منه تحديد مفهوم الآيه أبدا،بل هو أحد مصاديق المفهوم الواضحه،و لا يمنع إطلاقا من شمول مفهوم الآيه الواسع.

لو اعتبرنا مفهوم«ذى القربى»بمعنى مطلق الأقرباء،سواء كانوا أقرباء العائله و النسب،أو أقرباء من وجوه أخرى،فسيكون للآيه مفهوم أوسع ليشمل حتى الجار و الأصدقاء و ما شابه ذلك(و لكنّ المعروف فى ذلك قربى النسب).

و لإعانه المجموعات الصغيره(الأقرباء)بناء محكم من الناحيه العاطفيه، إضافه لما لها من ضمانه تنفيذيه.

و بعد ذكر القرآن الكريم للأصول الإيجابيه الثلاثه يتطرق للأصول المقابله لها (السلبيه)فيقول: وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ .

و تحدث المفسّرون كثيرا حول المصطلحات الثلاثه«الفحشاء»،«المنكر»، «البغى»،إلاّ أنّ ما يناسب معانيها اللغويه بقرينه مقابله الصفات مع بعضها الآخر يظهر أنّ«الفحشاء»:إشاره إلى الذنوب الخفيه،و«المنكر»:إشاره إلى الذنوب

العلنیه،و«البغی»:إشاره إلی کل تجاوز عن حق الإنسان،و ظلم الآخرین و الاستعلاء علیهم.

قال بعض المفسّرون (۱) :إنّ منشأ الانحرافات الأخلاقیه ثلاث قوی:القوّه الشهوانیه،القوّه الغضبیه،و القوه الوهمیه الشیطانیه.

أمّا القوّه الشهوانیه فإنما ترغّب فی تحصیل اللذائذ الشهوانیه و الغرق فی الفحشاء،و القوه الغضبیه تدفع الإنسان إلی فعل المنکرات و إیذاء سائر الناس، و أمّا القوّه الوهمیه الشیطانیه فتوجد فی الإنسان الاستعلاء علی الناس و الترفع و حبّ الریاسه و التقدم و التعدی علی حقوق الآخرین.

و أشار الباری سبحانه فی المصطلحات الثلاثه أعلاه إلی طغیان غرائز الإنسان،و دعا إلی طریق الحق و الهدایه ببیان جامع لکل الانحرافات الأخلاقیه.

و فی آخر الآیه المبارکه یأتی التأکید مجددا علی أهمیه هذه الأصول السته:

یَعِظُکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ

.

أشمل آیات الخیر و الشر:

إنّ محتوی هذه الآیه المبارکه له من قوّه التأثیر ما جعل کثیرا من الناس یصبحون مسلمین علی بیّنه من أمرهم،و ها هو«عثمان بن مظعون»أحد أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث قال:(کنت أسلمت استحیاء من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لکثره ما کان یعرض علیّ الإسلام،و لم یقر الإسلام فی قلبی،فکنت ذات یوم عنده حال تأمله،فشخص بصره نحو السماء کأنّه یستفهم شیئا،فلمّا سرّی عنه سألته عن حاله فقال:نعم،بیّنا أنا أحدثک إذ رأیت جبرائیل فی الهواء فأتانی بهذه الآیه إِنَّ اللّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ و قرأها علیّ إلی آخرها،فقّر الإسلام فی قلبی.و أتیت

۱- ۱) -التّفسیر الکبیر للفخر الرازی،ج ۲۰،ص ۱۰۴.

عمّه أبا طالب فأخبرته فقال:يا آل قريش،اتبعوا محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ترشدوا،فإنّه لا يأمركم إلّا بمكارم الأخلاق،و أتيت الوليد بن المغيره و قرأت عليه هذه الآيه فقال:إن كان محمّد قاله فنعم ما قال،و إن قاله ربّه فنعم ما قال) (۱) .

و نقرأ

في حديث آخر أنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قرأ هذه الآيه على الوليد بن المغيره فقال:(يا ابن أخي (۲) أعد،فأعاد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال الوليد:إنّ له الحلاوه،و إنّ عليه لطلاوه،و إنّ أعلاه لمثمر،و إنّ أسفله لمغدق،و ما هو قول البشر) (۳) .

و

روى عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «جماع التقوى في قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ (۴) .

و نستفيد من هذه الأحاديث-و أحاديث أخرى أنّ الآيه تعتبر دستور عمل إسلامي عام،و تمثل أحد مواد القانون الأساسي للإسلام في كل زمان و مكان، حتى

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه كان يقرأ الآيه المباركه قبل الانتهاء من خطبه الجمعه ثمّ يقول بعدها:«اللّهم اجعلنا ممن يذكر فتنفعه الذكرى» (۵) ثمّ ينزل من على المنبر.

فإحياء الأصول الثلاثه«العدل،و الإحسان،و إيتاء ذى القربى»،و مكافحه الانحرافات الثلاث«الفحشاء و المنكر،و البغي»على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامرّه بالخير،و هادئه من كل اضطراب،و خاليه من أي سوء و فساد،و إذا روى عن ابن مسعود(الصحابي المعروف)قوله:(هذه الآيه أجمع آيه في كتاب اللّه للخير و الشر)فهو للسبب الذي ذكرناه.

و يذكرنا محتوى الآيه المباركه بالحديث

المروي عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله:

۱- ۱) -مجمع البيان،ذيل تفسير الآيه مورد البحث.
۲- ۲) -قال هذا لأنه عم أبي جهل و كلاهما من قريش.
۳- ۳) -مجمع البيان:ذيل تفسير الآيه مورد البحث.
۴- ۴) -نور الثقلين،ج ۳،ص ۷۸.
۵- ۵) -الكافي على ما نقل عنه تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۷۷.

«صنفان من أمّتى إذا صلحا صلحت أمتى،و إذا فسدا فسدت أمتى،فقيل:يا رسول اللّه،من هما؟قال:الفقهاء و الأمراء».

و

ذكر المحدّث القمّى فى(سفينه البحار)حديثا بعد نقله لهذا الحديث مرويا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «تكلم النّار يوم القيامه ثلاثه:أميرا،و قارئا،و ذا ثروه من المال،فتقول للأمير:يا من وهب اللّه له سلطانا فلم يعدل،فتزدرده كما تزدرد الطير حبّ السمسم،و تقول للقارئ:يا من تزين للناس و بارز اللّه بالمعاصى،فتزدرده،و تقول للغنى:يا من وهب اللّه له دنيا كثيره واسعه فيضا و سأله الحقير اليسير قرضا،فأبى إلاّ بخلا،فتزدرد؟ و قد بحثنا موضوع العداله باعتبارها ركنا إسلاميا مهمّا جدّا ضمن تفسيرنا للآيه(٨)من سوره المائده.

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۹۱ الی ۹۴]

اشاره

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اَللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ وَ لاٰ تَنْقُضُوا اَلْأَيْمٰانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اَللّٰهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ (۹۱) وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمٰانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمٰا يَبْلُوكُمُ اَللّٰهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ مٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۹۲) وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۳) وَ لاٰ تَتَّخِذُوا أَيْمٰانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا وَ تَذُوقُوا اَلسُّوءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لَكُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۹۴)

سبب النّزول

یقول المفسّر الکبیر العلاّمه الطبرسی فی(مجمع البیان)فی شأن نزول أوّل

آیه من هـذه الآیـات أنّهـا نزلت فی الـذین بایعوا النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم علی الإسـلام(و کان من المحتمل أن ینقض بعضـهم البیعه لقلّه المسـلمین و کثره الأعداء)،فقال سـبحانه مخاطبا لهم لا یحملنّکم قلّه المسـلمین و کثره المشـرکین علی نقض البیعه.

التّفسیر

اشاره

الوفاء بالعهد دلیل الإیمان:

بعـد أن عرض القرآن الکریم فی الآیه السابقه بعض أصول الإسـلام الأساسـیه (العـدل،و الإحسان،و ما شابههما)،یتناول فی هـذه الآیات قسما آخر من تعالیم الإسلام المهمّه(الوفاء بالعهد و الأیمان).

یقول أوّلا: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ إِذا عاهَدْتُمْ ،ثمّ یضـیف: وَ لا تَنْقُضُوا الْأَیْمانَ بَعْدَ تَوْکِیدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَیْکُمْ کَفِیلاً إِنَّ اللّهَ یَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ .

إنّ ظاهر معنی«عهد اللّه»-مع کثره ما قال المفسّرون فیه-و هو:العهود التی یبرمها الناس مع اللّه تعالی(و بدیهی أنّ العهد مع النّبی عهد مع اللّه أیضا)،و علیه فهو یشمل کل عهد إلهی و بیعه فی طریق الإیمان و الجهاد و غیر ذلک.

بل إنّ التکالیف الشرعیه التی یعلنها النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم هی من نوع من العهد الإلهی الضمنی،و کذا الحال بالنسبه للتکـالیف العقلیه،لأنّ إعطـاء العقـل و الإدراک من اللّه عزّ و جلّ للإنسان إنّما یرافقه عهـد ضـمنی،و هکـذا یـدخل الجمیع فی المفهوم الواسع لعهد اللّه.

أمّا مسأله«الأیمان»(جمع یمین،أیّ:القسم)التی وردت فی الآیه-و التی عرض فیها المفسّرون آراء کثیره-فلها معنی واسع،و یتّضح ذلـک عنـد ملاحظه مفهوم الجمله حیث أنّه یشـمل العهود التی یعقـدها الإنسان مع اللّه عزّ و جلّ، بالإضافه إلی ما یسـتعمله من أیمان فی تعامله مع خلق اللّه.

و بعباره أخری: یدخل بین إطار هذه الجمله کل عهد یبرم تحت اسم اللّه

و باستعمال صيغه القسم،و ما يؤكّد ذلك ما تبعها من عباره تفسيريه تأكيديه وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً .

و نتيجه القول:أنّ جمله أَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ خاصّه،و جمله لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ عامّه.

و حيث أنّ الوفاء بالعهد أهم الأسس فى ثبات أىّ مجتمع كان،تواصل الآيه التاليه ذكره بأسلوب يتسم بنوع من اللوم و التوبيخ،فتقول: وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّهٍ أَنْكاثاً (۱) .

و الآيه تشير إلى(رابطه)تلك المرأه التى عاشت فى قريش زمن الجاهليه، و كانت هى و عاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصف النهار فى غزل ما عندهن من الصوف و الشعر،و بعد أن ينتهين من عملهن تأمرهن بنقض ما غزلن،و لهذا عرفت بين قومها ب(الحمقاء).

فما كانت تقوم به(رابطه)لا يمثل عملا بالا ثمر-فحسب-بل هو الحماقه بعينها،و كذا الحال بالنسبه لمن يبرم عهدا مع اللّه و باسمه،ثمّ يعمل على نقضه،فهو ليس بعابث فقط،و إنّما هو دليل على انحطاطه و سقوط شخصيته.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّهٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّهٍ (۲) ،أى لا تنقضوا عهودكم مع اللّه بسبب أنّ تلك المجموعه أكبر من هذه فتقعوا فى الخيانه الفساد.

و هذا دليل على ضعف شخصيه الفرد،أو نفاقه و خيانته حينما يرى كثره أتباع

ص:۳۰۵

۱- ۱) -«أنكاث»:جمع(نكث)على وزن(قسط)بمعنى حل خيوطه الصوف و الشعر بعد برمها،و تطلق أيضا على اللباس الذى يصنع من الصوف و الشعر،و أمّا محل إعرابها فى الآيه فهو(حال)للتأكيد على قول البعض،فيما اعتبرها آخرون(مفعولا ثانيا) لفعل«نقضت»أى(جعلت غزلها أنكاثا).

۲- ۲) -«الدّخل»:(على وزن الدغل)،بمعنى الفساد و التقلب و منها أخذ معنى(الداخل)،و ينبغى الالتفات إلى أنّ جمله تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ -على ما قلناه من تفسير-جمله حاليّه،إلاّ أنّ بعض المفسّرين اعتبرها جمله استفهاميه،و التّفسير الأوّل يوافق ظاهر الآيه.

المخالفين فيترک دينه القويم و ينخرط فى المسالک الباطله التى يتبعها الأكثريه.

و اعلموا إِنَّمٰا يَبْلُوكُمُ اللّٰهُ بِهِ .

و اليوم الـذى تكونون فيه كثره و أعـداءكم قله ليس بيوم اختبـار و امتحان،بل امتحانكم فى ذلک اليوم الـذى يقف فيه عـدوكم أمامكم و هو يزيدكم عددا بأضعاف مضاعفه و أنتم قلّه.

و على أيه حال..ستتّضح النتيجه فى الآخره ليلاقى كل فرد جزاءه العادل:

وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ مٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

من هذا الأمر و غيره.

و الآـيه التـاليه تجيب على توهم غالبـا مـا يطرق الأذهـان عنـد الحـديث عن الامتحـان الإلـهى و التأكيـد على الالـتزام بـالعهود و الوظائف،و خلاصته:هل أنّ اللّه لا يقدر على إجبار الناس جميعا على قبول الحق؟فتقول: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً .

«أمّه واحده»من حيث الإيمان و العمل على الحق بشكل إجبارى،و لكن ذلک سوف لا يكون خطوه نحو التكامل و التسامى و لا فيه أفضليه للإنسان فى قبوله الحق،و عليه فقد جرت سنّه اللّه بترک الناس أحرارا ليسيروا على طريق الحق مختارين.

و لا تعنى هـذه الحريه بأنّ اللّه سـيترک عباده و لا يعينهم فى سـيرهم،و إنّما بقـدر ما يقدمون على السـير و المجاهده سيحصـلون على التوفيـق و الهـدايه و السـداد منه جـل شأنه،حـتى يصلوا لهـدفهم،بينمـا يحرم السـائرون على طريـق الباطـل من هـذه النعمه الرّبانيه،فتراهم كلما طال المقام بهم ازدادوا ضلالا.

و لهذا يواصل القرآن الكريم القول ب: وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشٰاءُ .

و لكنّ الهدايه الإلهيه أو الإضـلال لا تسلب المسؤوليه عنكم،حيث أنّ الخطوات الأولى على عواتقكم،و لهذا يأتى النداء الربانى: وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ

.

و تشیر هذه العباره إلی نسبه أعمال البشر إلی أنفسهم،و تؤکّد علی تحمیلهم مسئولیه تلک الأعمال،و تعتبر من القرائن الواضحه فی تفسیر مفهوم الهدایه و الإضلال الإلهیین و أن أیّا منهما لا یستبطن صفه الإجبار أبدا.

و قد بحثنا هذا الموضوع سابقا(راجع تفسیر الآیه(۲۶)من سوره البقره).

و تأکیدا علی مسأله الوفاء بالعهد و الثبات فی الإیمان(باعتبار ذلک من العوامل المهمّه فی ثبات المجتمع)یقول القرآن: وَ لاٰ تَتَّخِذُوا أَیْمٰانَکُمْ دَخَلاً بَیْنَکُمْ أی وسیله للخداع و النفاق،لأنّ فی ذلک خطرین کبیرین:

الأوّل: فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا ،لأنّ من یبرم عهدا أو یطلق قسما و نیته أن لا یفی بذلک فسوف لا یعول علیه الناس و لا یثقون به،و مثله کمن وضع قدمه علی أرض قد بدت له أنّها صلبه و محکمه،إلاّ أنّها زلقه فی الواقع،و ستکون سببا فی انزلاقه و سقوطه.

الثّانی: وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ فی هذه الدنیا وَ لَکُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ فی الآخره.

من الآثار السلبیه لنقض العهود و الأیمان شیاع سوء ظن الناس و تنفرهم من الدین الحق،و تشتت الصفوف و فقدان الثقه حتی لا یرغب الناس فی الإسلام،و إن عقدوا معکم عهدا فسوف لا یجدون أنفسهم ملزمین بالوفاء به،و هذا ما یؤدی لمساوی،و مفاسد کثیره و بروز حاله التخلف فی الحیاه الدنیا.

و أمّا علی صعید الحیاه الأخری فإنه سیکون سببا للعقاب بالعذاب الإلهی.

ص :۳۰۷

بحثان

اشاره

۱-فلسفه احترام العهد

کما هو معلوم فإنّ الثقه المتبادله بین أفراد المجتمع تمثل أهم دعائم رسوخ المجتمع،بل من دعائم تشکیل المجتمع و إخراجه من حاله الآحاد المتفرقه و إعطائه صفه التجمع،و بالإضافه لکون أصل الثقه المتبادله یعتبر السند القویم للقیام بالفعالیات الاجتماعیه و التعاون علی مستوی واسع.

و العهد و القسم من مؤکدات حفظ هذا الارتباط و هذه الثقه،و إذا تصورنا مجتمعا کان نقض العهد فیه هو السائد،فمعنی ذلک انعدام الثقه بشکل عام فی ذلک المجتمع،و عندها سوف یتحول المجتمع الی آحاد متناثره تفتقد الارتباط و القدره و الفاعلیه الاجتماعیه.

و لهذا نجد أنّ الآیات القرآنیه و الأحادیث الشریفه تؤکّد باهتمام بالغ علی مسأله الوفاء بالعهد و الأیمان،و تعتبر نقضها من کبائر الذنوب.

و قد أشار أمیر المؤمنین علیه السّلام إلی أهمیه هذا الموضوع فی الإسلام و الجاهلیه و اعتبره من أهم المواضیع فی

قوله عند عهده لمالک الأشتر «فإنّه لیس من فرائض اللّه شیء الناس أشد علیه اجتماعا من تفرق أهوائهم و تشتت آرائهم،من تعظیم الوفاء بالعهود،و قد لزم ذلک المشرکون فیما بینهم دون المسلمین لما استوبلوا من عواقب الغدر» (۱) .

و نجد فی أحکام الحرب الإسلامیه أنّ إعطاه الأمان من قبل فرد واحد من جیش المسلمین لشخص أو کتیبه من کتائب العدو یوجب مراعاه ذلک علی کل المسلمین! یقول المؤرخون و المفسّرون:من جمله الأمور التی جعلت الکثیر من الناس

۱- ۱) -نهج البلاغه،الرساله ۵۳.

فی صدر الإسلام یعتنقون هذا الدین الإلهی العظیم هو التزام المسلمین الراسخ بالعهود و المواثیق و رعایتهم لأیمانهم.

و ما لهذا الأمر من أهمیه بحیث دفع سلمان الفارسی لأن یقول:(تهلک هذه الأمّه بنقض مواثیقها) (۱) .

أی أنّ الوفاء بالعهد و المیثاق کما أنّه یوجب القدره و النعمه و التقدم،فنقضهما یؤدی إلی الضعف و العجز و الهلاک.

و نجد فی التأریخ الإسلامی أنّ المسلمین عند ما غلبوا جیش الساسانیین فی عهد الخلیفه الثّانی و أسروا الهرمزان قائد جیش فارس،و جاؤوا به إلی عمر،قال له عمر:ما حجتک و ما عذرک فی انتقاضک مرّه بعد أخری؟ فقال:أخاف أن تقتلنی قبل أن أخبرک.

قال:لا تخف ذلک،و استسقی ماء فأتی به فی قدح غلیظ.

فقال:لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب فی مثل هذا!فأتی به فی إناء یرضاه..

فقال:إنّی أخاف أن أقتل و أنا أشرب.

فقال عمر:لا بأس علیک حتی تشربه،فأکفأه...

فقال عمر: أعیدوا علیه و لا تجمعوا علیه بین القتل و العطش..

فقال:لا حاجه لی فی الماء،إنّما أردت أن أستأمن به.

فقال عمر له:إنّی قاتلک.

فقال:قد أمنتنی.

فقال:کذبت.

قال أنس:صدق یا أمیر المؤمنین قد أمنته.

فقال عمر:یا أنس،أنا أؤمن قالت مجزأه بن ثور،و البراء بن مالک!و للّه لتأتّین

۱- ۱) -مجمع البیان،فی تفسیر الآیه(۹۴).

بمخرج أو لأعاقبنّك.

قال:قلت له:لا بأس عليك حتى تخبرنى،و لا بأس عليك حتى تشربه..

و قال له من حوله مثل ذلك...

فأقبل على الهرمزان و قال:خدعتنى،و اللّه لا أنخدع إلاّ أن تسلم فأسلم (۱) .

۲-ما لا يقبل فى نقض العهود:

إنّ قبح نقض العهد الشناعه بحيث لا أحدا على استعداد لأن يتحمل مسئوليه بصراحه إلاّ النادر من الناس حتى أن ناقض العهد يلتمس لذلك اعذارا و تبريرات مهما كانت واهيه لتبرير فعلته.و قد ذكرت لنا الآيات أعلاه نموذجا لذلك..فبعض المسلمين يتذرعون بحجج واهيه ككثره الأعداء و قله المؤمنين للتنصل من عهودهم مع اللّه و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتكون مواقفهم متزلزله،فى حين أنّ الأكثريه من حيث العدد لا تمثل القدره و القوه فى واقع الحال،و انتصار القلّه المؤمنه على الكثره غير المؤمنه من الشواهد المعروفه فى تأريخ البشريه، ثمّ إنّ حصول القدره و القوه للأعداء-على فرض حصولها-لا تسوغ لأن تكون مبررا مقبولا لنقض العهد،و لو دققنا النظر فى الإمر لرأينا فى واقعه أنّه نوع من الشرك و الجهل باللّه عزّ و جلّ.

و قد تجسّد هذا الموضوع بعينه فى عصرنا الحاضر و لكن بصوره أخرى..

فقسم من الدول الإسلاميه الصغيره فى الظاهر قد تنصلت عن أداء وظائفها فى نصره المؤمنين لخوفها من الدول الاستعماريه الكبرى،فتقدم فى حساباتها قدره البشر الهزيله على قدره اللّه المطلقه،و تلتجئ إلى غير اللّه و تخشى غيره، و تنقض عهدها مع بارئها،و كل ذلك من بقايا الشرك و عباده الأصنام.

۱- ۱) -الكامل فى التاريخ،ج ۲،ص ۵۹۴.

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۹۵ الی ۹۷]

اشاره

وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اَللّٰهِ ثَمَناً قَلِیلاً إِنَّمٰا عِنْدَ اَللّٰهِ هُوَ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹۵) مٰا عِنْدَکُمْ یَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ بٰاقٍ وَ لَنَجْزِیَنَّ اَلَّذِینَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۹۶) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیٰاةً طَیِّبَةً وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۹۷)

سبب النّزول

نقل المفسّر الکبیر العلاّمه الطبرسی عن ابن عباس قوله: إنّ رجلا من حضر موت یقال له عیدان الأشرع قال:یا رسول اللّه، إنّ امرأ القیس الکندی جاورنی فی أرضی فاقتطع من أرضی فذهب بها منّی،و القوم یعلمون إنّی لصادق،و لکنّه أکرم علیهم منّی،فسأل رسول اللّه أمرا القیس عنه فقال:لا أدری ما یقول،فأمره أن یحلف.فقال عیدان:إنّه فاجر لا یبالی أن یحلف،فقال:إن لم یکن لک شهود فخذ بیمینه،فلما ذا قال لیحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله:

وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللّٰهِ...

الآیتان فلمّا قرأهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال امرؤ القیس:أمّا ما عندی فینفد و هو صادق فیما یقول،لقد اقتطعت أرضه و لم أدرکم هی،فلیأخذ من أرضی ما شاء و مثلها معها بما أکلت من ثمرها،فنزل فیه مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً... الآیه.

التّفسير

اشاره

ثمن الحياه الطيبه:

جاءت الآيه الأولى من هذه الآيات لتؤكّد على قبح نقض العهد مرّه أخرى و لتبيّن عذرا آخرا من أعذار نقض العهد الواهيه،فحيث تطرقت الآيات السابقه إلى عذر الخوف من كثره الأعداء تأتى هذه الآيه لتطرح ما للمصلحه الشخصيه (الماديه)من أثر سلبى على حياه الإنسان.

و لهذا تقول: وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللّٰهِ ثَمَناً قَلِيلاً .

أى إنّ قيمه الوفاء بعهد اللّه لا تدانيها قيمه،و لو استلمتم زمام ملك الدنيا بأسرها فإنّه لا يساوى قيمه لحظه واحده من الوفاء بعهد اللّه.

و تضيف الآيه المباركه للدلاله على هذا الأمر: إِنَّمٰا عِنْدَ اللّٰهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

و يبيّن القرآن فى الآيه التاليه سبب الأفضليه بقوله: مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ لأنّ المنافع الماديه و إن بدت كبيره فى الظاهره،إلّا أنّها لا تعدو أن تكون فقاعات على سطح ماء،فى حين أنّ الجزاء و الثواب الإلهى النابع من ذات اللّه المطلقه المقدسه أعلى و أفضل من كل شىء.

ثمّ يضيف قائلا: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ -و على الأخص فى الثبات على العهد و الأيمان- بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .

إنّ التعبير ب«أحسن»دليل على أنّ أعمالهم الحسنه ليست بدرجه واحده، فبعضها حسن و البعض الآخر أحسن،و لكنّ اللّه تعالى يجزى الجميع بأحسن ما كانوا يعملون،و هو ذروه اللطف و الرحمه الربانيه،كما لو مثلنا لذلك فى مثل من حياتنا كأن يعرض بائع أنواعا من البضائع المتفاوته فى النوعيه،فقسم منها بضائع جيده،و قسم آخر بضائع رديئه،و البقيه بين الإثنين،فيأتى مشترى ليأخذ الجميع بسعر النوعيه الجيده!

و لا تخلو جمله وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا... من الإشاره إلى أنّ الصبر و الثبات فى السير على طريق الطاعه،و خصوصا حفظ العهود و الإيمان هى من أفضل أعمال الإنسان.

و

قد روى عن على عليه السّلام قوله: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد،و لا خير فى جسد لا رأس معه،و لا فى إيمان لا صبر معه» (۱) .

ثمّ يبيّن القرآن الكريم بعد ذلك-على صوره قانون عام-نتائج الأعمال الصالحه المرافقه للإيمان التى يؤديها الإنسان و بأيه صوره كانت فى هذه الدنيا و فى الآخره،فيقول: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .

و عليه،فالمقياس هو الأعمال الصالحه الناتجه عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانه الاجتماعيه أو ما شابه ذلك فى هذا الأمر.

و«الحياه الطيبه»فى هذه الدنيا هى النتاج الطبيعى للعمل الصالح النابع من الإيمان،أى أنّ المجتمع البشرى سيعيش حينها حياه هادئه مطمئنه ملؤها الرفاه و السلم و المحبّه و التعاون،بل و كل ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانيه،و فى أمان من الآلام الناتجه عن الاستكبار و الظلم و الطغيان و عباده الأهواء و الأنانيه التى تملأ الدنيا ظلاما و ظلامات.

و علاوه على كل ما تقدم فإنّ اللّه سيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون(كما تقدم تفسيره).

ص: ۳۱۳

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار،رقم ۸۲.

بحوث

اشاره

۱-منابع الخلود

إنّ طبيعه الحياه فی هذا العالم المادی هی الفناء و الهلاک،فأقوی الأبنیه و أکثر الحکومات دواما و أشد البشر قدره لا یعدون أن یصیروا فی نهایه أمرهم إلی الضعف فالفناء،و کل شیء معرض للتلف بلا استثناء فی هذا الأمر.

أمّا لو تمکنت الکائنات من أن توجد لها ارتباطا علی نحو ما مع الذات الإلهیه المقدسه،و تبقی تعمل لأجلها و فی سبیلها،فإنّها و الحال هذه ستصطبغ بصبغه الخلود،لأنّ ذات اللّه المقدسه أبدیه و أزلیه و کل من ینتسب الیه یحصل علی صبغه الأبدیه.

فالأعمال الصالحه أبدیه،الشهداء لهم حیاه أبدیه،و الأنبیاء و العلماء المخلصون و المجاهدون فی سبیل اللّه یبقی ذکرهم خالدا فی ذاکره التاریخ..

لأنّهم یحملون الصبغه الإلهیه.

و لهذا،تذکّرنا الآیات أعلاه و تدعونا لأن ننفذ ذخائر وجودنا من الفناء، و نودعها فی صندوق لا تطاله ید الزمان و لا تفنیه اللیالی و الأیّام.

فهلموا لبذل الطاقات فی سبیل اللّه و فی خدمه خلق اللّه،و کسب رضا الباری،لتصبح من مصادیق«عند الله»و لتکون باقیه بمقتضی ما عِنْدَ اللّهِ باقٍ .

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ عن ثلاث:

صدقه جاریه،علم ینتفع به،و ولد صالح یدعو له» (۱) .

و

عن علی علیه السّلام أنّه قال: «شتّان ما بین عملین:عمل تذهب لذته و تبقی تبعته، و عمل تذهب مؤنته و یبقی أجره» (۲) .

۱- ۱) -إرشاد الدیلمی.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الکلمات القصار،رقم ۱۲۱.

۲-التساوی بین الرجل و المرأه

ممّا لا شک فیه أنّ بین الرجل و المرأه تفاوت و اختلاف من الناحیتین الجسمیه و الروحیه،و هذا الفرق هو الذی جعلهما مختلفین فی وظائفها و شؤونهما الاجتماعیه،إلاّ أنّ طبیعه الاختلاف الموجود لا تنعکس علی الشخصیه الإنسانیه،و لا توجد اختلافا فی مقامهما عند اللّه عزّ و جل،فهما فی هذا الجانب متساویان و متکافئان،و یحکم شخصیه أی منهما مقیاس واحد ألا و هو الإیمان و العمل الصالح و التقوی،و إمکانیه تحصیل ذلک لأیّ منهما متساویه.

إنّ الآیات أعلاه قد بیّنت هذه الحقیقه بکل وضوح لتخرس الأفواه المشککه فی الطبیعه الإنسانیه للمرأه فی الماضی و الحاضر،و لترد بقوّه أولئک الذین یعطون للمرأه مقاما أقل و رتبه أنزل من الناحیه الإنسانیه نسبه إلی الرجل،و قد أعلنت الآیات المنطق الإسلامی فی هذه المسأله الاجتماعیه المهمّه،فقالت:إنّ الإسلام خلافا لقاصری الفکر لیس دین الرجال،فهو یخص المرأه بنفس القدر الذی یخص الرجل.

فمن عمل صالحا و هو مؤمن رجلا کان أو امرأه،فله الحیاه الطیبه:و سینال ثواب اللّه تعالی من غیر تمایز فی الجنس،و لا تفاضل بینهما إلاّ من خلال ما یتفوق أیّ منهما علی الآخر من حیث الإیمان و العمل الصالح.

۳-جذور العمل الصالح ترتوی من الإیمان

العمل الصالح:مصطلح له من سعه المفهوم ما یضم بین طیاته جمیع الأعمال الإیجابیه و المفیده و البناءه علی کافه أصعده الحیاه العلمیه و الثقافیه و الاقتصادیه و السیاسیه و العسکریه...إلخ.

و یشمل:الاختراع الذی یبذل فیه العالم جهده سنوات طویله من أجل خدمه الإنسانیه..جهاد الشهید الذی حمل روحه علی کفه و خاض ساحه الصراع بین

الحق و الباطل فبذل دمه الشريف فی سبيل اللّه..الآلام التی تتحملها الأمّ المؤمنه عند الولاده و ما تواجه من صعاب فی تربيه أبنائها..و تشمل ما يعانيه العلماء فی تحرير کتبهم الثمينه.

و تشمل أيضا:أعظم الأعمال،کحمل رساله النبوه..و أقل و أصغر الأعمال، کرفع حجر صغير من طريق الماره،نعم،فکل ما ذکره يدخل ضمن مفهوم العمل الصالح.

و الحال هذه..يواجهنا«السؤال»الآتی:لما ذا قيّد العمل الصالح بشرط الإيمان،فی حين يمکن أداؤه بدون هذا الشرط،و الساحه البشريه فيها کثير من الشواهد التی تحکی ذلک؟ و«الجواب»ينصب علی تبيان مسأله واحده،ألا و هی(الباعث الإيمانی)، فإن لم يحرز هذا الباعث فغالبا ما تکون الأعمال المنجزه ملوّثه(و قد تشد عن هذه القاعده العامّه بعض المتفرقات هنا و هناک)،و أمّا إذا ارتوت جذور شجره العمل الصالح من ماء التوحيد و الإيمان باللّه،فنادرا ما يصيب هذا العمل آفات مثل:العجب،و الرياء،الغرور،التقلب،المنّه..إلخ،و لذلک نری القرآن الکريم غالبا ما يربط بين هذين الأمرين،لما لارتباطهما من واقعيه.

و نوضح المسأله فی مثال:لو افترضنا أنّ شخصين أرادا بناء مستشفی، أحدهما يدفعه الباعث الإلهی لخدمه خلق اللّه،و الآخر هدفه التظاهر بالعمل الصالح و الحصول علی السمعه و المکانه الاجتماعيه المرموقه.

و فی النظره الأولی و بتفکير سطحی يمکننا أن نقول-إنّ المستشفی ستقام، و سيستفيد الناس من عملهما علی السواء،و صحيح أن أحدهما سيحصل علی الثواب،الإلهی و الآخر لا يحصل عليه،و لکنّ ظاهر عمليهما لا اختلاف فيه.

و کما قلنا فإنّ هذا القول ناتج عن رؤيه سطحيه للموضوع،أمّا لو أمعنا النظر لرأينا أنّهما مختلفان من جهات متعدده،فعلی سبيل المثال:إنّ الشخص الأوّل

سینتخب مکانا لمستشفاه یکون قریبا من أکثر طبقات المنطقه فقرا و حرمانا، و لربّما تکون فی محله غیر معروفه و منزویه،أمّا الشخص الثّانی فإنّه سیبحث عن منطقه أکثر شهره حتی و إن کانت حاجتها للمستشفی قلیله جدّا.

و سیسعی الشخص الأوّل فی انتخاب مواد البناء و طریقته بما یلحظ فیه المستقبل البعید،و یحکم أساس البناء لیصمد البناء لسنین طویله،أمّا الشخص الآخر فإنّه سیحاول أن یسرع فی البناء و تعجیل افتتاح المستشفی و یکثر الضجیج و الإعلام لینال مراده. و سیجدّ الأوّل فی إحکام باطن العمل فی حین أنّ الثّانی سیهتم بمظهره و رونقه.و عند انتخاب الأقسام الطبیه،الأطباء،الممرضین و سائر احتیاجات المستشفی،فثمّه اختلاف کبیر بین الشخصین،فاختلاف النیّه یترک أثره علی جمیع مراحل و شؤون العمل و بعباره أخری:إنّ العمل یصطبغ بصبغه النیّه.

۴-ما هی الحیاه الطیبه؟

لقد ذکر المفسّرون فی معنی الحیاه الطیبه تفاسیر عدیده:

فبعض فسرها ب:الرّزق الحلال.

و بعض ب:القناعه و الرضا بالنصیب.

و بعض ب:الرزق الیومی.

و بعض ب:العباده مع الرزق الحلال.

و بعض ب:التوفیق لطاعه أوامر اللّه...و ما شابه ذلک.

و لعله لا حاجه بنا للتذکیر بأن مفهوم الحیاه الطیبه من السعه بحیث یشمل کل ما ذکروه و غیره،فالحیاه الطیبه بجمیع جهاتها،و خالیه من التلوثات و الظلم و الخیانه و العداوه و الذل و کل ألوان الآلام و الهموم،و فیها ما یجعل حیاه الإنسان صافیه کماء زلال.

ص: ۳۱۷

و بملاحظه تعبير الآيه عن الجزاء الإلهى وفق أحسن الأعمال،ليفهم من ذلك أنّ الحياه الطيبه ترتبط بعالم الدنيا بينما يرتبط الجزاء بالأحسن بعالم الآخره.

و

عند ما سئل أمير المؤمنين عليه السّلام عن قوله تعالى: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ،قال:

«هى القناعه» (۱) .

و لا شك أنّ هذا التّفسير لا يعنى حصر معنى الحياه الطيبه بالقناعه،بل هو بيان لأحد مصاديقها الواضحه جدّا،حيث أنّ الإنسان لو أعطيت له الدنيا بكاملها و سلبت منه روح القناعه فإنه-و الحال هذه-سيعيش دائما فى عذاب و ألم و حسره،و بعكس ذلك،فإذا امتلك الإنسان القناعه و ترك الحرص و الطمع،فإنّه سيعيش مطمئنا راضيا على الدوام.

و قد ورد فى روايات أخرى تفسير الحياه الطيبه بمعنى الرضا بقسم اللّه، و هذا المعنى قريب الأفق مع القناعه.

و ينبغى أن لا نعطى لهذه المفاهيم صفه تخديريه أبدا،و إنّما الهدف الواقعى من بيان الرضا و القناعه هو القضاء على الحرص و الطمع و اتباع الهوى فى نفس الإنسان،التى تعتبر من العوامل المؤثره فى إيجاد الاعتداءات و الاستغلال و الحروب و إراقه الدماء،و المسببه للذل و الأسر.

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار،رقم ۲۲۹.

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۹۸ الى ۱۰۰]

اشاره

فَإِذٰا قَرَأْتَ اَلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ اَلشَّيْطٰانِ اَلرَّجِيمِ (۹۸) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۹۹) إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَى اَلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (۱۰۰)

التّفسير

اشاره

اقرأ القرآن هكذا:

لم يفت ذاكرتنا ما ورد قبل عدّه آيات أنّ القرآن تِبْيٰاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ثمّ تمّ البحث عن قسم من أهم الأوامر الإلهيه فى القرآن.

و تبيّن الآيات مورد البحث طريقه الاستفاده من القرآن و تتطرق إلى كيفيه تلاوته،فكثافه المحتوى القرآنى لا تكفى وحدها لتوجيهنا،و لا بد من رفع الحجب المخيمه على وجودنا و إزالتها عن محيط فكرنا و روحنا،كى نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثر الغنى.

و لهذا يقول القرآن: فَإِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ .

و لا يقصد من الاستعاذه الاكتفاء بذكر بل ينبغى لها أن تكون مقدمه لتحقيق و إيجاد الحاله الروحيه المطلوبه..حاله:التوجه إلى اللّه عزّ و جلّ،الانفصال عن

ص: ۳۱۹

هوی النفس و العناد المانع للفهم و الـدرک الصـحیح للإنسان،البعد عن التعصـبات و الغرور و حبّ الذات و محوریه الذات التی تضغط علی الإنسان لیسخر کل شیء (حتی کلام اللّه)فی تحقیق رغباته المنحرفه.

و إن لم تتحقق للإنسـان هـذه الحاله فسـیتعذر علیه إدراک الحقائق القرآنیه، و ربّما سـیجعل القرآن وسـیله لتبریر آرائه و رغباته الملوّثه بالشرک بواسطه«تفسیر بالرأی».

و تأتی الآیه التالیه لتکون دلیلا علی ما جاء فی الآیه التی قبلها: إِنَّهُ لَیْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ .

إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَی الَّذِینَ یَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِینَ هُمْ بِهِ مُشْرِکُونَ

،لأنّهم یعتبرون أمر الشیطان واجب الطاعه دون أمر اللّه! ***

بحوث

اشاره

۱-موانع المعرفه

مع کل ما للحقیقه من ظهور و وضوح فإنّها لا تلحظ إلّا بعین باصره،و بعباره أخری،ثمه شرطان لمعرفه الحقائق:

الأوّل: وضوح الحقیقه.

الثّانی:وجود وسیله للنظر إلیها و إدراکها.

فهـل یمکن للأعمی أن یری قرص الشـمس یوما ما مع البقاء علی حاله العمی؟و هل یمکن للأصم أن یسـمع نغمات هـذا العالم الجمیله؟فکـذا الحال بالنسـبه لفاقـد البصـیره الثاقبه و الأذن السـمیعه،فإنّه محروم من رؤیه جلال الحق، و محروم من سـماع آیاته الرائعه.

و لکن،لما ذا یفقد الإنسان قدرته علی المعرفه؟!

ص: ۳۲۰

لأنّه قد أوجد الأحكام المسبقه الخاطئه عنده،و سمح للأهواء النفسيه.

و التعصبات العمياء المتطرفه أن تتغلب على توجهه،و وقع فى أسر الذات و الغرور، و لوث صفاء قلبه و طهاره روحه بأمور قد جعلها موانع أمام فهم و إدراك الحقائق.

و

جاء فى الحديث الشريف: «لو لا أنّ الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات».

فأوّل شرط ينبغى تحقيقه لمن رام السير على طريق الحق هو تهذيب النفس و امتلاك التقوى،و بدون ذلك يقع الإنسان فى ظلمات الوهم فيضل الطريق.

و يشير القرآن الكريم لهذه الحقيقه ب هُدىً لِلْمُتَّقِينَ .

و كم من أناس طلبوا آيات القرآن بتعصب و عناد و أحكام مسبقه(فرديه أو اجتماعيه)و حملوا القرآن بما يريدون لا بما يريده القرآن، فازدادوا ضلالا بدلا من أن يكون القرآن هاديا لهم(و طبيعى أنّ القرآن بآياته و حقائقه الناصعه لا يكون وسيله للإضلال،و لكنّ أهواءهم و عنادهم هو الذى جرّهم لذلك)و الآيتان (١٢۴ و ١٢۵)من سوره التوبه تبيّن لنا هذه الحاله بكل وضوح: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ افِرُونَ .

فالمقصود بالآيه عدم الاكتفاء بذكر(أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم)بل ينبغى أن نجعل من هذا الذكر فكرا،و من الفكر حاله داخليه،و عند ما نقرأ آيّه نستعيذ باللّه من أن تستحوذ وساوس الشيطان علينا،أو أن تحول بيننا و بين كلام اللّه جل و علا.

٢-لما ذا يكون التعوذ«من الشيطان الرجيم»؟

«الرجيم»:من(رجم)،بمعنى الطرد،و هو فى الأصل بمعنى الرمى بالحجر ثمّ استعمل فى الطرد.

ص:٣٢١

و نلاحظ ذكر صفه طرد الشيطان من دون جميع صفاته،للتذكير بتكبره على أمر اللّه حين أمره بالسجود و الخضوع لآدم،و إنّ ذلك التكبر الذى دخل الشيطان بات بمثابه حجاب بينه و بين إدراك الحقائق،حتى سولت له نفسه أن يعتقد بأفضليته على آدم و قال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ .

فكان ذلك العناد و الغرور سببا لتمرده على أمر اللّه عزّ و جلّ ممّا أدى لكفره و من ثمّ طرده من الجنّه.

و كأنّ القرآن الكريم يريد أن يفهمنا باستخدامه كلمه«الرجيم» بضروره الاحتياط و الحذر من الوقوع فی حاله التكبر و الغرور و التعصب عند تلاوه آيات اللّه الحكيم،لكی لا نقع بما وقع به الشيطان من قبل،فنهوى فی وحل الكفر بدلا من إدراك و فهم الحقائق القرآنيه.

٣-بين لوائی الحقّ و الباطل

قسمت الآيات أعلاه الناس إلى قسمين:قسم يرزح تحت سلطه الشيطان و قسم خارج عن هذه السلطه،و بيّنت صفتين لكلّ من هذين القسمين:

فالذين هم خارج سلطه الشيطان:مؤمنون و متوكلون على اللّه عزّ و جلّ،أی أنّهم من الناحيه الاعتقاديه عباد للّه،و من الناحيه العمليه يعيشون مستقلين عن كل شیء سوى اللّه،و يتوكلون عليه لا على البشر أو على الأهواء و التعصبات.

أمّا الذين يرزحون تحت سلطه الشيطان،فقائدهم الشيطان يَتَوَلَّوْنَهُ و هو مشركون،لأنّ أعمالهم تشير إلى تبعيتهم للشيطان و أوامره كشريك للّه جل و علا.

و ثمه من يسعى لأن يكون من القسم الأوّل،و لكنّ ابتعاده عن المربّين الإلهيين،أو الضياع فی محيط فاسد،أو أیّ أسباب أخرى،تؤدی الى سقوطه فی وحل القسم الثّانی.

و على أيّه حال،فالآيه تؤكّد حقيقه أنّ سلطه الشيطان ليست إجباريه على

ص:٣٢٢

الإنسان،و لا يتمكن من التأثير على الإنسان من دون أن يمهد الإنسان السبيل لدخول الشيطان فى نفسه،و يعطيه إجازه المرور من بوابه قلبه.

۴-آداب تلاوه القرآن:

كل شىء يحتاج الى برنامج معين و لا يستثنى كتاب عظيم-كالقرآن الكريم- من هذه القاعده،لذلك فقد ذكر فى القرآن بعض الآداب و الشروط لتلاوه كلام اللّه و الاستفاده من آياته:

۱-يقول تعالى أوّلا: لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ،و يمكن أن يشير هذا التعبير إلى الطهاره الظاهريه،كأن يكون مس كتابه القرآن مشروط بالطهاره و الوضوء، و كذا الإشاره إلى إمكان تيسر الوصول لفهم محتوى آيات القرآن من خلال تطهير النفس من الرذائل الأخلاقيه،لأنّ الصفات القبيحه تمنع من مشاهده جمال الحق باعتبارها حجابا مظلما بين الإنسان و الحقائق.

۲-يجب الاستعاذه باللّه من الشيطان الرجيم قبل الشروع بتلاوه آيات اللّه فَإِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ .

و عند ما سئل الإمام الصادق عليه السّلام عن طريقه العمل بهذا القول،

يروى أنّه قال:

«قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم».

و

فى روايه أخرى،عند تلاوته عليه السّلام لسوره الحمد قال: «أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم و أعوذ باللّه أن يحضرون».

و كما قلنا،فإنّ التلفظ-فقط-فى الاستعاذه لا يغنى من الحق شيئا،ما لم تنفذ الاستعاذه إلى أعماق الروح بشكل ينفصل فيه الإنسان عند التلاوه عن إراده الشيطان،و يقترب من الصفات الإلهيه،لترتفع عن فكره موانع فهم كلام الحق، و ليرى جمال الحقيقه بوضوح تام.

فالاستعاذه باللّه من الشيطان-إذن-لازمه قبل الشروع بالتلاوه،و مستمرّه

مع التلاوه إلی آخرها و إن لم یکن ذلک باللسان.

۳-تجب القراءه ترتیلا،أی مع التفکّر و التأمّل وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلاً (۱) .

و

فی تفسیر هذه الآیه روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ القرآن لا یقرأ هزرمه و لکن یرتل ترتیلا،إذا مررت بآیه فیها ذکر النّار وقفت عندها و تعوّذت باللّه من النّار» (۲) .

۴-و قد ورد الأمر بالتدبّر و التفکّر فی القرآن إضافه إلی الترتیل.حیث جاء فی الآیه(۸۲)من سوره النساء: أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .

و عن أبی عبد الرحمن السلمی قال:حدثنا من کان یقرئنا من الصحابه أنّهم کانوا یأخذون من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عشر آیات،فلا یأخذون فی العشر الأخر حتی یعلموا ما فی هذه من العلم و العمل.

و

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أعربوا القرآن و التمسوا غرائبه» (۳) .

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «لقد تجلّی اللّه لخلقه فی کلامه و لکنّهم لا یبصرون» (۴) . (و لکنّ ذوی الضمائر الحیّه و العلماء المؤمنین، یستطیعون رؤیه جماله المتجلّی فی کلامه جل و علا).

۵-علی الذین یستمعون إلی تلاوه القرآن أن ینصتوا إلیه بتفکّر و تأمّل وَ إِذٰا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۵) .

و ثمه أحادیث شریفه تحث علی قراءه القرآن بصوت حسن،لما له من فعل مؤثر فی تحسّس مفاهیمه،و لکنّ المجال لا یسمح لنا بتفصیل ذلک (۶) .

۱- ۱) -سوره المزمل،۴.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۸۹،ص ۱۰۶.

۳- ۳) -المصدر السابق.

۴- ۴) -بحار الأنوار،ج ۹۲،ص ۱۰۷.

۵- ۵) -الأعراف،۲۰۴.

۶- ۶) -مزيد من الاطلاع..راجع بحار الأنوار،ج ۹،ص ۱۹۰ و ما بعدها.

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۱۰۱ الی ۱۰۵]

اشاره

وَ إِذا بَدَّلْنا آيَهً مَكانَ آيَهٍ وَ اَللّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۰۱) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ اَلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (۱۰۲) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ اَلَّذِی يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (۱۰۳) إِنَّ اَلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اَللّهِ لا يَهْدِيهِمُ اَللّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) إِنَّما يَفْتَرِی اَلْكَذِبَ اَلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اَللّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ اَلْكاذِبُونَ (۱۰۵)

سبب النّزول

يقول ابن عباس:(كانوا يقولون:يسخر محمّد بأصحابه،يأمرهم اليوم بأمر و غدا يأمرهم بأمر،و إنّه لكاذب،يأتيهم بما يقول من عند نفسه).

التّفسير

اشاره

الافتراء

تحدثت الآيات السابقه أسلوب الاستفاده من القرآن الكريم،و تتناول

ص :۳۲۵

الآيات مورد البحث جوانب أخرى من المسائل المرتبطه بالقرآن،و تبتدئ ببعض الشبهات التى كانت عالقه فى أذهان المشركين حول الآيات القرآنيه المباركه،فتقول: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ فهذا التغيير و التبديل يخضع لحكمه اللّه،فهو أعلم بما ينزل،و كيف ينزل، و لكن المشركين لجهلهم قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ .

و حقيقه الأمر أنّ المشركين لم يتوصلوا بعد لإدراك وظيفه القرآن و ما يحمل من رساله،و لم يدخل فى تصوراتهم و أذهانهم أنّ القرآن فى صدد بناء مجتمع إنسانى جديد يسوده التطور و التقدم و الحريه و المعنويه العاليه...نعم،فأكثرهم لا يعلمون.

فبديهى و الحال هذه أن يطرأ على و صفه الدواء الإلهى لنجاه هؤلاء المرضى التغيير و التبديل تدرجا مع ما يعيشونه،فما يعطون اليوم يكمله الغد..و هكذا حتى تتمّ الوصفه الشامله.

فغفله المشركين عن هذه الحقائق و ابتعادهم عن ظروف نزول القرآن،دفعهم للاعتقاد بأنّ أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحمل بين ثناياها التناقض أو الافتراء على اللّه عزّ و جلّ!و إلاّ لعلموا أنّ النسخ فى الأحكام جزء من أوامر و آيات القرآن المنظمه على شكل برنامج تربوى دقيق لا يمكن الوصول للهدف النهائى لنيل التكامل إلاّ به.

فالنسخ فى أحكام مجتمع يعيش حاله انتقاليه بين مرحلتين يعتبر من الضروريات العمليه و الواقعيه،فالتحول و الانتقال بالناس من مرحله إلى أخرى لا يتم دفعه واحده،بل ينبغى أنّ يمر بمراحل انتقاليه دقيقه.

أ يمكن معالجه مريض مزمن فى يوم واحد؟ أو شفاء رجل مدمن على المخدرات لسنوات عديده فى يوم واحد؟أو ليس التدرج فى المعالجه من أسلم الأساليب؟

و بعد الإجابه على هذه الأسئله لا يبقى لنا إلّا أن نقول:ليس النسخ سوى برنامج مؤقت فى مراحل انتقاليه.

(لقد بحثنا موضوع النسخ فى تفسير الآيه(۳۶)من سوره البقره-فراجع).

و تستمر الآيه التاليه بنفس الموضوع،و للتأكيد عليه تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .

«روح القدس»أو(الرّوح المقدسه)هو أمين الوحى الإلهى«جبرائيل الأمين»،و بواسطته كانت الآيات القرآنيه تتنزّل بأمر اللّه تعالى على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فكل الآيات حق،و هدفها واحد يتركز فى توجيه الإنسان ضمن التربيه الرّبانيه له،و ظروف و تركيبه الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخه و المنسوخه فى العمليه التربويه.

و لهذا،جاء فى تكمله الآيه المباركه: لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

يقول صاحب تفسير الميزان:إنّ تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين و الهدى و البشرى للمسلمين إنّما هو لما بين الإيمان و الإسلام من الفرق،فالإيمان للقلب و نصيبه التثبيت فى العلم و الإذعان،و الإسلام فى ظاهر العمل و مرحله الجوارح و نصيبها الاهتداء إلى واجب العمل و البشرى بأنّ الغايه هى الجنّه و السعاده.

و على أيّه حال،فلأجل تقويه الروح الإيمانيه و السير فى طريق الهدى و البشرى لا بدّ من برامج قصيره الأمد و مؤقته،و بالتدريج يحل البرنامج النهائى الثابت محلها،و هو سبب وجود الناسخ و المنسوخ فى الآيات الإلهيه.

و بعد أن فنّد القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهه أخرى،أو على الأصح لذكر افتراء آخر لمخالفى نبى الرحمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقول: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ

.

اختلف المفسّرون فى ذكر اسم الشخص الذى ادّعى المشركون أنّه كان يعلّم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم...

فعن ابن عباس:أنّه رجل يدعى(بلعام)كان يصنع السيوف فى مكّه:و هو من أصل رومى و كان نصرانيا.

و اعتبره بعضهم:غلاما روميا لدى بنى حضرم و اسمه(يعيش)أو(عائش) و قد أسلم و أصبح من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قال آخرون:إنّ معلّمه غلامين نصرانيين أحدهما اسمه(يسار)و الآخر (جبر)و كان لهما كتاب بلغتهما يقرءانه بين مدّه و أخرى بصوت عال.

و احتمل بعضهم:أنّه(سلمان الفارسى)،فى حين أن سلمان الفارسى التحق بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينه و أسلم على يديه هناك،و أنّ هذه التهم التى أطلقها المشركون كانت فى مكّه،أضف إلى ذلك كون القسم الأعظم من سوره النحل مكى و ليس مدنيا.

و على أيّه حال،فالقرآن أجابهم بقوه و أبطل كل ما كانوا يفترون،بقوله:

لِسانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ (1) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ (2) وَ هٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ

.

فإن كان مقصودهم فى تهمتهم و افترائهم أنّ معلّم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لألفاظ القرآن هو شخص أجنبى لا يفقه من العربيه و بلاغتها شيئا فهذا فى منتهى السفه،إذ كيف يمكن لفاقد ملكه البيان العربى أن يعلّم هذه البلاغه و الفصاحه التى عجز أمامها أصحاب اللغه أنفسهم،حتى أنّ القرآن تحداهم بإتيان سوره من مثله فما

١- ١) -يلحدون:من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل،و قد يطلق على أىّ انحراف،و المراد هنا:إنّ الكاذبين يريدون نسبه القرآن إلى إنسان و يدعون بأنّه معلم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم!

٢- ٢) -الإعجام و العجمه لغه:بمعنى الإبهام،و يطلق الأعجمى على الذى فى بيانه لحن(نقص)سواء كان من العرب أو من غيرهم،و باعتبر أنّ العرب ما كانوا يفهمون لغه غيرهم فقد استعملوا اسم(العجم)على غير العرب.

استطاعوا ناهيک عن عدد الآيات؟! و إن کانوا يقصدون أنّ المحتوى القرآنی هو من معلّم أجنبی..فردّ ذلک أهون من الأوّل و أيسر،إذ أن المحتوى القرآنی قد صبّ فی قالب کل عباراته و ألفاظه من القوه بحيث خضع لبلاغته و إعجازه جميع فطاحل فصحاء العرب،و هذا ما يرشدنا لکون الواضع يملک من القدره على البيان ما تعلو و قدره و ملکه أىّ إنسان،و ليس لذلک أهلا سوى اللّه عزّ و جلّ و سبحانه عمّا يشرکون.

و بنظره تأمّليه فاحصه نجد فی محتوى القرآن أنّه يمتلک المنطق الفلسفی العميق فی إثبات عقائده،و کذا الحال بالنسبه لتعاليمه الأخلاقيه فی تربيه روح الإنسان و قوانينه الاجتماعيه المتکامله،و أنّ کلّ ما فی القرآن هو فرق طاقه المستوى الفکرى البشرى حقّا..و يبدو لنا أن مطلقی الافتراءات المذکوره هم أنفسهم لا يعتقدون بما يقولون،و لکنّها شيطنه و وسوسه يدخلونها فی نفوس البسطاء من الناس ليس إلاّ.

و الحقيقه أنّ المشرکين لم يجدوا من بينهم من ينسبون إليه القرآن،و لهذا حاولوا اختلاق شخص مجهول لا يعرف الناس عنه شيئا و نسبوا إليه القرآن، عسى بفعلهم هذا أن يتمکنوا من استغفال أکبر قدر ممکن من البسطاء.

أضف إلى ذلک کله أن تاريخ حياه النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يسجل له اتصالات دائمه مع هذه النوعيات من البشر،و إن کان(على سبيل الفرض)صاحب القرآن موجودا ألا يستلزم ذلک اتصال النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم به و باستمرار؟إنّهم حاولوا التشبث لا أکثر، و کما قيل: (الغريق يتشبّث بکل حشيش).

إنّ نزول القرآن فی البيئه الجاهليه و تفوقه الإعجازى أمر واضح،و لم يتوقف تفوقه حتى فی عصرنا الحاضر حيث التقدم الذى حصل فی مختلف مجالات التمدّن الإنسانی،و التأليفات المتعمقه التی عکست مدى قوّه الفکر البشرى المعاصر.

نعم،فمع کل ما وصلت إلیه البشریه من قوانین و أنظمه ما زال القرآن هو المتفوق و سیبقی.

و ذکر سید قطب فی تفسیره:أنّ جمعا من المادیین فی روسیا عند ما أرادوا الانتقاض من القرآن فی مؤتمر المستشرقین المنعقد فی سنه(۱۹۵۴ م)قالوا:إنّ هذا الکتاب لا یمکن أن ینتج من ذهن إنسان واحد«محمّد»بل یجب أن یکون حاصل سعی جمع کثیر من الناس بما لا یصدق کونهم جمیعا من جزیره العرب، و إنّما یقطع باشتراک جمع منهم من خارج الجزیره (۱) .

و لقد کانوا یبحثون-وفقا لمنطقهم الإلحادی-عن تفسیر مادی لهذا الأمر من جهه،و ما کانوا یعقلون أن القرآن نتاج إشراقه عقلیه لإنسان یعیش فی شبه الجزیره العربیه من جهه أخری،ممّا اضطرّهم لأن یطرحوا تفسیرا مضحکا و هو:

اشتراک جمع کثیر من الناس-فی تألیف القرآن-من داخل شبه الجزیره العربیه و خارجها!!علی أنّ التاریخ ینفی ما ذهبوا إلیه جمله و تفصیلا.

و علی أیّه حال،فالآیه المبارکه دلیل الإعجاز القرآنی من حیث اللفظ و المضمون،فحلاوه القرآن و بلاغته و جاذبیته و التناسق الخاص فی ألفاظه و عباراته ما یفوق قدره أیّ إنسان. (قد کان لنا بحث مفصل فی الإعجاز القرآنی تناولناه فی تفسیر الآیه(۲۳)من سوره البقره-فراجع).

و بلهجه المهدد المتوعّد یبیّن القرآن الکریم أنّ حقیقه هذه الاتهامات و الانحرافات ناشئه من عدم انطباع الإیمان فی نفوس هؤلاء،فیقول: إِنَّ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِآیاتِ اللّهِ لا یَهْدِیهِمُ اللّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ .

لأنّهم غیر لائقین للهدایه و لا یناسبهم إلاّ العذاب الإلهی،لما باتوا علیه من التعصب و العناد و العداء للحق.

ص: ۳۳۰

۱- ۱) -فی ضلال القرآن،ج ۵،ص ۲۸۲.

و فی آخر الآیه یقول:إنّ الأشخاص الذین یتّهمون أولیاء اللّه هم الکفار: إِنَّمٰا یَفْتَرِی الْکَذِبَ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِآیٰاتِ اللّٰهِ وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْکٰاذِبُونَ ،فهم الکاذبون و لیس أنت یا محمّد،لأنهم مع ما جاءهم من آیات بینات و أدله قاطعه واضحه و لکنّهم یستمرون فی إطلاق الافتراءات و الأکاذیب.

فأیّه أکاذیب أکبر من تلک التی تطلق علی رجال الحق لتحول بینهم و بین المتعطشین للحقائق! ***

بحوث

اشاره

١-قبح الکذب فی المنظور الإسلامی

الآیه الأخیره بحثت مسأله قبح الکذب بشکل عنیف،و قد جعلت الکاذبین بدرجه الکافرین و المنکرین للآیات الإلهیه.

و مع أنّ موضوع الآیه هو الکذب و الافتراء علی اللّه و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،إلاّ أنّ الآیه تناولت قبح الکذب بصوره إجمالیه.

و لأهمیه هذا الموضوع فقد أعطت التعالیم الإسلامیه إفاضات خاصّه لمسأله الصدق و النهی عن الکذب،و إلیکم نماذج مختصره و مفهرسه لجوانب الموضوع:

الصدق و الأمانه من علائم الإیمان و کمال الإنسان،حتی أنّ دلالتهما علی الإیمان أرقی من دلاله الصلاه.

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «لا تنظروا إلی طول رکوع الرجل و سجوده،فإنّ ذلک شیء قد اعتاده و لو ترکه استوحش لذلک،و لکن انظروا إلی صدق حدیثه و أداء أمانته» (1) .

١- ١) -سفینه البحار،ماده(صدق)،نقلا عن الکافی.

فذكر الصدق مع الأمانه لاشتراكهما فى جذر واحد،و ما الصدق إلّا الأمانه فى الحديث،و ما الأمانه إلّا الصدق فى العمل.

٢-الكذب منشأ جميع الذنوب:

و قد اعتبرت الأحاديث الشريفه الكذب مفتاح الذنوب..

فعن على عليه السّلام أنّه قال: «الصدق يهدى إلى البر و البر يهدى إلى الجنّه» (١) .

و

عن الباقر عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ جعل للبشر أقفالا،و جعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب،و الكذب شر من الشراب» (٢) .

و

عن الإمام العسكرى عليه السّلام أنّه قال: «جعلت الخبائث كلها فى بيت و جعل مفتاحها الكذب» (٣) .

فالعلاقه بين الكذب و بقيه الذنوب تتلخص فى كون الكاذب لا يتمكن من الصدق،لأنّه سيكون موجبا لفضحه،فتراه يتوسّل بالكذب عاده لتغطيه آثار ذنوبه.

و بعباره أخرى:إنّ الكذب يطلق العنان للإنسان للوقوع فى الذنوب،و الصدق يحدّه.

و

قد جسد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذه الحقيقه بكل وضوح عند ما جاءه رجل و قال له:يا رسول اللّه،إنّى لا أصلى و أرتكب القبائح و أكذب،فأيّها أترك أوّلا؟.

فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الكذب»،فتعهد الرجل للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يكذب أبدا.

فلمّا خرج عرضت له نيّه منكر فقال فى نفسه:إن سألنى رسول اللّه غدا عن أمرى،ما ذا أقول له!فإن أنكرت كان كاذبا،و إن صدقت جرى علىّ الحد.و هكذا

١- ١) -مشكاه الأنوار للطبرسى،ص ١٥٧.

٢- ٢) -أصول الكافى،ج ٢،ص ٢٥٤.

٣- ٣) -جامع السعادات،ج ٢،ص ٢٣٣.

ترک الکذب فی جمیع أفعاله القبیحه حتی تورّع عنها جمیعا.

و لذا..فترک الکذب طریق لترک الذنوب.

٣-الکذب منشأ للنفاق:

لأنّ الصدق یعنی تطابق اللسان مع القلب،فی حین أنّ الکذب یعنی عدم تطابق اللسان مع القلب،و ما النفاق إلاّ الاختلاف بین الظاهر و الباطن.

و الآیه(٧٧)من سوره التوبه تبیّن لنا ذلک بوضوح: فَأَعْقَبَهُمْ نِفٰاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلیٰ یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِمٰا أَخْلَفُوا اللّٰهَ مٰا وَعَدُوهُ وَ بِمٰا کٰانُوا یَکْذِبُونَ .

۴-لا انسجام بین الکذب و الإیمان:

و إضافه إلی الآیه المبارکه فثمه أحادیث کثیره تعکس لنا هذه الحقیقه الجلیّه...

فقد روی أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سئل:یکون المؤمن جبانا؟قال:«نعم»،قیل:

و یکون بخیلا؟قال:«نعم»،قیل:یکون کذّابا؟قال:«لا» (١) .

ذلک لأنّ الکذب من علائم النفاق،و هو لا یتفق مع الإیمان.

و بهذا المعنی نقل عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه أشار لهذا المعنی و استدل علیه بالآیه مورد البحث.

۵-الکذب یرفع الاطمئنان:

إنّ وجود الثقه و الاطمئنان المتبادل من أهم ما یربط الناس فیما بینهم، و الکذب من الأمور المؤثره فی تفکیک هذه الرابطه لما یشبعه من خیانه و تقلب،

١- ١) -جامع السعادات،ج ٢،ص ٣٢٢.

و لذلک کان تأکید الإسلام علی أهمیه الالتزام بالصدق و ترک الکذب.

و من خلال الأحادیث الشریفه نلمس بکل جلاء نهی الأئمّه علیهم السّلام عن مصاحبه مجموعه معینه من الناس،منهم الکذّابون لعدم الثقه بهم.

فعن علی علیه السّلام أنّه قال: «إیّاک و مصادقه الکذّاب،فإنّه کالسراب یقرّب علیک البعید و یبعد علیک القریب» (۱) .

و الحدیث عن قبح الکذب و فلسفته،و الأسباب الداعیه إلیه من الناحیه النفسیه،و طرق مکافحته،کل ذلک یحتاج إلی تفصیل طویل لا یمکن لبحثنا استیعابه،و لمزید من الاطلاع راجع کتب الأخلاق (۲) .

۱- ۱) -نهج البلاغه،الکلمات القصار،قم ۳۷.

۲- ۲) -راجع کتابنا(الحیاه علی ضوء الأخلاق).

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۱۰۶ الی ۱۱۱]

اشاره

مَنْ کَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِیمٰانِهِ إِلاّٰ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمٰانِ وَ لٰکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْکُفْرِ صَدْراً فَعَلَیْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۱۰۶) ذٰلِکَ بِأَنَّهُمُ اِسْتَحَبُّوا اَلْحَیٰاهَ اَلدُّنْیٰا عَلَی اَلْآخِرَهِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکٰافِرِینَ (۱۰۷) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْغٰافِلُونَ (۱۰۸) لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۱۰۹) ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱۰) یَوْمَ تَأْتِی کُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا وَ تُوَفّٰی کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۱۱۱)

سبب النّزول

ذکر بعض المفسّرون فی شأن نزول الآیه الأولی من هذه الآیات أنّها:نزلت فی جماعه أکرهوا-و هو:عمار و أبوه یاسر و أمّه سمیه و صهیب و بلال و خبّاب- عذّبوا و قتل أبو عمار و أمّه و أعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه،ثمّ أخبر سبحانه

ص: ۳۳۵

بذلک رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فقال قوم:کفر عمّار.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کلا: «إنّ عمارا ملیء إیمانا من قرنه إلی قدمه و اختلط الإیمان بلحمه دمه».. و

جاء عمّار إلی رسول اللّه و هو یبکی،فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«ما وراءک»؟فقال:شرّ یا رسول اللّه،ما ترکت حتی نلت منک و ذکرت آلهتهم بخیر،فجعل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یمسح عینیه و یقول:«إن عادوا لک فعد لهم بما قلت»،فنزلت الآیه.

التّفسیر

اشاره

المرتدون عن الإسلام:

تکمل هذه الآیات ما شرعت به الآیات السابقه من الحدیث عن المشرکین و الکفار و ما کانوا یقومون به،فتتناول الآیات فئه أخری من الکفره و هم المرتدون.

حیث تقول الآیه الأولی: مَنْ کَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِیمانِهِ إِلاّ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ وَ لکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْکُفْرِ صَدْراً فَعَلَیْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللّهِ،وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ .

و تشیر الآیه إلی نوعین من الذین کفروا بعد إیمانهم:

النوع الأوّل:هم الذین یقعون فی قبضه العدو الغاشم و یتحملون أذاه و تعذیبه، و لکنّهم لا یصبرون تحت ضغط ما یلاقوه من أعداء الإسلام،فیعلنون براءتهم من الإسلام و ولاءهم للکفر،علی أنّ ما یعلنوه لا یتعدی حرکه اللسان،و أمّا قلوبهم فتبقی ممتلئه بالإیمان.

فهذا النوع یکون مشمولا بالعفو الإلهی بلا ریب،بل لم یصدر منهم ذنب، لأنّهم قد ما رسوا التقیه التی أحلها الإسلام لحفظ النفس و حفظ الطاقات للاستفاده منها فی طریق خدمه دین اللّه عزّ و جلّ.

النوع الثّانی:هم الذین یفتحون للکفر أبواب قلوبهم حقیقه،و یغیّرون

مسيرتهم و يتخلّون عن إيمانهم،فهؤلاء يشملهم غضب اللّه عزّ و جلّ و عذابه العظيم.

و يمكن أن يكون«غضب اللّه»إشاره إلى حرمانهم من الرحمه الإلهيه و الهدايه فى الحياه الدنيا،و«العذاب العظيم»إشاره إلى عقابهم فى الحياه الأخرى..و على أيّه حال،فما جاء فى الآيه من وعيد للمرتدين هو فى غايه الشده.

و تتطرق الآيه التاليه إلى أسباب ارتداد هؤلاء،فتقول: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ الذين يصرّون على كفرهم و عنادهم.

و خلاصه المقال:حين أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم الماديه و تعرضت للخطر المؤقت،فندموا على إسلامهم لشدّه حبّهم لدنياهم،و عادوا خاسئين إلى كفرهم.

و بديهى أن من لا يرغب فى الإيمان و لا يسمح له بالدخول إلى أعماق نفسه، لا تشمله الهدايه الإلهيه،لأنّ الهدايه تحتاج إلى مقدمات كالسعى للحصول على رضوانه سبحانه و الجهاد فى سبيله،و هذا مصداق لقوله عزّ و جلّ فى آخر سوره العنكبوت: وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا .

و تأتى الآيه الأخرى لتبيّن سبب عدم هدايتهم،فتقول: أُولٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ بحيث أنّهم حرموا من نعمه الرؤيه و السمع و ادراك الحقائق: وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْغٰافِلُونَ .

و كما قلنا سابقا فإنّ ارتكاب الذنوب و فعل القبائح يترك أثره السلبى على إدراك الإنسان للحقائق و على عقله و رؤيته السليمه،و تدريجيا يسلب منه سلامه الفكر،و كلما ازداد فى غيه كلّما اشتدت حجب الغفله على قلبه و سمعه و بصره، حتى يؤول به المآل إلى أن يصبح ذا عين و لكن لا يرى بها،و ذا أذن و كأنّه لا يسمع

بها،و تغلق أبواب روحه من تقبّل أيّه حقيقه،فيخسر الحس التشخيصى و القدره على التمييز،و التى تعتبر من النعم الإلهى العاليه.

«الطبع»هنا:بمعنى«الختم»،و هو إشاره إلى حاله الإحكام المطلق،فلو أراد شخص مثلا أن يغلق صندوقا معينا بشكل محكم كى لا تصل إليه الأيدى فإنّه يقوم بربطه بالحبال و غيرها،و من ثمّ يقوم بوضع ختم من الشمع على باب الصندوق للاطمئنان من عبث العابثين.

ثمّ تعرض الآيه التاليه عاقبه أمرهم،فتقول: لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَهِ هُمُ الْخٰاسِرُونَ .

و هل هناك من هو أتعس حالا من هذا الإنسان الذى خسر جميع طاقاته و امكاناته لنيل السعاده الدائمه بإتباعه هوى النفس.

و بعد ذكر الفئتين السابقتين،أى الذين يتلفظون بكلمات الكفر و قلوبهم ملأى بالإيمان،و الذين ينقلبون إلى الكفر مرّه أخرى بكامل اختيارهم و رغبتهم،فبعد ذلك تتطرق الآيه التاليه إلى فئه ثالثه و هم البسطاء المخدعون فى دينهم،فتقول:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

(۱)

.

فالآيه دليل واضح على قبول توبه المرتد، و لكنّ الآيه تشير إلى من كان مشركا فى البدايه ثم أسلم،فعليه يكون المقصود به هو(المرتد الملّى)و ليس (المرتد الفطرى). (۲)

و تأتى الآيه الأخيره لتقدم تذكيرا عاما بقولها:

ص :۳۳۸

---

۱ – ۱) -ضمير«بعدها»-و كما يقول كثير من المفسرين-يعود إلى«الفتنه»،فى حين ذهب البعض من المفسرين إلى أنه يعود إلى الهجره و الجهاد و الصبر المذكوره سابقا.

۲ – ۲) -المرتد الفطرى:هو الذى يولد من أبوين مسلمين ثم يرتد عن الإسلام بعد قبوله إياه،و المرتد الملى:يطلق على من انعقدت نطفته من أبوين غير مسلمين ثم قبل الإسلام،و ارتد عنه بعد ذلك.

يَوْمَ تَأْتِی کُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا

(۱)

لتنقذها من العقاب و العذاب.

فالمـذنبون أحيانا ينكرون ما ارتكبوه من ذنوب إنكارا تاما فرارا من الجزاء و العقاب،و الآيه(۲۳)من سوره الأنعام تنقل لنا قولهم: وَ اللّٰهِ رَبِّنٰا مٰا کُنّٰا مُشْرِکِينَ ،و عنـد مـا لا يلمسون أيّه فائـده لإنكارهم يتجهون بإلقاء اللوم على أئمتهم و قادتهم،و يقولون: رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً مِنَ النّٰارِ (۲) .

و لكن..لا فائده من كل ذلك.. وَ تُوَفّٰى کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ .

بحثان

اشاره

۱-التقيه و فلسفتها:

امتـاز المسـلمون الأوائـل الـذين تربّوا على يـد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بروح مقاومه عظيمه أمام أعـدائهم،و سـجل لنا التأريخ صورا فريده للصـمود و التحدى،و ها هو«ياسر» لم يلن و لم يدخل حتى الغبطه الكاذبه على شفاه الأعداء،و ما تلفظ حتى بعباره خاليه من أىّ أثر على قلبه ممّا يطمح الأعداء أن يسـمعوها منه،مع أنّ قلبه مملوءا ولاء و إيمانا باللّه تعالى و حبّا و إخلاصـا للنّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و صبر على حـاله رغم مرارتهـا فنال شـرف الشـهاده،و رحلت روحه الطاهره إلى بارئها صابره محتسبه تشكو إليه ظلم و جور أعداء دين اللّه.

و ها هو ولـده«عمّار»الـذى خرجت منه كلمه بين صـفير الأسواط و شدّه الآلام تنم عن حاله الضـعف ظاهرا،و بالرغم من اطمئنانه بإيمانه و تصديقه لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إلاّ

۱- ۱) -اختلاـف القـول بخصـوص متعلـق«يوم»جـار بين المفسّرين..فبعضـهم يـذهب إلى أنّه متعلق بفاعـل مسـتتر و التقـدير هو «ذكرهم يـوم القيـامه»،و اعتـبره آخرون متعلقـا بفعـل الغفران و الرحمه المـأخوذان من«الغفور الرحيم»فى الآـيه السـابقه، (و لكنّنا نرجح التّفسير الاحتمال الأوّل لشموله).

۲- ۲) -الأعراف،۳۸.

أنّه اغتمّ كثيرا و ارتعدت فرائصه حتى طمأنه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحلّيّه ما فعل به حفظا للنفس،فهذا.

و يطالعنا تأريخ(بلال)عند ما اعتنق الإسلام راح يدعو له و يدافع عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فشدّ عليه المشركون حتى أنّهم طرحوه أرضا تحت لهيب الشمس الحارقه،و ما اكتفوا بذلك حتى وضعوا صخره كبيره على صدره و هو بتلك الحال، و طلبوا منه أن يكفر باللّه و لكنّه أبى أن يستجيب لطلبهم و بقى يردد:أحد أحد،ثمّ قال:أقسم باللّه لو علمت قولا أشد عليكم من هذا لقلته.

و نقرأ فى تاريخ(حبيب بن زيد)أنّه لما أسره مسيلمه الكذاب فقد سأله:هل تشهد أنّ محمّدا رسول اللّه؟ قال:نعم.

ثمّ سأله:أتشهد أنّى رسول اللّه؟ فأجابه ساخرا:إنّى لا أسمع ما تقول!فقطعوه إربا إربا (۱) .

و التأريخ الإسلامى حافل بصور كهذه،خصوصا تأريخ المسلمين الأوائل و تأريخ أصحاب الأئمّه عليهم السّلام.

و لهذا قال المحققون:إنّ ترك التقيه و عدم التسليم للأعداء فى حالات كهذه، عمل جائز حتى لو أدى الأمر إلى الشهاده،فالهدف سام و هو رفع لواء التوحيد و إعلاء كلمه الإسلام،و خاصه فى بدايه دعوه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،حيث كان لهذا الأمر أهميه خاصّه.

و مع هذا،فالتقيه جائزه فى موارد،و واجبه فى موارد أخرى،و خلافا لما يعتقده البعض فإنّ التقيه(فى مكانها المناسب)ليست علامه للضعف،و لا هى مؤشر للخوف من تسلط الأعداء،و لا هى تسليم لهم بقدر ما هى نوع من

۱- ۱) -فى ظلال القرآن،ج ۵،ص ۲۸۴.

المراوغه المحسوبه لحفظ الطاقات الإنسانيه و عدم التفريط بالأفراد المؤمنين مقابل موضوعات صغيره و قليله الأهميه.

و ممّا تعارف عليه عند كل الشعوب أن تلجأ الأقليات المجاهده و المحاربه إلى أسلوب العمل السرّى غالبا،و ذلك لحفظ حياه الأفراد و تهيئه الظروف لإكثارهم،فتشكّل مجموعات سرّيه و تضع لأنفسها برامجا غير معلنه على غيرهم، حتى أنّ البعض من أفرادهم يحاول أن يتنكر حتى فى زيه،و إذا ما تمّ اعتقالهم من قبل السلطه المعاديه لمبادئهم فيحاولون جهد الإمكان إخفاء حقيقه أمرهم كى لا تخسر المجموعه كل طاقاتها،و لتكون قادره على مواصله الطريق بالبقيه المتبقيه منهم.

و العقل لا يجيز فى ظروف كهذه أن تعلن المجموعه المجاهده قليله العدد عن نفسها،لكى لا يعرفها العدو بسهوله و هو القادر على القضاء عليها بما يملك من بطش و تسلط.

فالتقيه قبل أن تكون برنامجا إسلاميا هى أسلوب عقلانى و منطقى،ينفذه و يعمل به من يعيش صراعا مع عدو قوّى متمكن منه.

و لذا فقد ورد تعبير(الترس)عن التقيه فى الأحاديث الشريفه،

فعن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «التقيه ترس المؤمن،و التقيه حرز المؤمن» (۱) .

(لاحظوا أنّ التقيه هنا شبّهت بالترس،و الترس إنّما يستعمل فى ميادين الحرب و القتال مع الأعداء لحفظ القوى الثائره.

و إذا رأينا أنّ الأحاديث الشريفه تعتبر التقيه علامه للدين و الإيمان و تقدرها بتسعه أعشار الدين،فإنّما هو للسبب المذكور.

و المجال-فى هذا الكتاب-لا يسع للخوض فى تفصيل موضوع التقيه،و كل

۱- ۱) -وسائل الشيعه،ج ۱۱،الحديث(۶)من الباب(۲۴)من أبواب الأمر بالمعروف.

ما أردنا هو أنّ من يستنكر التقيه و يذمها إنّما هو جاهل بشروطها و فلسفتها.

و ثمه حالات تحرم فيها التقيه،حينما يكون حفظ النفس فيها سببا لزوال الدين نفسه،أو قد تؤدى التقيه لحدوث فساد عظيم،فيجب و الحال هذه كسر طوق التقيه و استقبال كل خطر يترتب على ذلك (۱) .

۲-المرتد الفطری و الملی و..المخدوعين:

لا يواجه الإسلام الذين لا يعتنقون الإسلام من(أهل الكتاب)بالشدّه و القسوه و إنّما يدعوهم باستمرار و يتحدث معهم بالمنطق السليم،فإذا لم يقتنعوا و راموا البقاء على ديانتهم فيعطون الأمان و التعهد بحفظ أموالهم و أرواحهم و مصالحهم المشروعه بعد أن يعلنوا قبول شرط أهل الذمه فی عهدهم مع المسلمين.

أمّا الذين يقبلون الإسلام و من ثمّ يرتدون عنه فيواجهون بشدّه و عنف،لأنّ عملا كهذا يؤدى إلى أضرار فادحه تصيب المجتمع الإسلامی،و هو بمثابه نوع من الحرب ضد الحكومه الإسلاميه،و غالبا ما يصدر مثل هذا العمل مستبطنا النيه السيئه بإيصال أسرار المجتمع الإسلامی(و نقاط القوه و الضعف)ليد الأعداء المتربصين للمسلمين الدوائر.

فلهذا،من انعقدت نطفته و كان أبواه مسلمين عند انعقاد النطفه(مسلم الولاده) ثمّ تثبت المحكمه الإسلاميه بأنّه قد ارتد عن الإسلام يباح دمه،تقسّم أمواله على ورثته،تبيّن عنه زوجته،و ظاهرا لا تقبل توبته،أی أنّ هذه الأحكام الثلاثه تجری فی حقه على كل حال،و لكن إذا ندم و تاب صادقا،فإنّ توبته ستقبل عند اللّه تعالى(و توبه المرأه تقبل على الإطلاق).

۱- ۱) -لأجل المزيد من الإيضاح فی مسأله التقيه و أحكامها و فلسفتها و أدلتها،راجعوا كتابنا(القواعد الفقهيه)،الجزء الثالث.

و إذا ارتدّ إنسان ما عن الإسلام و لم يكن مسلما بالولاده،يتعيّن عليه التوبه، فإن تاب قبلت توبته و ينجو من العقاب.

و قد ينظر للحكم السياسى الصادر بحقّ المرتدّ الفطرى على أنّ فيه نوعا من الخشونه و القسوه و فرضا للعقيده و سلبا لحريه الفكر،و لكنّ حقيقه هذه الأحكام تختص بمن يظهر عقائده المخالفه أو يدعو لها و لا تطال من يعتقد باعتقادات مخالفه و لكنّه لم يظهرها للناس،لأنّ الدعوه للعقائد المخالفه تمثل فى واقعها حربا للنظام الاجتماعى الموجود،و عليه فلا تكون الخشونه و الحال هذه عبثا،و لا تتنافى و حريه الفكر و الإعتقاد،و كما قلنا فإنّ شبيه هذا القانون موجود فى كثر من دول الغرب و الشرق مع بعض الاختلافات.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ قبول الإسلام يجب أن يكون طبقا للمنطق،و الذى يولد من أبوين مسلمين و ينشأ بين أحضان بيئه إسلاميه،فمن البعيد عدم إدراكه محتوى الإسلام،و لهذا يكون ارتداده و عدوله عن الإسلام أشبه بالخيانه منه من عدم إدراك الحقيقه،و لذلك فهو يستحق ما خطّ فى حقه من عقاب.

على أنّ الأحكام عاده لا تخصص لشخص أو شخصين و إنّما يلحظ فيها المجموع العام (1) .

---

۱ - ۱) -اختلف المفسّرون بخصوص جمله«من كفر باللّه...»،فاعتبرها بعضهم:شرحا و توضيحا للجمله السابقه لها و أنّها بدل لعباره«الذين لا يؤمنون بآيات اللّه»،فيما اعتبرها آخرون:بدلا لكلمه«كاذبون»،و قال بعضهم:أنّها مبتدأ محذوف الخبر و يقدروها ب«من كفر باللّه من بعد إيمانه فعليهم غضب من اللّه و لهم عذاب أليم»،فجزاء الشرط محذوف لدلاله الجمله التاليه على ذلك. و ثمّه احتمال رابع(و يبدو أفضل الاحتمالات)و هو:أنّها مبتدأ،و خبرها فى نفس الآيه و غير محذوف،أمّا عباره«لكن من شرح للكفر صدرا»فهى توضيح جديد للمبتدأ لوقوع جمله استثنائيه بينها و بين خبرها،و هذا النوع من التعبير كثير الاستعمال حتى فى غير اللغه العربيه-فتأمل.

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۱۱۲ الی ۱۱۴]

اشاره

وَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً قَرْیَهً کٰانَتْ آمِنَهً مُطْمَئِنَّهً یَأْتِیهٰا رِزْقُهٰا رَغَداً مِنْ کُلِّ مَکٰانٍ فَکَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اَللّٰهِ فَأَذٰاقَهَا اَللّٰهُ لِبٰاسَ اَلْجُوعِ وَ اَلْخَوْفِ بِمٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ (۱۱۲) وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ اَلْعَذٰابُ وَ هُمْ ظٰالِمُونَ (۱۱۳) فَکُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اَللّٰهُ حَلاٰلاً طَیِّباً وَ اُشْکُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ إِیّٰاهُ تَعْبُدُونَ (۱۱۴)

التّفسیر

اشاره

الذین کفروا فأصابهم العذاب

قلنا مرارا:إنّ هذه السوره هی سوره النعم،النعم المادیه و المعنویه و علی کافه الأصعده،و قد مرّ ذکر فی آیات متعدده من هذه السوره المبارکه.

و تصور لنا الآیات أعلاه عاقبه الکفر بالنعم الإلهیه علی شکل مثل واقعی.

و یبتدأ التصویر القرآنی بضرب مثل لمن لم یشکر نعمه اللّه علیه: ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً قَرْیَهً کٰانَتْ آمِنَهً لا تضطر إلی هجره إجباریه،بل تعیش فی أمن و أمان

ص: ۳۴۴

(مطمئنه)و مضافا الى ذلک يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ .

و لکنّ حالها قد تبدّل فی النهایه فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذاقَهَا اللّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ .

و إضافه لاستکمال نعم اللّه المادیه علیهم،فقد أضاف لهم من النعم المعنویه ما یستقر به حالهم فی الدنیا،و یدام لهم ذلک فی الآخره، فبعث بین ظهرانیهم رسل و أنبیاء و أرسلت إلیهم التعالیم السماویه وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ .

فکانت النتیجه أن: فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَ هُمْ ظالِمُونَ .

و إنّکم حین تطلعون علی هذه النماذج الواقعیه من الأمم السابقه،فاعتبروا بها و لا تنهجوا طریق أولئک الغافلین الظالمین من الکافرین بأنعم اللّه فَكُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ .

بحوث

اشاره

۱-أهو مثال أم حدث تاریخی؟

لقد عبّرت الآیات أعلاه عند حدیثها عن تلک المنطقه العامرّه بکثره النعم، و التی أصاب أهلها بلاء الجوع و الخوف نتیجه کفرهم بأنعم اللّه،عبّرت عن ذلک بکلمه«مثلا»و بذات الوقت فإنّ الآیه استخدمت الأفعال بصیغه الماضی،ممّا یشیر إلی وقوع ما حدث فعلا فی زمن ماض،و هنا حصل اختلاف بین المفسّرین فی الهدف من البیان القرآنی،فقسم قد احتمل أنّ الهدف هو ضرب مثال عام، و ذهب القسم الثّانی إلی أنّه لبیان واقعه تأریخیه معیّنه.

و تطرّق مؤید و الاحتمال الثّانی إلی تحدید المنطقه التی حدثت فیها هذه الواقعه. فذهب بعضهم أنّها أرض مکّه،و لعل يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ تدعو إلی تقویه هذا الاحتمال،لأنّه دلیل علی أنّ هذه المنطقه مجدبه،و ما تحتاج

إليه يأتيها من خارجها،و ما جاء فى الآيه(۵۷)من سوره القصص يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرٰاتُ كُلِّ شَيْءٍ يعضد هذا المعنى،خصوصا و أنّ المفسّرين قد قطعوا بأنّها إشاره إلى مكّه المكرمه.

و يردّ هذا الزعم بعدم معرفه حادثه كهذه فى تأريخ مكّه على ما للحادثه من وضوح،فغير معروف عن مكّه أنّها عاشت أيّاما رغيده و من ثمّ جاءها القحط و الجوع! و قال بعض آخر:حدثت هذه القصّه لجمع من بنى إسرائيل فى منطقه ما، و أنّهم ابتلوا بالقحط و الخوف على أثر كفرانهم بنعم اللّه.

و ما يؤيد ذلك ما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ قوما فى بنى إسرائيل تؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت فى بلادهم يستنجون بها فلم يزل اللّه بهم حتى اضطرّوا إلى التماثيل يبيعونها و يأكلونها و هو قول اللّه» ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً... (۱) .

و رويت روايات أخرى قريبه من هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السّلام و تفسير على بن إبراهيم ممّا لا يمكن الاعتماد الكامل على أسانيدها،و إلّا لكانت المسأله واضحه (۲) .

و ثمّه احتمال آخر و هو أنّ الآيه تشير إلى قوم«سبأ»الذين عاشوا فى اليمن، و قد ذكر القرآن الكريم قصتهم فى الآيات(۱۵- ۱۹)من سوره سبأ،و كيف أنّهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار و الخيرات فى أمن و سلام،حتى أصابهم الغرور و الطغيان و الاستكبار و كفران النعم الإلهيه،فأهلكهم اللّه و شتّت جمعهم و جعلهم عبره للآخرين.

و جمله يَأْتِيهٰا رِزْقُهٰا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ ليست دليلا قاطعا على أنها لم

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۹۱(لا حظ بأن الرّوايه عن تفسير العياشى،و أحاديثه مرسله).

۲- ۲) -المصدر السابق.

تکن عامرّه بذاتها،لأنّه من الممکن أن یقصد ب«کل مکان»أطرافها و ضواحیها، و کما هو معروف فإنّ المحاصیل الزراعیه لإقلیم کبیر تنتقل إلی المدینه أو القریه المرکزیه فی تلک المنطقه.

و ینبغی التذکیر مرّه أخری بعدم وجود المانع من شموله إشاره الآیه إلی کل ما ذکر من احتمالات.

و علی أیّه حال،فلیس ثمّه مشکله مهمّه فی تفسیر هذه الآیه و ذلک لکثره المناطق التی أصابها مثل هذه العاقبه عبر التاریخ.

و إذا کان عدم الاطمئنان الکافی فی تعیین محل المنطقه قد دفع بعض المفسّرین إلی اعتبار الموضوع مثالا عامّا مجرّدا و لیس منطقه معینه،فظاهر الآیات مورد البحث لا یناسب ذلک التّفسیر،بل یشیر إلی وجود منطقه معینه و حادثه تأریخیه.

۲-الرابطه ما بین الأمن و الرّزق الکثیر

ذکرت الآیات ثلاث خصائص لهذه المنطقه العامرّه المبارکه:

الخاصیه الأولی:الأمن.

الخاصیه الثّانیه:الاطمئنان فی إدامه الحیاه.

الخاصیه الثّالثه:جلب الأرزاق و المواد الغذائیه الکثیره إلیها.

و ترتبط هذه الخواص فیما بینها ترابطا علّیا و حسب تسلسلها،فکل خاصیه ترتبط بما قبلها ارتباط عله و معلول،فلو فقد الأمن لما اطمأن الإنسان علی إدامه حیاته فی مکانه المعیّن،و إذا فقد الاثنان فلا رغبه حقیقیه لأحد علی الإنتاج و تحسین الوضع الاقتصادی هناک.

فالآیه تقدم درسا عملیا لمن یرغب فی بلاد عامرّه و حرّه و مستقله،فقبل کل شیء لا بدّ من توفیر حاله الأمن،و من ثمّ بعث الاطمئنان فی قلوب الناس

بخصوص مستقبل وجودهم فی تلک المنطقه،و من بعد ذلک یأتی دور تحریک عجله الإقتصاد.

فبهذه النعم المادیه الثلاثه تصل المجتمعات إلی درجه تکامل حیاتها المادیه فقط،و وصولا للحیاه المتکامله من کافه الجوانب(مادیا و معنویا)تحتاج المجتمعات إلی نعمه الإیمان و التوحید،و لهذا فقد جاء بعد ذکر هذه النعم: وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ .

۳-لباس الجوع و الخوف

ذکرت الآیات فی بیان عاقبه الکافرین بنعم اللّه،قائله: فَأَذٰاقَهَا اللّٰهُ لِبٰاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ فمن جهه:شبّهت الجوع و الخوف باللباس،و من جهه أخری:

عبّرت ب«أذاقها»بدلا من(ألبسها).

و حمل هذا التفاوت فی التعبیر المفسّرین إلی التوقف و التأمل فی الآیه...

فالتعبیر یحمل بین طیاته إشاره لطیفه،فمثلا:

قال ابن الراوندی لابن الأعرابی الأدیب:هل یذاق اللباس؟ قال ابن الأعرابی:لا بأس و لا لباس یا أیّها النسناس،هب أنّک تشکّ أنّ محمّدا ما کان نبیّا أمّا کان عربیا!! (۱) .

و علی أیّه حال،فالتعبیر إشاره إلی أن القحط و الخوف کانا من الشده و کأنّهما لباس قد أحاط بأبدانهم من کل الجهات،و أبدانهم فی تماس معه،و من جهه أخری فقد وصلت حاله لمسهم للخوف و القحط کأنّهم یتذوقونه بألسنتهم.

و هو تعبیر عن أشدّ حالات الخوف و منتهی حالات الفقر و الذی یمکن أنّ یصیب جمیع وجود الإنسان.

۱- ۱) -تفسیر الفخر الرازی،ج ۲۰،ص ۱۲۸.

فكما أنّ نعمه الأمن و الرفاه قد غطّت كامل وجودهم فی البدايه،فها هم و قد حال بهم الأمر لأن يحل الفقر و الخوف محلّها فی آخر مطافهم نتيجه لكفرانهم بنعم اللّه سبحانه.

۴-أثر كفران النعمه فی تضييع المواهب الإلهيه

رأينا فی الرّوايه المتقدمه كيف راح أولئك المرفهون بتطهير أجسادهم بواسطه المواد الغذائيه بعد أن تسلطت عليهم الغفله و ساورهم الغرور،حتی ابتلاهم اللّه بالقحط و الخوف.

و عرض الحادثه ما هو إلاّ تنبيه للناس و لكل الأمم الغارقه بالنعم الإلهيه، علی أنّ الإسراف و التبذير و تضييع النعم لا ينجو من عقوبه و غرامه ثقيله الوقع.

و هو تنبيه أيضا للذين يرمون نصف غذائهم(الزائد عن الحاجه)فی أكياس الأوساخ دائما.

و هو تنبيه كذلك لأولئك الذين يهيئون غذاء يكفی لعشرين شخصا،و ليس لهم من الضيوف إلاّ أربعه،و لا يصل الزائد منه إلی بطون الجياع من الناس.

و هو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائيه فی بيوتهم لاستعمالهم الخاص، و يملؤون مخازنهم انتظارا لارتفاع سعرها فی الأسواق حتی يفسد و يذهب هباء من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم،فلا يخلو أیّ عمل ممّا ذكر من عقوبه إلهيه،و أقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.

و تتّضح أهميه المسأله إذا علمنا أنّ المواد الغذائيه علی سطح الكره الأرضيه محدده بنسبه،فأیّ إفراط فی أیّ نوع من المواد يؤدی إلی حرمان نسبه من البشر من تلك المواد.

و لذلك جاء التأكيد الشديد حول هذه المسأله فی الأحاديث الشريفه،حتی

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله:«کان أبی یکره أن یمسح یده فی المندیل و فیه شیء من الطعام تعظیما له،إلاّ أن یمصها،أو یکون إلی جانبه صبی فیمصها،قال:

فإنّی أجد الیسیر یقع من الخوان فأتفقده فیضحک الخادم،ثمّ قال:إنّ أهل قریه ممن کان قبلکم کان اللّه قد وسّع علیهم حتی طغوا،فقال بعضهم لبعض:لو عمدنا إلی شیء من هذا النقی فجعلناه نستنجی به کان ألین علینا من الحجاره،قال علیه السّلام:فلما فعلوا ذلک بعث اللّه علی أرضهم دوابا أصغر من الجراد فلم تدع لهم شیئا خلقه اللّه إلاّ أکلته من شجر أو غیره،فبلغ بهم الجهد إلی أنّ أقبلوا علی الذی کانوا یستنجون به،فأکلوه،و هی القریه التی قال اللّه تعالی: ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْیَهً کانَتْ آمِنَهً مُطْمَئِنَّهً إلی قوله: بِما کانُوا یَصْنَعُونَ (۱) .

ص: ۳۵۰

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۳،ص ۹۱ و ۹۲.

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۱۱۵ الی ۱۱۹]

اشاره

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ اَلْمَيْتَةَ وَ اَلدَّمَ وَ لَحْمَ اَلْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَيْرِ اَللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اُضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۵) وَ لاٰ تَقُولُوا لِمٰا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ اَلْكَذِبَ هٰذٰا حَلاٰلٌ وَ هٰذٰا حَرٰامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ إِنَّ اَلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ (۱۱۶) مَتٰاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى اَلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا مٰا قَصَصْنٰا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۸) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا اَلسُّوءَ بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۹)

التّفسير

اشاره

لا يفلح الكاذبون:

بعد أن تحدثت الآيات السابقه عن النعم الإلهيه و مسأله شكر النعمه،تأتی الآيات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع و تطرح مسأله المحرمات

ص: ۳۵۱

الواقعیه و غیر الواقعیه لتفصل بین الدین الحق و بین البدع التی أحدثت فی دین اللّه،و تشرع بالقول: إِنَّما حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِیرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَیْرِ اللّهِ بِهِ (۱) .

و قد بحثنا موضوع تحریم المیته و الدم و لحم الخنزیر بالتفصیل فی تفسیرنا للآیه(۱۷۳)من سوره البقره.

إنّ تلوّث هذه المواد الثلاث بات الیوم لیس خافیا علی أحد،فالمیته مصدر لأنواع الجراثیم،و الدم من أکثر مکونات البدن تقبلا للتلوّث بالجراثیم،و أمّا لحم الخنزیر فیعتبر سببا للإصابه بالکثیر من الأمراض الخطره،و فوق کل ذلک(و کما قلنا فی تفسیرنا لسوره البقره)فتناول لحم الخنزیر و الدم له الأثر الخطیر علی الحاله النفسیه و الأخلاقیه للإنسان،بسبب التأثیر الحاصل منهما علی هرمونات البدن،(و المیته بسبب عدم ذبحها و خروج دمها فإنّ أضرار التلوّث تتضاعف فیها).

أمّا فلسفه تحریم ما یذبح لغیر اللّه(حیث کانوا بدلا من ذکر اسم اللّه عند الذبح یذکرون أسماء أصنامهم أو لا یتلفظون بشیء)فلیست صحیحه،بل هی أخلاقیه و معنویه،حیث نعلم بعدم کفایه علّه التحلیل و التحریم فی الإسلام بملاحظه الجانب الصحی للموضوع،بل من المحرمات ذات جانب معنوی صرف، و حرمت بلحاظ تهذیب الروح و النظر إلی الجنبه الأخلاقیه،و قد یأتی التحریم فی بعض الحالات حفظا للنظام الاجتماعی.

فتحریم أکل لحم ما لم یذکر علیه اسم اللّه إنّما کان بلحاظ أخلاقی.فمن جهه یکون التحریم حربا علی الشرک و عباده الأصنام،و من جهه أخری یکون دعوه إلی خالق هذه النعم.

---

۱ – ۱) -أهلّ:من الإهلال،مأخوذ من الهلال،بمعنی إعلاء الصوت عند رؤیه الهلال،و باعتبار أنّ المشرکین کانوا إذا ذبحوا حیواناتهم للأصنام صرخوا عالیا بأسماء أصنامهم،فقد عبّر عنه ب«أهلّ».

و يستفاد من المحتوى العام للآيه و الآيات التاليه أنّ الإسلام يوصى بالاعتدال فى تناول اللحوم،فلا يكون المسلم كالذين حرّموا على أنفسهم تناول اللحم و اكتفوا بالأغذيه النباتيه،و لا كالذين أحلّوا لأنفسهم أكل اللحوم أيّا كانت كأهل الجاهليه و البعض ممن يدّعى التمدّن فى عصرنا الحاضر،ممن يجيزون أكل كل لحم(كالسحالى و السرطان و أنواع الديدان).

جواب على سؤال:

و هنا يأتى السؤال التالى..ذكرت الآيه المباركه أربعه أقسام من الحيوانات المحرمه الأكل أو أجزائها،و الذى نعلمه أنّ المحرم من اللحوم أكثر ممّا ذكر،حتى أنّ بعض السور القرآنيه ذكرت من المحرمات أكثر من أربعه أقسام(كما فى الآيه (٣)من سوره المائده).

فلما ذا حددت الآيه أربعه أشياء فقط؟ و جواب السؤال-كما قلنا فى تفسير الآيه(١۴۵)من سوره الأنعام-:أنّ الحصر الموجود فى الآيه هو حصر إضافى،أى أنّ المقصود من استعمال«إنّما» فى هذه الآيات لنفى و إبطال البدع التى كان يقول بها المشركون فى تحريم بعض الحيوانات،و كأنّ القرآن يقول لهم:هذه الأشياء حرام،لا ما تقولون! و ثمّه احتمال آخر،و هو أن تكون هذه المحرمات الأربعه هى المحرمات الأصليه أو الأساسيه،حيث أنّ«المنخنقه»المذكوره فى آيه(٣)من سوره المائده داخله فى إحدى الأقسام الأربعه(الميته).

أمّا المحرمات الأخرى من أجزاء الحيوانات أو أنواعها-كالوحوش-فتأتى فى الدرجه الثّانيه،و لذا أتى حكم تحريمها بطريق سنّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و عليه فيمكن أن يكون الحصر فى الآيه حصرا حقيقيا-فتأمل.

و فى نهايه الآيه سياقا مع الأسلوب القرآنى عند تناوله ذكرت الحالات

و الموارد الاستثنائيه،يقول: فَمَنِ اضْطُرَّ كأن يكون فى صحراء و لا يملك غذاء غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

«باغ»أو الباغى:(من البغى)بمعنى«الطلب»،و يأتى هنا بمعنى طلب اللذه أو تحليل ما حرم اللّه.

«عاد»أو العادى،(من العدو)أى«التجاوز»،و يأتى هنا بمعنى أكل المضطر لأكثر من حد الضروره.

و ورد تفسير(الباغى)فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام بأنّه(الظالم)،و(العادى) بمعنى(الغاصب)،و جاء-أيضا-الباغى:هو الذى يخرج على إمام زمانه، و العادى،هو السارق.

و إشاره الرّوايات المذكوره يمكن حملها على الاضطرار الحاصل عند السفر،فإذا سافر شخص ما طلبا للظلم و الغصب و السرقه ثمّ اضطر إلى أكل هذه اللحوم المحرمه فسوف لا يغفر له ذنبه،حتى و إن كان لحفظ حياته من الهلاك المحتم.

و على أيّه حال،فلا تنافى بين ما ذهبت إليه التفاسير و بين المفهوم العام للآيه، حيث يمكن جمعها.

و تأتى الآيه التاليه لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل،و الذى تطرق القرآن إليه سابقا بشكل غير مباشر،فتأتى الآيه لتطرحه صراحه حيث تقول: وَ لاٰ تَقُولُوا لِمٰا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هٰذٰا حَلاٰلٌ وَ هٰذٰا حَرٰامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ (1) .

أى إنّ ما جئتم به ليس إلاّ كذبه صريحه أطلقتها ألسنتكم فى تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم،و تحريمكم لأخرى!(أشاره إلى الأنعام التى حرمها

---

1 - 1) -و هكذا أصل تركيب جمله«و لا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب»:اللام:..لام التعليل،«ما»فى«لما تصف».. مصدريه،و«الكذب»..مفعول ل«تصف»..فتكون العباره:(لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام لتوصيف ألسنتكم الكذب).

البعض على نفسه،و البعض الآخر حللها لنفسه بعد أن جعل قسما منها لأصنامه).

فهل أعطاكم اللّه حقّ سنّ القوانين؟أم أنّ أفكاركم المنحرفه و تقاليدكم العمياء هى التى دفعتكم لإحداث هذه البدع؟..أو ليس هذا كذبا و افتراءا على اللّه؟! و جاء فى الآيه(١٣۶)من سوره الأنعام بوضوح: وَ جَعَلُوا لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَ ما كانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ .

و يستفاد كذلك من الآيه(١۴٨)من سوره الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ أنّهم كانوا يجعلون لأنفسهم حق التشريع فى التحليل و التحريم،و يظنون أنّ اللّه يؤيد بدعهم!(و على هذا فكانوا يضعون البدعه أوّلا و يحللون و يحرمون ثمّ ينسبون ذلك إلى اللّه فيكون افتراء آخر) (١) .

و يحذر القرآن فى آخر الآيه بقوله: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ لأنّ من مسببات الشقاء الأساسيه الكذب و الافتراء على أىّ إنسان، فكيف به إذا كان على اللّه عزّ و جلّ!؟فلا أقل و الحال هذه من مضاعفه آثاره السيئه.

و توضح الآيه التاليه ذلك الخسران،فتقول: مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ .

و يمكن أن تكون مَتاعٌ قَلِيلٌ إشاره إلى أجنّه الحيوانات الميته التى كانوا يحللونها لأنفسهم و يأكلون لحومها،أو إشاره إلى إشباعهم حب الذات و عبادتها بواسطه جعل البدع،أو أنّهم بتثبيت الشرك و عباده الأصنام فى مجتمعهم يتمكنون أن يحكموا على الناس مدّه من الزمن،و كل ذلك مَتاعٌ قَلِيلٌ سيعقبه

١- ١) -و لذا جاء ذكر افتراءهم فى الآيه مسبوقا باللام ليكون نتيجه و غايه لبدعهم-فتأمل.

عَذٰابٌ أَلِیمٌ

.

و یطرح السؤال التـالی:لمـا ذا حرّمت علی الیهود محرّمات إضافیه؟ الآیه التالیه کأنها جواب علی السؤال المطروح،حیث تقول: وَ عَلَی الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا مٰا قَصَصْنٰا عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ .

و هو إشـاره إلی ما ذکر من الآیه(۱۴۶)من سوره الأنعـام: وَ عَلَی الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا کُلَّ ذِی ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ شُحُومَهُمٰا إِلاّٰ مٰا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمٰا أَوِ الْحَوٰایٰا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذٰلِکَ جَزَیْنٰاهُمْ بِبَغْیِهِمْ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ .

ذِی ظُفُرٍ :هی الحیوانات ذات الظفر الواحد کالخیل.

مٰا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمٰا :الشحوم التی فی منطقه الظهر منها.

اَلْحَوٰایٰا :الشحوم التی علی أطراف الأمعاء و الخاصرتین.

و حقیقه هـذه المحرمـات الإضـافیه العقـاب و الجزاء للیهـود جراء ظلمهم، و لـذلک یقـول القرآن الکریم فی آخر الآیـات مورد البحث: وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰکِنْ کٰانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ .

و کذلِکَ ما جاء فی الآیتین(۱۶۰ و ۱۶۱)من سوره النسـاء: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ طَیِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ کَثِیراً وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ .

فکان تحریما قسما من اللحوم علی الیهود ذا جنبه عقابیّه دون أن یکون للمشرکین القدره علی الإحتجاج فی ذلک.

و مـا حرّمه المشـرکون إن هو إلاّـ بـدعه نشأت من خرافـاتهم و أبـاطیلهم،لأنّ مـا فعلوه مـا کـان جاریـا لاـ عنـد الیهود و لا عند المسلمین(و یمکن أن تکون إشاره الآیه تؤدی إلی هذا المعنی و هو إنّکم فعلتم ما لا یتفق مع أیّ کتاب سماوی).

و فی آخر آیه من الآیات مورد البحث،و تمشیا مع الأسلوب القرآنی،یبدأ القرآن بفتح أبواب التوبه أمام المخدوعین من الناس و النادمین من ضلالهم،

فیقول: ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهٰالَهٍ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ .

و یلاحظ فی هذه الآیه جمله أمور:

أوّلا-اعتبرت علّه ارتکاب الذنب«الجهاله»،و الجاهل المذنب یعود إلی طریق الحق بعد ارتفاع حاله الجهل،و هؤلاء غیر الذین ینهجون جاده الضلال علی علم و استکبار و غرور و تعصب و عناد منهم.

ثانیا:إنّ الآیه لا- تحدّد موضوع بالتوبه القلبیه و الندم،بل تؤکّد علی أثر التوبه من الناحیه العملیه و تعتبر الإصلاح مکملا للتوبه،لتبطل الزعم القائل بإمکان مسح آلاف الذنوب بتلفظ«أستغفر اللّه»،و تؤکّد علی وجوب إصلاح الأمور عملیا، و ترمیم ما أفسد من روح الإنسان أو المجتمع بارتکاب تلک الذنوب،للدلاله إلی التوبه الحقیقیه لا توبه لقلقه اللسان.

ثالثا:التأکید علی شمول الرحمه الإلهیه و المغفره لهم،و لکن بعد التوبه و الإصلاح: إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ .

و بعباره أخری إنّ مسأله قبول التوبه لا یکون إلاّ بعد الندم و الإصلاح،و قد ذکر ذلک فی ثلاثه تعابیر:

أوّلا:باستعمال الحرف«ثمّ».

ثانیا:«من بعد ذلک».

ثالثا:«من بعدها».

لکی یلتفت المذنبون إلی أنفسهم و یترکوا ذلک التفکیر الخاطئ بأن یقولوا:

نرجو لطف اللّه و غفرانه و رحمته،و هم علی ارتکاب الذنوب دائمون.

الآيات [سوره النحل (۱۶): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۴]

اشاره

إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّهً قٰانِتاً لِلّٰهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۲۰) شٰاكِراً لِأَنْعُمِهِ اِجْتَبٰاهُ وَ هَدٰاهُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۲۱) وَ آتَيْنٰاهُ فِي اَلدُّنْيٰا حَسَنَهً وَ إِنَّهُ فِي اَلْآخِرَهِ لَمِنَ اَلصّٰالِحِينَ (۱۲۲) ثُمَّ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ أَنِ اِتَّبِعْ مِلَّهَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ مٰا كٰانَ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۲۳) إِنَّمٰا جُعِلَ اَلسَّبْتُ عَلَى اَلَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۲۴)

التّفسير

اشاره

كان إبراهيم لوحده أمّه!

كما قلنا مرارا بأنّ هـذه السوره هى سوره النعم،و هـدفها تحريك حس الشكر لـدى الإنسان بشـكل يدفعه لمعرفه خالق و واهب هذه النعم.

و الآيات تتحدث عن مصداق كامل للعبد الشكور للّه،ألا و هو«إبراهيم»بطل التوحيد،و أوّل قدوه للمسلمين عامه و للعرب خاصه.

و الآيات تشير إلى خمس من الصفات الحميده التى كان يتحلى بها

ص:۳۵۸

إبراهيم عليه السّلام.

١- إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً .

و قد ذكر المفسّرون أسبابا كثيره للتعبير عن إبراهيم عليه السّلام بأنّه«أمّه»و أهمها أربع:

الأوّل:كان لإبراهيم شخصيه متكامله جعلته أن يكون أمّه بذاته،و شعاع شخصيه الإنسان فى بعض الأحيان يزداد حتى ليتعدى الفرد و الفردين و المجموعه فتصبح شخصيته تعادل شخصيه أمّه بكاملها.

الثّانى:كان إبراهيم عليه السّلام قائدا و قدوه حسنه و معلما كبيرا للإنسانيه،و لذلك أطلق عليه أُمَّةً لأنّ«أمّه»اسم مفعول يطلق على الذى تقتدى به الناس و تنصاع له.

و ثمّه ارتباط معنوى خاص بين المعنيين الأوّل و الثانى، حيث أنّ الذى يكون بمرتبه إمام صدق و استقامه لأمّه ما،يكون شريكا لهم فى أعمالهم و كأنّه نفس تلك الأمّه.

الثّالث:كان إبراهيم عليه السّلام موحدا فى محيط خال من أىّ موحد،فالجميع كانوا يخوضون فى وحل الشرك و عباده الأصنام،فهو و الحال هذه«أمّه»فى قبال أمّه المشركين(الذين حوله).

الرّابع:كان إبراهيم عليه السّلام منبعا لوجود أمّه،و لهذا أطلق القرآن عليه كلمه«أمّه».

و لا مانع من أن تحمل هذه الكلمه القصيره الموجزه كل ما ذكر ما معان كبيره.

نعم فقد كان إبراهيم أمّه و كان إماما عظيما،و كان رجلا صانع أمّه،و كان مناديا بالتوحيد وسط بيئه اجتماعيه خاليه من أىّ موحد (١) .

ص:٣٥٩

١- ١) -و فى الرّوايات عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن عبد المطلب:«يبعث يوم القيامه أمّه وحده،عليه بهاء الملوك و سيماء الأنبياء»لأنّه كان مدافعا عن التوحيد فى بيئه الشرك و عباده الأصنام.(سفينه البحار،ج ٢،ص ١٣٩).

و قال الشاعر:

ليس على اللّه بمستنكر

أن يجمع العالم فى واحد

٢-صفته الثّانيه فى هذه الآيات:أنّه كان قٰانِتاً لِلّٰهِ .

٣-و كان دائما على الصراط المستقيم سائرا على طريق اللّه،طريق الحق حَنِيفاً .

۴- وَ لَمْ يَکُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بل كان نور اللّه يملأ كل حياته و فكره،و يشغل كل زوايا قلبه.

۵-و بعد كل هذه الصفات،فقد كان شٰاكِراً لِأَنْعُمِهِ .

و بعد عرض الصفات الخمسه يبيّن القرآن الكريم النتائج المهمّه لها،فيقول:

١- اِجْتَبٰاهُ للنّبوه و إبلاغ دعوته.

٢- وَ هَدٰاهُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ و حفظه من كل انحراف،لأنّ الهدايه لا تأتى لأحد عبثا،بل لا بدّ من توفر الاستعداد و الأهليه لذلک.

٣- وَ آتَيْنٰاهُ فِى الدُّنْيٰا حَسَنَةً .

«الحسنه»فى معناها العام كل خير و إحسان،من قبيل منح مقام النّبوه مرورا بالنعم الماديه حتى نعمه الأولاد و ما شابهها.

۴- وَ إِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ .

و مع أنّ إبراهيم كان على رأس الصالحين فى الدنيا،فإنّه سيكون منهم فى الآخره كما أخبرنا بذلک القرآن الكريم،و هذه دلاله على عظمه مقام الصالحين بأن يحسب إبراهيم عليه السّلام على ما له من مقام سام كأحدهم فى دار الآخره،و لم لا يكون ذلک و قد طلب إبراهيم عليه السّلام ذلک من ربّه حين قال: رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصّٰالِحِينَ (١) .

١- ١) -سوره الشعراء،٨٣.

۵- و ختمت عطایا اللّه عزّ و جلّ لإبراهیم علیه السّلام لما ظهر منه من صفات متکامله بأن جعل دینه عاما و شاملا لکل ما سیأتی بعده من زمان-و خصوصا للمسلمین- و لم یجعل دینه مختصا بعض أهل زمانه، فقال اللّه عزّ و جلّ: ثُمَّ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً (۱) .

و یأتی التأکید مرّه أخری: وَ مٰا کٰانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ .

و بملاحظه الآیات السابقه یبدو لنا هذا السؤال:إن کان دین الإسلام هو نفس دین إبراهیم و أنّ المسلمین یتبعون سنن إبراهیم علیه السّلام فی کثیر من المسائل و منها احترام یوم الجمعه،فلما ذا اتّخذ الیهود یوم السبت عیدا لهم بدلا من الجمعه و یعطلون فیه أعمالهم؟ إنّ آخر آیه من الآیات مورد البحث تجیب علی السؤال المذکور حین تقول:

إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَی الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِیهِ

أی أنّ السبت و ما حرم فی السبت کان عقوبه للیهود،و قد اختلفوا فیه أیضا،فمنهم من قبله و منهم من أهمله.

و تقول بعض الرّوایات:أنّ موسی علیه السّلام دعا قومه بنی إسرائیل لاحترام یوم الجمعه و تعطیل أعمالهم فیه،و هو دین إبراهیم علیه السّلام،إلاّ إنّهم تعلّلوا،و اختاروا یوم السبت،فجعله اللّه عطله لهم و لکن بضیق و شدّه،و لهذا لا ینبغی الاعتماد علی تعطیل یوم السبت،لأنّه إنّما کان استثنائیا و ذا طابع جزائی،و أفضل دلیل علی هذا الأمر أنّ الیهود أنفسهم اختلفوا فی یومهم المنتخب هذا،فبعض احترمه و بعض آخر خالف ذلک و أدام العمل و الکسب فیه حتی أصابهم عذاب اللّه.

و ثمّه احتمال آخر أن تکون إشاره الآیه مرتبطه ببدع المشرکین فی موضوع الأغذیه الحیوانیه،لأنّ الآیات السابقه تطرقت لذلک من خلال إجابتها علی

---

۱ - ۱) -«الحنیف»:بمعنی الذی یترک الانحراف و یتجه إلی الاستقامه و الصلاح،و بعباره أخری،یغض نظره عن الأدیان و الأوضاع المنحرفه و یتوجه نحو صراط اللّه المستقیم،الدین الموافق للفطره،و لهذا یسمی الصراط المستقیم،فالتعبیر بالحنیف یحمل بین طیاته إشاره خفیّه إلی أنّ التوحید هو دین الفطره.

تساؤل:لما ذا لم يحرم فى الإسلام ما كان محرما فى دين اليهود؟فجاء الجواب أنّ ذلک کان عقابا لهم،فيطرح السؤال مرّه أخرى حول عدم حرمه صيد الأسماک يوم السبت فى الأحكام الإسلاميه فى حين أنّه محرم على اليهود..فيكون الجواب بأنّه كان عقابا لليهود أيضا.

و على أيّه حال،فثمّه ارتباط بين هذه الآيات و الآيات(۱۶۳-۱۶۶)من سوره الأعراف التى تتحدث الحديث عن«أصحاب السبت»،حيث عرضت قصتهم،و کیف أنّ صید السمک قد حرّم عليهم فى يوم السبت،و مخالفه قسم منهم لهذا الأمر،و العقاب الشديد الذى نزل عليهم بعد ذلک الامتحان الإلهى.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ«السبت»فى الأصل بمعنى تعطيل الأعمال للاستراحه،و لذلک سمى يوم السبت،لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم فيه،و بقى هذا الاسم مستعملا حتى بعد مجىء الإسلام،إلّا أنّه لا عطله فيه.

و يقول القرآن الكريم فى آخر الآيه: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

و كما أشرنا سابقا فإنّ إحدى خصائص يوم القيامه إنهاء الاختلافات على كافه الأصعده،و العوده إلى التوحيد المطلق،لأنّ يوم القيامه هو يوم:البروز، الظهور،كشف السرائر و البواطن،و كشف الغطاء و يوم رفع الحجب.

الآیات [سوره النحل (۱۶): الآیات ۱۲۵ الی ۱۲۸]

اشاره

اُدْعُ إِلیٰ سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَهِ وَ اَلْمَوْعِظَهِ اَلْحَسَنَهِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۱۲۵) وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ فَعٰاقِبُوا بِمِثْلِ مٰا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِلصّٰابِرِینَ (۱۲۶) وَ اِصْبِرْ وَ مٰا صَبْرُکَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ تَکُ فِی ضَیْقٍ مِمّٰا یَمْکُرُونَ (۱۲۷) إِنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلَّذِینَ اِتَّقَوْا وَ اَلَّذِینَ هُمْ مُحْسِنُونَ (۱۲۸)

التّفسیر

اشاره

عشره قواعد أخلاقیه..سلاح داعیه الحق:

حملت آیات السوره بین طیاتها أحادیث کثیره و متنوعه،فقد تناولت المشرکین و الیهود و أصناف المخالفین بشکل عام،تاره بلهجه لینه و أخری بأسلوب تقریع شده،و خصوصا الآیات السابقه لما لها من عمق و شده أکثر ممّا سبقها من الآیات المبارکات.

أمّا الآیات أعلاه و التی تمثل خاتمه بحوث و أحادیث سوره النحل،فتبیّن

ص: ۳۶۳

أهم الأوامر الأخلاقيه الأساسيه التى ينبغى التحصن بها عند مواجهه المخالفين على أساس منطقى،كما و تبيّن كيفيه العقاب و العفو و أسلوب الصمود أمام مؤامرتهم و ما شابه ذلک.

و يمكن تسميه ذلک بالأصول التكتيكيه و منهج المواجهه فى الإسلام ضد المخالفين،كما و ينبغى العمل به كقانون كلى شامل لكل زمان و مكان.

و يتلخص هذا البرنامج الرّبانى بعشره أصول،تم ترتيبها وفقا لتسلسل الآيات مورد البحث:

١-أُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّکَ بِالْحِكْمَهِ

:

«الحكمه»:بمعنى العلم و المنطق و الاستدلال،و هى فى الأصل بمعنى(المنع) و قد أطلقت على العلم و المنطق و الاستدلال لقدرتها على منع الإنسان من الفساد و الانحراف...

فأوّل خطوه على طريق الدعوه إلى الحقّ هى التمكن من الاستدلال وفق المنطق السليم،أو النفوذ إلى داخل فكر الناس و محاوله تحريک و إيقاظ عقولهم، كخطوه أولى فى هذا الطريق.

٢- وَ الْمَوْعِظَهِ الْحَسَنَهِ :

و هى الخطوه الثّانيه فى طريق الدعوه إلى اللّه،بالاستفاده من عمليه تحريک الوجدان الإنسانى،و ذلک لما للموعظه الحسنه من أثر دقيق و فاعل على عاطفه الإنسان و أحاسيسه،و توجيه مختلف طبقات الناس نحو الحقّ.

و فى الحقيقه فإنّ«الحكمه»تستثمر البعد العقلى للإنسان،و«الموعظه الحسنه»تتعامل مع البعد العاطفى له (١) .

١- ١) -قال بعض المفسّرين فى الفرق ما بين الحكمه،و الموعظه الحسنه،المجادله بالتى هى أحسن:أنّ الحكمه إشاره إلى الأدله القطعيه..الموعظه الحسنه إشاره إلى الأدله الظنيه..و المجادله بالتى هى أحسن إشاره إلى الأدله التى تهدف إلى إفحام المخالفين من خلال إلزامهم بما به يقبلون.(إلاّ أنّ ما أوردناه أعلاه يبدو أكثر مناسبه للمقصود).

إنّ تقييـد«الموعظه»بقيـد«الحسـنه»لعلّه إشـاره إلى أنّ النصـيحه و الموعظه إنّما تؤدى فعلها على الطرف المقابل إذا خليت من أيّه خشونه أو استعلاء و تحقير التى تثير فيه حسّ العناد و اللجاجه و ما شابه ذلك.

فكم من موعظه أعطت عكس ما كان يؤمّل بها بسبب أسلوب طرحها الذى يشعر الطرف المقابل بالحقاره و الإهانه كأن تكون الموعظه امـام الآخرين و مقرونه بـالتحقير،أو يستشمّ منهـا رائحه الاستعلاء فى الواعـظ،فتأخـذ الطرف المقابـل العزه بالإثم و لا يتجاوب مع تلك الموعظه.

و هكذا يترتب الأثر الإيجابى العميق للموعظه إذا كانت«حسنه».

٣- وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ .

الخطوه الثّالثه تختص بتخليه أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقه فيه و الأفكار المغلوطه ليكون مستعدا لتلقى الحق عند المناظره.

و بديهى أن تكون المجادله و المناظره ذات جدوى إذا كانت بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ ،أى أن يحكمها الحق و العدل و الصحه و الأمانه و الصـدق،و تكون خـاليه من أيّه إهـانه أو تحقير أو تكبر أو مغـالطه،و بعباره شامله: أن تحافظ على كل الأبعاد الإنسانيه السـليمه عند المناظره.

و فى ذيل الآيه الأولى،يقول القرآن: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

فالآيه تشير إلى أنّ وظيفتكم هى الدعوه إلى طريق الحق بالطرق الثلاثه المتقدمه،أمّا مسأله من الذى سيهتدى و من سيبقى على ضلاله،فعلم ذلك عند اللّه وحده سبحانه.

و ثمه احتمال آخر فى مقصود هـذه الجمله و هو بيان دليل للتوجيهات الثلاث المتقـدمه،أى:إنّما أمر سبحانه بهذه الأوامر الثلاثه لأنّه يعلم الكيفيه التى تؤثر بالضالين لأجل توجيههم و هدايتهم.

۴-انصب الحديث فى الأصول الثلاثه حول البحث المنطقى و الأسلوب العاطفى و المناقشه المعقوله مع المخالفين،و إذا حصلت المواجهه معهم و لم يتقبلوا الحق و راحوا يعتدون،فهنا يأتى الأصل الرابع: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ .

۵- وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ :

و تقول الرّوايات:إنّ الآيه نزلت فى معركه(أحد)عند ما شاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شهاده عمّه حمزّه بن عبد المطلب المؤلمه(حيث لم يكتف العدو بقتله بل شقّ صدره بوحشيه و قساوه فظيعه و أخرج كبده أو قلبه و قطع أذنه و أنفه) و تأذى النّبى لذلك كثيرا و

قال: «اللّهم لك الحمد و إليك و أنت المستعان على ما أرى» ثمّ

قال: «لئن ظفرت لأمثّلن و لأمثّلن و لأمثّلن» و

على روايه أخرى أنّه قال: «لأمثّلن بسبعين منهم»فنزلت الآيه: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أصبر أصبر» (۱) .

ربّما كانت تلك اللحظه من أشد لحظات حياه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّه تمالك زمام أمور نفسه و اختار الطريق الثّانى،طريق العفو و الصبر.

ربّما كانت تلك اللحظه من أشد لحظات حياه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّه تمالك زمام أمور نفسه و اختار الطريق الثّانى،طريق العفو و الصبر.

و يحكى لنا التأريخ ما قام به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين فتح مكّه،فما أن وطأت أقدام المسلمين المنتصره أرض مكّه حتى أصدر نبى الرحمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم العفو العام عن أولئك الجفاه،فوفى بوعده الذى قطعه على نفسه فى معركه أحد (۲) .

و حرى بالإنسان إذا أراد أن ينظر إلى أعلى نموذج حى فى العواطف الإنسانيه،أن يضع قصتى أحد و فتح مكّه نصب عينيه ليقارن و يربط بينهما.

و لعل التأريخ لا يشهد لأيّه أمّه منتصره عوملت بمثل ما عمل به النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

ص :۳۶۶

۱- ۱) -تفسير العياشى،و تفسير الدرر المنثور فى تفسير الآيه(على ما ذكره تفسير الميزان).

۲- ۲) -يلاحظ فى بعض الرّوايات إنّ القول بالمثله بأكثر من واحد عند الظفر كان من بعض المسلمين(راجع تفسير التبيان،ج ۶، ص ۴۴۰).

و المسلمون مشركى مكّه عند انتصارهم عليهم، على الرغم من أن المسلمين كانوا من أبناء تلك البيئه التى نفذ شعور الانتقام و الحقد فيها ليتوغل و يركد فى أعماق المجتمع،بل و كانت الأحقاد تتوارث جيلا بعد جيل إلى حدّ كان عدم الانتقام يعدّ عيبا كبيرا لا يمكن ستره! و من ثمار عفو و سماحه الإسلام أن اهتزت تلك الأمّه الجاهله العنيده من أعماقها و استيقظت من نوم غفلتها،و راح أفرادها كما يقول عنهم القرآن الكريم:

يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللّهِ أَفْواجاً .

۶- وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُکَ إِلاّ بِاللّهِ :

و الصبر إنّما يكون مؤثرا و فاعلا إذا قصد به رضوانه تعالى و لا يلحظ فيه أىّ شىء دون ذلك.

و هل يتمكن أىّ إنسان من الصبر على الكوارث المقطعه للقلب من غير هدف معنوى و بدون قوه إلهيه و يتحمل الآلام دون فقدان الاتزان!؟..نعم،ففى سبيل رضوان اللّه كل شىء يهون و ما التوفيق إلاّ منه عزّ و جلّ.

۷-و إذا لم ينفع الصبر فى التبليغ و الدعوه إلى اللّه،و لا العفو و التسامح،فلا ينبغى أن يحل اليأس فى قلب المؤمن أو يجزع،بل عليه الاستمرار فى التبليغ بسعه صدر و هدوء أعصاب أكثر،و لهذا يقول القرآن الكريم فى الأصل السابع:

وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

.

لأنّ الحزن و التأسف على عدم إيمان المعاندين يترک أحد أثرين على الإنسان،فإمّا أن يصيبه اليأس الدائم،أو يدفعه إلى الجزع و الغضب و ضعف التحمل،فالنهى عن الحزن عليهم يحمل فى واقعه نهيا للأمرين معا، فينبغى للعاملين فى طريق الدعوه إلى اللّه..عدم الجزع و عدم اليأس.

۸- وَ لا تَکُ فِى ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ .

فمهما كانت دسائس العدو العنيد واسعه و دقيقه و خطره فلا ينبغى لک ترک

المیدان،لظنک أن قد وقعت فی زاویه ضیقه و حصار محکم،بل لا بدّ من التوکل علی اللّه،و سوف تفشل کل الدسائس و تبطل مفعولها بقوه الإیمان و الثبات و المثابره و العقل و الحکمه.

و آخر آیه من سوره النحل تعرض الأمرین التاسع و العاشر،حیث تقول:

٩- إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الَّذِینَ اتَّقَوْا :

التقوی فی جمیع أبعادها و بمفهومها الواسع،و منها:التقوی فی مواجهه المخالفین بمراعاه أصول الأخلاق الإسلامیه عند المواجهه،فمع الأسیر لا بدّ من مراعاه أصول المعامله الإسلامیه،و مع المنحرف ینبغی مراعاه الإنصاف و الأدب و التورع عن الکذب و الاتهام،و فی میدان القتال لا بدّ من التعامل علی ضوء التعلیمات العسکریه وفق الموازین و الضوابط الإسلامیه،فمثلا:ینبغی عدم الهجوم علی العزل من الأعداء،عدم التعرض للأطفال و النساء و العجزه،و لا التعرض للمواشی و المزارع لأجل إتلافها،و لا یقطع الماء علی العدو...و خلاصه القول:تجب مراعاه أصول العدل مع العدو و الصدیق (و طبیعی أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحکم استثناء و لیس قاعده).

١٠- وَ الَّذِینَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

أکّد القرآن الکریم فی کثیر من آیاته البیّنات بأن یقابل المؤمن إساءه الجاهل بالإحسان،عسی أن یخجل الطرف المقابل أو یستحی من موقفه المتشنج،و بهذه السلوکیه الرائعه قد ینتقل ذلک الجاهل من أَلَدُّ الْخِصٰامِ إلی أحسن الأصدقاء وَلِیٌّ حَمِیمٌ ! و إذا عمل بالإحسان فی محله المناسب،فإنّه أفضل أسلوب للمواجهه، و التأریخ الإسلامی یرفدنا بعیّنات رائعه فی هذا المجال..و منها:موقف معامله النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع مشرکی مکّه بعد الفتح،معامله النّبی الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ل(وحشی)قاتل حمزّه،معاملته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأسری معرکه بدر الکبری،معاملته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع من کان یؤذیه

بمختلف السبل من يهود زمانه..و نجد شبيه معامله النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع الآخرين قد تجسدت عمليا فى حياه على عليه السّلام و سائر الأئمّه عليهم السّلام،و كل ذلك يكشف لنا بوضوح أهميه الإحسان فى حياه الإنسان من وجهه نظر الإسلام.

و من دقيق العباره فى هذا المجال ما نجده فى نهج البلاغه ضمن الخطبه المعروفه بخطبه همّام،ذلك الرجل الزاهد العابد الذى طلب من أمير المؤمنين عليه السّلام أن يصف له المتقين،حيث اكتفى أمير المؤمنين عليه السّلام بذكر الآيه المباركه من مجموع القرآن و قال:اتق الله و أحسن إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (1) .

و لكنّ السائل العاشق للحقّ لم يرو عطشه بهذا البيان المختصر،ممّا اضطر الإمام عليه السّلام أن يعرض له بيانا أكثر تفصيلا حتى استخرجت من فمه الشريف أكمل خطبه فى وصف المتقين،حوت على أكثر من مائه صفه لهم،إلاّ أنّ جوابه المختصر يبيّن أنّ الآيه المباركه مختصر جامع لكل صفات المتقين.

و بنظره تأمليّه ممعنه إلى الأصول العشره المذكوره،تتبيّن لنا جميع الخطوط الأصليّه و الفرعيه لأسلوب مواجهه المخالفين،و أنّ هذه الأصول إنّما احتوت كل الأسس المنطقيه و العاطفيه و النفسيه و التكتيكيه،و كل ما يؤدى للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الإيجابى فيها.

و مع ذلك...فالاكتفاء بالمنطق و الاستدلال فى مواجهه الأعداء و فى كل الظروف لا يقول به الإسلام و لا يقرّه،بل كثيرا ما تدعو الضروره لدخول الميدان عمليا فى مواجهه الأعداء حتى يلزم الأمر فى بعض الأحيان المقابله بالمثل و التوسل بالقوّه فى قبال استعمال القوه من قبل الأعداء،و بالتدابير المبيته فى قبال ما يبيتون أمور،و لكن أصول العدل و التقوى و الأخلاق و الإسلاميه يجب أن تراعى فى جميع الحالات.

ص:٣۶٩

١- ١) -نهج البلاغه،خطبه ١٩٣.

و لو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعموره أو معظمها على أقل التقادير.

خاتمه مقال سوره النحل«سوره النعم»:

ممّـا يلفت النظر فى السوره المباركه-كما قلنا سابقا-ذكرها لكثير من النعم الإلهيه،الماديه منها و المعنويه،الظاهريه و الباطنيه،الفرديه و الاجتماعيه،ممّا دعت المفسّرين لأن يطلقوا عليهم اسم(سوره النعم).

و بملاحظه و دراسه آيات السوره تظهر لنا فى حدود الأربعين نعمه من النعم الكبيره و الصغيره متوزعه بين طياتها،و سنذكر أدناه فهرسا لهذه النعم مع التأكيد على أنّ الهدف من ذكرها إنّما هو لأمرين:

الأوّل:تعليم درس التوحيد و بيان عظمه الخالق.

الثّانى:تقويه حب و تعلق الإنسان بخالقه و تحريك غريزه الشكر لديه.

۱- خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ .

۲- وَ الْأَرْضَ .

۳- وَ الْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا .

۴-الاستفاده من صوفها و جلدها لَكُمْ فِيهٰا دِفْءٌ .

۵- وَ مَنٰافِعُ .

۶- مِنْهٰا تَأْكُلُونَ .

۷-الاستفاده من جمال الاستقلال الاقتصادى وَ لَكُمْ فِيهٰا جَمٰالٌ .

۸- وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ - وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغٰالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهٰا .

۹-الهدايه إلى الصراط المستقيم وَ عَلَى اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .

۱۰- هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ .

۱۱-إنشاء المراعى وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ .

١٢- يُنْبِتُ لَكَمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ .

١٣- وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ .

١۴- وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ .

١۵- وَ النُّجُومُ .

١۶- وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ .

١٧- وَ هُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها .

١٨- وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ .

١٩- وَ أَلْقى فِى الْأَرْضِ رَواسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .

٢٠- وَ أَنْهاراً .

٢١- وَ سُبُلًا .

٢٢- وَ عَلامَاتٍ لمعرفه الطرق.

٢٣- وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ فى معرفه الطرق ليلا.

٢۴- وَ اللّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها .

٢۵- نُسْقِيكُمْ مِمّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشّارِبِينَ .

٢۶- وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً .

٢٧-العسل فِيهِ شِفاءٌ لِلنّاسِ .

٢٨- وَ اللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً .

٢٩- وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً .

٣٠- وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ بمعناها الواسع.

٣١- وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ .

۳۲- وَ الْأَبْصارَ .

۳۳- وَ الْأَفْئِدَةَ .

ص :۳۷۱

۳۴- وَ اللّهُ جَعَلَ لَکَمْ مِنْ بُیُوتِکَمْ سَکَناً و هی البیوت الثابته.

۳۵- وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُیُوتاً و هی البیوت المتحرکه.

۳۶- وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً و مَتاعاً إِلی حِینٍ .

۳۷-نعمه الظلال وَ اللّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِمّا خَلَقَ ظِلالاً .

۳۸-نعمه وجود الملاجئ الآمنه فی الجبال وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْجِبالِ أَکْناناً .

۳۹- وَ جَعَلَ لَکُمْ سَرابِیلَ تَقِیکُمُ الْحَرَّ .

۴۰- وَ سَرابِیلَ تَقِیکُمْ بَأْسَکُمْ أی:فی الحروب.

و جاء فی خاتمه هذه النعم: کَذلِکَ یُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ لَعَلَّکُمْ تُسْلِمُونَ .

الهدف من ذکر النعم:

لا حاجه للتنبیه علی أنّ ذکر النعم الإلهیه الوارده فی القرآن الکریم لا یقصد منها إلقاء المنّه أو کسب الوجاهه و ما شابه ذلک،فشأن الباری أجلّ و أسمی من ذلک و هو الغنی و لا غنی سواه.و لکنّ ذکرها جاء ضمن أسلوب تربوی مبرمج یهدف لإیصال الإنسان إلی أرقی درجات الکمال الممکنه من الناحیتین المادیه و المعنویه.و أقوی دلیل علی ذلک ما جاء فی أواخر کثیر من الآیات السابقه من عبارات و التی تصب-مع کثرتها و تنوعها-فی نفس الاتجاه التربوی المطلوب.

فبعد ذکر نعمه تسخیر البحار،یقول القرآن فی الآیه(۱۴): لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ .

و بعد بیان نعمه الجبال و الأنهار و السبل،یقول فی الآیه(۱۵): لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ .

و بعد بیان أعظم النعم المعنویه(نعمه نزول القرآن)تأتی الآیه(۴۴) لتقول: لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ .

و بعد ذکر نعمه آلات المعرفه المهمّه(السمع و البصر و الفؤاد)،تقول الآیه (۷۸): لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ .

و بعد الإشاره إلی إکمال النعم الإلهیه،تقول الآیه(۸۱): لَعَلَّکَمْ تُسْلِمُونَ .

و بعد ذکر جمله أمور فی مجال العدل و الإحسان و محاربه الفحشاء و المنکر و الظلم،تأتی الآیه(۹۰)لتقول: لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ .

و الحقیقه أنّ القرآن الکریم قد أشار إلی خمسه أهداف من خلال ما ذکر فی الموارد السته أعلاه:

۱-الشکر.

۲-الهدایه.

۳-التفکّر.

۴-التسلیم للحق.

۵-التذکّر.

و ممّا لا شک فیه أنّ الأهداف الخمسه مترابطه فیما بینها ترابطا وثیقا فالإنسان یبدأ بالتفکر،و إذا نسی تذکّر،ثمّ یتحرک فیه حس الشکر لواهب النعم علیه،فیفتح الطریق إلیه لیهتدی،و أخیرا یسلّم لأوامر مولاه.

و علیه،فالأهداف الخمسه حلقات مترابطه فی طریق التکامل،و إذا سلک السالک ضمن الضوابط المعطاه لحصل علی نتائج مثمرّه و عالیه.

و ثمّه ملاحظه،هی أنّ ذکر النعم الإلهیه بشکلیها الجمعی و الفردی إنّما یراد بها بناء الإنسان الکامل.

إلهی!أحاطت نعمک بکل وجودنا،فغرقنا فی بحر عطایاک،و لکننا لم نعرفک بعد.

إلهی!هب لنا بصرا و بصیره نری بهما طریق معرفتک و حبّک،و وفقنا للسیر فی مراضیک و أوصلنا إلی منزل الشاکرین حقا.

اللّهم!أنت تعلم بحوائجنا دون غیرک،و تعلم أکثر منّا لما نرید،فمنّ علینا لنکون کما تحب،و اجعلنا خیرا ممّا یظن الناس إنّک سمیع مجیب.

سوره الإسراء

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها مائه و إحدی عشره آیه

ص: ۳۷۵

«سوره الإسراء» قبل الدّخول فی تفسیر هذه السوره من المفید الانتباه إلی النقاط الآتیه:

أوّلا:أسماء السّوره و مكان النّزول:

بالرّغم من أنّ الاسم المشهور لهذه السوره هو«بنی إسرائیل»إلاّ أنّ لها أسماء أخری مثل«الإسراء»و«سبحان» (۱) .

و من الواضح أنّ ثمّه علاقه تصل بین أی اسم من أسماء السوره و بین محتواها و مضمونها،فهی«بنی إسرائیل»لأنّ هناك قسما مهمّا فی بدایه السوره و نهایتها یرتبط بالحدیث عن بنی إسرائیل.

و إذا قلنا أنّها سوره«الإسراء»فإنّ ذلك یعود إلی الآیه الأولی فیها التی تتحدث عن إسراء(و معراج)النّبی الأكرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و أمّا تسمیتها ب«سبحان»فإنّ ذلك یعود إلی الكلمه الأولی فی السوره المباركه.

و لكن الرّوایات التی تتحدّث عن فضیله هذه السوره،تطلق علیها«بنی إسرائیل»فقط.و لهذا السبب فإنّ معظم المفسّرین یقتصرون علی هذا الاسم،و قد

۱- ۱) -تفسیر الآلوسی،ج ۱۵،ص ۲.

اختاروه دون غيره.

و بالنسبه لمكان نزول السوره،فمن المشهور أنّ جميع آياتها مكيّه،و ممّا يؤيد ذلك أنّ مضمون السوره و مفاهيمها يناسب بشكل كامل مضمون و محتوى و سياق السور المكّيه، هذا بالرغم من أنّ المفسّرين يعتقد بأنّ هناك مقطعا من السوره قد نزل فى المدينه،و لكن المشهور ما شاع بين المفسّرين من مكيه تمام السوره.

ثانيا:فضيله سوره الإسراء:

وردت فى فضيله سوره الإسراء و أجرها أحاديث كثيره عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن الإمام الصادق عليه السّلام.

فعن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «من قرأ سوره بنى إسرائيل فى كل ليله جمعه لم يمت حتى يدرك القائم و يكون من أصحابه».

و بالنسبه لثواب قراءه سور القرآن الكريم و الرّوايات التى تتحدث عن فضائلها،ينبغى أن يلاحظ أنّ ملاك الأمر لا يتعلق بمجرّد القراءه و حسب،و إنّما-كما قلنا مرارا-أنّ التلاوه ينبغى أن تقترن بالتفكر فى معانيها و التأمّل فى مفاهيمها،و ينبغى أن يعقب ذلك جميعا العمل بها،و تحويلها إلى قواعد يسترشدها الإنسان المسلم فى سلوكه.

خصوصا و إنّنا نقرأ فى واحده من الرّوايات التى تتحدث عن فضيله هذه السوره ما نصه:

«فرق قلبه عند ذكر الوالدين». أى أنّ هناك أثر ترتّب على القراءه،و قد تمثل هنا بموجه من الأحاسيس النّبيله و الحبّ و المودّه للوالدين.

إذا،ألفاظ القرآن تملك و لا شك قيمه و احتراما بحدّ ذاتها،إلاّ أنّ هذه الألفاظ هى مقدمه للوعى الفكرى الصحيح،كما أنّ الوعى الفكرى الإيمانى الصحيح هو مقدمه للعمل الصالح.

ثالثا:خطوط عامّه فی محتوی السوره:

لقد أشرنا إلی مکیه السوره وفق القول المشهور بین المفسّرین،لذا فإنّ محتوی السوره یوافق خصوصیات السور المکّیه،من قبیل ترکیزها علی قضیه التوحید و المعاد،و مواجهه إشکالیات الشرک و الظلم و الانحراف.

و بالإمکان فرز المحاور المهمّه الآتیه التی یدور حولها مضمون السوره:

أوّلا:الإشاره إلی أدله النّبوه الخاتمه و براهینها،و فی مقدمتها معجزه القرآن و قضیه المعراج.

ثانیا:ثمّه بحوث فی السوره ترتبط بقضیه المعاد و ما یرتبط به من حدیث عن صحیفه الأعمال،و قضیه الثواب و العقاب المترتب علی نتیجه الجزاء.

ثالثا:تتحدّث السوره فی بدایتها و نهایتها عن قسم من تاریخ بنی إسرائیل الملیء بالأحداث.

رابعا:تتعرض السوره إلی حریه الإختیار لدی الإنسان و أنّ الإنسان غیر مجبر فی أعماله،و بالتالی فإنّ علی الإنسان أن یتحمل مسئولیه تلک الحریه من خلال تحمله لمسؤولیه أعماله سواء کانت حسنه أو سیئه.

خامسا:تبحث السوره قضیه الحساب و الکتاب فی هذه الدنیا،لکی یعی الإنسان قضیه الحساب و الکتاب علی أعماله و أقواله فی الیوم الآخر.

سادسا:تشیر إلی الحقوق فی المستویات المختلفه،خصوصا فیما یتعلق بحقوق الأقرباء،و بالأخص منهم الأم و الأب! سابعا:تتعرض السوره إلی حرمه«الإسراف»،و«التبذیر»،و«البخل»،و«قتل الأبناء»،و«الزنا»،و«أکل مال الیتیم»،و«البخس فی المکیال»،و«التکبّر»،و«إراقه الدماء».

ثامنا:فی السوره بحوث حول التوحید و معرفه اللّه تعالی.

تاسعا:تواجه السوره مواقف العناد المکابره إزاء الحق،و أنّ الذنوب تتحوّل

إلى حجب تمنع الإنسان من رؤيه الحق.

عاشرا:تركز السوره على أفضليه الإنسان على سائر الموجودات.

أحد عشر:تؤكّد السوره على تأثير القرآن الكريم فى معالجه الأشكال المختلفه من الأمراض الأخلاقيه و الاجتماعيه.

ثانى عشر:تبحث السّوره فى المعجزه القرآنيه و عدم تمكن الخصوم و عجزهم عن مواجهه هذه المعجزه.

ثالث عشر:تحذّر السوره المؤمنين من وساوس الشيطان و إغواءاته، و تنبههم إلى المسالك التى ينفذ من خلالها إلى شخصيه المؤمن.

رابع عشر:تتعرض السوره إلى مجموعه مختلفه من القضايا و المفاهيم و التعاليم الأخلاقيه.

خامس عشر:أخيرا تتعرض السوره إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السّلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس و العبر من هذه القصص.

فى كل الأحوال تعكس سوره الإسراء فى مضمونها و محتواها العقائدى و الأخلاقى و الاجتماعى لوحه متكامله و متناسقه لسمو و تكامل البشر فى المجالات المختلفه.

و الجميل فى السوره أنّها تبدأ ب«تسبيح اللّه»-جلّ جلاله-و تنتهى ب «الحمد و التكبير».و التسبيح هو تنزيه عن كل عيب و نقص،و الحمد علامه على تحقق صفات الفضيله و تمثّلها فى ذاته العليا المقدّسه،بينما التكبير هو رمز الشرف و العظمه.

ص :۳۸۰

الآیه [سوره الإسراء (۱۷): آیه ۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ سُبْحٰانَ اَلَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ إِلَی اَلْمَسْجِدِ اَلْأَقْصَی اَلَّذِی بٰارَکْنٰا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیٰاتِنٰا إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْبَصِیرُ (۱)

التّفسیر

اشاره

معراج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

الآیه الأولی فی سوره الإسراء تتحدّث عن إسراء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،أی سفره لیلا من المسجد الحرام فی مکّه المکرمه إلی المسجد الأقصی(فی القدس الشریف).

و قد کان هذا السفر«الإسراء»مقدمه لمعراجه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی السماء.و قد لو حظ فی هذا السفر أنّه تمّ فی زمن قیاسی حیث أنّه لم یستغرق سوی لیله واحده بالنسبه إلی وسائل نقل ذلک الزمن و لهذا کان أمرا اعجازیا و خارقا للعاده.

السّوره المبارکه تبدأ بالقول: سُبْحٰانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی .

و قد کان القصد من هذا السفر اللیلی الإعجازی هو لِنُرِیَهُ مِنْ آیٰاتِنٰا .

ثمّ ختمت الآیه بالقول: إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ .و هذه إشاره إلی أنّ اللّه

تبارک و تعالی لم یختر رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یصطفه لشرف الإسراء و المعراج إلا بعد أن اختبر استعداده صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهذا الشرف و لیاقته لهذا المقام،فاللّه تبارک و تعالی سمع قول رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و رأی عمله و سلوکه فاصطفاه للمقام السامی الذی اختاره له فی الإسراء و المعراج.

و احتمل بعض المفسّرین فی قوله تعالی: إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ أن یکون تهدیدا لمنکری هذا الإعجاز،و أنّ اللّه تبارک و تعالی محیط بما یقولون و بما یفعلون،و بما یمکرون! و بالرغم من أنّ هذه الآیه تنطوی علی اختصار شدید،إلاّ أنّها تکشف عن مواصفات هذا السفر اللیلی«الإسراء»الإعجازی من خلال ما ترسمه له من أفق عام یمکن تفصیله بالشکل الآتی:

أوّلا:إنّ تعبیر«أسری»فی الآیه یشیر إلی وقوع السفر لیلا،لأنّ«الإسراء» فی لغه العرب یستخدم للدلاله علی السفر اللیلی،فیما یطلق علی السفر النهاری کلمه«سیر».

ثانیا:بالرغم من أنّ کلمه«لیلا»جاءت فی الآیه تأکیدا لکلمه«أسری»إلاّ أنّها ترید أن تبیّن أن سفر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد تمّ فی لیله واحده فقط علی الرغم من أنّ المسافه بین المسجد الحرام و بیت المقدس تقدّر بأکثر من مائه فرسخ، و بشروط مواصلات ذلک الزمان،کان إنجاز هذا السفر یتطلب أیّاما بل و أسابیع، لا أن یقع فی لیله واحده فقط! ثالثا:إذا کان مقام العبودیه هو أسمی مقام یبلغه الإنسان فی حیاته،فإنّ الآیه قد کرّمت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإطلاق وصف العبودیه علیه،فقالت«عبده»للدلاله علی مراقی الطاعه و العبودیه التی قطعها الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للّه تبارک و تعالی حتی استحق شرف«الإسراء»حیث لم یسجد جبین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لشیء سوی اللّه، و لم یطع صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما عداه،و قد بذل کل وسعه،و خطا کل خطوه فی سبیل مرضاته

تعالی.

رابعا:تفید کلمه«عبد»فی الآیه،أنّ سفر الإسراء قد وقع فی الیقظه،و أنّ رسول اللّه سافر بجسمه و روحه معا،و أنّ الإسراء لم یکن سفرا روحانیا معنویا و حسب،لأنّ الإسراء إذا کان بالروح-و حسب-فهو لا یعدو أن یکون رؤیا فی المنام،أو أی وضع شبیه بهذه الحاله،و لکن کلمه«عبد»فی الآیه تدلّل علی أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد سافر بجسمه و روحه،لأنّ«عبد»معنی یطلق علی الروح و الجسد معا.

أمّا الأشخاص الذین لا یستطیعون هضم معجزه الإسراء و المعراج،و لم تستطع عقولهم أن تتعامل مع هذه المعجزه کما هی،فقد عمدوا إلی توجیهها بعنوان الإسراء الروحی فی حین أنّه لو قال شخص لآخر:إنی نقلتک إلی المکان الفلانی فإنّ المفهوم الصریح للمعنی لا یمکن تأویله باحتمال أنّ هذا الأمر قد تمّ فی حاله النوم،أو أنّه تعبیر عن حاله معنویه تمتزج بأبعاد من الوهم و التخیّل.

خامسا:لقد کان مبتدأ هذا السفر(الذی کان مقدمه للمعراج کما سنثبت ذلک فی محلّه)هو المسجد الحرام فی مکّه المکرمه،و منتهاه المسجد الأقصی فی القدس الشریف.

بالطبع هناک کلام کثیر للمفسّرین عن المکان الدقیق الذی انطلق منه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فیما إذا کان هذا المکان بیت أحد أقربائه(باعتبار أنّ المسجد الحرام قد یطلق أحیانا و من باب التعظیم علی مکّه المکرمه بأجمعها)أو أنّه انطلق من جوار الکعبه،و لکن ظاهر الآیه بلا شک یفید أنّ المنطلق فی سفر الإسراء کان من المسجد الحرام.

سادسا:لقد کان الهدف من هذا السفر الإعجازی أن یشاهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم آیات العظمه الإلهیه، و قد استمرّ سفر الإسراء إلی المعراج صعودا فی السماوات لتحقیق هذا الغرض،و هو أن تمتلئ روح رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أکثر بدلائل العظمه

الرّبانیه،و آیات اللّه فی السماوات،و لتجد روحه السامیه فی هذه الآیات زخما إضافیا یوظّفه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هدایه الناس إلی ربّ السماوات و الأرض! و بذلک فإنّ سفر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی رحله الإسراء و المعراج لم یکن-کما یتصوّر البعض ذلک-بهدف رؤیه اللّه تبارک و تعالی-ظنّا منهم أنّه تعالی یشغل مکانا فی السماوات!!! و بالرغم من أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان عارفا بعظمه اللّه سبحانه،و کان عارفا أیضا بعظمه خلقه،و لکن«متی کان السماع کالرؤیه؟!».

و نقرأ فی سوره(النّجم التی تلت سوره الإسراء و تحدثت عن المعراج قوله تعالی: لَقَدْ رَأیٰ مِنْ آیٰاتِ رَبِّهِ الْکُبْریٰ .

سابعا:إنّ تعبیر الآیه بٰارَکْنٰا حَوْلَهُ تفید بأنّه علاوه علی قدسیه المسجد الأقصی،فإنّ أطرافه أیضا تمتاز بالبرکه و الأفضلیه علی ما سواها.و یمکن أن یکون مراد الآیه البرکه الظاهریه المتمثله بها تهبه هذه الأرض الخصبه الخضراء من مزایا العمران و الأنهار و الزراعه.

و یمکن أن تحمل البرکه علی قواعد الفهم المعنوی فتشیر حین ذاک إلی ما تمثّله هذه الأرض فی طول التأریخ،من کونها مرکزا للنبوات الإلهیه،و منطلقا لنور التوحید،و أرضا خصبه للدعوه إلی عبودیه اللّه.

ثامنا:إنّ تعبیر إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ إشاره إلی أنّ إکرام اللّه لرسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمعجزه الإسراء و المعراج لم یکن أمرا عفویا عابرا،بل هو بسبب استعدادات رسول الهدی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قابلیاته العظیمه التی تجلت فی أقواله و أفعاله،هذه الأقوال و الأفعال التی یعرفها اللّه و یحیط بها.

تاسعا:إنّ کلمه«سبحان»إشاره إلی أنّ سفر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الإسراء و المعراج دلیل آخر علی تنزیه اللّه تبارک و تعالی من کل عیب و نقص.

عاشرا:کلمه«من»فی قوله تعالی: مِنْ آیٰاتِنٰا إشاره إلی عظمه آیات اللّه

بحيث أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-على علو مقامه و استعداده الكبير-لم ير من هذه الآيات خلال سفره الإعجازى سوى جزء معين منها.

المعراج:

اشاره

من المعروف و المشهور بين علماء الإسلام أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما كان فى مكّه!أسرى به اللّه تبارك و تعالى بقدرته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،و من هناك صعد به إلى السماء«المعراج»ليرى آثار العظمه الرّبانيه و آيات اللّه الكبرى فى فضاء السماوات،ثمّ عاد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى نفس الليله إلى مكّه المكرمه.

و المعروف المشهور أيضا أنّ سفر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الإسراء و المعراج قد تمّ بجسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و روحه معا.

و لكن العجيب ما يحاوله البعض من توجيه معراج الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالمعراج الروحى و الذى هو حاله شبيهه بالنوم أو«المكاشفه الروحيه»و لكن هذا التوجيه- كما أشرنا-لا ينسجم إطلاقا مع ظواهر الآيات،بل هو مخالف لها،إذ يدل الظاهر على أنّ القضيه تمت بشكل جسمى حسى.

فى كل الأحوال تبقى هناك مجموعه أسئله تثار حول قضيه المعراج يمكن أن نلخصها بالشكل الآتى:

١-كيفيه المعراج من وجهه نظر القرآن و التأريخ و الحديث.

٢-آراء علماء الإسلام شيعه و سنه حول هذه القضيه.

٣-الهدف من المعراج.

۴-إمكانيه المعراج من وجهه نظر العلوم المعاصره.

بالرغم من أنّ الإجابه المفصّله على هذه الأسئله هى خارج نطاق بحثنا التّفسيرى،إلاّ أننا سنعالج هذه النقاط باختصار يناسب ذوق القارئ الكريم.إن

شاء اللّه:

المعراج فی القرآن و الحدیث:

فی کتاب اللّه سورتان تتحدثان عن المعراج:

السوره الأولی هی سوره«الإسراء»التی نحن الآن بصددها،و قد أشارت إلی القسم الأوّل من سفر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم(أی أشارت لإسرائه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی)و قد استتبع الإسراء بالمعراج.

السوره الثّانیه التی أشارت للمعراج هی سوره«النجم»التی تحدثت عنه فی ست آیات هی: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَهً أُخْری عِنْدَ سِدْرَهِ الْمُنْتَهی عِنْدَها جَنَّهُ الْمَأْوی إِذْ یَغْشَی السِّدْرَهَ ما یَغْشی ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی لَقَدْ رَأی مِنْ آیاتِ رَبِّهِ الْکُبْری .

هذه الآیات تفید حسب أقوال المفسّرین أنّ الإسراء و المعراج تمّا فی حاله الیقظه،و إنّ قوله تعالی: ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی هو إثبات آخر لصحه هذا القول.

فی الکتب الإسلامیه المعروفه هناک عدد کبیر جدّا من الأحادیث و الرّوایات التی جاءت حول قضیه المعراج،حتی أنّ الکثیر من علماء الإسلام یذهب إلی «تواتر»حدیث المعراج أو اشتهاره،و علی سبیل المثال نعرض للنماذج الآتیه:

یقول الشیخ«الطوسی»فی تفسیر(التبیان)ما نصّه:«إنّه عرج به فی تلک اللیله إلی السماوات حتی بلغ سدره المنتهی فی السماء السابعه،و أراه اللّه من آیات السماوات و الأرض ما ازداد به معرفه و یقینا، و کان ذلک فی یقظته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دون منامه» (۱) .

أمّا العلاّمه«الطبرسی»فی تفسیره المعروف«مجمع البیان»فیقول:«و ما

۱- ۱) -تفسیر«التبیان»،للشیخ الطوسی،المجلد السادس،ص ۴۴۶.

قاله بعضهم أنّ ذلك كان فی النوم فظاهر البطلان إذ لا معجز يكون فيه و لا برهان، و قد وردت روايات كثيره فی قصّه المعراج،فی عروج نبيّنا صلّی اللّه عليه و آله و سلّم إلی السماء، و رواها كثير من الصحابه..[إذ أنّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم]

صلّی المغرب فی المسجد الحرام ثمّ أسری به فی ليلته ثمّ رجع فصلّی الصبح فی المسجد الحرام.و قال الأكثرون و هو الظاهر من مذاهب أصحابنا و المشهور فی أخبارهم،أنّ اللّه تعالی صعد بجسمه إلی السماء حيا سليما حتی رأی ما رأی من ملكوت السماوات بعينه،و لم يكن ذلك فی المنام» (۱) .

أمّا العلاّمه«المجلسی»فيقول فی(بحار الأنوار)ما نصه:«أعلم أنّ عروجه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم إلی بيت المقدس ثمّ إلی السماء فی ليله واحده بجسده الشريف،ممّا دلّت عليه الآيات و الأخبار المتواتره من طرق الخاصّه و العامّه،و إنكار أمثال ذلك أو تأويلها بالعروج الروحانی أو بكونه فی المنام ينشأ إمّا من قلّه التتبع فی آثار الأئمّه الطاهرين أو من ضعف اليقين» (۲) .

ثمّ يردف العلاّمه المجلسی قائلا:«لو أردت استيفاء الأخبار الوارده فی هذا الباب لصار مجلدا كبيرا» (۳) .

و من علماء السنه قام منصور علی ناصف الأزهری المعاصر بجمع أحاديث المعراج فی كتابه المعروف باسم«التاج».

أمّا الفخر الرازی-المفسّر الإسلامی المعروف-فيقول بعد ذكره لسلسله من الاستدلالات علی إمكان الوقوع العقلی للمعراج،ما يلی:«من وجهه نظر الحديث تعتبر أحاديث المعراج من الرّوايات المشهوره فی صحاح أهل السنّه،و مفاد هذه الأحاديث إسراء الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم من مكّه إلی بيت المقدس،و عروجه من بيت

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد الثالث،ص ۳۹۵.

۲- ۲) -بحار الأنوار،الطبعه الحديثه المجلد ۱۸،ص ۲۸۹.

۳- ۳) -المصدر السابق،ص ۲۹۱.

المقدس إلى السماء».

أمّا الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز و هو من متعصبى علماء الوهابيه و الذى يشغل الآن منصب رئيس إدارات البحوث العلميه و الإفتاء و الدعوه و الإرشاد،فيقول فى كتابه«التحذير من البدع»:«ليس من شك فى أنّ الإسراء و المعراج هى من العلامات الكبيره على صدق النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و علو مقامه و منزلته» إلى أن يقول:«نقلت أخبار متواتره عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ اللّه تبارك و تعالى أخذ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فتح له أبواب السماء» (۱)
.

و لكن ينبغى أن نلاحظ هنا أن من بين الرّوايات الوارده فى قضيه المعراج ثمّه أحاديث ضعيفه و مجعوله لا يمكن القبول بها مطلقا.

لذلك نرى أن المفسّر الإسلامى الكبير،الشيخ الطبرسى عمد فى ذيل تفسير هذه الآيه مورد البحث إلى تقسيم الأحاديث الوارده فى المعراج إلى أربع فئات هى:

۱-ما يقطع بصحته لتواتر الأخبار به و إحاطه العلم بصحته،و مثله أنّه أسرى به على الجمله.

۲-ما ورد فى ذلك ممّا تجوزه العقول و لا تأباه الأصول،فنحن نجوزه ثمّ نقطع على أنّ ذلك كان فى يقظته دون منامه،و مثله ما شاهده من آيات ربّه فى السماوات.

۳-ما يكون ظاهره مخالفا لبعض الأصول إلاّ أنّه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول،نحو ما روى أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأى قوما فى الجنّه يتنعمون فيها،و قوما فى النّار يعذبون فيها،فهو يحمل على أنّه رأى صفتهم أو أسماءهم.

۴-ما لا يصح ظاهره و لا يمكن تأويله إلاّ على التعسف البعيد فالأولى أن لا

۱- ۱) -التخذير من البدع،ص ۷.

نقبله،نحو ما قيل من أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلّم اللّه سبحانه جهره،و رآه و قعد معه على سريره...ممّا يوجب ظاهره التشبيه و اللّه سبحانه و تعالى يتقدّس عن ذلك (۱) .

هناك أيضا اختلافات بين المؤرخين المسلمين حول تاريخ وقوع المعراج، إذ يقول البعض:أنّه حصل فى السنه العاشره للبعثه فى ليله السابع و العشرين من شهر رجب،و البعض يقول:إنّه عرج به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى(۱۷)رمضان من السنه الثّانيه عشره للبعثه المباركه.و بعض ثالث قال:إنّ المعراج وقع فى أوائل البعثه.

و لكن فى كل الأحوال،فإنّ الاختلاف فى تأريخ وقوع المعراج لا ينفى أصل الحادثه.

من المفيد أيضا أن نذكر أنّ عقيده المعراج لا تقتصر على المسلمين،بل هناك ما يشابهها فى الأديان الأخرى،بل إنا نرى فى المسيحيه أكثر ممّا قيل فى معراج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إذ يقول أولئك كما فى الباب السّادس من إنجيل«مرقس»و الباب (۲۴)من إنجيل«لوقا»و الباب(۲۱)من إنجيل(يوحنّا)أن عيسى بعد أن صلب و قتل و دفن نهض من مدفنه و عاش بين الناس أربعين يوما قبل أن يعرج إلى السماء ليبقى هناك فى عروج دائم!و نستفيد من مؤدّى بعض الرّوايات أنّ بعض الأنبياء السابقين عرج بهم إلى السماء أيضا.

هل كان المعراج جسديا أم روحيا؟

إن ظاهر الآيات القرآنيه الوارده فى أوائل سوره الإسراء،و كذلك سوره النجم(كما فصلنا أعلاه)تدلل على وقوع المعراج فى اليقظه،و يؤكّد هذا الأمر كبار علماء الإسلام من الشيعه و السنه.

و تشهد التواريخ الإسلاميه أيضا على صدق هذا الموضوع،و نقرأ فى التأريخ

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد الثالث،ص ۳۹۵.

أن المشركين أنكروا بشدّه قضيه المعراج عند ما تحدث بها الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أخذوها عليه ذريعه للاستهزاء به،ممّا يدل بوضوح على أنّ الرّسول لم يدّع الرؤيه أو المكاشفه الروحيه أبدا،و إلّا لما استتبع القضيه كل هذا الضجيج.

أمّا ما ورد عن الحسن البصرى أنّه(كان فى المنام رؤيا رآها)أو عن عائشه أنّه:(و اللّه ما فقد جسد رسول اللّه و لكن عرج بروحه)،فيبدو أنّ لذلك منظور سياسى، لإخماد الضجّه التى أثيرت حول قضيه المعراج.

هدف المعراج:

اتّضح لنا من خلال البحوث الماضيه،أنّ هدف المعراج لم يكن تجوالا للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى السماوات للقاء اللّه كما يعتقد السذج،و كما نقل بعض العلماء الغربيين-و مع الأسف-لجهلهم أو لمحاولتهم تحريف الإسلام أمام الآخرين، و منهم(غيور غيف)الذى يقول فى كتاب(محمد رسول ينبغى معرفته من جديد، ص ۱۲۰)،(بلغ محمد فى سفر معراجه إلى مكان كان يسمع فيه صوت قلم اللّه، و يفهم أنّ اللّه منهمك فى تدوين حساب البشر!و مع أنّه كان يسمع صوت قلم اللّه إلّا أنّه لم يكن يراه!لأنّ أحدا لا يستطيع رؤيه اللّه و إن كان رسولا).

و هذا يظهر أن القلم كان من النوع الخشبى!الذى يهتز و يولد أصواتا عند حركته على الورق!!و أمثال هذه الخرافات و الأوهام.

كلا.فالهدف كان مشاهده الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأسرار العظمه الإلهيه فى أرجاء عالم الوجود،لا سيما العالم العلوى الذى يشكل مجموعه من براهين عظمته، و تتغذى بها روحه الكريمه و تحصل على نظره و إدراك جديدين لهدايه البشريه و قيادتها.

و يتّضح هذا الهدف بشكل صريح فى الآيه الأولى من سوره الإسراء،و الآيه (۱۸)من سوره النجم.

و هناك روايه أيضا منقوله عن الإمام الصادق عليه السّلام فی جوابه علی سبب المعراج.أنّه

قال علیه السّلام: «إنّ اللّه لا یوصف بمکان،و لا یجری علیه زمان،و لکنّه عزّ و جلّ أراد أن یشرف به ملائکته و سکان سماواته،و یکرمهم بمشاهدته،و یریه من عجائب عظمته ما یخبر به بعد هبوطه» (۱) .

المعراج و العلوم العصریه:

کان بعض الفلاسفه القدماء یعتقد بنظریه«الأفلاک البطلیموسیه التسعه»و التی تکون علی شکل طبقات البصل فی إحاطتها بالأرض،لذلک فقد أنکر المعراج بمزاعم علمیه تقوم علی أساس الإیمان بنظریه الهیئه البطلیموسیه و التی بموجبها یلزم خرق هذه الأفلاک و من ثمّ التئامها لیکون المعراج ممکنا (۲) .

و لکن مع انهیار قواعد نظریه الهیئه البطلیموسیه أصبحت شبهه خرق و التئام الأفلاک فی خبر کان،و ضمتها ید النسیان،و لکن التطوّر المعاصر فی علم الأفلاک أدّی إلی إثاره مجموعه من الشبهات العلمیه التی تقف دون إمکانیه المعراج علمیا،و هذه الشبهات یمکن تلخیصها کما یلی:

أوّلا:إنّ أوّل ما تواجه الذی یرید أن یجتاز المحیط الفضائی للأرض إلی عمق الفضاء هو وجوب الانفلات من قوه الجاذبیه الأرضیه،و یحتاج الإنسان للتخلّص من الجاذبیه إلی وسائل استثنائیه تکون معدّل سرعتها علی الأقل(۴۰) ألف کیلومتر فی الساعه.

ثانیا:المانع الآخر یتمثل فی خلو الفضاء الخارجی من الهواء،الذی هو القوام فی حیاه الإنسان.

ثالثا:المانع الثّالث یتمثل بالحراره الشدیده الحارقه(للشمس)و البروده

۱- ۱) -تفسیر البرهان،المجلد ۲،ص ۴۰۰.

۲- ۲) -بعض القدماء یعتقد بعدم إمکان خرق هذه الأفلاک ثمّ التئامها.

القاتله،و ذلک بحسب موقع الإنسان فی الفضاء من الشمس.

رابعا:هناک خطر الإشاعات الفضائیه القاتله کالأشعه الکونیه و الأشعه ما وراء البنفسجیه و أشعه إکس،إذ من المعروف أنّ الجسم یحتاج إلی کمیات ضئیله من هذه الإشعاعات،و هی بهذا الحجم لا تشکّل ضررا علی جسم الإنسان و وجود طبقه الغلاف الجوی یمنع من تسر بها بکثره إلی الأرض.،و لکن خارج محیط الغلاف الجوّی تکثر هذه الإشاعات إلی درجه تکون قاتله.

خامسا:هناک مشکله فقدان الوزن التی یتعرض لها الإنسان فی الفضاء الخارجی،فمن الممکن للإنسان أن یتعوّد تدریجیا علی الحیاه فی أجواء انعدام الوزن،إلاّ أنّ انتقاله مرّه واحده إلی الفضاء الخارجی-کما فی المعراج-هو أمر صعب للغایه،بل غیر ممکن.

سادسا:المشکله الأخیره هی مشکله الزمان،حیث تؤکد علوم الیوم علی أنّه لیست هناک وسیله تسیر أسرع من سرعه الضوء،و الذی یرید أن یجول فی سماوات الفضاء الخارجی یحتاج إلی سرعه تکون أسرع من سرعه الضوء!.

فی مواجهه هذه الأسئله:

أوّلا:فی عصرنا الحاضر،و بعد أن أصبحت الرحلات الفضائیه بالاستفاده من معطیات العلوم أمرا عادیا،فإنّ خمسا من المشاکل الست الآنفه تنتفی،و تبقی- فقط-مشکله الزمن.و هذه المشکله تثار فقط عند الحدیث عن المناطق الفضائیه البعیده جدا.

ثانیا:إنّ المعراج لم یکن حدثا عادیا،بل أمر إعجازی خارق للعاده ثمّ بالقدره الإلهیه.و کذلک الحال فی کافه معجزات الأنبیاء و هذا یعنی عدم استحاله المعجزه عقلا،أمّا الأمور الأخری فتتم بالاستناد إلی القدرات الإلهیه.

و إذا کان الإنسان قد استطاع باستثمار لمعطیات العلوم الحدیثه أن یوفّر

حلولا للمشكلات الآنفه الذكر، مثل مشكله الجاذبيه و الأشعه و انعدام الوزن و ما إلى ذلك،حتى أصبح بمستطاعه السفر إلى الفضاء الخارجى..فألا يمكن للّه- خالق الكون،صاحب القدرات المطلقه-أن يوفّر وسيله تتجاوز المشكلات المذكوره؟! إنّنا على يقين من أنّ اللّه تبارك و تعالى وضع فى متناول رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مركبا مناسبا صانه فيه عن كل المخاطر و الأضرار فى معراجه نحو السماوات،و لكن ما اسم هذا المركب هل هو«البراق»أو«رفرف»؟و على أى شكل و هيئه كان؟كل هذه أمور غامضه بالنسبه لنا،و لكنّها لا تتعارض مع يقيننا بما تمّ،و إذا أردنا أن نتجاوز كل هذه الأمور فإنّ مشكله السرعه التى بقيت-لوحدها-تحتاج إلى حل، فإنّ آخر معطيات العلم المعاصر بدأت تتجاوز هذه المشكله بعد أن وجدت لها حلولا مناسبه بالرغم ممّا يؤكّده«إنشتاين»فى نظريته من أن سرعه الضوء هى أقصى سرعه معروفه اليوم.

إنّ علماء اليوم يؤكدون أنّ الأمواج الجاذبه لا تحتاج إلى الزمن،و هى تنتقل فى آن واحد من طرف من العالم إلى الطرف الآخر منه و هناك احتمال مطروح بالنسبه للحركه المرتبطه بتوسّع الكون(من المعروف أنّ الكون فى حاله اتساع و أنّ النجوم و المنظومات السماويه تبتعد عن بعضها البعض بحركه سريعه)إذ يلاحظ أنّ الأفلاك و النجوم و المنظومات الفضائيه تبتعد عن بعضها البعض و عن مركز الكون إلى أطرافه،بسرعه تتجاوز سرعه الضوء! إذن،بكلام مختصر نقول:إنّ المشكلات الآنفه ليس فيها ما يحول عقلا- دون وقوع المعراج،و دون التصديق به،و المعراج بذلك لا يعتبر من المحالات العقليه، بل بالإمكان تذيل المشكلات المثاره حوله بتوظيف الوسائل و القدرات المناسبه.

و بذلك فالمعراج لا- يعتبر أمرا غير ممكن لا- من وجهه الأدله العقليه،و لا- من وجهه معطيات و موازين العلوم المعاصره.و هو بالإضافه إلى ذلك أمر إعجازى

خارق للعاده.لذلک،إذا قام الدلیل النقلی السلیم علیه فینبغی قبوله و الإیمان به (۱) .

و أخیرا..هناک إشاره أخری حول المعراج سنقف علیها أثناء الحدیث عن سوره النجم إن شاء اللّه.

۱- ۱) -للمزید من التفاصیل یمکن مراجعه کتاب:«لکل یرید أن یعرف»و الذی یبحث فی قضیه المعراج و شق القمر بالإضافه إلی قضایا أخری.

الآيات [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢ الی ٨]

اشاره

وَ آتَيْنا مُوسَى اَلْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (٣) وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي اَلْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي اَلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (٤) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ اَلدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ اَلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ اَلْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا اَلْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (٨)

التّفسير

بعد أن أشارت الآيه الأولی فی السوره إلی معجزه إسراء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیلا من

المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كشفت آيات السوره الأخرى،عن موقف المشركين و المعارضين لمثل هذه الأحداث،و أبانت استنكارهم لها،و عنادهم إزاء الحق،فى هذه الاتجاه انعطفت الآيه الأولى-من الآيات مورد البحث-على قوم موسى،ليقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنّ تأريخ النبوات واحد،و إنّ موقف المعاندين واحد أيضا،و أنّه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشى موقفه هذا منك،و بين يديك الآن تأريخ بنى إسرائيل فى موقفهم من موسى عليه السّلام.

تقول الآيه أوّلا: وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ .

و صفه هذا الكتاب أنّه: وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ و الكتاب الذى تعنيه الآيه هنا هو«التوراه»الذى نزل على موسى عليه السّلام هدى لبنى إسرائيل.

ثمّ تشير الآيه إلى الهدف من بعثه الأنبياء بما فيهم موسى عليه السّلام فتقول:

أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً

(۱)

.

إنّ التوحيد فى العمل هو واحد من معالم أصل التوحيد،و هو علامه على التوحيد العقائدى.الآيه تقول:لا تتكئ على أحد سوى اللّه،و إنّ أى اعتماد على غيره دلاله على ضعف الإيمان بأصل التوحيد.إنّ أسمى معانى التجلّى فى هدايه الكتب السماويه،هو اشتعال نور التوحيد فى القلوب و الانقطاع عن الجميع و الاتصال باللّه تعالى.

و من أجل أن تحرّك الآيه التاليه عواطف بنى إسرائيل و تحفّزهم لشكر النعم الإلهيه عليهم،خصوصا نعمه نزول الكتاب السماوى،فإنّها تضع لهم نموذجا للعبد الشكور فتقول: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ (۲) و لا تنسوا: إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً .

۱- ۱) -من وجهه التركيب النحوى يقول بعض المفسّرين:إنّ تقدير جمله أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً هو:لئلا تتخذوا.. و بعضهم قال:«أن»زائده،و جمله«قلنا لهم»تقديرها:«و قلنا لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا».

۲- ۲) -إنّ جمله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ جمله ندائيه و فى التقدير تكون:يا ذريه من حملنا مع نوح.أمّا ما احتمله البعض من أنّ«ذريه»هى بدل عن«وكيلا»أو مفعول ثان ل«تتخذوا»فهو بعيد،و لا يتسق مع جمله إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً .

و الآيه تخاطب بنی إسرائیل بأنّهم أولاد من کان مع نوح،و علیهم أن یقتدوا ببرنامج أسلافهم و آبائهم فی الشکر لأنعم اللّه.

«شکور»صیغه مبالغه بمعنی«کثیر الشکر»،و أمّا کون بنی إسرائیل ذریه من کان مع نوح،فإنّ ذلک قد یعود إلی أنّ من فی الأرض جمیعا،بعد طوفان نوح، و منهم بنو إسرائیل،هم کلّهم من سلاله الأبناء الثلاثه لنوح،أی«سام»و«حام» و«یافث»کما ورد فی کتب التاریخ،و ممّا لا شک فیه أنّ کل أنبیاء اللّه شکورون، و لکنّ الأحادیث تعطی میزه خاصّه لنوح الذی کان دائم الشکر علی کل نعمه ففی کل شربه ماء،أو وجبه غذاء،أو وصول نعمه أخری له فإنّه یذکر اللّه فورا و یشکره علی نعمائه.

و

فی حدیث عن الإمام الباقر و الصادق علیهما السّلام نقرأ قولهما إنّ نوحا کان یقرأ هذا الدعاء فی کل صباح و مساء، «اللّهم إنّی أشهدک أنّ ما أصبح أو أمس بی من نعمه فی دین أو دنیا فمنک،وحدک لا شریک لک،لک الحمد و لک الشکر بها علیّ حتی ترضی،و بعد الرضا».

ثمّ أضاف الإمام:«هکذا کان شکر نوح» (۱) .

بعد هذه الإشاره تدخل الآیات إلی تاریخ بنی إسرائیل الملیء بالأحداث، فتقول: وَ قَضَیْنٰا إِلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ فِی الْکِتٰابِ لَتُفْسِدُنَّ فِی الْأَرْضِ مَرَّتَیْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا کَبِیراً .

کلمه«قضاء»لها عدّه معان،إلاّ أنّها استخدمت هنا بمعنی«إعلام»أمّا المقصود من«الأرض»فی الآیه-بقرینه الآیات الأخری هی ارض فلسطین المقدسه التی یقع المسجد الأقصی المبارک فی ربوعها.

الآیه التی تلیها تفصل ما أجملته من إشاره إلی الإفسادین الکبیرین لبنی

۱- ۱) -یراجع تفسیر مجمع البیان أثناء تفسیر الآیه.

إسرائيل و الحوادث التی تلی ذلک علی أنّها عقوبه الهیه فتقول: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ أُولاٰهُمٰا و ارتکبتم ألوان الفساد و الظلم و العدوان بَعَثْنٰا عَلَیْکُمْ عِبٰاداً لَنٰا أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ .

و هؤلاء القوم المحاربون الشجعان یدخلون دیارکم للبحث عنکم: فَجٰاسُوا خِلاٰلَ الدِّیٰارِ .

و هذا الأمر لا مناصّ منه: وَ کٰانَ وَعْداً مَفْعُولاً .

ثمّ تشیر بعد ذلک إلی أنّ الإلطاف الإلهیه ستعود لتشملکم،و سوف تعینکم فی النصر علی أعدائکم،فتقول: ثُمَّ رَدَدْنٰا لَکُمُ الْکَرَّهَ عَلَیْهِمْ وَ أَمْدَدْنٰاکُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِینَ وَ جَعَلْنٰاکُمْ أَکْثَرَ نَفِیراً (۱) .

و هذه المنّه و اللطف الإلهی بکم علی أمل أن تعودوا إلی أنفسکم و تصلحوا أعمالکم و تترکوا القبائح و الذنوب لأنّه: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا .

إنّ الآیه تعبّر عن سنّه ثابته،إذ أن محصله ما یعمله الإنسان من سوء أو خیر تعود إلیه نفسه،فالإنسان عند ما یلحق أذی أو سوءا بالآخرین،فهو فی الواقع یلحقه بنفسه،و إذا عمل للآخرین،فإنّما فعل الخیر لنفسه،أمّا بنو إسرائیل،فهم مع الأسف لم توقظهم العقوبه الأولی،و لا نبهتهم عوده النعم الإلهیه مجددا،بل تحرکوا باتجاه الإفساد الثّانی فی الأرض و سلکوا طریق الظلم و الجور و الغرور و التکبّر.

تقول الآیه فی وصف المشهد الثّانی أنّه حین یحین الوعد الإلهی سوف تغطیکم جحافل من المحاربین و یحیق بکم البلاء الی درجه أنّ آثار الحزن و الغم تظهر علی وجوهکم: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ الْآخِرَهِ لِیَسُوؤُا وُجُوهَکُمْ .

بل و یأخذون منکم حتی بیت المقدس: وَ لِیَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ کَمٰا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّهٍ .

ص :۳۹۸

---

۱ – ۱) -«نفیر»اسم جمع و هی بمعنی مجموعه من الرجال،و قال بعض:هی من«نفر».و«نفر»فی الأصل علی وزن«عفو»تعنی الارتحال و الإقبال علی شیء.و لذلک یطلق علی الجماعه المستعده للتحرک باتجاه شیء بأنها فی حاله«نفیر».

و هم لا يعكفون بذلك،بل سيحتلّون جميع بلادكم و يدمّرونا عن آخرها:

وَ لِيُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِيراً

و فى هذه الحاله فإنّ أبواب التوبه الإلهيه مفتوحه:

عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ

.

وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنٰا

أى إن عـدتم لنا بالتوبه فسوف نعود عليكم بالرحمه،و إن عـدتم للإفساد عـدنا عليكم بالعقوبه.و إذا كان هـذا جزاؤكم فى الدنيا ففى الآخره مصيركم جهنم: وَ جَعَلْنٰا جَهَنَّمَ لِلْكٰافِرِينَ حَصِيراً (۱) .

***

ملاحظات

اشاره

الأولى:الإفسادان التأريخيان لبنى إسرائيل:

تحدثت الآيات أعلاه عن فسادين اجتماعيين كبيرين لبنى إسـرائيل،يقود كل منهما إلى الطغيان و العلو،و قد لاحظنا أنّ اللّه سلّط على بنى إسـرائيل عقب كـل فسـاد رجـال أشـدّاء شـجعانا يـذيقونهم جزاء فسـادهم و علـوهم و طغيـانهم،هـذا مع اسـتثناء الجزاء الأخروى الذى أعدّه اللّه لهم.

و بالرغم من اتساع تاريـخ بنى إسـرائيل،و تنوّع الأحـداث و المواقف فيه،إلاّ أنّ المفسّـرين يختلفون فى كل المرّات التى يتحدّث القرآن فيها عن حدث أو موقف من تاريخ بنى إسرائيل و على سبيل التدليل على هذه الحقيقه تتعرّض فيما يلى للنماذج الآتيه:

أوّلا:يسـتفاد من تاريـخ بنى إسـرائيل بأنّ أول من هجم على بيت المقـدس و خرّبه هو ملك بابل«نبوخذ نصـر»حيث بقى الخراب ضاربا فيه لسبعين عاما،إلى

۱- ۱) -«حصـير»مشتقه من«حصر»بمعنى الحبس،و كل شيء ليس له منفذ للخروج يطلق عليه اسم«حصير».و يقال للحصير العاديه حصيرا لأنّ خيوطها و موادها نسجت إلى بعضها البعض.

أن نهض اليهود بعد ذلک لإعماره و بنائه.أمّا الهجوم الثّانی الـذی تعرّض له،فقد کان من قبل قیصر الروم«أسییانوس»الذی أمر وزیره«طرطوز»بتخریب بیت المقدس و قتل بنی إسرائیل.و قد تمّ ذلک فی حدود مائه سنه قبل المیلاد.

و بذلک یحتمل أن تکون الحادثتان اللتان أشارت إلیهما الآیات أعلاه هما نفس حادثتی«نبوخذ نصر»و«أسییانوس»لأنّ الأحداث الأخری فی تاریخ بنی إسرائیل لم تفن جمعهم،و لم تذهب بملکهم و استقلالهم بالمرّه،و لکن نازله(نبوخذ نصر)ذهبت بجمعهم و سؤددهم إلی زمن«کورش»حیث اجتمع شملهم مجددا و حررهم من أسر بابل و أعادهم إلی بلادهم و أعانهم فی تعمیر بیت المقدس،إلی أن غلبتهم الروم و ظهرت علیهم،و ذهبت قوتهم و شوکتهم (۱) .

لقد استمر بنو إسرائیل فی مرحله الشتات و التشرّد إلی أن أعانتهم القوی الدولیه الاستعماریه المعاصره فی بناء کیان سیاسی لهم من جدید.

ثانیا:أمّا«الطبری»فینقل فی تفسیره عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ المراد فی الفساد الأوّل هو قتل بنی إسرائیل لزکریا علیه السّلام و مجموعه أخری من الأنبیاء علیهم السّلام، و أنّ المقصود من الوعد الأول،هو الانتقام الإلهی من بنی إسرائیل بواسطه(نبوخذ نصر)و أمّا المراد من الفساد الثّانی فهو الفوضی و الاضطراب الـذی قام به «بنو إسرائیل»بعد تحریرهم من بابل بمساعده أحد ملوک فارس،و ما قاموا به من فساد.أمّا الوعد الثّانی،فهو هجوم«أنطیاخوس»ملک الروم علیهم.

و بالرغم من انطباق بعض جوانب هذا التّفسیر مع التّفسیر الأوّل،إلاّ أنّ راوی الحدیث الذی یعتمد علیه«الطبری»غیر ثقه،بالإضافه إلی عدم تطابق تاریخ «زکریا»و«یحیی»مع تاریخ«نبوخذ نصر»و«أسییانوس أو أنطیاخوس»إذا یلاحظ أن«نبوخذ نصر»عاصر«أرمیا»أو«دانیال»النّبی کما یری بعض

۱- ۱) -یراجع تفسیر المیزان،ج ۱۳،ص ۴۴ فما فوق.

المؤرخين،و قيامه قد تمّ فی حدود(۶۰۰)سنه قبل زمان یحیی علیه السّلام،لذلک کیف یقال:إنّ قیام نبوخذ نصر کان للانتقام من دم یحیی علیه السّلام؟! ثالثا:و قال آخرون:إنّ بیت المقدس شیّد فی زمن داود و سلیمان علیهما السّلام،و قد هدمه«نبوخذ نصر»و هـذا هو المقصود من إشاره القرآن إلی الوعد الأوّل.أمّا المرّه الثّانیه،فقد بنی فیها بیت المقدس علی عهد ملوک الأخمنیین لیقوم بعـد ذلک «طیطوس»الرومی بهـدمه و خرابه(الملاحظ أن«طیطوس»یطابق«طرطوز» الـذی ذکر فی التّفسـیر السابق)و قـد بقی علی خرابه إلی عصـر الخلیفه الثّانی عند ما فتح المسـلمون فلسـطین (۱) .و الملاحـظ فی هـذا التّفسـیر أنّه لا یفترق کثیرا عمّا ورد فی مضمون التفسیرین أعلاه.

رابعا:فی مقابل التفاسـیر الآنفه و التفاسـیر الأخری التی تتشابه فی مضـمون آرائها مع هذه التفاسـیر،نلاحظ أنّ هناک تفسیرا آخر یورده«سـید قطب»فی تفسیر«فی ظلال القرآن»یختلف فیه مع کل ما ورد، حیث یری أن الحادثتین لم تقعا فی الماضی،بل تتعلقان فی المستقبل،فیقول:«فأمّا إذا عاد بنو إسرائیل إلی الإفساد فی الأرض فالجزاء حاضر و السنه ماضیه وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنٰا ثمّ یقول:

«و لقـد عادوا إلی الإفساد فسـلّط اللّه علیهم المسـلمین فأخرجوهم من الجزیره کلّها.ثمّ عادوا إلی الإفساد و سـلّط اللّه علیهم عبادا آخرین،حتی کـان العصـر الحـدیث فسـلط علیهم«هتلر»و لقـد عـادوا الیـوم إلی الإفسـاد فی صوره«إسـرائیل» الـتی أذاقت العرب أصـحاب الأرض الویلات.و لیسـلطنّ اللّه علیهم من یسومهم سوء العذاب،تصدیقا لوعد اللّه القاطع،وفاقا لسنته التی لا تتخلف...و إنّ غدا لناظره قریب!) (۲) .

و لکن الاعتراض الأساسی الذی یرد علی هذا التّفسیر،هو أنّ أیّا منهما لم

۱- ۱) -تفسیر أبو الفتوح الرازی،ج ۷،ص ۲۰۹.

۲- ۲) -سید قطب،فی ظلال القرآن،ج ۴،ص ۲۲۱۴ الطبعه العاشره.

ينته بـدخول القوم المنتصـرين(على اليهود)إلى بيت المقدس حتى يخرّبوه؟ خامسا:الاحتمال الأخير الذى ورده البعض فى تفسـير الإفسـادين الكبيرين لبنى إسـرائيل،يرتبـط بأحـداث مـا بعـد الحرب العالميه الثّانيه،حيث يقول هؤلاء:إن قيام الحزب الصـهيونى و تشـكيل دوله لليهود بـاسم«إسـرائيل»فى قلب العـالم الإسـلامى مثّل الإفساد و الطغيان و العلو الأوّل لهم،و بـذلك فإنّ وعى البلاد الإسـلاميه لخطر هؤلاء الشعوب الإسـلاميه فى ذلـك الـوقت إلى التوحـدّ و تطهير بيت المقـدس و قسـما آخر من مـدن و قرى فلسطين،حتى أصبح المسجد الأقصى خارج نطاق احتلالهم بشكل كامل.

أمّا المقصود من الإفساد الثّانى حسب هذا التّفسـير،فهو احتلال اليهود مجددا للمسـجد الأقصـى بعد أن حشدت«إسـرائيل»قواها و استعانت بالقوى الدوليه الاستعماريه فى شن هجومها الغادر(عام ۱۹۶۷).

و بهـذا الشـكل يكون المسـلمون اليوم فى انتظـار النصـر الثّـانى على بنى إسـرائيل،ليخلّصوا المسـجد الأقصـى من دنس هؤلاـء و يقطعوا دابرهم عن كل الأرض الإسلاميه.و هذا ما وعد به المسلمون من فتح و نصر آت بلا ريب (۱) .

بالطبع هناك تفاسـير و آراء أخرى فى الموضوع صرفنا النظر عنها،و لكن ينبغى أن يلاحظ أنّ فى حال اعتماد التفسيرين الرّابع و الخامس،ينبغى أن نحمل الأفعال الماضيه فى الآيه على معنى الفعل المضارع.و هذا ممكن فى أدب اللغه العربيه،و ذلك إذا جاء الفعل بعد حرف من حروف الشرط.

و لكن يستفاد من ظاهر قوله تعالى: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً إنّ الإفساد الأوّل على الأقل-و الانتقام الإلهى من بنى إسرائيل كان قد وقع فى الماضى.

۱- ۱) -يلاحظ هذا الرأى العدد(۱۲)السنه(۱۲)من جمله«عقيده الإسلام»و قد كتب البحث فى عددين إبراهيم الأنصارى.

و إذا أردنا أن نتجاوز كل ذلك،فينبغى أن نلتفت إلى أنّ قوله تعالى: بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تفيد فى أنّ الرجال الذين سيؤدبون«بنى إسرائيل»على فسادهم و علوّهم و طغيانهم،هم رجال مؤمنون،شجعان حتى استحقوا لقب العبوديه.و ممّا يؤكّد هذا المعنى الذى غفلت عنه معظم التفاسير،هو كلمه«و بعثنا»و«لنا».

و لكنّا مع ذلك،لا نستطيع الادّعاء أن كلمه«بعث»تستخدم فقط فى مورد خطاب الأنبياء و المؤمنين،بل هى تستخدم فى غير هذه الموارد أيضا،ففى قصّه هابيل و قابيل يقول القرآن الكريم: فَبَعَثَ اللّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ (1) .

و كذلك الحال فى كلمه«عباد»أو«عبد»فهى تطلق فى بعض الأحيان على الأفراد غير الصالحين من المذنبين و غيرهم،كما فى الآيه(58)من الفرقان فى قوله تعالى: وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً و الآيه(27)من سوره الشورى،حيث يقول تعالى: وَ لَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ و فى خصوص المخطئين و المنحرفين نقرأ فى الآيه(118)من سوره المائده قوله تعالى: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ .

و لكنّا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر-و إن لم تقم قرينه خلاف ذلك-أنّ العباد الذين بعثهم اللّه للانتقام من بنى إسرائيل هم من العباد المؤمنين الصالحين.

و خلاصه البحث:إنّ هذه الآيات تتحدث عن فسادين كبيرين لبنى إسرائيل، و كيف أنّ اللّه تبارك و تعالى لم يهمل هؤلاء،بل أذاقهم جزاءهم فى الدنيا،و بقى عليهم جزاء الآخره و حسابها،و الدرس الذى نستفيده و الإنسانيه جمعا هو أنّ اللّه تعالى لا يهمل الظالمين و لا يسكت على ظلمهم بل علينا أن نعتبر و نتعظ من دروس التاريخ و أحوال الأمم الماضيه.

1- 1) -المائده،31.

الثّانيه:تحمّل الإنسان لتبعات أعماله:

الآيات الآنفه تشير إلى قاعده مهمّه،و هى أنّ أعمال الإنسان سواء كانت حسنه أم قبيحه فإنّ مردودها يعود إليه،صحيح أنّ الآيات تتحدّث عن بنى إسرائيل،و لكن القاعده من الشمول و العموم بحيث تشمل كافه البشر على مر التاريخ (۱) .

إنّ الحياه و التاريخ يعكسان لنا الكثير من تلك النماذج التى أسست أعمالا و سننا سيئه،و سنّت قوانين ظالمه و مبتدعه،و لكنّها فى النهايه،كانت ضحيه ما سنّت و ابتدعت و أسست،و كانت نهايتها و نهايه من يلوذ بها الوقوع فى نفس الحفره التى حفرتها للآخرين،و بذلك نالت جزاءها بما اقترفت أيديها. إنّ خصوصيه هذا الأمر تتّضح أكثر بالنسبه لأعمال الفساد و على الأخص العلو و الاستكبار،فإنّ الإنسان لا بدّ و أن يذوق فى هذه الدنيا جزاء ما اقترف من أسباب العلو و الاستكبار و الإفساد.

و لهذا السبب بالذات رأينا أنّ بنى إسرائيل لاقوا جزاءهم السريع فى الدنيا، من دون أن يعنى ذلك انتفاء العقاب الأخروى إذ عاشوا طويلا واقع الشتات و التشرّد،و ذاقوا الكثير من السوء و المصائب.إنّنا اليوم نعيش مظاهر من فساد بنى إسرائيل و علوهم و طغيانهم،فهم قد اغتصبوا أرض الآخرين و طردوهم منها، و أذاقوا أهلها ألوان القتل و البطش و الإرهاب،و روعوا الأبناء و سبوا النساء،بل لم يحترموا حتى بيوت اللّه فى بيت المقدس! إنّ هؤلاء يتعاملون مع العالم بدون رعايه أى شكل من أشكال القانون أو

۱- ۱) -نقرأ فى الآيه: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا بينما كان ينبغى أن يكون التعبير«عليها»لأنّ الإساءه لا تكون فى فائده و نفع الإنسان بل هى فى ضرره!إنّ السبب فى ذلك يعود إلى ضروريات التنسيق بين قسمى الجمله،أو قد يكون ذلك بسبب أنّ اللام هنا استخدمت بمعنى التخصيص لا ـ بمعنى النفع و الضرر.بعض المفسّرين احتمل أيضا أن تكون اللام بمعنى «إلى».

الضوابط و المعايير الدوليه،فإذا قام-مثلا-فدائى فلسطينى بإطلاق رصاصه عليهم،فإنّهم بدلا عنها يقومون بقصف و تخريب المخيمات السكنيه للاجئين، و مدارس الأطفال،و المستشفيات.و هم فى مقابل خسارتهم لقتيل واحد،يقومون بحصد المئات من الأنفس البريئه و يفجّرون عددا كبيرا من البيوت.

إنّ هؤلاء يتجاهرون بعدم التزامهم،بل بعدائهم لكل قرارات المنظمات الدوليه،و الكل يعرف أنّ جرأتهم فى مواجهه العالم إنّما كانت و ما زالت مستمده من دعم القوى الاستعماريه الدوليه لهم-و فى الطليعه منها أمريكا-من دون أن يعنى دعم هذه القوى لهم تبريرا لما يمتازون هم به من خصائص انحرافيه ذاتيه فى الفكر و الأخلاق،و استعداد قبلى للعلو و الطغيان و الفساد.

إنّهم بعلوّهم و فسادهم عليهم أن ينتظروا أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله:

عِبَاداً لَنَا أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ

حيث ينالون جزاءهم،و هو وعد الهى قاطع فى قرآنه الكريم.

الثّالثه:تطبيق الآيات على أحداث التاريخ الإسلامى:

فى روايات عدّه نرى انطباق الآيات أعلاه على بعض أحداث التاريخ الإسلامى حيث يشير بعضها إلى أنّ الفساد الأوّل و الثّانى هو قتل الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام،و العدوان على جنازه الإمام الحسن عليه السّلام.و بعضها تشير إلى أنّ المقصود من قوله تعالى: بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ هو الإشاره إلى الإمام المهدى عليه السّلام و أصحابه.

و فى روايات أخرى نقرأ أنّ المقصود،هو نهضه مجموعه من المسلمين قبل ظهور الإمام المهدى عليه السّلام (۱) .

۱- ۱) -يلاحظ نور الثقلين،ج ۳،ص ۱۳۸.

من الواضح أنّ هذه الأحاديث لا تفسّر الآيات تفسيرا لفظيا،لأنّ الآيات تتحدث بصراحه عن بنى إسرائيل،و لكنّها تتحدث عن التشابه بين نهج هؤلاء (بنى إسرائيل)و نهج ما يقع على شبههم و حالتهم فى أحداث التأريخ الإسلامى.

و هكذا ننتهى إلى نتيجه مؤدّاها أنّ الآيات و إن تحدّثت عن خصوصيات بنى إسرائيل،إلاّ أنّها تتسع فى مفهومها لترتفع إلى مستوى القاعده الكليه،و السنّه المستمرّه فى تأريخ البشريه بما يطويه من حياه شعوب و أمم.

ص :۴۰۶

الآيات [سوره الإسراء (۱۷): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشاره

إِنَّ هٰذَا اَلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلصّٰالِحٰاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (۹) وَ أَنَّ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۰) وَ يَدْعُ اَلْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ دُعٰاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كٰانَ اَلْإِنْسٰانُ عَجُولاً (۱۱) وَ جَعَلْنَا اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنٰا آيَةَ اَللَّيْلِ وَ جَعَلْنٰا آيَةَ اَلنَّهٰارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِينَ وَ اَلْحِسٰابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنٰاهُ تَفْصِيلاً (۱۲)

التّفسير

اشاره

أقصر الطرق للهدايه و السعاده:

الآيات السابقه تحدّثت عن بنى إسرائيل و كتابهم السماوى«التوراه»و كيف تخلفوا عن برنامج الهدايه الإلهيه ليلقوا بعض جزائهم فى هذه الحياه الدنيا، و الباقى مدخر ليوم القيامه.

و فى هذا المقطع من الآيات،انتقل الحديث إلى القرآن الكريم،الكتاب

السماوی للمسلمین،و آخر حلقه فی الکتب السماویه،فقال تعالی أوّلا: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ .

«أقوم»صیغه تفضیل مشتقه من«قیام»حیث یکون الإنسان فیها علی أحسن حالاته حینما یرید أن یشرع بعمل ما،لذلک فإنّ«القیام»کنایه عن أفضل الصیغ التی ینجز فیها الإنسان الأعمال التی یباشرها،أو یستعد لمباشرتها.

«الاستقامه»مشتقّه أیضا من ماده«قیّم»و هی بمعنی الاعتدال و الإستواء و الثبات.

و بما أنّ«أقوم»هی«أفعل تفضیل»بمعنی الأکثر ثباتا و استقامه و اعتدالا، فإنّ معنی الآیه أعلاه،هو أنّ القرآن الکریم یمثل أقصر و أفضل طرق الاستقامه و الثبات و الهدایه و بهذا فإنّ الطریق القویم.

من وجهه نظر العقائد و الأفکار،یتمثل بالعقائد الواضحه،القابله للهضم و الإدراک و الفهم،و التی تکون أساسا للعمل،و تعبئه الطاقات الإنسانیه باتجاه الإعمار و البناء.العقیده الأقوم هی العقیده الخالیه من الخرافات و الأوهام،و هی التی توائم بین الإنسان و عالم الوجود و الطبیعه من حوله.

العقیده الأقوم من هذه الزاویه،هی التی توافق بین الإعتقاد و العمل،و الظاهر و الباطن،الفکر و المنهج،و تدفع الإنسان و الجمیع نحو اللّه.

أمّا الأقوم من وجهه نظر القوانین الاجتماعیه و الاقتصادیه و العسکریه و السیاسیه، التی تسود المجتمع،فهی تلک التی تربّی فی المجتمع الإنسانی الجوانب المادیه و المعنویه و تدفع الجمیع نحو التکامل و الاتساق.

و الأقوم من وجهه النظر العبادیه و الأخلاقیه،هو کل ما یجعل الإنسان فی المرکز الوسط بین الإفراط و التفریط،و یجعله فی موقع الاعتدال بین الإسراف و البخل،بین الاستضعاف و الاستکبار.

و أخیرا فإنّ المنهج الأقوم بالنسبه للنظم و السلطات الحاکمه،هو کل ما

يدفعها إلى إقامه العدل،و الدعوه إلى إشاعه الإنصاف،و مواجهه الظلم و الظالمين.

نعم،إنّ القرآن هو الطريق الأقوم في كل تلك المستويات الآنفه الذكر،و هو الأسلوب الأقوم في كل جوانب الحياه و الوجود،و على كافه القضايا و الصعد.

و لكنّا هنا نقف مع نقطه حساسه،و هي إذا كان القرآن هو الأقوم،أي«أفعل تفضيل»فمعنى ذلك تفوقه في ميزات العدل و صفات الهدايه و الاستقامه ليس على سائر المذاهب و العقائد الوضعيه و حسب،و إنّما على سائر الأديان و الشرائع السابقه عليه أيضا.

و إزاء المفهوم الذي تطرحه هذه النقطه نرى أنفسنا بحاجه إلى إثاره الحديث على النحو الآتي.

أوّلا:إذ كانت أطراف المقايسه هي الأديان السماويه الأخرى،فلا شك أنّ كل دين و شريعه منها كانت أفضل و أقوم لوقتها و زمانها،و لكن وفق قانون التكامل الذي وصلت البشريه بمقتضاه إلى أقصى حالات رشدها و تكاملها،في زمن الرساله الإسلاميه الخاتمه و النّبوه الخاتمه،فإنّ القرآن الكريم يعبّر تبعا لذلك عن أرقى و أقوم مضامين الهدايه و الاستقامه الاعتدال.

ثانيا:أمّا إذا كان طرف المقايسه هو المذاهب و العقائد الوضعيه،فمن الطبيعي جدّا أن يكون القرآن كتاب السماء الواصل إلينا من اللّه ذي العلم المطلق،هو الأقوم و الأظهر عليها،لأنّ العقائد الوضعيه مهما بلغت مزاياها فهي نتاج الفهم المحدود للبشر.

ثالثا:أشرنا في غير مكان إلى أن«أفعل تفضيل» لا يدلّ دائما على أنّ الموضوع لا بدّ و أن يكون طرفا للمقايسه،كما في قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ (1) .

ثالثا:أشرنا في غير مكان إلى أن«أفعل تفضيل»لا يدلّ دائما على أنّ الموضوع لا بدّ و أن يكون طرفا للمقايسه،كما في قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ (2) .

۱- ۱،۲) -يونس،۳۵.

-۲

و علی هامش هذه النقطه ینبغی أن لا یفوتنا أن تعبیر«أقوم»فی الآیه الآنفه یشیر إلی أنّ الإسلام هو آخر أدیان السماء،و أنّ النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو آخر الأنبیاء.

و کیفیه ذلک،هو أنّ أقوم بوصفها أفعل تفضیل،تمثل أعلی درجات التفضیل، و لأنّ الآیه لا تذکر الطرف الآخر فی المقایسه و الذی یکون القرآن أقوم بالنسبه إلیه،و طالما أنّ حذف المتعلق یدل علی العموم کما یقول الأصولیون،فینتج أنّ الإسلام آخر الأدیان،و أنّ محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاتم الرسل،لأنّه لیس بعد صیغه تفضیل «أقوم»من درجه فی التفضیل.

بعد ذلک تشیر الآیات إلی موقف الناس فی مقابل الکتاب الأقوم،هذا الموقف الذی ینقسم فیه الناس إلی فئتین،فالأولی یکون حالها کما یقول تعالی:

وَ یُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِینَ الَّذِینَ یَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً کَبِیراً

.

أمّا الفئه الثّانیه فیکون مصیرها تبعا لموقفها کما یقول تعالی: وَ أَنَّ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِیماً .

و إذا کان استخدم«بشاره»واضح هنا بالنسبه للمؤمنین،فهو بالنسبه لغیرهم من غیر المؤمنین یقع علی معنی السخریه و الاستهزاء،أو أنّه بشاره للمؤمنین أیضا تخبرهم عن حال غیر المؤمنین (۱) .

ضمنا الآیه تشیر باختصار بلیغ إلی جزاء المؤمنین و ثوابهم فتقول: أَنَّ لَهُمْ أَجْراً کَبِیراً أمّا غیر المؤمنین فإنّ لهم بنفس صوره الإیجاز القرآنی البلیغ عَذٰاباً أَلِیماً و هذا الاختصار البلیغ یطوی فی کلا مجالیه صورا تفصیلیه من الثواب و العقاب.

أمّا لماذا اقتصرت الآیه فی غیر المؤمنین علی صفه عدم إیمانهم بالآخره

۱- ۱) -فی نهایه الآیه(۱۳۸)من سوره النساء قلنا:إنّ«البشاره»مشتقّه أصلا من«البشره»بمعنی الوجه.و الملاحظ أنّ صحیفه الوجه و بشرته کالمرآه تعکس کل خبر إذا کان سارا أو سیئا بشکل إیحاءات معینه.

دون غيرها من الصفات و الأعمال.فى الواقع يمكن أن يكون ذلك بسبب أنّ الإيمان بالآخره هو صمام أمان يضبط الإنسان عن ارتكاب المعاصى و الذنوب.

ثمّ إنّ إنكار القيامه يعتبر إنكارا لوجود اللّه تعالى،و إلاّ كيف يستقيم للإنسان أن يؤمن باللّه العادل الحكيم و لا يؤمن بوجود آخره يحاسب فيها الإنسان على أعماله و ينال حسابه العادل!؟ ثمّ إنّ حديث الآيه هو عن العقاب و الثواب و هو يتناسب مع الحديث عن الإيمان باليوم الآخر.

الآيه التى بعدها تنساق فى نفس اتجاه البحث و تشير إلى احدى العلل المهمّه لعدم الإيمان و تقول بأنّ عجله الإنسان و تسرعه و عدم اطلاعه على الأمور و إحاطته بها تسوقه إلى أن يساوى فى جهده بين دعائه بالخير و طلبه،و بين دعائه بالشر و طلبه له! تقول الآيه: وَ يَدْعُ الْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ دُعٰاءَهُ بِالْخَيْرِ .

لما ذا؟: وَ كٰانَ الْإِنْسٰانُ عَجُولاً .

إنّ كلمه«دعا»هنا تنطوى على معنى واسع يشمل كل طلب و رغبه للإنسان، سواء أعلن عنها بلسانه و كلامه،أو سعى إليها بعمله و جهده و سلوكه.

إنّ استعجال الإنسان و اندفاعه فى سبيل تحصيل المنافع لنفسه،تقوده إلى النظره السطحيه للأمور بحيث أنّه لا يحيط الأشياء بالدراسه الشامله المعمّقه ممّا يفوّت عليه تشخيص خيره الحقيقى و منفعته الواقعيه،و هكذا بنتيجه تعجّله و اندفاعه المضطرب يضيع عليه وجه الحقيقه،و يتغيّر مضمونها بنظره،فيقود نفسه باتجاه الشر و الأعمال السيئه الضارّه.

و هكذا ينتهى الإنسان-نتيجه سوء تشخيصه و اضطراب مقياسه فى رؤيه الخير و الحقيقه-إلى أن يطلب من اللّه الشر،تماما كما يطلب منه الخير،و أن يسعى وراء الأعمال السيئه،كسعيه وراء الأعمال الحسنه.و هذا الاضطراب

و فقدان الموازين هی أسوأ بلا يصاب به الإنسان و يحول بينه و بين السعاده الحقيقيه.

مـا أكثر الناس الـذين يضـعون أنفسـهم-بسـبب من عجلتهم و انـدفاعاتهم المضـطربه-علی حافه الخطر و مشارف الضـلال،و هم يظنون أنّهم يسـيرون نحو الأمن و الاسـتقرار و الهـدايه.إنّ مثل هؤلاء كمن هو غارق بالسوء و القبائح و هو يفتخر بما هو فيه!! إنّ نتيجه العجله و التسرّع و الاندفاع الأهوج لن تكون أحسن من هذه العاقبه.

من هنا يتّضح-كما أشـرنا سابقا-أنّ معنی«دعا»لا يقتصـر لا علی الرغبات التی يظهرها الإنسان علی لسانه،و لا علی تلك الرغبات التی يسـعی لتحقيقها بسلوكه و بما يبذل لها من جهد،و إنّما المعنی يشمل محصله الإثنين معا.و أمّا ما ذهب إليه بعض المفسّرين من حصر المعنی فی أحدهما فليس ثمّه دليل عليه.

أمّا ما يظهر من بعض الرّوايات من اقتصار المعنی علی الـدعاء اللفظی،فإنّ ذلك من قبيل بيان المصـداق لا كل المفهوم من قبيل الرّوايه التی

يقول فيها الإمام الصادق عليه السّلام: «و أعرف طريق نجاتك و هلاكك،كی لا تدعو اللّه بشیء عسی فيه هلاكك،و أنت تظن أنّ فيه نجاتك،قال اللّه تعالی: وَ يَدْعُ الْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ دُعٰاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كٰانَ الْإِنْسٰانُ عَجُولاً .

من هنـا يتبيّن أنّ أفضـل طريق لوصول الإنسـان إلی الخير و السـعاده،هو أن يكون الفرد فی كل خطوه و موقف علی غايه قصوی من الـدقّه و الحيطه و الحـذر، و أن يتجنب الانـدفاع و العجله و التسـرّع،و يـدرس الموقف من جميع جوانبه، و بجـانب الأحكـام المتعجّله الممزوجه بالهوی و العاطفه،و أن يستعين باللّه العزيز و يستمده القوه و العون.

الآـيه التی بعـدها تتحـدث عن تعـاقب الليـل و النهـار و منافع هـذا التعاقب،لتجعل من هـذا الشاهـد مثالا علی معرفه اللّه و التمعّن بآياته،و المثال أيضا يفيد معنی

التأمّل و الهدوء و يدعو إلى محاذره التعجّل و التسرّع.

الآيه تقول أوّلا: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ ثمّ: فَمَحَوْنا آيَهَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَهَ النَّهارِ مُبْصِرَهً .و لنا فى ذلك هدفان:الأوّل: لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ حيث تنطلقون نهارا فى الكسب و العمل و المعاش مستثمرين العطايا الإلهيه،و تنعمون ليلا بالراحه و الهدوء و الاستقرار.و الهدف الثّانى فهو: وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ لكى لا تبقى شبهه لأحد وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا .

بين المفسّرين كلام كثير حول المقصود من«آيه الليل»و«آيه النهار»و فيما إذا كان ذلك كنايه عن نفس الليل و النهار،أم أنّ المقصود من«آيه الليل»القمر، و من«آيه النهار»الشمس (۱) .

و لكن التدقيق فى الآيه يكشف عن رجاحه التّفسير الأوّل،خصوصا و أنّ المقصود من قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ هو أنّ كل واحد منهما علامه على إثبات وجود اللّه،أمّا محو آيه الليل فهو تمزيق ظلمه الليل و حجب الظلمه فيه بواسطه نور النهار،الذى يكشف ما كان مستورا بظلمه الليل.

و إذا كانت آيات أخرى فى القرآن[آيه(۵)من سوره يونس]

تفيد أنّ الغايه من خلق الشمس و القمر هو تنظيم الحساب إلى سنين و أشهر،فليس ثمّه تنافى بين الآيتين،إذ من الممكن أن تنتظم حياه الإنسان و حسابه على أساس الليل و النهار،و على أساس الشمس و القمر من دون أى تناف بين الإثنين.

فى نهج البلاغه نقرأ للإمام أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام،قوله: «و جعل شمسها آيه مبصره لنهارها،و قمرها آيه ممحوه من ليلها،و أجراهما فى مناقل مجراهما،و قدّر سيرهما فى مدارج درجهما،ليميز بين الليل و النهار بهما،و ليعلم عدد السنين و الحساب بمقاديرهما» (۲) .

۱- ۱) -فى الحاله الأولى تكون الإضافه«إضافيه بيانيه»أما فى الثّالثه فتكون الإضافه«إضافه اختصاصيه».

۲- ۲) -نهج البلاغه،خطبه الأشباح،رقم(۹۱).

إنّ كلاـم الإمـام هنـا لاـ ينـافى التّفسـير الأـوّل،لأنّ حساب السـنين يمكن أن يكون على أساس الأيّام و الليالى،كما يمكن أن يتم ذلك على أساس الشمس و القمر.

***

بحوث

اشاره

أوّلا:هل الإنسان عجول ذاتا؟

إنّ الإنسـان لاـ يوصـف فى القرآن بوصـف«العجـول»و حسـب،و إنّمـا هنـاك أوصـاف أخرى أطلقهـا على الإنسـان مثل«ظلوم»و«جهول»و«كفور»و«هلوع» و«مغرور».

و لكن السؤال هنا،هو أنّ هـذه الأوصاف تتعارض مع التعليمات القرآنيه التى تتحـدّث عن الفطره النظيفه الطاهره للإنسان،فكيف إذن نوائم بين الحـالتين؟ بعبـاره أخرى:إنّ الإنسان من وجهه نظر الإسـلام هو أفضل الموجودات و أكرمها حتى أنّه اسـتحق مقام الخلاـفه عن اللّه،فى الأـرض،و هو معلّم الملاـئكه و أفضـل منهـا،فكيف-إذن-يتسق هـذا الطرح مع الأوصـاف السـيئه الآنفه التى نقرؤها عن الإنسان فى القرآن؟ إنّ الإجابه على هذا السؤال يمكن أن نختصرها بجمله واحده،و هى أنّ شخصيه الإنسان هى كما تقـوم آنفـا مـن السـمو و الرفعه،و لكـن بشـرط أن تتـم تربيتـه و تكـون رعـايته مـن قبـل القـاده الرّبـانيين،و إلاّـ ففى غير هـذه الصوره،فسـيتسافل نحو أسوأ الأـحوال،و يغرق فى الهوى و الشـهوات،و يخسـر القابليات العظيمه الموجوده فيه بالقوه لتظهر بـدلا عنها الجوانب السلبيه.

لذلك إذا تحقق الشرط السابق(تربيه الإنسان على يد القاده الإلهيين)فإنّ الجوانب الإيجابيه فى الإنسان هى التى تظهر،و هى التى تطبعه بطابعها و بعكس

ذلک تظهر الصفات السلبیه،لذلک نقرأ فی الآیات ۱۹-۲۴ من سوره المعارج قوله تعالی: إِنَّ الْإِنْسٰانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذٰا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّینَ الَّذِینَ هُمْ عَلیٰ صَلاٰتِهِمْ دٰائِمُونَ .و یمکن للقارئ أن یعود إلی تفسیر الآیه (۱۲)من سوره یونس لأجل المزید من التفاصیل حول الموضوع.

ثانیا:أضرار العجله

إنّ تعلق الإنسان و اندفاعه نحو موضوع معین،و التفکیر السطحی المحدود، و الهوی و الاضطراب،و حسن الظن أکثر من الحد الطبیعی إزاء أمر ما،کلّها عوامل للعجله فی الأعمال.ثمّ إنّ الاقتصار علی بحث المقدمات بشکل سطحی سریع و مرتجل لا یکفی فی التوصل إلی حقیقه الأمر،و عاده تؤدی العجله و التسرع فی الأعمال إلی الخسران و الندامه! و قد قرأنا فی الآیات أعلاه أنّ عجله الإنسان تقوده إلی أن یطلب الشر لنفسه و یسعی إلیه،بنفس الحاله و السرعه التی یطلب فیها الخیر و یسعی إلیه! إنّنا لا نستطیع أن نحصی ما أصاب الإنسان علی طول التاریخ جرّاء استعجاله و تسرّعه،و فی التجربه الحیاتیه الخاصّه لأی واحد منّا ثمّه ما یکفی لنتعلّم دروس العجله و التسرّع من خلال النتائج المرّه التی جنیناها.

إنّ«التثبت»و«التأنّی»هی الصفات التی تقابل العجله، ففی حدیث عن رسول اللّه نقرأ

قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّما أهلکک الناس العجله،و لو أنّ الناس تثبتوا لم یهلکک أحد» (۱) .

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله علیه السّلام: «مع التثبت تکون السلامه،و مع العجله تکون الندامه» (۲) .

۱- ۱) -سفینه البحار،ج ۱،ص ۱۲۹.

۲- ۲) -المصدر السابق.

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «إنّ الأناه من اللّه و العجله من الشيطان» (۱) (۲) .

طبعا هناک باب فی الرّوايات الإسلاميه بعنوان«تعجيل فعل الخير»ففی حديث عن رسول اللّه نقرأ

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ اللّه يحب من الخير ما يعجل» (۳) .

إنّ الرّوايات فی هـذا المجال كثيره،و المقصود منها هی السـرعه فی مقابل الإهمال و التأخير غير الموّجّه،و الاتكاء إلى الأعذار و التسويف باليوم و غدا،التی غالبا ما تؤدی إلى ظهور المشاكل فی الأعمال،و شاهد هذا الكلام هو الحديث الوارد

عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من همّ بشیء من الخير فليعجله فإنّ كل شیء فيه تأخير فإنّ للشيطان فيه نظره» (۴) .

لذلک نقول:نعم للجديه و السرعه فی الأعمال،و لكن لا..للعجله و التسرّع.

و بعبـاره أخرى:إنّ العجله المـذمومه هی التی تكون أثنـاء البحث و الـدراسه لمعرفه جوانب العمل المختلفه،أمّا السـرعه و العجله الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشـروع بالعمل،و التصميم على التنفيذ،لذلک نقرأ فی الرّوايات«سارعوا فی عمل الخير»أی بعد أن يثبت أن هذا العمل خير فلا مجال للتأخير و التسويف.

ثالثا:دور العدد و الحساب فی حياه الإنسان:

كل عالم الوجود يـدور حول محور العـدد و الحساب،و لا نظام فی هـذا العالم بـدون حساب،و طبيعی أنّ الإنسان الـذی هو جزء من هذه المجموعه لا يستطيع العيش من دون حساب و كتاب.

لهذا السبب تعتبر الآيات القرآنيه وجود الشمس و القمر أو الليل و النهار

ص: ۴۱۶

۱- ۱) -سفينه البحار،ج ۱،ص ۱۲۹.

۲- ۲،۳) أصول الكافی،ج ۱،كتاب الإيمان و الكفر،باب تعجيل فعل الخير.

۳- ۴) -المصدر السابق.

۴-

واحـده من نعم اللّه تعالى،لأنّها الأساس فى تنظيم الحساب فى حياه الإنسان،إنّ شـيوع الفوضـى و فقـدان الحياه للاتساق و النظم يؤدى إلى دمار الحياه و فنائها.

و الظريف أنّ الآيه تتحـدّث عن فائدتين لنعمه الليل و النهار،الأولى:ابتغاء فضل اللّه و التى تعنى التكسّب و العمل المفيد المثمر.و الثّانيه:معرفه عدد السنين و الحساب.

و قد يكون الهدف من ذكر الإثنين إلى جنب بعضـهما البعض يعود إلى أنّ (ابتغاء فضل اللّه)لا يتم بدون الاسـتفاده من(الحساب و الكتاب)و قد لا يكون هذا المعنى واضحا فى العصور الماضيه،أمّا فى عصرنا فهو واضح كالشمس.

إنّ عالمنـا اليوم،هو عـالم الأرقـام و الأعـداد و الإحصـاء،فـإلى جـانب كـل مؤسـسه و منظمه اقتصاديه أو اجتماعيه أو سياسـيه أو عسكريه أو عمليه أو ثقافيه، ثمّه مؤسسه إحصائيه.

و هكذا نستفيد من الإشاره القرآنيه أنّ القرآن لا يبلى بالزمان،بل كلّما مرّ عليه الزمان تجددت معانيه و تجلّت آفاقه (۱) .

۱- ۱) -لنا كلام مفصّل حول الموضوع أثناء الحديث عن الآيه(۵)من سوره يونس.

الآيات [سوره الإسراء (۱۷): الآيات ۱۳ الی ۱۵]

اشاره

وَ کُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِی عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیامَهِ کِتاباً یَلْقاهُ مَنْشُوراً (۱۳) اِقْرَأْ کِتابَکَ کَفی بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً (۱۴) مَنِ اهْتَدی فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما یَضِلُّ عَلَیْها وَ لا تَزِرُ وازِرَهٌ وِزْرَ أُخْری وَ ما کُنّا مُعَذِّبِینَ حَتّی نَبْعَثَ رَسُولاً (۱۵)

التّفسیر

اشاره

أربعه أصول إسلامیه مهمّه:

لقد تحدّثت الآیات القرآنیه السابقه عن القضایا التی تتصل بالمعاد و الحساب،لذلک فإنّ الآیات التی نبحثها الآن تتحدّث عن قضیه«حساب الأعمال»التی یتعرض لها البشر،و کیفیه و مراحل إنجاز ذلک فی یوم المعاد و القیامه حیث یقول تعالی: وَ کُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِی عُنُقِهِ .

«الطائر»یعنی الطیر.و لکن الکلمه هنا تشیر إلی معنی آخر کان سائدا و معروفا بین العرب،إذ کانوا یتفألون بواسطه الطیر،و کانوا یعتمدون فی ذلک علی طبیعه الحرکه التی یقوم بها الطیر.فمثلا إذا تحرّک الطیر من الجهه الیمنی،فهم

یعتبرون ذلک فألا ـ حسنا و جمیلا.أمّا إذا تحرّک الطیر من الیسری فإنّ ذلک فی عرفهم و عاداتهم علامه الفأل السیء،أو ما یعرف بلغتهم بالتطیّر،من هنا فإنّ هذه الکلمه غالبا ما کانت تعنی الفأل السیء فی حین أنّ کلمه التفؤل(عکس التطیّر) کانت تشیر إلی الفأل الجمیل الحسن.

و فی الآیات القرآنیه ورد مرارا أنّ«التطیّر»هو بمعنی الفأل السیء حیث یقول تعالی فی الآیه(۱۳۱)من سوره الأعراف: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ یَطَّیَّرُوا بِمُوسیٰ وَ مَنْ مَعَهُ و فی الآیه(۴۷)من سوره النمل نقرأ أیضا: قٰالُوا اطَّیَّرْنٰا بِکَ وَ بِمَنْ مَعَکَ و الآیه تحکی خطاب المشرکین من قوم صالح علیه السّلام لنبیّهم.

بالطبع عند ما نقرأ الأحادیث و الرّوایات الإسلامیه نراها تنهی عن«التطیّر» و تجعل«التوکل علی اللّه»طریقا و أسلوبا لمواجهه هذه العاده.

و فی کلّ الأحوال فإنّ کلمه«طائر»فی الآیه التی نبحثها،تشیر إلی هذا المعنی بالذات،أو أنّها علی الأقل تشیر إلی مسأله«الحظ و حسن الطالع»التی تقترب فی أفق واحد مع قضیه التفؤل الحسن و السیء،إنّ القرآن-فی الحقیقه- یبیّن أنّ التفؤل الحسن و السیء أو الحظ النحس و الجمیل،إنّما هی أعمالکم لا غیر،و التی ترجع عهدتها إلیکم و تتحملون علی عاتقکم مسئولیاتها.

إنّ تعبیر الآیه الکریمه،بکلمتی«ألزمناه»و«فی عنقه»تدلان بشکل قاطع علی أنّ أعمال الإنسان و النتائج الحاصله عن هذه الأعمال لا تنفصل عنه فی الدنیا و لا فی الآخره،و هو بالتالی،و فی کل الأحوال علیه أن یکون مسئولا عنها، إذ أنّ الملاک هو العمل دون غیره.

بعض المفسّرین ذکروا فی إطلاق معنی کلمه«طائر»علی الأعمال الإنسانیه أنّها تعنی أنّ الأعمال الحسنه و الأعمال القبیحه للإنسان کالطیر الذی یطیر من بین جنباته،لذلک شبهوها(أی الأعمال)بالطائر.

و فی کل الأحوال،اختلف المفسّرون فی معنی کلمه طٰائِرٍ فی هذه الآیه،

و قد أوردوا فى ذلك مجموعه احتمالات منها أنّ«الطائر»بمعنى«حصيله ما يجنيه الإنسان من أعماله الحسنه و السيئه»،أو أنّ الطائر بمعنى«الدليل و العلامه»، و بعضهم قال:إن معناه«صحيفه أعمال الإنسان»بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ معنى«الطائر»هو«اليمن و الشؤم».

و لكن الملاحظ فى هذه التّفسيرات جميعا،أنّ بعضها يرجع إلى نفس التّفسير الذى ذكرناه فى البدايه،كما أن بعضها الآخر بعيد عن معنى الآيه.

يقول القرآن بعد ذلك: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَهِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً .و من الواضح أنّ المقصود من«الكتاب»فى الآيه الكريمه هى صحيفه الأعمال لا غير.

و هى نفس الصحيفه الموجوده فى هذه الدنيا و التى تثبّت فيها الأعمال،و لكنّها هنا (فى الدنيا)مخفيه عنّا و مكتومه،بينما فى الآخره مكشوفه و معروفه.

إنّ التعبير القرآنى فى كلمتى«نخرج»و«منشورا»يشير إلى هذا المعنى،إذ نخرج و ننشر ما كان مخفيا و مكتوما.

و بالنسبه الصحيفه الأعمال و حقيقتها و ما يتعلق بها،فسيأتى البحث عنها فى نهايه هذه الآيات.

فى هذه اللحظه يقال للإنسان: اِقْرَأْ كِتابَكَ،كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً يعنى أنّ المسأله-مسأله المصير-بدرجه من الوضوح و العلنيه و الانكشاف، بحيث أن كل من يرى صحيفه الأعمال هذه سيحكم فيها على الفور-مهما كان مجرما-لماذا؟لأنّ صحيفه الأعمال هذه-كما سيأتى-هى مجموعه من آثار الأعمال أو هى نفس الأعمال،و بالتالى فلا مجال لانكارها فإذا سمعت-أنا-صوتى من شريط مسجّل،أو رأيت صورتى و هى تضبط قيامى ببعض الأعمال الحسنه أو السيئه،فهل أستطيع أن أنكر ذلك؟كذلك صحيفه الأعمال فى يوم القيامه،بل هى أكثر حيوته و دقه من الصوره و الصوت! الآيه التى بعدها توّضح أربعه أحكام أساسيه فيما يخص مسأله الحساب

و الجزاء على الأعمال،و هذه الأحكام هى:

۱-أوّلا تقرّر أنّ مَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ حيث تعود النتيجه عليه.

۲-ثمّ تقرّر أيضا أنّ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها .

و قرأنا نظير هذين الحكمين فى الآيه السابعه من هذه السوره فى قوله تعالى:

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها .

۳-ثمّ تنتقل الآيه لتقول: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ .

«الوزر»بمعنى الحمل الثقيل.و أيضا تأتى بمعنى المسؤوليه،لأنّ المسؤوليه- أيضا-حمل معنوى ثقيل على عاتق الإنسان،فإذا قيل للوزير وزيرا،فإنّما هو لتحمله المسؤوليه الثقيله على عاتقه من قبل الناس أو الأمير و الحاكم.

طبعا هذا القانون الكلّى الذى تقرّره آيه وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ لا يتنافى مع ما جاء فى الآيه(۲۵)من سوره النحل التى تقول: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ لأنّ هؤلاء بسبب تضليلهم للآخرين يكونون فاعلين للذنب أيضا،أو يعتبرون بحكم الفاعلين له،و لذلك فهم فى واقع الأمر يتحملون أوزارهم و ذنوبهم،و بتعبير آخر:

فإنّ«السبب»هنا هو فى حكم«الفاعل»أو«المباشر».

كذلك مرّت علينا روايات متعدّده حول مسأله السنّه السيئه و السنّه الحسنه، و التى كان مؤدّاها يعنى أنّ من سنّ سنه سيئه أو حسنه فإنّه سيكون له أجر من نصيب العاملين بها،و هو شريكهم فى جزائها و عواقبها،و هذا الأمر هو الآخر لا يتنافى مع قاعده وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ لأنّ المؤسس للسنّه،يعتبر فى الحقيقه أحد اجزاء العله التامّه للعمل،و هو بالتالى شريك فى العمل و الجزاء.

۴-الحكم الرّابع يتمثل فى قوله تعالى: وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً يقوم ببيان التكليف و إلقاء الحجه.

هناك نقاش بين المفسّرين حول نوع العذاب المقصود هنا،و هل هو نوع من

أنواع العـذاب الذى يقع فى الدنيا أو فى الآخره،أم المقصود به هو عذاب «الاستيصال»الذى يعنى العذاب الشامل المدمّر كطوفان نوح مثلا؟ إنّ ظاهر الآيه الكريمه يدل على الإطلاق،و هو بالتالى يشمل كل أنواع العذاب.

و هنـاك نقاش آخر-أيضا-بين المفسّرين حول قاعـده وَ مٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً و هل أنّ الحكم فيها يخص المسائل الشرعيه التى يعتمد فهمها على الأدله النقليه فقط،أو أنّه يشمل جميع المسائل العقليه و النقليه فى الأصول و الفروع؟ فى الواقع،إذا أردنا العمل بظاهر الآيه الذى يفيد الإطلاق،فينبغى القول أنّها تشمل جميع الأحكام العقليه و النقليه،سواء ارتبطت بأصول أو فروع الدين.

و مفهوم هـذا الكلام أنّه حتى فى المسائل العقليه البحته التى يقطع«العقـل المسـتقل» بحسـنها و قبحهـا مثـل حسن العـدل و قبح الظلم،فإنّه ما لم يأت الأنبياء،و يؤيدون حكم العقل بحكم النقل،فإنّ اللّه تبارك و تعالى لا يجازى أحدا بالعذاب.للطفه و رحمته بالعباد.

و لكن هذا الموضوع مستبعد و ضعيف الاحتمال،لأنّه يصطدم مع قاعده أنّ المستقلات العقليه لا تحتاج إلى بيان الشرع،و حكم العقل فى إتمام الحجه فى هـذه الموارد يعتبر كافيا و مجزيا،لـذلک فلا طريق أمامنا إلاّ أن نستثنى المستقلات العقليه عن مجال عمل القاعده المذكوره.

و إذا لم نستثن ذلک فسيكون معنى العـذاب فى هـذه الآيه هو«عـذاب الاستيصـال»و سيكون المفاد الأخير للمعنى هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى لرحمته و لطفه بالعباد لا يهلک الظالمين و المنحرفين إلاّ بعـد أن يبعث الأنبياء،و تستبين جميع طرق السعاده و الهدايه،حتى تطابق حجّه الشرع حجّه العقل المستقل،و تتم الحجه بذلک من طريقى العقل و النقل(فتأمّل ذلک).

بحوث

اشاره

١-التفؤل و التطير

التفؤل و التطيّر كانا موجودين بين جميع الأمم و لا يزالان كذلك.و يظهر أنّ مصدرهما هو عدم القدره على اكتشاف الحقائق،و الغفله عن علل الحوادث.

و على أيه حال،ليست هناك آثار طبيعيه فعليه لهذين الأمرين،و لكن لهما آثارا نفسيه،إذ(التفاؤل)يبعث على الأمل بينما«التطيّر»يؤدى إلى اليأس و العجز.

و لأنّ الإسلام يؤكّد دائما على الأمور الإيجابيه،و يدفعها مشجعا إيّاها،لذا فإنّه لم ينه عن(التفاؤل)و لكنّه أدان و بشدّه«التطيّر»حتى أنّه فى بعض الرّوايات اعتبر ذلك من الشرك،إذ جاء الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

قوله: «الطيره شرك» و قد بحثنا هذا الموضوع بشكل مفصّل فى نهايه الآيه(١٣١)من سوره الأعراف (١) .

الظريف فى الأمر أنّ الإسلام يقوم دائما بتوجيه مثل هذه الأمور الوهميه و يحاول توظيفها فى مجراها الصحيح و البنّاء،حتى يمكن الاستفاده منها.

فمثلا ممّا هو شائع بين الناس أنّ الزوجه الفلانيه قدمها خير،بينما الأخرى قدمها فى بيت زوجها شرّ و نحس،و كذلك شائع أن الزوجه الفلانيه و منذ أن دخلت بيت زوجها حصل كذا و كذا(خيرا أم شرا)بينما واقع الحال إنّ هذه الأمور خرافيه وهميه،لكن الإسلام أعطى بعضها-من خلال توجيهه-شكلا بناء و مضمونا تربويا،

فعن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ: «من شؤم المرأه غلاء مهرها و شدّه مؤنتها» (٢) . و

فى حديث آخر عن رسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ: «أمّا الدار فشؤمها ضيقها و خبث جيرانها» (٣) .

١- ١) -يراجع التّفسير«الأمثل»عند تفسير قوله تعالى: فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ،وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ،أَلاٰ إِنَّمٰا طٰائِرُهُمْ عِنْدَ اللّٰهِ،وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ ،(الأعراف ١٣١).

٢- ٢) -راجع وسائل الشيعه،ج ٣،ص ١٠۴.

٣- ٣) -راجع سفينه البحار،ج ١،ص ۶٨٠.

لاحظوا بدقه كيف يستخدم الإسلام نفس الألفاظ التى كان الناس يستخدمونها فى مفاهيم خرافيه و وهميه،يوظفها فى مفاهيم واقعيه و بأسلوب تربوى بنّاء،و لاحظوا أيضا،كيف أنّ الأفكار التى كانت تنتهى إلى طريق مغلق، جاء الإسلام و وجهها نحو طريق الهدايه و الإصلاح.

أخيرا و قبل أن ننتقل إلى الملاحظه الثّانيه نختم حديثنا بكلام لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يطابق ما قلناه آنفا؟إذا

روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «اللهمّ لا خير إلاّ خيرك،و لا طير إلاّ طيرك و لا ربّ غيرك».

٢-صحيفه أعمال الإنسان العجيبه:

لقد تحدّثت آيات قرآنيه و روايات عديده عن صحيفه أعمال الإنسان.و كلّ هذه الآيات و الرّوايات تؤكّد على أنّ جميع الأعمال و جزئياتها و تفصيلاتها تكون مدوّنه فى صحيفه الأعمال،و فى يوم البعث و القيامه،يستلم الإنسان صحيفه عمله بيمينه إذا كان محسنا و يتناولها بشماله إذا كان مسيئا.ففى الآيه(١٩)من سوره الحاقه نقرأ! فَأَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هٰاؤُمُ اقْرَؤُا كِتٰابِيَهْ و فى الآيه (٢۵)من نفس السوره نقرأ قوله تعالى حكايه عن الإنسان الخاسر: وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِشِمٰالِهِ فَيَقُولُ يٰا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتٰابِيَهْ .و فى الآيه(۴٩)من سوره الكهف نقرأ قوله تعالى: وَ وُضِعَ الْكِتٰابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّٰا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يٰا وَيْلَتَنٰا مٰا لِهٰذَا الْكِتٰابِ لاٰ يُغٰادِرُ صَغِيرَةً وَ لاٰ كَبِيرَةً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا،وَ وَجَدُوا مٰا عَمِلُوا حٰاضِراً وَ لاٰ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً .

و فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام،يتعلق بالآيه-مورد البحث- اِقْرَأْ كِتٰابَكَ...

قال: «يذكر العبد جميع ما عمل،و ما كتب عليه،حتى كأنّه فعله تلك الساعه،فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيره و لا كبيره إلاّ

أحصاها» (۱) .

و هنا يطرح هذا السؤال؛عن ماهيه هذه الصحيفه و كيفيتها؟ ممّا لا شك فيه أنّها ليست من جنس الكتب و الورق و الصحف العاديه،لذا فإنّ بعض المفسّرين قالوا بأنّ صحيفه الأعمال ليست سوى«روح الإنسان»و التى تكون جميع الأعمال مثبته فيها (۲) لأنّ أى عمل نعمله سيكون له أثر فى روحنا شئنا أم أبينا.

و قد تكون صحيفه الأعمال،هى أعضاء جسمنا و جلودنا،و الأعظم من ذلك هو أنّ الصحيفه قد تكون متضمّنه فى الأرض و الهواء و الفضاء الذى يحيطنا و الذى نعيش فيه،لأنّ هذه المفردات هى و وعاء أعمالنا،فترتسم الأعمال فى أفق الأرض الهواء و الوجود الذى حولنا،هذا الوجود الذى تنحت فى ذراته أعمالنا أو آثارها و على الأقل.

و إذا كانت هذه الآثار غير محسوسه اليوم،و لا يمكن دركها فى الحياه الدنيا هذه،إلّا أنّ ذلك-بدون شك-لا يعنى عدم وجودها؛فعند ما نرزق بصرا جديدا آخر(فى يوم القيامه)فسوف يكون بإمكاننا أن نرى جميع هذه الأمور،و نقرؤها.

على أنّ استخدام الآيه الكريمه لتعبير(اقرأ)ينبغى أن لا يغيّر من تفكيرنا شيئا إزاء ما ذهبنا إليه آنفا،لأنّ كلمه«اقرأ»تتضمّن مفهوما واسعا،و تدخل الرؤيا بمفهومها الواسع هذا،فنحن مثلا و فى تعابيرنا العاديه التى نستخدمها يوميا نقول:

قرأت فى عينى فلان ما الذى يريد أن يفعله،كما أنّنا فى عالم اليوم أخذنا نستخدم كلمه«اقرأ»بخصوص الأشعه التى تؤخذ للمرضى،هذا بالرغم من أنّ الأشعه،هى صوره تخضع للمشاهده لا للقراءه،و هذا المثال و الأمثله التى سبقته

۱- ۱) -نور الثقلين،ج ۳،ص ۱۴۴.

۲- ۲) -يراجع تفسير الصافى فى شأن تفسير هذه الآيه.

تؤكد ما ذهبنا إليه أنّ المشاهده تدخل فی إطار المعنی الواسع للقراءه.

و قد تقدم فی الآیات السابقه أنّ تفصیلات صحیفه الأعمال هذه،لا یمکن إنکارها بأی وجه،لأنّ الآثار الحقیقیه الموضوعیه(أی الخارجیه)و التکوینیه للعمل تشبه کثیرا الصوت المسجّل للإنسان،أو الصوره المأخوذه له،أو بصمات أصابعه،و أیّا من هذه الآثار لا یجد الإنسان إلی نکرانها سبیلا!

۳-البریء لا یؤخذ بجریره المذنب:

فی منطق العقل و توجیهات الأنبیاء علیهم السّلام لا یمکن معاقبه البریء بسبب جریمه المذنب،و هذا تماما عکس ما هو شائع بین عامّه الناس من خلال المثل الذی یقول(یحرق الأخضر و الیابس معا)،و کمثل علی ذلک،نری أنّ فی کل المدن و المناطق التی کانت فی حدود نبوّه النّبی لوط علیه السّلام،لم تکن هناک سوی عائله مؤمنه واحده،و لکن عند ما نزل العذاب علی قوم لوط علیه السّلام أنجی اللّه تلک العائله،و کتب لها سبیل الخلاص من العذاب العام،و هکذا لم تؤخذ هذه العائله المؤمنه البریئه بجریره القوم المذنبین.

و تتحدث الآیه،من مجموع الآیات التی نحن بصددها،بصراحه عن هذه القاعده،فتقول: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ .و إذا صادف أن وجدنا من بین الأحادیث غیر المعتبره،أمورا تعارض هذا القانون الإسلامی العام.فیجب ترک تلک الأحادیث أو توجیهها.

و فی هذه الاتجاه،أمامنا روایه تقول:إنّ الشخص المیت یتعذب ببکاء الحیّ، (و هنا یحتمل،و من باب توجیه الحدیث،أن یکون الغرض من العذاب،هو لیس العذاب الإلهی،بل الأذی الذی یصیب المیت من ذلک عند ما تطّلع روحه علی جزع الأهل و الأقرباء).

و یتّضح هنا-أیضا-مصیر عقیده الأشخاص الذین یقولون:إنّ أبناء الکفّار

یحشرون مع آبائهم فی نار جهنّم لبطلانه إسلامیا و لمنافاته لقاعده وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْریٰ ،و إنّ الذریه لا تؤاخذ بجریره الآباء،و هی بالتالی لا تعاقب بسبب ذنوب الأب و الأم.و لهذا السبب بالذات،فقد قلنا بأنّ الأبناء غیر الشرعیین (أولاد الزنا)لیست لهم من جریره غیرهم علیهم شیء،و أنّهم بمنأی عن الذنب و أنّ أبواب السعاده أمامهم مفتوحه،إذا أرادوهم ذلک،بالرغم من اعترافنا بصعوبه تربیتهم!

۴-قاعده«أصل البراءه»و آیه! مٰا کُنّٰا مُعَذِّبِینَ:

فی علم الأصول،و فی بحث«البراءه»استدلوا بقوله تعالی: وَ مٰا کُنّٰا مُعَذِّبِینَ حَتّٰی... علی أن فهم الآیه یوضّح أنّ المسائل التی لا یمکن للعقل إدراکها أو القطع بها،لا یعاقب علیها الإنسان حتی یبعث اللّه الرسل و الأنبیاء لیبیّنوا الأحکام و التکالیف و الوظائف.و هذا بحد ذاته دلیل علی عدم العقاب فی الأمور التی لم تقم الحجه علیها،و قاعده«أصل البراءه»لا تعنی شیئا غیر هذا؛أی لا عقاب بدون حجه من العقل أو النقل.

أمّا قول البعض:إنّ مفاد«العذاب»فی الآیه أعلاه،هو«عذاب الاستئصال» مثل طوفان نوح،فلا دلیل علی ذلک،بل-کما قلنا-إنّ اطلاق الآیه ینفی ذلک، و هی تشمل بالتالی کلّ عذاب و عقاب.

الآيتان [سوره الإسراء (١٧): الآيات ١۶ الى ١٧]

اشاره

وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أَمَرْنٰا مُتْرَفِیهٰا فَفَسَقُوا فِیهٰا فَحَقَّ عَلَیْهَا اَلْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِیراً (١۶) وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنَ اَلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (١٧)

التّفسیر

اشاره

مراحل العقاب الإلهی:

إنّ موضوع البحث فی هذه الآیات یکمّل ما کنّا بصدد بحثه فی نهایه الآیات السابقه،و لکن بصوره أخری،إذ تقول الآیه الکریمه: وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أَمَرْنٰا مُتْرَفِیهٰا فَفَسَقُوا فِیهٰا فَحَقَّ عَلَیْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِیراً (١) .إنّ الآیات التی کنّا قبل قلیل بصدد بحثها،کانت تتحدّث عن أنّ العقاب الإلهی لا یمکن أن ینزل بساحه شخص أو مجموعه أو أمّه،من دون أن تکون هناک حجه و بیان للتکلیف من قبل الرسل و الأنبیاء علیهم السّلام،و الآیه التی نحن بصددها الآن،تتحدث عن نفس هذا الأصل،و لکن بطریقه أخری.

صحیح أنّ المفسّرین وضعوا احتمالات متعدده لتفسیر هذه الآیه،إلاّ أنّنا

١- ١) -بالرغم من أنّ کلمه«قول»لها معنی واسع،و لکنّها هنا تعنی إعطاء الأمر بالعذاب.

نعتقد بأنّه لا يوجد سوی تفسیر واحد واضح لهذه الآیه،یمکن تبیانه من مؤدّی ظاهرها،و هذا التّفسیر هو:إنّ اللّه لا یعاقب أو یؤاخذ أحدا بالعذاب،قبل أن یتمّ الحجّه علیه،و قبل أن یتّضح و یستبین تکلیفه،ففی البدایه یضع اللّه تعلیماته و أوامره أمام النّاس،فإذا التزموا بها و أطاعوا فستنالهم سعاده الدنیا و الآخره.أمّا إذا عصوا و خالفوا و لم یلتزموا الأوامر و النواهی الربانیه،فسیحیق بهم العذاب، و یؤدی إلی هلاکهم.

و إذا تأملنا الآیه،و دققنا النظر فیها بشکل صحیح،فسنری أنّ هناک أربع مراحل لهذا البرنامج الربانی،هی:

۱-مرحله الأوامر و النواهی.

۲-مرحله الفسق و المخالفه.

۳-مرحله استحقاق المجازاه.

۴-مرحله الهلاک.

و الملاحظ هنا،أنّ المراحل الأربع هذه،معطوفه علی بعضها البعض بواسطه «فاء»التفریع.

هنا یطرح هذا السؤال:لماذا کان المأمورون فی الآیه الکریمه هم المترفین دون غیرهم؟ (۱) .

فی الإجابه علی السؤال المثار،لا بدّ من الإشاره إلی ملاحظه تعتبر مهمّه فی توضیح المعنی،و هی أنّ المترفین هم وجهاء القوم،و رؤساء المجتمع- طبعا هذه القاعده تخص المجتمعات المریضه-و الآخرون تبع لهم.

إضافه إلی ذلک،فإنّ التعبیر فی الآیه الکریمه ینطوی علی إشاره مهمّه،هی أنّ أغلب المفاسد الاجتماعیه تنبع من المترفین،أصحاب الأموال،البعیدین عن

۱- ۱) -مترفون،من ماده رفاه،و تعنی المتنعمین و ذوی الأموال الکثیره الناسین للّه تعالی.

اللّه تعالى،و الذين يعيشون حياه مترفه بعيده عن الشرع مملوءه بالأهواء و المفاسد،و هم بذلك لا يفقهون شيئا عن تلك المفردات التى تتحدث عن الأخلاق و الإنسانيه و الإصلاح.و لهذا السبب بالذات،و بحكم موقعهم،كان المترفون دائما فى الصفوف الأولى،فى مواجهه دعوات الأنبياء و الرسل،و كانوا يعتبرون دعوات الأنبياء-القائمه على أساس العدل و حمايه المستضعفين-ضدّهم.

لهذه الأسباب ذكر هؤلاء بالخصوص لأنّهم أساس الفساد.على أيه حال، هذه الآيه بمثابه تحذير لكل المؤمنين كى ينتبهوا،و لا يسلموا زمام أمورهم و حكوماتهم بيد المترفين و الأغنياء الغارقين بالشهوات،و ألّا يتبعونهم،لأنّ هؤلاء يجرون مجتمعهم نحو الهلاك.

الآيه التى بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص،على أنّها أصل عام، و قاعده ساريه،إذ تقول: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وفقا لهذه القاعده و السنّه،ثمّ تضيف بعد ذلك: وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً أى إنّ ظلم و ذنوب فرد أو مجموعه لا يمكنها أن تكون خافيه على العين البصيره التى لا تنام لربّ العالمين.

«قرون»جمع«قرن»و هى تعنى الجماعه التى تعيش فى عصر واحد،ثمّ أطلقت فيما بعد على مجموع العصر الواحد.

أمّا بصدد عدد سنين القرن الواحد،فهناك آراء مختلفه،فقسم أعتبر القرن (۴۰)سنه،و آخرون قالوا:ثمانين،و البعض الثالث،قال:إنّ القرن مائه عام،أخيرا فقد اعتبر البعض أنّ القرن هو مائه و عشرون عاما. و فى كلّ الأحوال لا بدّ من الإشاره هنا إلى أن الحكم فى هذه القضيه يخضع لطبيعه الاتفاق العرفى الذى ينعقد حولها.و من هنا فقد اتفق فى عصرنا الراهن على أنّ كل مائه سنه تعتبر قرنا

واحدا (۱) .

أمّا لماذا أكـدت الآيه على القرون من بعـد نوح عليه السّـلام فقد يكون ذلك بسـبب أنّ الحياه قبل نوح عليه السّـلام كانت حياه بسـيطه،و الاختلافات التى تقسّم المجتمعات إلى مترف و مستضـعف،كانت بسـيطه و ضـئيله،لذلک فالعذاب الإلهى لم يشـملهم بكثره.

أمّـا عـن سـبب ذكر كلمـتى«خـبير»و«بصـير»معـا،فـإنّ ذلـک يعـود إلى المعنى المراد،إذ«الخـبير»تعنى العلـم و الإحـاطه بـالنيه و العقيـده،أمّـا«بصـير»فـدلاله على رؤيـه الأعمال.لـذلک فـإنّ اللّه تبـارك و تعـالى يعلم بـواطن الأعمـال و النيـات،و يحيـط بنفس الأعمال،و مثل هذه القدره لا يمكنها بحال أن تظلم أحدا،و لا أن يضيع حق أحد فى ظل حكومتها.

***

۱- ۱) -فى نهايه الآيه(۱۳)من سوره يونس أشرنا إلى هذا الموضوع.

الآیات [سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۱۸ الی ۲۱]

اشاره

مَنْ کٰانَ یُرِیدُ اَلْعٰاجِلَهَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِیهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِیدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ یَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (۱۸) وَ مَنْ أَرٰادَ اَلْآخِرَهَ وَ سَعیٰ لَهٰا سَعْیَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِکَ کٰانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً (۱۹) کُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً (۲۰) اُنْظُرْ کَیْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَهُ أَکْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَکْبَرُ تَفْضِیلاً (۲۱)

التّفسیر

اشاره

طلاب الدنیا و الآخره:

لقد تحدّثت الآیات السابقه عن الذین عصوا أوامر اللّه تعالی،و کیفیه هلاکهم،لذا فإنّ هذه الآیات-التی نحن بصددها الآن-تشیر إلی سبب التمرّد علی شریعه اللّه،و العصیان لأوامره،و هذا السبب هو حب الدنیا،إذ یقول تعالی:

مَنْ کٰانَ یُرِیدُ الْعٰاجِلَهَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِیهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِیدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ یَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً

.

«العاجله»تعنی النعم الزائله،أو الدنیا الزائله.

و الظریف فی الآیه،أنّها لا تقول:إنّ من یسعی وراء الدنیا،و یجعلها کلّ همه، یحصل علی کلّ ما یرید،بل هی قیّدت ذلک بشرطین هما:

أوّلا:سیحصل علی جزء ممّا یریده،و أنّ هذا الجزء هو المقدار الذی نریده نحن،أی(ما نشاء).

و الشرط الثّانی الذی یقیّد رغبه الساعی إلی الدنیا،فهو:إنّ جمیع الأشخاص -رغم سعیهم الدنیوی-لا یحصلون علی هذا المقدار،و إنما قسم منهم سیحصل علی جزء من متاع الدنیا.و هذا معنی قوله: لِمَنْ نُرِیدُ .

و بناء علی ذلک،فلا کلّ طلاّب الدنیا یحصلون علیها،و لا أولئک الذین یحصلون علی شیء منها،یحصلون علی ما یریدون.و مسیر الحیاه الیومیه یوضح لنا هذین الشرطین،إذ ما أکثر الذین یکدون لیلا و نهارا و لکنّهم لا یحصلون علی شیء.

و ما أکثر الذین لهم أمنیات کبیره و طموحات متعدده و مشاریع بعیده،و لکن لا یحصلون إلاّ علی القلیل منها.

و فی هذا تحذیر الدنیا إنّکم إذا تصورتم بأنّکم ستصلون إلی أهدافکم عن طریق بیع الآخره بالدنیا،فهذا خطاء و اشتباه کبیر،حیث أنّکم فی بعض الأحیان قد لا تحققون أی هدف،و فی أحیان أخری قد تحققون بعض أهدافکم.

و عاده ما تکون للإنسان آمال کبیره و متعدّده،لا یمکن إشباعها فی هذه الدنیا المادیه المحدوده،فلو أعطیت الدنیا کلّها إلی شخص واحد،فقد لا یقتنع بها! أمّا الأشخاص الذین یکدّون و لا یصلون إلی شیء،فلذلک أسباب مختلفه،إذ قد یکون هناک أمل فی إنقاذهم،و اللّه بذلک یحبهم و ییسر سبل الهدایه لهم.أو یکون السبب أنّهم إذا وصلوا إلی مرحله ما من أهدافهم و رغباتهم،فسیطغون و یؤذون خلق اللّه،و یضیقون علیهم الخناق.

«یصلی»مشتقه من«صلی»و هی تعنی إشعال النّار،و أیضا تعنی الحرق بالنّار،و المقصود منها هنا هو المعنی الثانی.

و الجدیر بالانتباه هنا،أنّ عاقبه هذه المجموعه من الناس،و التی هی نار جهنّم،قد تمّ تأکیدها فی الآیه،بکلمتی مَذْمُوماً و مَدْحُوراً إذ التعبیر الأوّل یأتی بمعنی اللوم،بینما الثّانی یعنی الابتعاد عن رحمه الخالق،و فی الحقیقه إنّ نار جهنّم تمثل العقاب الجسدی لهم،أمّا«مذموم»و«مدحور»فهما عقاب الروح، لأنّ المعاد هو للروح و للجسد،و الجزاء و العقاب یکون للإثنین معا.

بعد ذلک تنتقل الآیات إلی توضیح وضع المجموعه الثّانیه و مصیرها،و بقرینه المقابله و هی أسلوب قرآنی ممیّز-یتوضح الموضوع أکثر إذ یقول تعالی: وَ مَنْ أَرٰادَ الْآخِرَهَ وَ سَعیٰ لَهٰا سَعْیَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ،فَأُولٰئِکَ کٰانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً .

بناء علی ذلک هناک ثلاثه شروط أساسیه للوصول إلی السعاده الأبدیه،هی:

أوّلا-إراده الإنسان:و هی الإراده التی ترتبط بالحیاه الأبدیه،و لا تکون مرتبطه باللذات الزائله و النعم غیر الثابته،و الأهداف المادیه،فالإراده القویه و الروحیه العالیه تجعلان من الإنسان حرّا طلیقا غیر مرتبط بالدنیا.

ثانیا:هذه الإراده یجب أن لا تکون ضعیفه و قاصره فی المجال الفکری و الروحی للإنسان،بل إنّها یجب أن تشمل جمیع ذرات الوجود الإنسانی،و تدفعه للحرکه،و یبذل کل ما یستطیع من السعی فی هذا المجال(یجب الملاحظه،بأنّ کلمه«سعیها»قد جاءت فی الآیه الکریمه للتأکید.و هی تعنی أنّ علی الإنسان أن یبذل أقصی ما یستطیع من السعی فی سبیل الآخره).

ثالثا:إنّ کل ما سبق من حیث عن الإراده فی النقطتین السابقتین،ینبغی أن یقترن بالإیمان،الإیمان الثابت القوی،لأنّ أی تصمیم و جهد،إذا أرید له أن یثمر یجب أن تکون أهدافه صحیحه،و مصدر هذه الأهداف هو الإیمان باللّه لا غیر.

صحیح أنّ السعی و بذل الجهد للآخره لا یمکن أن یکون بدون إیمان،حیث

أنّ مفهوم الإيمان داخل ضمنه،و لكن يجب عدم الاكتفاء بهذا المقدار من الدلاله الالتزاميه للإيمان،بل و ينبغى التوسع فى شرط الإيمان،بحكم أنّ(الإيمان)يعتبر أمرا أساسيا،و ركنا مهمّا فى هذا الطريق.

و الملاحظ هنا،أنّ الآيه تخاطب عبيد الدنيا بالقول: جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ بينما عند ما تنتقل إلى طلّاب الآخره و عشّاقها و مريدها،فهى تخاطبهم بالقول:

فَأُولٰئِکَ کانَ سَعْيُهُمْ مَشْکُوراً

.إنّ استخدام هذا التعبير أشمل و أجمل من استخدام أى تعبير آخر،مثل(جزاءهم الجنّه)لأنّ الشكر من أى شخص هو بمقدار شخصيته و مكانته لا بمقدار العمل الذى تمّ،لذا فإنّ شكر اللّه لسعى عباده يتناسب مع ذاته اللامتناهيه،و نعمه الماديه و المعنويه و ما نتصوره و ما نعجز عن تصوّره.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد فسّروا كلمه«مشكورا»فى هذه الآيه بمعنى«الأجر المضاعف» (۱) .أو بمعنى«قبول العمل» (۲) ،إلّا أنّه من الواضح أن كلمه«مشكورا»لها معنى أوسع من هذه المعانى جميعا.

و قد يتوهم البعض و يلتبس عليه الأمر،ظنا أنّ نعم الدنيا هى من نصيب عبيدها و طلابها فقط،و أنّ طلّاب الآخره و أهلها محرومون منها.لذلك فإنّ الآيه التى بعدها تقف أمام هذا اللبس،و تمنع هذا الظن،عند ما تقول: کُلًّا نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هَؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ لتضيف بعدها بقليل: وَ مٰا کانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً .

نمدّ هنا من«الإمداد»بمعنى الزياده.

الآيه التى بعدها تشير إلى أصل مهم فى هذا الخصوص و تقول:كما أن السعى فى هذه الدنيا متفاوت،و تتفاوت معه الأجور،فكذلك الأمر فى الآخره:و لكن التفاوت الدنيوى محدود،لأنّ الدنيا هى نفسها محدوده،و أمّا الآخره-و لكونها

۱- ۱) -يراجع فى هذا الشأن تفسير القرطبى،ج ۶،ص ۳۸۵۲.

۲- ۲) -راجع تفسير الصافى عند الحديث عن هذه الآيه.

غير محدوده-فإن تفاوتها غير محدود،إذ يقول تعالى: أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً

.

قد يقول قائل هنا:إنّنا نرى فى هذه الدنيا أفرادا يحصلون على أرباح كثيره بدون أى سعى أو جهد.

الجواب:إنّ وجود هؤلاء يعبّر عن حالات استثنائيه لا يمكن اعتبارها قاعده فى مقابل الأصل الكلى،المتمثل فى الجهد و السعى و دورهما فى نجاح الإنسان و توفيقه.و بذلك فإنّ هذه الاستثناءات الثانويه لا تنافى الأصل الأساسى.

و أخيرا،و قبل أن ننتقل إلى الملاحظات،ينبغى أن ننّبه إلى أنّ السعى و بذل الجهد لا يتعلقان بالكميه و المقدار فقط،ففى بعض الأحيان يكون السعى القليل ذو الكيفيه العاليه أكثر أثرا من السعى الكثير و الكيفيه الدانيه.

***

بحوث

اشاره

أوّلا:هل الدنيا و الآخره تقعان على طرفى نقيض؟

فى الواقع إنّنا نرى فى كثير من الآيات القرآنيه مدحا و تمجيدا للدنيا و بإمكانها الماديه،ففى بعض الآيات اعتبر المال خيرا(سوره البقره آيه ۱۸۰).

و فى آيات كثيره وصفت العطايا و المواهب الماديه بأنّها فضل اللّه وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ (۱) .و فى مكان آخر نقرأ قوله تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً (۲) .و فى آيات كثيره أخرى وصفت نعم الدنيا بأنها مسخّره لنا سَخَّرَ لَكُمْ .

و إذا أردنا أن نجمع كل الآيات التى تهتم بالإمكانات الماديه و تؤكد عليها،

۱- ۱) -الجمعه، ۱۰.

۲- ۲) -البقره.۲۹.

و تجعلها فی سیاق واحد،فستکون أمامنا مجموعه کبیره منها.

و لکن،و برغم الأهمیه الکبری التی تختص بها النعم المادیه،فإنّ القرآن الکریم استخدم تعابیر أخری تحقّرها و تحطّ منها بقوه،إذ نقرأ فی سوره النساء، آیه(۹۴)،قوله تعالی: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیاهِ الدُّنْیا و فی مکان آخر نقرأ قوله تعالی: وَ مَا الْحَیاهُ الدُّنْیا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ (۱) .و فی سوره العنکبوت آیه(۶۴)، نقرأ وَ ما هٰذِهِ الْحَیاهُ الدُّنْیا إِلاّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ أمّا فی الآیه(۳۷)من سوره النّور،فإنا نلتقی مع قوله تعالی: رِجالٌ لا تُلْهِیهِمْ تِجارَهٌ وَ لا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللّهِ .

هذه المعانی المزدوجه إزاء النعم و المواهب المادیه،یمکن ملاحظتها أیضا فی الأحادیث و الرّوایات الإسلامیه،فالدنیا فی وصف لأمیر المؤمنین علی علیه السّلام هی

«مسجد أحباء اللّه،و مصلی ملائکه اللّه،و مهبط وحی اللّه،و متجر أولیاء اللّه» (۲) .

و فی جانب آخر،نری أنّ الأحادیث و الرّوایات الإسلامیه تعتبر الدنیا دار الغفله و الغرور،و ما شابه ذلک.

و السؤال هنا:هل تتعارض هذه المجامیع من الآیات و الرّوایات فیما بینها؟ فی الواقع،عند ما تلام الدنیا،فإنّ اللوم ینصب علی أولئک الناس الذین لا هدف لهم و لا همّ سواها.من هنا نقرأ فی الآیه(۲۹)من سوره النجم قوله تعالی:

وَ لَمْ یُرِدْ إِلاَّ الْحَیاهَ الدُّنْیا .و بعباره أخری:فإنّ الذم الذی یرد للدنیا یقصد به الأشخاص الذین باعوا آخرتهم بدنیاهم.و لا یتناهون عن أی منکر و جریمه فی سبیل الوصول إلی أهدافهم المادیه،و فی هذا السیاق نقرأ فی الآیه(۳۸)من سوره التوبه: أَ رَضِیتُمْ بِالْحَیاهِ الدُّنْیا مِنَ الْآخِرَهِ .

ثمّ إنّ الآیات التی نبحثها تشهد علی ما نقول،إذ أنّ قوله تعالی:

۱- ۱) -الحدید،۲۰.

۲- ۲) -نهج البلاغه،باب الکلمات القصار،جمله رقم ۱۳۱.

مَنْ کٰانَ یُرِیدُ الْعٰاجِلَهَ...

هو خطاب لأولئک الذین یستهدفون هذه الحیاه العادیه الزائله، و یقفون عندها.

و عاده فإن استخدام تعابیر«المزرعه»أو«المتجر»و ما شاکلهما فی تشبیه الحیاه الدنیا و وصفها،یعتبر دلیلا حیا علی هذا الموضوع.

و خلاصه القول:إنّه إذا تمت الاستفاده من مواهب الدنیا و عطایاها التی تعتبر من النعم الإلهیه،و یعتبر وجودها ضروریا فی نظام الخلق و الوجود،و تمت الاستفاده فی سعاده الإنسان الأخرویه و تکامله المعنوی،فإنّ ذلک یعتبر أمرا جیدا،و تمتدح معه الدنیا.أمّا إذا اعتبرناها هدفا لا وسیله،و أبعدناها عن القیم المعنویه و الإنسانیه،عندها سیصاب الإنسان بالغرور و الغفله و الطغیان و البغی و الظلم.

و ما أجمل وصف

الإمام علی علیه السّلام للدنیا حینما یقول: «من أبصر بها بصرته، و من أبصر إلیها أعمته» (1) . و فی أنّ الفرق بین الدنیا المذمومه و الدنیا الممدوحه، هو نفس الفرق الذی نستفیده،بین«إلیها»و«بها»،إذ تعنی الأولی أنّ الدنیا هدف، بینما تعنی الثّانی أنّها مجرد وسیله!

ثانیا:دور السعی فی تحقیق المکاسب:

هذه لیست المرّه الأولی التی یشید فیها القرآن بالسعی و الجهد و دورهما فی تحقیق المکاسب،و بعکسه یحذّر الأشخاص العاطلین و الکسالی بأنّ السعاده الأخرویه لا یمکن ضمانها بالکلام المجرد،و التظاهر بالإیمان،بل الطریق یتمثل بالسعی و بذل الجهود.

و هذه الحقیقه واضح مفادها فی الکثیر من الآیات القرآنیه.ففی سوره

1- 1) -یراجع نهج البلاغه،الخطبه رقم(82).

المدثر.آیه(۳۸)نقرأ كُلَّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ رَهِينَهٌ و آیه أخرى تقول: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّ مٰا سَعىٰ .و فی آیات كثیره أخرى،یأتی العمل الصالح بعد ذكر الإیمان حتی لا یتوهم أحد و یظنّ بأنّه یستطیع الوصول إلی مرحله ما بدون سعی و جهد،فمواهب الدنیا المادیه لا یمكن استحصالها بدون سعی و جهد،فكیف إذن بالسعاده الأخرویه الخالده!!؟

ثالثا:الإمدادات الإلهیه:

«نمدّ»مشتقّه من كلمه«إمداد»و هی تعنی إیصال المعونه،یقول الراغب الأصفهانی فی كتاب«المفردات»أن:كلمه«إمداد»غالبا ما تستعمل فی المساعدات المفیده و المؤثّره.أما كلمه«مدّ»فإنها تستعمل فی الأشیاء المكروهه و غیر المقبوله.

علی أیه حال،نقرأ فی الآیات التی نبحثها،أنّ اللّه سبحانه و تعالی یضع جزءا من نعمه فی خدمه الجمیع،إذ یستفید منها المحسنون و المسیئون،و هذه النعم غالبا ما تكون من النوع الذی یتوقف استمرار الحیاه علیه.

بتعبیر آخر:هذه النعم هی تعبیر عن مقام الرحمانیه الإلهیه التی تشمل فیوضاتها جمیع الناس،المؤمن و الكافر.و لكن ما وراء ذلك هناك نعم لا تحصی تختص بالمؤمنین و المحسنین دون غیرهم.

الآیات [سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۲۲ الی ۲۵]

اشاره

لا تَجْعَلْ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (۲۲) وَ قَضیٰ رَبُّکَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِیّٰاهُ وَ بِالْوٰالِدَیْنِ إِحْسٰاناً إِمّٰا یَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ اَلْکِبَرَ أَحَدُهُمٰا أَوْ کِلاٰهُمٰا فَلاٰ تَقُلْ لَهُمٰا أُفٍّ وَ لاٰ تَنْهَرْهُمٰا وَ قُلْ لَهُمٰا قَوْلاً کَرِیماً (۲۳) وَ اِخْفِضْ لَهُمٰا جَنٰاحَ اَلذُّلِّ مِنَ اَلرَّحْمَهِ وَ قُلْ رَبِّ اِرْحَمْهُمٰا کَمٰا رَبَّیٰانِی صَغِیراً (۲۴) رَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِی نُفُوسِکُمْ إِنْ تَکُونُوا صٰالِحِینَ فَإِنَّهُ کٰانَ لِلْأَوّٰابِینَ غَفُوراً (۲۵)

التّفسیر

اشاره

أحکام إسلامیه مهمّه:

الآیات التی نحن بصدد بحثها هی بدایه لسلسله من الأحکام الإسلامیه الأساسیه،و التی تبدأ بالدعوه إلی التوحید و الإیمان،التوحید الذی یعتبر الأساس و الأصل لکل النشاطات الإیمانیه،و الأعمال الحسنه و البناءه.و الآیات عند ما تنحو هذا المنحی فهی بذلک تتصل مع مضمون البحث فی الآیات السابقه،التی کانت تتحدث عن الناس السعداء الذین أقاموا حیاتهم علی دعائم ثلاث هی:

الإیمان،السعی و العمل و وضع الآخره و منازلها نصب أعینهم.

و تعتبر هذه الآیات-أیضا-تأکیدا ثانیا لدعوه القرآن إلی أفضل السبل و أکثرها استقامه.فی البدایه تبدأ هذه الآیات بالتوحید و تقول: لا تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ إنّها لم تقل:لا تعبد مع اللّه إلها آخر،بل تقول: لا تَجْعَلْ هذا اللفظ أشمل و أوسع،إذ هو یعنی:لا تجعل معبودا آخر مع اللّه لا فی العقیده،و لا فی العمل،و لا فی الدعاء،و لا فی العبودیه.بعد ذلک توضح الآیه النتیجه القاتله للشرک: فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً .

إنّ استعمال کلمه«القعود»تدل علی الضعف و العجز،فمثلا یقال:قعد به الضعف عن القتال. و من هذا التعبیر یمکن أن نستفید أنّ للشرک ثلاثه آثار سیئه جدّا فی وجود الإنسان،هی:

۱-الشرک یؤدی إلی الضعف و العجز و الذّله،فی حین أنّ التوحید هو أساس الحرکه و النهوض و الرفعه.

۲-الشرک موجب للذم و اللوم،لأنّه خط انحرافی واضح فی قبال منطق العقل،و یعتبر کفرا واضحا بالنعم الإلهیه،لذا فالشخص الذی یسمح لنفسه بهذا الانحراف یستحق الذم.

۳-الشرک یکون سببا فی أن یترک اللّه سبحانه و تعالی الإنسان إلی الأشیاء التی یعبدها،و یمنع عنه حمایته،و بما أنّ هذه المعبودات المختلفه و المصطنعه لا تملک حمایه أی إنسان أو دفع الضرر عنه،و لأنّ اللّه لا یحمی مثل هؤلاء،لذا فإنهم یصبحون«مخذولین»أی بدون ناصر و معین.

إنّ هذا المعنی یتّضح بشکل آخر فی آیات قرآنیه أخری،إذ نقرأ مثلا فی الآیه(۴۱)من سوره العنکبوت: مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً،وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ .

بعد تبیان هذا الأصل التوحیدی،تشیر الآیات إلی واحده من أهم توجیهات

الأنبياء علیهم السّلام للإنسان،فالآیه-بعد أن تؤكد مرّه أخرى على التوحید-تقول:

وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً

.

كلمه«قضاء»لهم مفهوم توكیدى أكثر من كلمه«أمر»و هى تعنى القرار و الأمر المحكم الذى لا نقاش فیه. و هذا أوّل تأكید فى هذه القضیه.أما التأكید الثّانى الذى یدل على أهمیه هذا القانون الإسلامى،فهو ربط التوحید الذى یعتبر أهم أصل إسلامى،مع الإحسان إلى الوالدین.

أمّا التأكیدان الثّالث و الرّابع فهما یتمثلان فى معنى الإطلاق الذى تفیده كلمه «إحسان»و التى تشمل كل أنواع الإحسان.و كذلك معنى الإطلاق الذى تفیده كلمه «والدین»إذ هى تشمل الأم و الأب،سواء كانا مسلمین أو كافرین.

أمّا التأكید الخامس فهو یتمثل بمجیء كلمه«إحسانا»نكره لتأكید أهمیتها و عظمتها (۱) .

و من الضرورى الانتباه إلى هذه الملاحظه،و هى أنّ الأمر عاده ما ینصبّ على الأمور الإیجابیه،بینما جاء هنا فى مفاد السلب و النفى(و قضى...ألا تعبدوا...)فما هو یا ترى سبب ذلك؟ من الممكن أن نقول:إنّ جمله وَ قَضىٰ... تتضمن تقدیرا جمله إیجابیه، یمكن أن نقدرها بالقول:و قضى ربّك أن تعبده،و لا تعبد أى شىء سواه.أو من الممكن أن تكون جمله أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ التى تتضمن«النفى و الإثبات»جمله إیجابیه واحده،إذ هى تحصر العباده باللّه دون غیره ثمّ تنتقل إلى أحد مصادیق هذه العباده متمثلا بالإحسان إلى الوالدین فتقول: إِمّٰا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمٰا أَوْ كِلاٰهُمٰا بحیث یحتاجان الى الرعایه و الاهتمام الدائم. فلا تبخل علیها بأى

---

۱ – ۱) -یعتقد البعض أنّ كلمه«إحسان»تتعدى غالبا ب«إلى»مثل قولنا«أحسن إلیه».و فى بعض الأحیان قد تتعدى بالباء.و قد یكون هذا التعبیر لإظهار المباشره،أى إظهار المحبّه و الاحترام مباشره و بدون أى واسطه.و هذا فى الواقع تأكید سادس فى هذه القضیه.

شکل من إشکال المحبّه و اللطف و لا تؤذیهما أو تجرح عواطفهما بأقل إهانه حتی بکلمه«أف»: فَلاٰ تَقُلْ لَهُمٰا أُفٍّ وَ لاٰ تَنْهَرْهُمٰا (۱) بل: وَ قُلْ لَهُمٰا قَوْلاً کَرِیماً و کن أمامهما فی غایه التواضع وَ اخْفِضْ لَهُمٰا جَنٰاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَهِ،وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمٰا کَمٰا رَبَّیٰانِی صَغِیراً .

الأهمیه الاستثنائیه لاحترام الوالدین:

إنّ الآیتین السابقتین توضحان جانبا من التعامل الأخلاقی الدقیق، و الاحترام الذی ینبغی أن یؤدّیه الأبناء للوالدین:

۱-من جانب أشارت الآیه إلی فتره الشیخوخه،و حاجه الوالدین فی هذه الفتره إلی المحبّه و الاحترام أکثر من أی فتره سابقه،إذ الآیه تقول: إِمّٰا یَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ الْکِبَرَ أَحَدُهُمٰا أَوْ کِلاٰهُمٰا فَلاٰ تَقُلْ لَهُمٰا أُفٍّ .من الممکن أن یصل الوالدان إلی مرحله یکونان فیها غیر قادرین علی الحرکه دون مساعده الآخرین،و قد لا یستطیعون بسبب الکهوله رفع الخبائث عنهم، و هنا یبدأ الاختبار العظیم للأبناء، فهل یعتبرون وجود مثل هذین الوالدین دلیل الرحمه،أو أنّهم یحسبون ذلک بلاء و مصیبه و عذابا..هل عندهم الصبر الکافی لاحترام مثل هؤلاء الآباء و الأمهات، أم أنّهم یوجهون الإهانات و یسیئون الأدب لهم،و یتمنون موتهم؟! ۲-من جانب آخر..تقول الآیه: فَلاٰ تَقُلْ لَهُمٰا أُفٍّ بمعنی لا تظهر عدم ارتیاحک أو تنفرک منهم وَ لاٰ تَنْهَرْهُمٰا ثمّ تؤکّد مرّه أخری علی ضروره التحدّث معهم بالقول الکریم،إذ اللسان مفتاح إلی القلب وَ قُلْ لَهُمٰا قَوْلاً کَرِیماً .

۳-من جانب ثالث تأمر الآیه بالتواضع لهم،هذا التواضع الذی یکون علامه

---

۱ – ۱) -هناک قولان حول«إما»فی جمله«إما یبلغنّ»فالفخر الرازی فی تفسیره یذهب إلی أنّها مرکّبه من«إن»الشرطیه و«ما» الشرطیه،و هی بذلک تفید التأکید.أما البعض الآخر کصاحب«المیزان»مثلا،فیری أنّها مرکبه من«إن»الشرطیه و«ما»الزائده، التی جاءت هنا لتسمع ل«إن»الشرطیه بالدخول علی الفعل المؤکد بنون التأکید.

المحبه،و دلیل الود لهم: وَ اخْفِضْ لَهُمٰا جَنٰاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَهِ .

۴-أخیرا تنتهی الآیات،إلی توجیه الإنسان نحو الدعاء لوالدیه و ذکرهم بالخیر سواء کانا أمواتا أم أحیاء،و طلب الرحمه الرّبانیه لهما جزاء لما قاما به من تربیه وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمٰا کَمٰا رَبَّیٰانِی صَغِیراً .

إضافه إلی ما ذکرناه،فثمّه ملاحظه لطیفه أخری یطویها التعبیر القرآنی،هذه الملاحظه خطاب للإنسان یقول:إذ أصبح والداک مسنّین و ضعیفین و کهلین لا یستطیعان الحرکه أو رفع الخبائث عنهما،فلا تنس أنّک عند ما کنت صغیرا کنت علی هذه الشاکله أیضا،و لکن والدیک لم یقصرا فی مداراتک و العنایه بک،لذا فلا تقصّر أنت فی مداراتهم و محبتهم.

و قد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فیما یتعلق بحقوق الوالدین و احترامهم و التواضع لهم، و قد یصدر هذا العقوق عن جهل فی بعض الأحیان، و عن قصد و علم فی أحیان أخری،لذا فإنّ الآیه الأخیره فی بحثنا هذا تشیر إلی هذا المعنی بالقول: رَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِی نُفُوسِکُمْ .و هذه إشاره إلی أنّ علم اللّه ثابت و أزلی و أبدی و بعید عن الاشتباهات،بینما علمکم أیّها الناس لا یحمل هذه الصفات!لذلک فإذا طغی الإنسان و عصی أوامر خالقه فی مجال احترام الوالدین و الإحسان إلیهم،و لکن بدون قصد و عن جهل،ثمّ تاب بعد ذلک و أناب،و ندم علی ما فعل و أصلح،فإنّه سیکون مشمولا لعفو اللّه تعالی: إِنْ تَکُونُوا صٰالِحِینَ فَإِنَّهُ کٰانَ لِلْأَوّٰابِینَ غَفُوراً .

«أوّاب»مشتقه من«أوب»علی وزن«قوم»و هی تعنی الرجوع مع الإراده، فی حین أن کلمه«رجع»تقال للرجوع مع الإراده أو بدونها،لهذا السبب یقال للتوبه«أوبه»لأنّ حقیقه التوبه تنطوی علی الرجوع عن الأمر(المنکر)،إلی اللّه، مع الإراده.

و بما أنّ کلمه«أوّاب»هی صیغه مبالغه،لذا فإنّها تقال للأشخاص الذین کلما

أذنبوا رجعوا إلى خالقهم.و قد تكون صيغه المبالغه فی«أوّاب»هی إشاره إلى تعدّد عوامل العوده و الرجوع إلى اللّه.فالإیمان باللّه أوّلاـو التفکیر بحکمه یوم الجزاء و القیامه ثانیا،و الضـمیر الحی ثالثا،و التفکیر بعواقب و نتائـج الـذنوب رابعا، کل هـذه العوامل تعمل سویه لأجل عوده الإنسان من طریق الانحراف،نحو اللّه.

بحوث

اشاره

أوّلا:احترام الوالدین فی المنطق الإسلامی

بـالرغم من أنّ العـاطفه الإنسـانیه و معرفه الحقـائق،یکفیـان لوحـدهما لاـحترام و رعـایه حقوق الوالـدین،إلّا أنّ الإسـلام لا یلتزم الصـمت فی القضایـا التی یمکن للعقـل أن یتوصل فیها بشـکل مسـتقل،أو أن تـدلّ علیها العاطفه الإنسانیه المحضه، لـذلک تراه یعطی التعلیمـات اللازمه إزاء قضـیه احترام الوالـدین و رعـایه حقوقهمـا، بحیث لاـ یمکن لنا أن نلمس مثل هـذه التأکیـدات فی الإسلام إلّا فی قضایا نادره أخری.

و علی سبیل المثال یمکن أن تشیر الفقرات الآتیه إلی هذا المعنی:

ألف:فی أربع سور قرآنیه ذکر الإحسان إلی الوالـدین بعد التوحید مباشـره، و هذا الاقتران یدل علی مدی الأهمیه یولیها الإسـلام للوالدین.

ففی سوره البقره آیه(۸۳)نقرأ: لاٰ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّٰهَ وَ بِالْوٰالِدَیْنِ إِحْسٰاناً .

و فی سوره النساء آیه(۳۶)نقرأ قوله تعالی: وَ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً وَ بِالْوٰالِدَیْنِ إِحْسٰاناً .أما الآیه(۱۵۱)من سوره الأنعام فإنّها تقول: أَلاّٰ تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً وَ بِالْوٰالِدَیْنِ إِحْسٰاناً .و فی الآیه التی نبحثها نقرأ قوله تعالی:

وَ قَضیٰ رَبُّکَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِیّٰاهُ وَ بِالْوٰالِدَیْنِ إِحْسٰاناً

.

ب-إنّ مسأله احترام الوالدین و رعایه حقّهما من المنزله بمکان،حتی أنّ

القرآن و الأحاديث و الرّوايات الإسلاميه،تؤكدان معا على الإحسان للوالدين حتى و لو كانا مشركين،إذ نقرأ فى الآيه(۱۵)من سوره لقمان: وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ عَلیٰ أَنْ تُشْرِکَ بِی مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ،فَلاٰ تُطِعْهُمٰا وَ صٰاحِبْهُمٰا فِی الدُّنْیٰا مَعْرُوفاً .

ج-رفع القرآن الكريم منزله شكر الوالدين إلى منزله شكر اللّه تعالى،إذ تقول الآيه(۱۴)من سوره لقمان: أَنِ اشْكُرْ لِی وَ لِوٰالِدَیْکَ .

و هذا دليل على عمق و أهميه حقوق الوالدين فى منطق الإسلام و شريعته، بالرغم من أن نعم اللّه التى يشكرها الإنسان لا تعدّ و لا تحصى.

د-القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانه للوالدين،و لا يجيز ذلک،ففى حديث

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «لو علم اللّه شيئا هو أدنى من أف لنهى عنه،و هو من أدنى العقوق،و من العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحدّ النظر إليهما» (۱) .

ه-بالرغم من أنّ الجهاد يعتبر من أهم التعاليم الإسلاميه،إلاّ أنّ رعايه الوالدين تعتبر أهم منه،بل لا يجوز إذا أدّى الأمر إلى أذيه الوالدين،بالطبع هذا إذا لم يكن الجهاد واجبا عينيا،و إذ توفرّ العدد الكافى من المتطوعين له.

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام ،أنّ رجلا جاء إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال له، إنّى أحبّ الجهاد،و صحتى جيده،و لكن لى أمّ لا ترتاح لذلک،فما ذا أفعل، فأجابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إرجع فكن مع والدتک فو الذى بعثنى بالحق لأنسها بک ليله خير من جهاد فى سبيل اللّه سنه» (۲) .

و لكن عند ما يجب الجهاد وجوبا عينيا،و تصبح بلاد الإسلام فى خطر يلزم الجميع بالحضور و لا تقبل جميع الاعذار حينئذ بما فيها عدم رضاء الوالدين.

و ما قلناه عن الجهاد ينطبق كذلک على الواجبات الكفائيه الأخرى،و كذلک المستحبات.

۱- ۱) -يلاحظ:جامع السعادات،النراقى،ج ۲،ص ۲۵۸.

۲- ۲) -جامع السعادات،ج ۲،ص ۲۶۰.

و-

عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إيّاك و عقوق الوالدين فإنّ ريح الجنّه توجد من ميسره ألف عام و لا يجدها عاقّ» (1) .

هـذا التعبير ينطوى على إشـاره لطيفه،إذ أن مثـل هؤلاء الأشـخاص(العاقين) ليسوا لا يـدخلون الجنّه و حسب،بل إنّهم يبقون على مسافه بعيده جدا منها و لا يستطيعون الاقتراب منها.

و ينقل«سيد قطب»

حـديثا عن رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم جـاء فيه: «عن بريـده عن أبيه، أنّ رجلاـ كـان فى الطواف حاملاـ أمّه يطوف بها،فرأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسأله:هل أديت حقّها؟فأجابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا،و لا بزفره واحده».

و يقصد بالزفره الواحده الوجعه الواحده،أو الطلقه الواحده،التى تغشى الأم حين الولاده و الوضع (2) .

إذا أردنـا نطلق العنـان للقلم فى هـذا المجال،فسيطول بنا المقام و نبتعـد عن التّفسـير،لكن-بصـراحه-يجب أن نعترف بأنّ كل ما يقال فى هذا المجال فهو قليل،لأنّ الوالدين حق العيش و الحياه على الولد.

فى نهايه هذه الفقره،أشـير إلى أنّ الوالدين-فى بعض الأحيان-يقترحان على الأبناء أشياء غير منطقيه و حتى-غير شرعيه،طبعا فى مثل هذه الحالات لا تجب الطاعه،و لكن من الأفضل أن يتسم التعامل معهما بالهدوء و المنطق،و أن تتم عمليه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بأحسن وجه.

أخيرا نختم الكلام بحديث

عن الإمـام الكـاظم عليه السّـلام قـال فيه: إنّ رجلاـ جـاء النّبى الأـكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يسـأله عن حـق الأـدب على ابنه،فأجابه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بقوله:«لا يسـميه باسمه، و لا يمشى بين يديه،و لا يجلس قبله،و لا يستسب له» (3) (اى لا يفعل شيئا يؤدى

1- 1) -جامع السعادات،ج 2،ص 257.

2- 2) -فى ظلال القرآن،ج 4،ص 2222،الطبعه العاشره.

3- 3) -نور الثقلين،ج 3،ص 149.

الی أن یسبّ الناس والدیه).

ثانیا:بحث حول کلمه«قضی»:

«قضی»أصلها من کلمه«قضاء»بمعنی الفصل فی شیء ما،إمّا بالعمل و إمّا بالکلام.و قال بعض:إنّ معناها هو وضع نهایه لشیء ما،و فی الواقع فإنّ المعنیین متقاربان.و بما أنّ الفصل و وضع النهایه لهما معانی واسعه،لذا فإنّ هذه الکلمه لها استخدامات فی مفاهیم مختلفه،فالقرطبی فی تفسیره مثلا ذکر لها سته معان هی:

*«قضی»بمعنی«أمر»کما فی قوله تعالی: وَ قَضیٰ رَبُّکَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِیّٰاهُ .

*«قضی»بمعنی«خلق»کما فی قوله آیه(١٢)من سوره فصلت فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِی یَوْمَیْنِ .

*«قضی»بمعنی«حکم»کما فی الآیه(٧٢)من سوره طه فَاقْضِ مٰا أَنْتَ قٰاضٍ .

*«قضی»بمعنی الانتهاء من شیء،و مثله الآیه(٤١)من سوره یوسف قُضِیَ الْأَمْرُ الَّذِی فِیهِ تَسْتَفْتِیٰانِ .

*«قضی»بمعنی«أراد»کما فی سوره آل عمران آیه(٤٧): إِذٰا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ .

*«قضی»بمعنی«عهد»کما فی الآیه(٤٤)من القصص: إِذْ قَضَیْنٰا إِلیٰ مُوسَی الْأَمْرَ (١) .

و قد أضاف أبو الفتوح الرازی إلی هذه المعانی قوله:

*«قضی»بمعنی«الإخبار و الإعلام»مثل قوله تعالی:

١- ١) -تفسیر القرطبی،ج ٦،ص ٣٨٥٣.

وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ

(۱)

.

و نستطيع أن نضيف إلى هذا المعنى،معنى آخر تكون فيه«قضى»بمعنى «الموت»كما فى آيه(۱۵)من سوره القصص فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ .

المهم هنا،أنّ بعض المفسّرين وضع أكثر من(۱۳)معنى لكلمه فى القرآن الكريم (۲) .

و لكن لا يمكن اعتبار كل هذه معانى متعدّده لكلمه«قضى»لأنها تنتهى إلى مفهوم واحد.لذلك فإنّ أغلب المعانى المذكوره أعلاه هى من باب اختلاط المصداق بالمفهوم.لأنّ كل واحده منها،ما هى فى واقعها إلاّ مصداقا للمفهوم الكلّى و الجامع المتمثل فى«الفصل و وضع النهايه»فالقاضى بحكمه يضع نهايه للدعوى،و الخالق يضع نهايه لما خلق،و المخبر بأخباره يضع نهايه لما يريد أن يوضحه.و لكن لا يمكن الإنكار أنّ بعض هذه المصاديق،و من كثره الاستخدام قد وضعت معان جديده لكلمه«قضاء»مثل الحكم أو إعطاء الأوامر.

ثالثا:بحث حول معنى كلمه«أف»:

أصل«أف»كلّ مستقذر من وسخ و قلامه ظفر و ما يجرى مجراهما،و يقال ذلك لكلّ مستخف به استقذارا له.و يمكن أن نشتق منه فعلا،كمثل قولنا:قد أففت لكذا،إذا قلت ذلك استقذارا له.(مفردات الراغب صفحه ۱۹).

بعض المفسّرين مثل«القرطبى»فى الجامع،و«الطبرسى»فى«مجمع البيان» قالوا:«أف»و«تف»فى الأصل بمعنى وسخ الظفر حيث أنّه ملوّث و تافه أيضا، و ينقل الرازى عن الأصمعى أنّ«الأف»وسخ الأذن،و«التف»وسخ الظفر،حتى توسع المعنى ليشمل كل ما يتأذى منه،و تذكر اللفظه أيضا عند كل مكروه يصل

۱- ۱) -تفسيره أبو الفتوح الرازى،ج ۷،ص ۱۸۸.

۲- ۲) -وجوه القرآن للتفليسى،ص ۲۳۵.

إليهم (١) .

و هناك معان أخرى لكلمه«أف»منها أنّها تعنى الشىء القليل،أو الأذى من الرائحه الكريهه.

البعض الآخر قال:إنّ أصل هـذه الكلمه مأخوذ من«الصوت»الذى يخرج من الفم عند ما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملابسه من الغبـار الموجود عليهـا، و هـذا الصوت يشبه كلمه«أوف»أو«أف»و قـد أستفيد منهـا فيما بعـد للتعبير عن التنفّر و عـدم الراحه من الأشياء الصغيره بالخصوص.

و خلاـصه الـذى ذكرنـاه أعلاه،و بالإضافه إلى قرائن أخرى يمكن القول بأنّ هـذه الكلمه هى فى الأصل«اسم صوت»و المقصود بالصوت هنا ما يصـدره الإنسان من فمه عنـد ما يتذمّر أو ينفخ لإزاله شـىء ما.ثمّ بعد ذلك تحول«اسم الصوت»إلى كلمه يمكن اشتقاق الأفعال منها،و بذلك تكون المعانى التى ذكرناها مصاديق لهذا المفهوم العام و الشامل.

و منتهى الكلاـم هنـا،أنّ الآـيه تريـد أن تقـول بعبـاره قصـيره و فصـيحه و بليغـه،إنّ احـترام الوالـدين و رعـايه حقوقهمـا مهمـان للغايه،بحيث لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمه«أف»من معنى.

١- ١) -التّفسير الكبير،الفخر الرازى،ج ٢،ص ١٨٨.

الآيات [سوره الإسراء (۱۷): الآيات ۲۶ الی ۳۰]

اشاره

وَ آتِ ذَا اَلْقُرْبیٰ حَقَّهُ وَ اَلْمِسْکِینَ وَ اِبْنَ اَلسَّبِیلِ وَ لاٰ تُبَذِّرْ تَبْذِیراً (۲۶) إِنَّ اَلْمُبَذِّرِینَ کٰانُوا إِخْوٰانَ اَلشَّیٰاطِینِ وَ کٰانَ اَلشَّیْطٰانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً (۲۷) وَ إِمّٰا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ اِبْتِغٰاءَ رَحْمَهٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوهٰا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَیْسُوراً (۲۸) وَ لاٰ تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَهً إِلیٰ عُنُقِکَ وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا کُلَّ اَلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (۲۹) إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ کٰانَ بِعِبٰادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (۳۰)

التّفسیر

اشاره

رعایه الاعتدال فی الإنفاق و الهبات:

مع هذه الآیات یبدأ الحدیث عن فصل آخر من سلسله الأحکام الإسلامیه الأساسیه،التی لها علاقه بحقوق القربی و الفقراء و المساکین،و الإنفاق بشکل عام ینبغی أن یکون بعیدا عن کل نوع من أنواع الإسراف و التبذیر،حیث تقول الآیه وَ آتِ ذَا الْقُرْبیٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ لاٰ تُبَذِّرْ تَبْذِیراً .

«تبـذير»من«بـذر»و هی تعنی بـذر البـذور،إلاّـ أنّها هنـا تخص الحالاـت الـتی یصـرف فیهـا الإنسـان أمـواله بشـکل غیر منطقی و فاسـد.بتعبیر آخر:إنّ التبـذیر هو هـدر المـال فی غیر موقعه و لو کـان قلیلاـ،بینمـا إذا صـرف فی محلّه فلاـ یعتبر تبـذیرا و لو کان کثیرا.ففی تفسیر العیاشی،عن الإمام الصادق علیه السّلام،نقرأ

قوله: «من أنفق شیئا فی غیر طاعه اللّه فهو مبذر و من أنفق فی سبیل اللّه فهو مقتصد» (۱) .

و ینقل

عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا أنّه دعا برطب(لضیوفه)فاقبل بعضهم یرمی بالنوی،فقال:«لا تفعل إن هذا من التبذیر،و إنّ اللّه لا یحب الفساد» (۲) .

و فی مکان آخر نقرأ،

أنّ رسول الهـدی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم مرّ بسـعد و هو یتوضأ،فقال:ما هذا السـرف یا سـعد؟قال:أفی الوضوء سـرف؟فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«نعم و إن کنت علی نهر جار» (۳) .

و بالنسبه لـذوی القربی هنـاک کلام کثیر بین المفسّـرین،هل هم عموم القربی؟ أو المقصود بهم قربی الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم باعتباره هو المخاطب بالآیه؟ فی الأحادیث الکثیره التی سـنقرؤها و فی الملاحظات التی سـنقف عنـدها سـنعرف بأنّ ذوی القربی هم قربی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم،و بعض الرّوایات تشـیر إلی أنّ الآیه تتحـدث عن قصّه فـدک التی أعطاها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بنته فاطمه الزهراء علیها السّلام.

و لکن مخـاطبه الرّسـول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی کلمه«و آت»لاـ تعتبـر دلیلاـ علی اختصـاص هـذا الحکم به،لأـنّ جمیع الأحکام الوارده فی هذه المجموعه من الآیات کالنهی عن الإسـراف و مداراه السائل و المسـکین،و النهی عن البخل،هی أحکام عامّه بالرغم من أنّها تخاطب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و هناک نقطه ینبغی الالتفات إلیها،و هی مجیء النهی عن التبذیر و الإسراف،

۱- ۱) -یراجع تفسیر الصافی عند بحث هذه الآیه.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -المصدر السابق.

بعد إعطاء الأمر بأداء حق الأقرباء و المساكين حتى لا يقع الإنسان تحت تأثير عاطفه القرابه أو الصدقه فيعطى لهذا المسكين أو ابن السبيل أو القريب أكثر ممّا يستحق أو يتحمل،فيعتبر ذلك إسرافا و تبذيرا،و هما مذمومان دائما.

الآيه التى بعدها هى لتأكيد النهى عن التبذير إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ کانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ،وَ کانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً .

أمّا كيف كفر الشيطان بنعم ربّه،فهذا واضح،لأنّ اللّه أعطاه قدره و قوه و استعدادا و ذكاء خارقا للعاده،و لكن الشيطان استفاد من هذه الأمور فى غير محلّها،أى فى طريق إغواء الناس و إبعادهم عن الصراط المستقيم.

أما كون المبذرين إخوان الشياطين،فذلك لأنّهم كفروا بنعم اللّه،إذ وضعوها فى غير مواضعها.ثمّ إنّ استخدام«إخوان»تعنى أنّ أعمالهم متطابقه و متناسقه مع أعمال الشيطان،كالأخوين اللذين تكون أعمالهما متشابهه،أو أنّهم قرناء و جلساء للشيطان فى الجحيم،كما توضح ذلك الآيه(٣٩)من سوره الزخوف بعد أن تشرك الشيطان و المذنب فى العذاب: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ .

أمّا لما ذا جاءت كلمه الشيطان هنا بصيغه الجمع«شياطين»؟قد يعود ذلك إلى أنّ لكل إنسان غافل عن خالقه و ربّه،شيطان قرين له،كما نرى هذا المعنى واضحا فى الآيه(٣۶)و(٣٨)من الزخرف: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ .. حَتّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِى وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ .

ثمّ أنّ الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحيانا،و فى هذه الحاله ترسم الآيه الكريمه طريقه التصرّف بالنحو الآتى: إِمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَهٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً .

«ميسور»مشتقّه من«يسر»و هى بمعنى الراحه و السهوله،أمّا هنا فلها مفهوم واسع،يشمل كل كلام جميل و سلوك مقرون بالاحترام و المحبّه،و إذا فسّرها

البعض بمعنى الوعد للمستقبل فإنّ ذلك أحد مصاديقها.

نقرأ فى الرّوايات،أنّه بعد نزول هذه الآيه،كان إذا جاء شخص محتاج إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الرّسول لا يملك شيئا لإعطائه،

قال له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يرزقنا اللّه و إيّاكم من فضله» (1) .

و قديما عند ما كان السائل يطرق الباب،و يطلب منّا شيئا لا نستطيع إعطاءه إيّاه،نقول له«العفو»و ذلك تأكيدا على أنّ لهذا السائل حق علينا يطالبنا به،و إذا كنّا لا نملك قضاء حاجته و إعطاءه حقّه،فإننا نطلب منه العفو.

الاعتدال هو شرط فى كل الأمور بما فيها الإنفاق و المساعده الآخرين،لذلك تنتقل الآيه للقول: وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ .و هذا تعبير جميل يفيد أنّ الإنسان ينبغى أن يكون ذا يد مفتوحه،لا أن يكون مثل البخلاء و كأنّ أيديهم مغلوله إلى أعناقهم بخلا و خشيه من الإنفاق.و لكن فى نفس الوقت تقرّر الآيه أنّ بسط اليد لا ينبغى أن يتجاوز الحد المقرر و المعقول فى الصرف و البذل و العطاء، حتى لا ينتهى المصير إلى الملامه و الابتعاد عن الناس: وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً .

و«تقعد»مشقّه من«قعود»و هى كنايه عن التوقف عن العمل.أمّا تعبير «ملوم»فهو يشير إلى أنّ عاقبه الإسراف لا تؤدى إلى توقف الإنسان عن عمله و نشاطه و حسب،و إنّما تؤدى إلى إيقاع لوم الناس عليه.

«محسور»مشتقّه من كلمه«حسر»و هى فى الأصل تعنى خلع الملابس رفع الثوب و إظهار بعض البدن من تحته،لذا يقال للمقابل الذى لم يلبس الخوذه و الدرع،بأنه«حاسر».و أيضا يقال للحيوان الذى يتعب من كثره المشى بأنّه «حسير»أو«حاسر»بسبب استنفاذ طاقته و قدرته.

ص: ۴۵۴

۱- ۱) -يراجع تفسير مجمع البيان،عند تفسير الآيه.

و قــد توســع هــذا المفهــوم فيمــا بعــد بحيــث أصــبح يطلــق على كــل إنســان عــاجز عــن الوصــول إلى هــدفه بأنّه«حسير»أو«محسور»أو«حاسر».

أمّا كلمه«الحسره»و التى تعنى الغم و الحزن،فهى مشتقه من هذه الكلمه، و تطلق على الإنسان الفاقد لقابليه حل المشاكل بسبب الضعف.

و كذلك بالنسبه للإنفاق،فهو إذا تجاوز الحد المقرّر بحيث يستنفذ طاقه الإنسان،فإنّه يؤدى إلى أن يصاب صاحبه بالغم و الحزن بسبب الضعف عن أداء واجباته و مسئولياته،و ينقطع اتصاله و ارتباطه بالناس.

و بعض الرّوايات التى تتحدث عن سبب نزول الآيه تؤكّد هذا المعنى،إذ أنّها تتحدث أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كـان يوما فى بيته فجاءه سائل يسأله إعطاءه ملابس، و لمّا لم يكن مع الرّسول ما يعطى السائل،فقد خلع لباسه و أعطاه إيّاه،الأمر الذى أدّى إلى بقاء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى البيت و عدم خروجه فى ذلك الوقت للصلاه.

و قد كان هذا الحادث سببا لتقولات الكفار المنافقين،الذين قالوا:إنّ الرّسول نائم، أو إنّه فى لهو أنساه صلاته.و بذلك أدّى هذا العمل إلى إيقاع اللوم شماته الأعداء و الانقطاع عن الأصحاب،و أصبح بذلك مصداقا للملوم و المحسور، عندها نزلت الآيه أعلاه تنهى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تكرار هذا العمل.

أمّا عن التضاد القائم بين هذا الأمر و مسأله«الإيثار»فسنبحثه فى الملاحظات القادمه إن شاء اللّه.

بعض الرّوايات تتحدث عن أنّ سبب نزول الآيه،هو أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعطى ما يوجد فى بيت المال إلى المحتاج بحيث إذا جاءه محتاج آخر،فلن يجد شيئا يعطيه له،فيلوم ذلك المحتاج الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يؤذيه،لذلك صدرت التعليمات بأن لا ينفق كل ما فى بيت المال لمواجهه هذه المشكلات.

سؤال:لما ذا يجب أن يكون هناك مساكين و فقراء و محرومون حتى ننفق عليهم؟أليس من الأفضل أن يعطيهم اللّه ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الجواب:تعتبر الآیه الأخیره بمثابه جواب علی هذا السؤال: إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ کٰانَ بِعِبٰادِهِ خَبِیراً بَصِیراً .إنّه اختبار لنا،فاللّه قادر علی کل شیء،و لکنّه یرید بهذا الطریق تربیتنا علی روح السخاء و التضحیه و العطاء.

إضافه إلی ذلک،إذا أصبح أکثر الناس فی حاله الکفایه و عدم الحاجه فإنّ ذلک یقود إلی الطغیان و التمرد إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَیَطْغیٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنیٰ ،لذلک من المفید أن یبقوا فی حد معین من الحاجه.هذا الحد لا یسبب الفقر و لا الطغیان.من ناحیه أخری یرتبط التقدیر و البسط فی رزق الإنسان بمقدار السعی و بذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبیل العجزه و المعلولین)،و هکذا تقتضی المشیئه الإلهیه ببسط الرزق و تقدیره لمن یشاء،و هذا دلیل الحکمه،إذ تقتضی الحکمه بزیاده رزق من یسعی و یبذل الجهد،بینما تقضی بتضییقه لمن هو أقل جهدا و سعیا.

العلاّمه الطباطبائی ینظر للعلاقه بین هذه الآیه و التی قبلها فی ضوء احتمال آخر فیقول فی تفسیر المیزان:«إنّ هذا دأب ربّک و سنته الجاریه،یبسط الرزق لمن یشاء و یقدر لمن یشاء،فلا یبسطه کل البسط،و لا یمسک عنه کل الإمساک رعایه لمصلحه العباد،إنّه کان بعباده خبیرا بصیرا أو ینبغی لک أن تتخلق بخلق اللّه و تتخذ طریق الاعتدال و تتجنب الإفراط و التفریط» (۱) .

***

بحوث

اشاره

أوّلا:من هم المقصودون بذی القربی؟

کلمه«ذی القربی»تعنی الأرحام و المقربین،و هناک کلام بین المفسّرین،

۱- ۱) -تفسیر المیزان،ج ۱۳،ص ۸۴.

حول المقصود بها،إذ هل هو المعنى العام أو الخاص؟و يمكن أن نلاحظ هنا بعض هذه الآراء:

*البعض يعتقد أنّ المخاطب بالآيه جميع المؤمنين و المسلمين،و الغرض هو الحث على أداء حقوق الأقرباء.

*البعض الآخر يرى أنّ المخاطب فى الآيه هو الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الغرض هو إيصال حقوق أقرباء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كخمس الغنائم،أو غيرها ممّا يتعلق بها الخمس.

أو بصوره عامّه تأديه كل الحقوق التى لهم فى بيت المال.

لذلك نرى فى روايات عديده عند الشيعه و السنّه إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعث إلى فاطمه عليها السّلام بعد نزول هذه الآيه،و وهبها فدكا (۱) .

ففى مصادر السنه مثلا نقرأ عن أبى سعيد الخدرى الصحابى المعروف:«لما نزل قوله تعالى: وَ آتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ أعطى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاطمه فدكا» (۲) .

و يستفاد من بعض الرّوايات،أنّ الإمام زين العابدين عليه السّلام أثناء سيره إلى الشام بعد واقعه كربلاء،استدلّ بهذه الآيه وَ آتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ فى التعريف بنفسه و أهل بيته و عيال أبيه الحسين عليه السّلام،بأنّهم المعنيين بقوله تعالى:فيما كان أهل الشام يغمطونهم هذا الحق! (۳) .

و لكن-كما أشرنا سابقا-ليس هناك تعارض بين هذين التّفسيرين،فالكل مكلفون بإيتاء حقوق ذوى القربى،و الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى اعتبر قائدا للأمّه

۱- ۱) -فدك أرض معموره و خصبه،كانت بالقرب من خيبر و على بعد(۱۴۰)كم عن المدينه المنوره،و فدك بعد خيبر كانت مركزا لاستقرار يهود الحجاز[يراجع كتاب:مراصد الاطّلاع.موضوع فدك] .و بعد أن استسلم اليهود للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدون حرب،أعطى الرّسول هذه الأرض إلى فاطمه الزّهراء عليها السّلام و ذلك وفقا للوقائع التأريخيه الثابته لدى الجميع،لكنّها صودرت بعد وفاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لأسباب سياسيه و بقيت فى أيدى الخلفاء إلى أن أعادها عمر بن عبد العزيز أيّام خلافته إلى العلويين.

۲- ۲) -نقل هذا الحديث«البذار»و«أبو يعلى»و«ابن أبى حاتم»و«ابن مردويه»عن«أبى سعيد»[لا حظ كتاب ميزان الاعتدال المجلد الثّانى صفحه(۲۸۸)و كنز العمال المجلد الثّانى صفحه(۱۵۸)] و قد ورد هذا الحديث أيضا فى تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسى عند حديثه عن هذه الآيه،و فى الدر المنثور أيضا و قد أخرجه عن طريق السنه و الشيعه معا.

۳- ۳) -راجع تفسير نور الثقلين،ج ۳،ص ۲۵۵.

الإسلاميه مكلّف أيضا بالعمل بهذه المسؤوليه الكبيره،فأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هم فى الواقع من أوضح مصاديق القربى له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى طليعه المخاطبين بالآيه الكريمه.لهذا السبب و هب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حقوق ذوى القربى لهم،فأعطى فاطمه فدكا،و أجرى عليهم الأخماس و غير ذلك،حيث كانت الزكاه أموالا عامّه محرمه على أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرباه.

ثانيا:مصائب الإسراف و التبذير:

لا ريب فى أنّ النعم الموجوده على الكره الأرضيه كافيه لساكنيها،بشرط واحد،هو أن لا يبذروا هذه النعم بلا سبب،بل عليهم استثمارها بشكل معقول و بلا إفراط أو تفريط،و الاّ فإنّ هذه النعم ليست غير متناهيه حتى لو أسيء استثمارها و التصرف بها.و قد يؤدى الإسراف و التبذير فى منطقه معينه الى الفقر فى منطقه أخرى،أو إنّ إسراف و تبذير الناس فى هذا الزمان يسبّب فقر الأجيال القادمه.

و فى ذلك اليوم الذى لم تكن فيه الأرقام و الإحصاءات فى متناول الإنسان، حذّر الإسلام من مغبه الإسراف و التبذير فى نعم اللّه على الأرض، لذلك فالقرآن أدان فى أماكن كثيره و بشدّه المسرفين و المبذرين.

ففى الآيتين(۱۴۱)من الأنعام و(۳۱)من الأعراف نقرأ قوله تعالى وَ لاٰ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

أمّا فى غافر(۴۳)فنقرأ: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ .

و الآيه(۱۵۱)من الشعراء تنهى عن طاعه المسرفين: وَ لاٰ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ .

أمّا الآيه(۸۳)من يونس فتجعل الإسراف صفه فرعونيه: وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ .

و الهدايه ممنوعه عن المسرفين كما هو مفاد الآيه(۲۸)من سوره غافر: إِنَّ

اللّهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ کَذّٰابٌ .

و أخیرا تتحدث الآیه(۹)من سوره الأنبیاء عن مصیرهم: وَ أَهْلَکْنَا الْمُسْرِفِینَ .

و قد رأینا فی الآیه التی نبحثها أن اللّه تعالی جعل المسرفین إخوان الشیاطین.و الإسراف بمعناه الواسع هو الخروج و تجاوز الحد فی أی عمل یقوم به الإنسان،و لکنّها عاده تستخدم فی المصروفات.

و من آیات القرآن نفسها نستفید أنّ الإسراف هو فی مقابل التقتیر،بینما هناک طریق ثالث هو منزله بین الأمرین،کما فی الآیه(۶۷)من سوره الفرقان: وَ الَّذِینَ إِذٰا أَنْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا وَ کٰانَ بَیْنَ ذٰلِکَ قَوٰاماً .

ثالثا:الفرق بین الإسراف و التبذیر:

فی الواقع لا یوجد هناک بحث واضح عند المفسّرین فی التفاوت الموجود بین الإسراف و التبذیر،و لکن عند التأمّل بأصل هذه الکلمات فی اللغه،یتبیّن أنّ الإسراف هو الخروج عن حدّ الاعتدال،و لکن دون أن نسخر شیئا،فمثلا نلبس ثیابا ثمینا بحیث أنّ ثمنه یعادل أضعاف سعر الملبس الذی نحتاجه،أو أنّنا نأکل طعاما غالیا بحیث یمکننا إطعام عدد کبیر من الفقراء بثمنه.کل هذه أمثله علی الإسراف،و هی تمثّل خروجنا عن حدّ الاعتدال،و لکن من دون أن نخسر شیئا.

أمّا کلمه«تبذیر»فهی تعنی الصرف الکثیر،بحیث یؤدی إلی إتلاف الشیء و تضییعه،فمثلا نهیّئ طعام عشره أشخاص لشخصین،کما یفعل ذلک بعض الجهلاء و یعتبرون ذلک فخرا،حیث یرمون الزائد فی المزابل.

و لکن بالرغم من هذا التمییز،لا بدّ من القول بأنّ کثیرا ما تستخدم هاتین الکلمتین للتدلیل علی معنی واحد،و قد تتابعان فی الجمله الواحده لغرض التأکید.

فالإمام علی فی نهج البلاغه یقول: «ألا إنّ إعطاء المال فی غیر حقّه تبذیر

و إسراف و هو يرفع صاحبه فى الدنيا و يضعه فى الآخره،و يكرمه فى الناس و يهينه عند اللّه».

و فى الآيـات التى بحثناهـا رأينا أن الإسـلام بحيث كثيرا على عـدم الإسـراف و التبـذير إلى درجه أنّه نهى عن الإسـراف فى ماء الوضوء حتى إذا كان ذلك قرب نهر جار،و حتى فى نوى التمر.و عالم اليوم الـذى بـدأ يتحسّس الضائقه فى بعض الموارد.أخذ يهتم بهـذه الفكره،حتى بـات يسـتفيد من كلّ شـىء،فهو مثلا يسـتفيد من فضولات المنازل فى صـنع السـماد،و من ماء المجارى لسقى المزروعات،لأنّه أحسّ أنّ المصادر الطبيعيه محدوده،لذا لا يمكن التفريط بها بسهوله،و إنّما ينبغى الاستفاده منها ضمن ما يعرف ب«دوره المصادر الطبيعيه».

رابعا:هل ثمّه تعارض بين الاعتدال فى الإنفاق و الإيثار؟

مع الأخذ-بنظر الإعتبار-الآيات أعلاه و التى تؤكّد ضروره الاعتدال فى الإنفاق،يثار سؤال مؤدّاه،إنّ فى سوره الدهر مثلا،و آيات أخرى،و فى مجموعه من الأحـاديث و الرّوايات،ثمّه إشاده بالمؤثرين الـذين يؤثرون غيرهم على أنفسـهم فى أحلك الساعات و أشـدّ الظروف و يعطون ما يملكون للآخرين،فكيف يا ترى نوفّق بين هذين المفهومين؟ إنّ الدقه فى سـبب نزول هذه الآيات مع قرائن أخرى تفيـدنا فى الوقوف على جواب هـذا السؤال،إذ يكون الأـمر بمراعاه الاعتـدال فى المجالات التى يكون فيها العطاء و الهبات الكثيره سـببا لاضطراب الإنسان فى حياته أو بمصطلح القرآن يصبح فيها مَلُوماً مَحْسُوراً و كذلك إذا كان الإيثار سببا فى التضـييق على أبنائه أو أنّه يهـدّد تركيبه عائلته.و إذا لم يقع أى من هذين المحذورين،فإنّ الإيثار يعتبر أفضل السـبل،نضـيف إلى ذلـك أنّ الاعتـدال فى الإنفـاق يعتبر حكمـا عامـا،بينمـا الإيثـار يعتبر حكمـا خاصا يرتبط بمصاديق خاصّه،و ليس ثمّه تضاد بين الاثنين.

الآيات [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٣١ الی ٣٥]

اشاره

وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ خَشْيَهَ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّٰاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْأً كَبِيراً (٣١) وَ لاٰ تَقْرَبُوا اَلزِّنىٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَهً وَ سٰاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَ لاٰ تَقْتُلُوا اَلنَّفْسَ اَلَّتِی حَرَّمَ اَللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنٰا لِوَلِيِّهِ سُلْطٰاناً فَلاٰ يُسْرِفْ فِی اَلْقَتْلِ إِنَّهُ كٰانَ مَنْصُوراً (٣٣) وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ اَلْيَتِيمِ إِلاّٰ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اَلْعَهْدَ كٰانَ مَسْؤُلاً (٣۴) وَ أَوْفُوا اَلْكَيْلَ إِذٰا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ اَلْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣۵)

التّفسير

اشاره

سته أحكام مهمّه:

فی متابعه للأحكام الإسلاميه التی أثارتها الآيات السابقه،تتحدّث هذه الآيات عن سته أحكام إسلاميه أخری وردت فی ست آيات،بعبارات قصيره و معان كبيره،تأخذ بلباب القلوب.

أوّلا:تشير الآيه إلى عمل قبيح و جاهلى هو من أعظم الذنوب،فتنهى عنه:

وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ خَشْيَهَ إِمْلاٰقٍ

فرزق هؤلاء ليس عليكم نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّٰاهُمْ أمّا علّه الحكم فهى: إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْأً كَبِيراً .

هذه الآيه تفيد أنّ الوضع الاقتصادى للعرب فى الجاهليه كان صعبا و سيئا.

بحيث أنّهم كانوا يتقلون أبناءهم فى بعض الأحيان خوف العيله و الفقر.

و هناك كلام بين المفسّرين فيما إذا كان العرب فى الجاهليه يدفنون البنات أحياء و حسب،أو أنّهم كانوا يقتلون الأبناء أيضا خوفا من الفقر! البعض يعتقد أنّ الآيات تتحدث عن دفن البنت و هى حيّه،هذا العمل الذى كان شائعا فى الجاهليه لسببين:

الأوّل:يتمثل فى الخوف من وقوعهن فى الأسر أثناء الحروب،الأمر الذى يجعل الأعراض و النواميس تحت رحمه العدو.

أمّا الثّانى:فيعود إلى خوفهم من الفقر و عدم تمكنهم من توفير المؤونه للبنات اللاتى لا يقمن بعمل إنتاجى،و يقتصر دورهن على الاستهلاک فقط.صحيح أنّ الولد فى مطلع حياته لا ينتج،لكنّه فى عرف عرب الجاهليه يعتبر رأسمالا ثمينا، لا يمكن التفريط به.

البعض الآخر من المفسّرين يعتقد أن هناک نوعين من القتل،النوع الأوّل يشمل البنات،لحفظ الناموس حسب اعتقادهم الخاطئ.أمّا النوع الثّانى فسببه الفقر.و هو يشمل البنات و البنين معا.

ظاهر الآيه يدل على هذا المعنى،لوجود ضمير الجمع المذكر فى الآيه فى «قتلهم»و هذا الضمير يطلق فى اللغه العربيه على الولد و البنت معا،و بالتالى فإنّه يستبعد اختصاصه بالبنات وحدهن.

أمّا ما يقال من أنّ الولد قادر على الإنتاج،و يعتبر وجوده رأسمالا للمستقبل، فهذا صحيح فى حال وجود القدره الماليه،أمّا فى حاله عدم القدره على تأمين

حیاه هؤلاء الأولاد فالرای الثّانی هو الأصح لهذا الدلیل.

المهم أنّ هـذا التصرف الجـاهلی یرتبط بعقیـده وهمیه تقول:إنّ الأب و الأم هما الرازقان،بینما اللّه سـبحانه و تعالی یقول:اطردوا هذا التفکیر الشیطانی من أذهانکم و ابذلوا سعیکم و وسعکم و اللّه یؤمن رزقکم و رزقهم.

و فی الوقت الذی تسـتغرب فیه ارتکاب الجاهلیین لهذه الجرائم بحق النوع البشری، فإنّ عصرنا الحاضر-و فی أکثر مجتمعاته رقیا و تقدما-یعید تکرار هذه الجریمه و لکن بأسلوب آخر،إذ أنّ العملیات الواسعه فی إسقاط الجنین و قتله خوفا من الضائقه المالیه و ازدیاد عدد السکان،هی نموذج آخر للقتل،(للمزید راجع تفسیر الآیه(۱۵۱)من سوره الإنعام).

إنّ تعبیر«خشیه إملاق»إشاره لطیفه إلی الـدافع الوهمی الشـیطانی و رفضه، حیث یفیـد التعبیر أنّ الوهم و مجرّد الخوف هو الذی یتحکم بهذا السلوک المحرم، لا الدوافع الحقیقیه.

کما یجب الانتباه إلی أنّ«کان»فی کٰانَ خِطْأً کَبِیراً هی فعل ماض،یفیـد هنا التأکیـد علی أنّ قتل الأبناء یعتبر من الـذنوب العظیمه التی کانت معروفه،منـذ القدم بین البشـر،و أنّ الفطره الإنسانیه السـلیمه تحمل دوافع الرفض و الإدانه لمثل هذا السـلوک الذی لا یختص بزمان معین دون غیره.

ثانیـا:الآـیه التی بعـدها تشـیر إلی ذنب عظیم آخر هو الزنا وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنیٰ إِنَّهُ کٰانَ فٰاحِشَهً وَ سٰاءَ سَبِیلاً و فی هـذا التعبیر القرآنی تمت الإشاره إلی ثلاث نقاط:

ألف-لم تقل الآیه:لا تزنوا،بل قالت:لا تقربوا هذا العمل الشائن،و هذا الأسـلوب فی النهی فضلا عمّا یحمله من تأکید،فإنّه یوضح أنّ هناک مقدمات تجر إلی الزنا ینبغی تجنبها و عدم مقاربتها،فخیانه العین تعتبر واحده من المقدمات، و السفور و التعری مقدمه أخری،الکتب السیئه و الأفلام الملوّثه و المجلات الفاسده و مراکز الفساد کل واحده منها تعتبر مقدمه لهذا العمل.

كذلك فإنّ الخلوه بالأجنبيه(يعنى خلوه المرأه و الرجل الأجنبى عليها فى مكان واحد و لوحدهما)يعتبر عاملا فى إثاره الشهوه.

و أخيرا فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصه مع ملاحظه الصعوبات الموضوعه أمام الطرفين،هى من العوامل التى قد تؤدى إلى الزنا.و الآيه نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مختصر،و لكنّا نرى فى الأحاديث و الرّوايات نهيا مفصلا عن كل واحده من هذه المقدمات.

ب-إنّ جمله إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً بتأكيداتها الثلاثه المستفاده من«إن»و الفعل الماضى«كان»و كلمه«فاحشه»تكشف عن فظاعه هذا الذنب.

ج-إنّ جمله سٰاءَ سَبِيلاً توضح حقيقه أنّ هذا العمل«الزنا»يؤدى إلى مفاسد أخرى فى المجتمع.

فلسفه تحريم الزنا:

يمكن الإشاره إلى خمسه عوامل فى فلسفه تحريم الزنا،و هى:

۱-شياع حاله الفوضى فى النظام العائلى،و انقطاع العلاقه بين الأبناء و الآباء.هذه الرابطه التى تختص بكونها سببا للتعارف الاجتماعى،بل إنّها تكون سببا لصيانه الأبناء،و وضع أسس المحبّه الدائمه فى مراحل العمر المختلفه،و التى هى ضمانه الحفاظ على الأبناء.

إنّ العلاقات الاجتماعيه القائمه فى أساس العلاقات العائليه ستتعرض للانهيار و التصدّع إذا شاع وجود الأبناء غير الشرعيين«أبناء الزنا»،و للمرء أن يتصوّر مصير الأبناء فيما إذا كانوا ثمره للزنا،و مقدار العناء الذى يتحملونه فى حياتهم من لحظه الولاده و حتى الكبر.

و علاوه على ذلك،فإنّهم سيحرمون من الحبّ الأسرى الذى يعتبر عاملا فى الحدّ الجريمه من فى المجتمع الإسلامى،و حينئذ يتحول المجتمع الإنسانى بالزنا

إلی مجتمع حیوانی تغزوه الجریمه و القساوه من کل جانب.

۲-إنّ إشاعه الزنا فی جماعه ما،ستقود إلی سلسله واسعه من الانحرافات أساسها التصرفات الفردیه و الاجتماعیه المنحرفه لذوی الشهوات الجامحه.و ما ذکر فی هذا الصدد من القصص عن الجرائم و الانحرافات المنبعثه عن مراکز الفحشاء و الزنا فی المجتمعات یوضح هذه الحقیقه،و هی أنّ الانحرافات الجنسیه تقترن عاده بأبشع ألوان الجرائم و الجنایات.

۳-لقد أثبت العلم و دلّت التجارب علی أنّ إشاعه الزنا سبب لکثیر من الأمراض و المآسی الصحیه و کل المعطیات تشیر إلی فشل مکافحه هذه الأمراض من دون مکافحه الزنا أصلا.(یمکن أن تلاحظ موجات مرض الإیدز فی المجتمعات المعاصره،و نتائجها الصحیه و النفسیه المدمّره).

۴-إنّ شیاع الزنا غالبا ما یؤدی إلی محاوله إسقاط الجنین و قطع النسل،لأنّ مثل هؤلاء النساء«الزانیات»لا یرضین بتربیه الأطفال،و عاده ما یکون الطفل عائقا کبیرا أمام الانطلاق فی ممارسه هذه الأعمال المنحرفه،لذلک فهن یحاولن إسقاط الجنین و قطع النسل.

أمّا النظریه التی تقول،بأنّ الدوله یمکنها-من خلال مؤسسات خاصّه-جمع الأولاد غیر الشرعیین و تربیتهم و العنایه بهم،فإنّ التجارب أثبتت فشل هذه المؤسسات فی تأدیه أهدافها،إذ هناک صعوبات التربیه،و هناک النظره الاجتماعیه لهؤلاء،ثمّ هناک ضغوطات العزله و الوحده و فقدان محبّه الوالدین و عطفهما،کل هذه العوامل تؤدی إلی تحویل هذه الطبقه من الأولاد الی قساه و جناه و فاقدی الشخصیه.

۵-یجب أن لا ننسی أنّ هدف الزواج لیس إشباع الغریزه الجنسیه و حسب، بل المشارکه فی تأسیس الحیاه علی أساس تحقیق الاستقرار الفکری و الأنس الروحی للزوجین.و أمّا تربیه الأبناء و التعامل مع قضایا الحیاه،فهی آثار طبیعیه

للزواج،و كل هذه الأمور لا يمكن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأه بالرجل و قطع دابر الزنا و أشكال المشاعيه الجنسيه.

فی حديث عن الإمام علی بن أبی طالب عليه السّلام يقول:سمعت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «فی الزنا ست خصال:ثلاث فی الدنيا و ثلاث فی الآخره.فأمّا اللاتی فی الدنيا،فيذهب بنور الوجه،و يقطع الرزق،و يسرع الفناء.و أمّا اللّواتی فی الآخره، فغضب الرب،و سوء الحساب،و الدخول فی النّار،أو الخلود فی النّار» (۱) .

ثالثا:الحكم الآخر الذی تشير إليه الآيه التی بعدها،هو احترام دماء البشر، و تحريم قتل النفس حيث تقول: وَ لاٰ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ .

إنّ احترام دماء البشر و حرمه قتل النفس تعتبر من المسائل المتفق عليها فی كل الشرائع السماويه و قوانين البشر،فقتل النفس المحترمه لدی الجميع من الذنوب الكبيره،إلاّ أنّ الإسلام أعطی أهميه استثنائيه لهذه المسأله بحيث اعتبر من يقتل إنسانا فكأنّما قتل الناس جميعا،كما فی الآيه(۳۲)من سوره المائده مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی الْأَرْضِ فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً .بل نستفيد من بعض الآيات القرآنيه أنّ جزاء قتل النفس بغير حق هو الخلود فی النّار،و أنّ هؤلاء الذين يتورطون فی دم الأبرياء يخرجون عن ربقه الإيمان،و لا يمكن أن يخرجوا من هذه الدنيا مؤمنين: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا (۲) . و حتی فی الإسلام فإنّ الذين يشهرون السلاح بوجه الناس ينطبق عليهم عنوان«محارب»و هذا الصنف له عقوبات شديده مفصّله فی المصنفات الفقهيه،و قد أشرنا إلی بعضها أثناء الحديث عن الآيه(۳۳)من سوره المائده.

إنّ الإسلام يحاسب علی أقل أذی ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضيه القتل و إراقه الدماء؟!و هنا نستطيع أن نقول-باطمئنان-:إننا لا نری

۱- ۱) -تفسير مجمع البيان،ج ۶،ص ۴۱۴.

۲- ۲) -النساء،۹۳.

أيّ شريعه غير الإسلام أعطت هذه الحرمه الاستثنائيه لدم الإنسان،بالطبع هناك حالات ينتفى معها احترام دم الإنسان،كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبه به،لذلك فإنّ الآيه بعد أن تثبت حرمه الدم كأصل،تشير للاستثناء بالقول: إِلّا بِالْحَقِّ .

و

فى حديث معروف عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمدا رسول اللّه إلاّ بإحدى ثلاث:النفس بالنفس،و الزانى المحصن،و التارك لدينه المفارق للجماعه» (۱) .

أمّا القاتل فتكون نهايته معلومه بالقصاص،الذى يؤمّن استمرار الحياه و استقرارها.و إذا لم يعط الحق لأولياء دم المقتول بالقصاص من القاتل،فإنّ القتله سيتجرءون على المزيد من القتل و الإخلال بالأمن الاجتماعى.

أمّا الزانى المحصن،فإنّ قتله فى قبال واحد من أعظم الذنوب قباحه،و هو يساوى سفك الدم الحرام فى المرتبه.

أمّا قتل المرتد فيمنع الفوضى و الإخلال فى المجتمع الإسلامى،و هذا الحكم -كما أشرنا سابقا-هو حكم سياسى،لأجل حفظ النظام الاجتماعى فى قبال الأخطار التى تهدّد كيان النظام الإسلامى و وحده أمنه الاجتماعى،و الإسلام- عاده-لا يفرض على أحد قبول الانتماء إليه،و لكن إذا اقتنع أحد بالإسلام و اعتنقه،و أصبح جزاء من المجتمع الإسلامى،و اطلع على أسرار المسلمين،ثمّ أراد بعد ذلك الارتداد عن الإسلام ممّا يؤدى عملا الى تضعيف و ضرب قواعد المجتمع الإسلامى،فإن حكمه سيكون القتل (۲) بالشرائط المذكوره فى الكتب الفقهيه.

۱- ۱) -صحيح البخارى و مسلم نقلا عن تفسير فى ظلال القرآن،ج ۵،ص ۳۲۳.

۲- ۲) -هناك بحث مفصل فى نهايه الآيه(۱۰۶)من سوره النحل،من التّفسير الأمثل حول الارتداد،و فلسفه العقوبات الشديده للمرتد.

إنّ حرمه دم الإنسان فی الإسلام لا تختص بالمسلمین و حسب،بل تشمل غیر المسلمین أیضا من غیر المحاربین،و الذین یعیشون مع المسلمین عیشه مسالمه،فإنّ دماءهم-أیضا-و أعراضهم و أرواحهم مصونه و یحرم التجاوز علیها.

تشیر الآیه بعد ذلک إلی إثبات حق القصاص بالمثل لولی القتیل فتقول:

وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِیِّهِ سُلْطاناً

.و لکن فی نفس الوقت ینبغی لولی المقتول أن یلتزم حد الاعتدال و لا یسرف فَلا یُسْرِفْ فِی الْقَتْلِ إِنَّهُ کانَ مَنْصُوراً إذا ما دام ولی الدم یتحرک فی الحدود الشرعیه فإنّه سیکون موردا لنصره اللّه تعالی.

و النهی عن الإسراف تشیر إلی واقع کان سائدا فی الجاهلیه،و الیوم أیضا یمکن مشاهده نماذج لها،فحین یقتل فرد من قبیله معینه،فإنّها تقوم بهدر الکثیر من الدماء البریئه من قبیله القاتل.

أو أن یقوم أولیاء الدم بقتل أناس أبریاء أو الذین لا یستطیعون الدفاع عن أنفسهم.کأن یکون المقتول شخصا معروفا و ذا منزله اجتماعیه.فإنّ أهله وفق الأعراف الجاهلیه،سوف لن یکتفوا بحدّ القصاص الشرعی،بل یقتلون فردا معروفا و مکافئا فی منزلته الاجتماعیه للمقتول من قبیله القاتل،حتی و إن لم یکن له أی دور فی عملیه القتل. (1) .

و عصرنا الحاضر،شهد من التجاوز فی الإسراف و هدر دماء الأبریاء ما غسل معه عار أهل الجاهلیه،فهذه إسرائیل الیوم تقوم بحجه قتل أحد جنودها بإلقاء القنابل و الصواریخ علی رؤوس النساء و الأطفال الفلسطینیین الأبریاء، و تعمد إلی هدم دیارهم.

1- 1) -یراجع تفسیر الآلوسی(روح المعانی)أثناء حدیثه عن هذه الآیه.

كذلك شهدت سنوات الحرب الظالمه التى شنّها النظام البعثى على الجمهوريه الإسلاميه أسواء أنواع العدوان على دماء الأبرياء و الإسراف فى القتل.

إنّ رعايه العداله-حتى فى عقاب القاتل-تعتبر مهمّه إسلاميا،لذلك نقرأ فى وصيه الإمام على عليه السّلام،بعد أن اغتاله عبد الرحمن بن ملجم المرادى

قوله: «يا بنى عبد المطلب،لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين،تقولون قتل أمير المؤمنين،ألا لا تقتلن بى إلاّ قاتلى، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه،فاضربوه،ضربه بضربه، و لا تمثلوا بالرجل» (1) .

رابعا:الآيه التى بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم،و الملاحظ أنّ الآيه استخدمت نفس أسلوب الآيه التى سبقتها،فلم تقل:لا تأكلوا مال اليتيم و حسب، و إنّما قالت: وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ الْيَتِيمِ .

و فى هذا التعبير تأكيد على حرمه مال اليتيم.و لكن قد تكون هذه الآيه حجه لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يهدر و يكون عرضه للحوادث بدون أن يكون عليه قيّم،لذلك استثنت بقوله: إِلاّٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .و بناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال،و تنميتها و تكثيرها.و هذا الوضع يستمر الى أن يبلغ اليتيم سنّ الرشد و يستطيع فكريا و اقتصاديا أن يكون قيما على نفسه و أمواله حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .

«أشدّ»مأخوذه من«شدّ»على وزن«جدّ»و هى بمعنى«العقده المحكمه» ثمّ توسع المعنى فيما بعد ليشمل أى نوع من القوه الروحيه و الجسميه.و المقصود من كلمه«أشد»فى الآيه هو الوصول إلى مرحله البلوغ.و لكن ليس البلوغ الجسمى و حسب،و إنّما الرشد الفكرى و القدره الاقتصاديه التى تؤهل اليتيم لأن يحفظ أمواله.اختيار كلمه«أشد»فى الآيه هو لتحقيق كل هذه المعانى مجتمعه،و التى

1- 1) -نهج البلاغه،مجموعه الرسائل،الرقم(47).

يمكن اختيارها بالتجربه.

الأيتام ظاهره طبيعيه فى أى مجتمع،و وجودهم يكون تبعا لحوادث مختلفه يمر بها المجتمع،و الدوافع الإنسانيه تفرض رعايه هؤلاء اليتامى من قبل الخيّرين و المحسنين فى المجتمع،و الإسلام يحث على رعايه الأيتام،و قد تحدثنا عن هذا الأمر مفصلا فى الآيه(۲)من سوره النساء.

و الشيء الذى نريد أن نضيفه هنا هو أن بعض الرّوايات و الأحاديث الإسلاميه وسّعت فى مفهوم اليتيم ليشمل الأفراد الذين انقطعوا عن إمامهم و قائدهم،و لا يصل صوت الحق إليهم.و هذا المعنى نوع من التوسع فى المفهوم و استفاده معنويه من حكم مادى.

خامسا:تشير الآيه بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً .إنّ الكثير من العلاقات الاجتماعيه و خطوط النظام الاقتصادى و المسائل السياسيه قائمه على محور العهود،بحيث إذا ضعف هذا المحور و انهارت الثقه بين الناس،فسينهار النظام الاجتماعى و ستحل الفوضى،و لهذا السبب تؤكّد الآيات القرآنيه-بقوّه-على قضيه الوفاء بالعهود.

«العهد»له معان واسعه،فهو يشمل العهود و المواثيق الخاصه بين الأفراد فى القضايا الاقتصاديه و المعاشيه،و فى العمل و الزواج،و هو يشمل أيضا المواثيق و المعاهدات بين الحكومات و الشعوب،و فوق ذلك فإنّ العهد يشير إلى ميثاق الأمم مع اللّه و رسوله و كتبه،و كذلك العكس،أى التزام هؤلاء بالعهد أمام الناس (۱) .

سادسا:آخر حكم من الأحكام السته،يتصل بالعدل فى الوزن و الكيل و رعايه حقوق الناس فى ذلك و محاربه التطفيف فى الميزان حيث تقول الآيه

۱- ۱) -بالنسبه لأهميه الوفاء بالعهد و القسم لدينا بحث مفصل حول الموضوع يمكن مراجعته فى بحث الآيات ۹۱-۹۴ من سوره النحل.

الکریمه: وَ أَوْفُوا الْکَیْلَ إِذٰا کِلْتُمْ،وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ الْمُسْتَقِیمِ،ذٰلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً .

***

ملاحظات

اشاره

۱-أضرار التطفیف فی الکیل:

أوّل ملاحظه ینبغی الانتباه إلیها هنا،هی أنّ القرآن الکریم أکـدّ مرارا علی ضـروره الوزن للناس بالقسـطاس،و حذّر من البخس و التطفیف فی المیزان حـتی أنّه اعتبر ذلـک فی موضع،مرادفـا لنظـام الخلق فی عـالم الوجود،حیث نقرأ فی الآیتین(۷،۸)من سوره الرحمن،قوله تعالی: وَ السَّمٰاءَ رَفَعَهٰا وَ وَضَعَ الْمِیزٰانَ، أَلاّٰ تَطْغَوْا فِی الْمِیزٰانِ .و الآیه تشـیر إلی أنّ مسأله بخس الناس و التطفیف فی المیزان لیست مسأله صغیره،بل هی کبیره و تدخل فی صمیم أصول العداله و النظام المهیمن علی عالم الوجود برمته.

فی مکان آخر،و بأسلوب أکثر قوّه،یهدّد القرآن المطففین،بقوله،کما فی سوره المطففین(۱-۴): وَیْلٌ لِلْمُطَفِّفِینَ الَّذِینَ إِذَا اکْتٰالُوا عَلَی النّٰاسِ یَسْتَوْفُونَ، وَ إِذٰا کٰالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ یُخْسِرُونَ، أَ لاٰ یَظُنُّ أُولٰئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِیَوْمٍ عَظِیمٍ .

بعض الأنبیـاء الـذین ورد ذکرهم فی القرآن کانوا یحاربون التطفیف بعـد الشـرک مباشـره،کما حصل لشـعیب مع قومه،و لمّا لم یلتفتوا إلی تعلیمات نبیّهم نالهم العذاب الألیم.(تراجع القصه فی نهایه آیه ۸۵ من سوره آل عمران).

و عـاده،فـإنّ الحق و العـدل و النظـام و الحسـاب،کـل هـذه الأـمور تعتبر أصولاـ أساسـیه للحیـاه،بـل و تـدخل فی نظام الوجود و الخلق،لذلک فابتعاد الناس عن هذا الأصل-خصوصا بالنسبه لبخس الکیل و التطفیف فی المیزان-یؤدی إلی إنزال ضربه شدیده بالثقه التی تعتبر جوهر استقرار التعامل الاقتصادی بین الناس.

ص :۴۷۱

و مع الأسف فإنّنا نرى-فی بعض الأحیان-أنّ غیر المسلمین،و لأغراض کسب الثقه بأنفسهم و تجارتهم،یلتزمون بشکل دقیق بالمواصفات و الأرقام المتفق علیها،بینما یتجاوز بعض المسلمین هذه الحدود! و هذه إشاره علی أنّ طریق الدنیا أیضا یمر من خلال عدم الخیانه و الغش.

و ینبغی أن یلاحظ هنا أنّ هؤلاء الذین یخلّون بالمیزان و یطففون الکیل مسئولون أمام المشتری مسئولیه حقوقیه،لذلک فإنّ توبتهم لا تتم إلاّ برد الحقوق المغصوبه إلی أهلها،و إذا تعذّر علیهم ذلک،فینبغی لهم إعطاء ما یساویها إلی الفقراء و المحتاجین بعنوان رد مظالم عن الأصحاب الحقیقیین.

۲-ما هو حکم التطفیف و بخس الکیل؟

الجدیر بالملاحظه أن حکم التطفیف و بخس الکیل،قد یعمّم بحیث یشمل کل أشکال التقصیر المتعمد فی الأعمال و الوظائف المختلفه،فمن التطفیف من لا ینجز عمله کاملا،و المعلم الذی لا یدرّس بشکل جید،و الموظف الذی لا یلتزم بأوقات عمله و هو غیر حریص علیه.و لکن الألفاظ المستخدمه فی هذه الآیه لا تفید معنی هذا التعمیم،فهی من التوسعه العقلیه إلاّ أنّ قوله تعالی: وَ السَّمٰاءَ رَفَعَهٰا وَ وَضَعَ الْمِیزٰانَ أَلاّٰ تَطْغَوْا فِی الْمِیزٰانِ یشیر إلی هذا التعمیم.

۳-ما هو معنی«قسطاس»؟

«قسطاس»بکسر القاف أو ضمها علی وزن«مقیاس»و أحیانا تقاس علی وزن«قرآن»بمعنی«المیزان»و البعض یعتبرها کلمه رومیه،بینما البعض یری بأنّها کلمه عربیه.و هناک من یقول بأنّها مرکبه من کلمتین هما«قسط»بمعنی العدل و«طاس»بمعنی کفه المیزان.أمّا البعض الآخر فیقول بأنّ کلمه«قسطاس»تطلق

على الميزان الكبير،بينما كلمه«ميزان»تطلق على الموازين الصغيره (1) .

و فى كل الأحوال،فإنّ(القسطاس المستقيم)تعنى الميزان الصحيح و السالم و العادل بدون نقيصه أو زياده.

و الطريف هو أنّ هناك روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام،تفسر هذه الكلمه بقوله:

«هو الميزان الذى له لسان» (2) .

و ذلك لأنّه مع عدم وجود اللسان لا يستطيع الميزان أن يوضح حركه الكفتين بشكل دقيق،أمّا مع وجوده فإنّ أقل حركه للكفتين تنعكس على اللسان،و بهذا الشكل يمكن رعايه العدل كاملا.

1- 1) -تلاحظ تفاسير الميزان،و الفخر الرازى،و مجمع البيان فى تفسير الآيه مورد البحث.

2- 2) -يراجع تفسير الصافى،أثناء تفسير هذه الآيه.

الآیات [سوره الإسراء (١٧): الآیات ٣۶ الی ۴٠]

اشاره

وَ لاٰ تَقْفُ مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ اَلسَّمْعَ وَ اَلْبَصَرَ وَ اَلْفُؤٰادَ کُلُّ أُولٰئِکَ کٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (٣۶) وَ لاٰ تَمْشِ فِی اَلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ اَلْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ اَلْجِبٰالَ طُولاً (٣٧) کُلُّ ذٰلِکَ کٰانَ سَیِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً (٣٨) ذٰلِکَ مِمّٰا أَوْحیٰ إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ اَلْحِکْمَهِ وَ لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتُلْقیٰ فِی جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (٣٩) أَ فَأَصْفٰاکُمْ رَبُّکُمْ بِالْبَنِینَ وَ اِتَّخَذَ مِنَ اَلْمَلاٰئِکَهِ إِنٰاثاً إِنَّکُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِیماً (۴٠)

التّفسیر

اشاره

الانقیاد للعلم:

فی الآیات السابقه وقفنا علی مجموعه من الأصول و الأحکام الإسلامیه التی بدأت بالتوحید بوصفه أساس هذه التعالیم،و انتهت بالأحکام التی تشمل الحیاه الفردیه و الجماعیه للإنسان.

و فی الآیات التی نبحثها الآن نلتقی مع آخر مجموعه من سلسله هذه

الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه الى عدّه احكام مهمّه:

أوّلا:فى البدايه ينبغى للإنسان المسلم أن يلتزم الدقه فى كل الأمور و يجعل العلم رائده وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فى شؤونك الشخصيه و فى القضاوه بين الناس،و فى إعطاء الشهاده،و حتى فى الأعمال الشخصيه ليكن رائدك الدائم هو العلم دون غيره.

و على هذا الأساس يكون مورد الآيه شاملا لمعان واسعه،و لا دليل على ما يذهب إليه بعض المفسّرين من تقييد المعنى ببعض ما ورد أعلاه من الموارد و الذى يؤيد ذلك أن لا تَقْفُ مأخوذه من«قفو»على وزن«عفو»و هى تعنى متابعه شىء ما،و من المعلوم أنّ الأمور التى نتابعها هى أمور لا تقف عند حد، لذلك فإنّ النهى الوارد فى الآيه يشملها جميعا.

بناء على ذلك،يتّضح أنّ(العلم و اليقين)هما أساس المعرفه فى كلّ شىء، و أن لا شىء من«الظن»أو«التخمين»أو«الشك»يسد مسد العلم و اليقين،و من يعتمد على ما دون العلم فإنّه بذلك يخالف القانون الإسلامى الصريح.

و بعباره أخرى:لا الشائعه يمكن أن تكون مقياسا للقضاء و الشهاده و العمل، و لا القرائن الظنيه،و لا الأخبار غير القطعيه المشكوك فى مصادرها.و فى النهايه تعلّل الآيه عدم اتباع ما دون العمل،فتقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولٰئِکَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً .

و السّؤال الذى تواجه به الأعضاء المذكوره يعود إلى مسئولياتها عن الأعمال،إذ السمع مسئول عن الكلام المشكوك غير الموثق،و البصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهده و الرؤيه مع أنّه لم يشاهد أو يرى،و الفؤاد يسأل عن الأفكار الخاطئه التى تدخل فى الأحكام الخاطئه.و إذا كان بعض المفسّرين يرى أنّ المسؤوليه التى تتحدث عنها الآيه تقع على عاتق صاحبها لا عليها-أى الأعضاء-بالذات،إلاّ أنّ هناك الكثير من الآيات تصرّح بأنّ الأعضاء نفسها

تسأل يوم القيامه(مثل الآيه ۲۱ من سوره فصّلت)و تجيب عمّا اقترفت.لذلک لا معنی لتوجيه المسؤوليه فی الآيه من الأعضاء المذکوره إلی صاحبها.

أمّا لما ذا أشارت الآيه-من بين کل حواس الإنسان-إلی السمع و البصر بالذات؟فسبب ذلک واضح،إذ أنّ معظم المعلومات الحسيه للإنسان يکون مصدرها السمع و البصر.

درس فی استقرار النظام الاجتماعی:

الآيه المذکوره آنفا تشير إلی أحد المبادی و الأصول المهمّه فی الحياه الاجتماعيه الذی لو طبّق فی المجتمع البشری بشکل دقيق لأمکن اجتثاث جذور الفساد من الشايعات و الأحکام القضائيه المتسرعه و الظنون العائمه و الأکاذيب و أمثال ذلک،و فی غير هذه الصوره فإنّ حاله من الفوضی ستضرب العلاقات الاجتماعيه،إذ سوف لا يبقی أی شخص بمنأی عن الشک و الريبه،و بمأمن عن سوء الظن و ستنعدم الثقه بين الأفراد.و تکون مکانه الفرد فی المجتمع فی خطر دائم.

لذلک نری الآيات و الأحاديث الإسلاميه تؤکّد بکثره علی هذه الفکره،و بين يدينا الآن ما يلی:

*الآيه(۳۶)من سوره يونس تنتقد بشده الأفراد الذين يتبعون الظن و يجعلونه مقاسا لقناعاتهم وَ مٰا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا،إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً .

*أمّا الآيه(۲۳)من النجم،فإنها اعتبرت الظن فی مرتبه إتباع هوی النفس إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَى الْأَنْفُسُ .

*و

فی حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ: «إنّ من حقيقه الإيمان أن لا يجوز

منطقك علمك» (۱) .

*و

فی حدیث عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام نقل عن آبائه علیهم السّلام،قوله: «لیس لک أن تتکلم بما شئت،لأنّ اللّه عزّ و جلّ یقول: وَ لاٰ تَقْفُ مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ (۲) .

*و

عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إیّاکم و الظن فإنّ الظن أکذب الکذب» (۳) .

*و

فی من لا یحضره الفقیه: «قال رجل للصادق علیه السّلام:إنّ لی جیرانا و لهم جوار یتغنین و یضربن بالعود،فربما دخلت المخرج فأطیل الجلوس استماعا منّی لهن؟ قال له الصادق علیه السّلام:«تاللّه أنت!أما سمعت اللّه یقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤٰادَ کُلُّ أُولٰئِکَ کٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً .فقال الرجل:کأنّی لم أسمع بهذه الآیه من کتاب اللّه عزّ و جلّ من عربی و لا عجمی،و لا جرم أنی قد ترکتها و أنا أستغفر اللّه تعالی» (۴) .

و فی بعض المصادر الحدیثیه نقرأ أنّ الإمام الصادق علیه السّلام أمر الرجل أن ینهض و یغسل غسل التوبه،و أن یصلّی ما استطاع،لأنّه قد ارتکب عملا سیئا لو قبض علیه لکانت مسئولیه عظیمه! من خلال مجموع هذه الآیات و الرّوایات تتّضح مدی المسؤولیه التی تقع علی العین و الأذن،و کیف أنّ الإسلام ینهی عن أن یقول الإنسان ما لم یسمع،أو ما لا یقوم علی العلم،أو یتحدث عن أشیاء لم یرها،إذا العلم وحده هو المیزان دون إتباع الظن و الوهم و الحدس أو الاعتماد علی الشک و الإشاعه،لأنّ سبیل الاعتماد علی هذه المصادر یؤدی إلی آثار خطره علی حیاه الفرد و المجتمع،هذه الآثار یمکن أن نلخصها کما یلی:

۱-إنّ اعتماد ما هو دون العلم،یؤدی إلی هضم حقوق الأفراد و إعطاء الحق

۱- ۱) -وسائل الشیعه،ج ۱۸،ص ۱۶.

۲- ۲) -وسائل الشیعه،ج ۱۸،ص ۱۷.

۳- ۳) -وسائل الشیعه،ج ۱۸،ص ۳۸.

۴- ۴) -نور الثقلین،ج ۳،ص ۱۶۴.

لغیر صاحبه.

۲-الاعتماد علی الظن و ما شابهه یؤدی إلی تعریض کرامه الإنسان المؤمن للخطر،و یقلّل أیضا من حماس و اندفاع المخلصین.

۳-اعتماد ما هو دون العلم،یؤدی إلی انتشار الشائعات.

۴-اعتماد الظن و غیره یقضی علی ملاکات الدقه و البحث و التحقیق عند الإنسان و یجعله ساذجا سریع التصدیق.

۵-إنّ الاعتماد علی غیر العلم ینقض العلائق الودیه الحمیمه القائمه بین الناس فی البیت و السوق و محل العمل،و یجعل بعضهم یسیء الظن بالبعض الآخر.

۶-اعتماد غیر العلم یفسد فی الإنسان قابلیه الاستقلال الفکری و یجعله عرضه للأفکار الفاسده.

۷-إنّ اعتماد غیر العالم یکون قاعده للتعجّل فی انتخاب الأشیاء و الحکم علی الأشخاص ممّا یسبّب الندامه و الفشل فیما بعد.

الأوهام و سبل مکافحتها

السؤال الذی یرد هنا،هو کیف نصون أنفسنا و مجتمعنا من الانجرار إلی هذه العاده الخاطئه(إتباع الظن)ذات العواقب الوخیمه؟ و الجواب علی السؤال یحتاج إلی بحث طویل،و لکنّا لانعدم ثلاث إشارات سریعه هی:

ألف-یجب أن نتبّه الناس إلی العواقب الخطیره لاتباع الظن دون العلم، و نحذّرهم من مغبه النتائج الوخیمه لذلک.

ب-یجب تکریس طریقه التفکیر الإسلامی،و جعلها حیّه فی حیاه الإنسان، هذه الطریقه التی یؤکّد علی أنّ الإنسان مراقب دوما من قبل اللّه تعالی،إذ هو سمیع و بصیر،و خبیر بالنوایا و البواطن،إذا جاء فی الآیه(۱۹)من غافر قوله

تعالی: يَعْلَمُ خٰائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِی الصُّدُورُ .

ج-ينبغی ترشيد المستوی الفكری و الثقافی فی حياه الإنسان المسلم لأنّ إتباع غير العلم هو سمه يختص بها الجهلاء الذين ما إن يستمعوا إلی إشاعه معينه حتی يصدّقوا بها،و يجعلوا منها قاعده للحكم علی القضايا و مقياسا لآرائهم.

ثانيا:الكبر و الغرور:

الآيه التی بعدها تدعو إلی محاربه الكبر و الغرور،و بتعبير واضح و لطيف تنهی المؤمنين عن هاتين الصفتين حيث تخاطب النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بالقول: وَ لاٰ تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً (۱) .لما ذا؟ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبٰالَ طُولاً .و هذه إشاره إلی سلوك المتكبرين و المغرورين الذی يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكی يلتفت الناس إليهم،و يرفعون رؤوسهم فی السماء علامه علی أفضليتهم المزعومه بين الناس،لهؤلاء تقول الآيه: إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبٰالَ طُولاً . إذ مثل هؤلاء كالنمله التی تمشی علی صخره كبيره و تضرب برجلها عليها،إلاّ أن الصخره تسخر من حماقتها.ثمّ أنت أيّها المتكبر هل تستطيع -مهما رفعت رأسك فی السماء-أن تكون مثل الجبال علوا،إنّك مهما تفعل لا ترتفع سوی سنتيمترات قليله،و حتی هذه الجبال لن تكون شيئا إزاء الكره الأرضيه،و الكره الأرضيه تعتبر ذرّه سابحه فی عالم الوجود! إذن فما هذا الكبر و الغرور الموجود عندك أيّها الإنسان؟! الظريف فی الأمر،أنّ القرآن لم يبحث مباشره هذه الصفات الداخليه الخطره فی تركيب الإنسان و وجوده(أی التكبر و الغرور)و إنّما أشار إليها من خلال آثارها و الظواهر السلوكيه التی تنتج عنها،حيث تحدّث القرآن عن مشيه المتكبر

ص: ۴۷۹

۱- ۱) -«مرح»علی وزن فرح،و هی تعنی الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

و المغرور،و هـذه إشـاره إلى أنّ التكبر و الغرور،حتى فى أهون الصور و أقـل الحالاـت،يعتبر مـذموما مخجلاـ مهما كانت آثاره جزئيه و صغيره.

و فى الآيه-أيضا-إشاره إلى أنّ الصـفات الداخليه-الباطنيه-للإنسان تظهر -شاء أم أبى-من خلال الأعمال و التصرفات،من خلال المشـى مثلا،أو النظر أو الكلام و أمثال ذلک.لهـذا السـبب ينبغى علينا إذا ما واجهتنا أدنى ظاهره أو أثر لهذه الصـفات،أن نعرف أنّ الخطر أصبح قريبا،و أنّ هذه الصفه المذمومه(التكبر و الغرور)قد عششت فى روحنا و يجب علينا مجاهدتها فورا.

و يمكن أن نفهم من خلاـل هـذه الآـيه،و مـا ذكر فى القرآن الكريم(و من خلاـل سوره لقمان و سور أخرى)أنّ التكبر و الغرور مرفوضـان بشـكل عام.لماذا؟لأنّ الغرور هو مصـدر الغربه عن اللّه و عن النفس السـليمه،و هو سـبب الخطأ فى الحكم و القضاء،و سبيل ضياع الحق و الارتباط بخط الشيطان و التلوث بأنواع الذنوب.

فالإمام على عليه السّلام يقول فى صفات المتقين فى حديثه إلى«همام»:

«و مشيهم التواضع» (۱) . و المقصود بالمشى هنا ليس التجوال فى السوق و الشارع،و إنّما هى كنايه عن أسلوب المشى و التعامل فى جميع الأمور الحياتيه،بما فى ذلک خطوطهم الفكريه إذ هم متواضعون فى تفكيرهم.

البرنامج الحياتى العملى لقاده الإسلام يعتبر درسا مفيدا لكل مسلم حقيقى فى هذا المجال.ففى سيره الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نرى أنّه لم يكن يسمح لأحد أن يمشى بين يديه و هو راكب،بل كان يقول:اذهب أنت إلى المكان الفلانى و أنا سآتيک إلى نفس المكان،حيث أنّ المشى بين يدى الراكب يؤدى إلى غرور الراكب و ذله الماشى.

و نقرأ-أيضا-أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يجلس على التراب تواضعا،و يأكل

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه(۱۹۳).

الطعام كما يأكله العبيد،و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يحلب الماعز بنفسه،و يركب الدابه دون غطاء.

و قد كان الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يلتزم هذا السلوك فى كل مواقفه حتى عند فتح مكّه،حتى لا يفكر الناس بأنّهم إذا وصلوا إلى منصب مهم،أو أحرزوا إنجازا ما،فإنّ ذلك مدعاه لهم بأن يصابوا بالتكبر و الغرور و يكونوا بالتالى بعيدين و غرباء عن الناس و المستضعفين.

و فى سيره الإمام على عليه السّلام،نقرأ أنّه كان يجلب الماء إلى البيت،و فى بعض الأحيان كان ينظّف البيت.

أمّا فى سيره الإمام الحسن عليه السّلام،فنقرأ أنّه عليه السّلام،حجّ إلى بيت اللّه عشرين مرّه مشيا على الأقدام،و النجائب(المحامل و الدواب)تقاد بين يديه،و كان عليه السّلام يبيّن أن هذا العمل تواضع للّه تعالى (1) .

أمّا الآيه التى بعدها فهى تؤكّد على ما تمّ تحريمه فى الآيات السابقه كالشرك و قتل النفس و الزنا و قتل الأولاد و التصرف فى مال اليتيم و إيذاء الوالدين و ما شابه ذلك،حيث تقول الآيه: كُلُّ ذٰلِكَ كٰانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (2) .

و من هذا التعبير يتّضح أنّ اللّه سبحانه و تعالى ليس فقط لا يجبر الإنسان على الذنب،و إنّما لا يريد له(بمعنى لا يرغب و لا يوّد)أن يرتكب الذنب أيضا، و إلاّ لو كان الأمر كما يقول أصحاب مذهب الجبر،لما أكّد اللّه سبحانه و تعالى على كراهيه هذه الذنوب.

و يتّضح من التعبير-أيضا-أنّ القرآن استخدم كلمه«مكروه»اتجاه أعظم الذنوب و أكبرها.

ص:481

1- 1) -لقد تحدّثنا عن التكبر و الغرور و آثارهما السيئه فى المجلد الرّابع فى تفسير الأمثل لدى تفسير الآيه 12 من سوره الأعراف.

2- 2) -ضمير«سيئه»يعود على«ذلك»أو«كل»و سبب كونه مفردا لأنّ كلا من هاتين الكلمتين مفردتين بالرغم من أنّهما تعطيان معنى الجمع.

ثالثا:لا تكن مشركا:

من أجـل التأكيـد أكثر على أنّ كـل هـذه التعليمات إنّما تصـدر من الوحى و تتسم بالحكمه،تقول الآيه: ذَلِكَ مِمَّا أَوْحىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَهِ .

إنّ اسـتخدام كلمه«الحكمه»هى إشـاره إلى أنّ هـذه التعـاليم و النواهى برغم كونهـا وحيـا سـماويا إلهيـا،إلّا أنّها فى نفس الوقت يمكن إدراكها بميزان العقل.

و إلاّ فمن يسـتطيع أن ينكر-عقلا-قبـاحه الشـرك أو القتـل أو إيـذاء الوالـدين أو قبـح الزنـا و التكبر و الغرور،و ظلم اليتـامى و العواقب السـيئه لنقض العهود و مـا إلى ذلـك؟ بتعبير آخر،إنّ هـذه التعاليم ثابته عن طريق العقل كما هى ثابته عن طريق الوحى الإلـهى.و عـاده مـا تكون جميع الأحكـام الإلـهيه على هـذه الشـاكله،بـالرغم من أنّ الإنسـان لا يسـتطيع فى كثير من الأحيان أن يشـخص انسـجام جزئيـات الأحكام الإلهيه مع العقل بحكم عـدم كماله،و يبقى بعـد ذلك الوحى هو المجال الوحيـد لمصـداقيه دركها و الإيمان بها.

بعض المفسّرين استفادوا من كلمه«حكمه»على أسـاس أنّ الأحكام المتعـدّده فى الآيات السابقه تعتبر من الأحكام الثابته التى لا تقبل النسخ فى جميع الأديان السماويه،إذ لا يمكن-فى أى شريعه إلهيه-اعتبار الشرك و قتل النفس و الزنا و نقض العهود أمورا جائزه.لذلك فإنّ هذه الأحكام تعتبر من المحكمات و القوانين الثابته.

بعـد ذلك ينتهى الحديث عن مجموع هذه الأحكام بنفس البدايه التى انطلق منها،حيث يقول تعالى: وَ لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ .لما ذا؟لأنّ المصير سيكون فَتُلْقىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً .

و فى الحقيقه:إنّ الشـرك هـو أسـاس جميع الانحرافـات و الجرائم و الـذنوب، لـذلك فـإنّ هـذه المجموعه من الأحكـام بـدأت بالشرك و انتهت به.

ص:۴۸۲

بنات اللّه!!

آخر آيه-من الآيـات التى نبحثهـا-تشير إلى واحـده من الأفكار الخرافيه للمشركين،إذ الكثير منهم كان يعتقـد بأنّ الملائكه هم بنـات اللّه،فى حين أنّهم كـانوا يعتبرون البنت عـارا و شـنارا،و ولادتهـا فى بيت يؤدى إلى سوء الحظ.القرآن يسـاير هـذا المنطق فيقول لهم: أَ فَأَصْفٰاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلاٰئِكَهِ إِنٰاثاً .

إنّ البنات-بـدون شك-كالبنين،هم عطايا الإله و مواهبه،و لا يوجد أى تفاوت بينهم فى القيمه الإنسانيه.و عاده لا يمكن الحفاظ على الأصـل البشـرى من دونهما معا،لـذلك فإن تحقير البنات تعتبر عاده جاهليه كانت تعيشـها تلك المجتمعات،كما أشـرنا إلى ذلك سابقا (۱) .و لكن هـدف القرآن هو مقـابلهم بمنطقهم فيقول لهم:كيف تنسـبون لربّكم ما تحسـبوه عارا لكم؟! بعـد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً إذ هذا الكلام لا يتلاءم مع أى منطق و يعتبر ضعيفا من عدّه جهات،هى:

۱-إنّ الإعتقـاد بوجـود ابـن للّـه يعتـبر إهـانه عظيمه لمحضـره المقـدّس،لأنّه سـبحانه و تعـالى ليس بجسم،و ليست فيه الصـفات الجسمانيه،و لا يحتاج فى بقائه إلى النسل.لذا فالاعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم المعرفه بالصفات الإلهيه.

۲-كيف تعتقـدون بـأنّ أولاـد اللّه كلّهم بنات،فى حين أنّكم ترون البنات أدنى مكانه و احتراما من الأولاد؟هـذا الإعتقاد السـفيه يعتبر إهانه أخرى ألى مقام اللّه تبارك و تعالى.

۳-هـذا الإعتقـاد يعتـبر إهـانه لمقـام ملائكه اللّـه الـذين يعتـبرون مـن المقربيـن للعرش،فأنتم تصـابون بـالرعب بمجرّد سـماع كلمه«بنت»،فى حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثا؟!

۱- ۱) -انظر تفسير الآيتين ۵۸ و ۵۹ من سوره النحل فى هذا التّفسير.

من الالتفات إلى هـذه الأمور يتّضـح أنّ هـذا الكلام يعتبر انحرافا عظيما و كبيرا..إنّه كبير من حيث الانحراف عن الحقائق و كبير من حيث استحقاق صاحبه العقاب العظيم،و هو أيضا كبير قياسا لأعراف أهل الجاهليه و عاداتهم، هـذه العادات التى كانت تقوم على أساس تحقير البنات.

أمّا لما ذا يعتبر مشركو العرب الملائكه إناثا؟و لما ذا كان عرب الجاهليه يئدون البنات أحياء و يفزعون من مجرّد ذكرهن؟..ثمّ دور الإسلام فى إعاده بناء موقع المرأه داخل مجتمعهم،كل هـذه الأمور بحثناها مفصلا أثناء الحديث عن الآيات(۵۷-۵۹)من سوره النحل.و ننصح هنا بالعوده لها مجددا.نهايه المجلد الثّامن

ص :۴۸۴

ص :

ص :

ص :

ص :

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامی عام ١۴٢۶ الهجری فی المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فی الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فی العلوم الإسلامية وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان إلی التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثين فی العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهی منظمة فی برامج إلكترونية وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلی أساس خطة تنوی تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبیّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فی الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب علی تقديم آثارهم لتنظيمها فی ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن یتحمل المؤلف مسؤولیة العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الکتب والملزمات والدوریات

إقامة المسابقات فی مطالعة الکتب

إقامة المعارض الالکترونیة: المعارض الثلاثیة الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمکنة الدینیة والسیاحیة

إنتاج الأفلام الکرتونیة والألعاب الکمبیوتریة

افتتاح موقع القائمیة الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافیة وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدینیة والأخلاقیة والاعتقادیة والردّ علیها

تصمیم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ویب کیوسک kiosk، الرسالة القصیرة ((sms

إقامة الدورات التعلیمیة الالکترونیة لعموم الناس

إقامة الدورات الالکترونیة لتدریب المعلمین

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبیقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ویمکن تحمیلها علی ۸ أنظمة؛

JAVA.۱

ANDROID.۲

EPUB.۳

CHM.۴

PDF.۵

HTML.۶

CHM.۷

GHB.۸

إعداد ۴ الأسواق الإلکترونیة للکتاب علی موقع القائمیة ویمکن تحمیلها علی الأنظمة التالیة

ANDROID.۱

IOS.۲

WINDOWS PHONE.۳

WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربیة والانجلیزیة والفارسیة

الکلمة الأخیرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.